الأوضاع الحضارية في إقليم الجزيرة الفراتية

في القرنين السادس والسابع للهجرة
الثاني عشر والثالث عشر للميلاد

تأليف

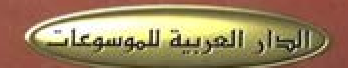
عبدالله بن ناصر بن سليمان الحارثي

تحقيق

د. سعيد عبد الفتاح عاشور

تقديم

د. مصطفى عبدالقادر النجار





الأوضاع الحضارية
في إقليم الجزيرة الفراتية

في القرنين السادس والسابع للهجرة
الثاني عشر والثالث عشر للميلاد

الأوضاع الحضارية
في إقليم الجزيرة الفراتية

في القرنين السادس والسابع للهجرة
الثاني عشر والثالث عشر للميلاد

تأليف

عبدالله بن ناصر بن سليمان الحارثي

تحقيق

د. سعيد عبد الفتاح عاشور

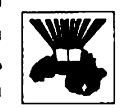
تقديم البروفيسور

د. مصطفى عبدالقادر النجار

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٧م - ١٤٢٧هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - ص.ب: ٥١١ - هاتف: ٩٥٢٥٩٤/٠٠٩٦١٥ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢/٠٠٩٦١٥

هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣/٠٠٩٦١٣ - ٥٢٥٠٦٦/٠٠٩٦١٣ - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com

البريد الإلكتروني: E-mail: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

تقديم

البروفيسور د. مصطفى عبد القادر النجار

المستشار الأكاديمي بمكتب مستشار جلالة السلطان للشؤون الثقافية

يشرفني أن أقدم للقارئ الكريم كتاب الأوضاع الحضارية في اقليم الجزيرة الفراتية في القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد وهو رسالة دكتوراه للباحث عبدالله بن ناصر بن سليمان الحارثي نالها من جامعة القاهرة عام ١٩٩٧م. وفي تقديري وأنا أميناً عامًّا لاتحاد المؤرخين العرب سابقاً انها أول رسالة علمية تناقش هذا الموضوع بأسلوب أكاديمي متميّز وطريقة علمية فذة. فقد تناول المؤلف الأوضاع السياسية في إقليم الجزيرة الفراتية ونشاطها الاقتصادي والثقافي وتناول أوضاعها الاجتماعية بشمولية يستحق عليها التقدير العالي. ذلك أنه سلّط الضوء على مكنونات ذلك الإقليم الذي قلّما تناولته أقلام الباحثين على الرغم من أهميته ومكانته العربية والإسلامية. وقد امتاز المؤلف بقدراته الخلّاقة على المقارنة والاستنتاج واعطاء الرأي التاريخي بروح علمية بعيدة عن التحيّز والاندفاع. فأبدع وأجاد وفسّر الأحداث على الرغم من تعقيداتها تفسيراً ينسجم مع الرؤيا العلمية لكتابة التاريخ. فهو مؤرخ مرموق بحق وباحث علمي يستحق التقدير. ويعتبر كتابه اضافة نوعية للتاريخ العربي الإسلامي.

وإني أدعو من خلال هذا التقديم إلى أن يقر تدريس هذا الكتاب في الجامعات العربية، للمستوى العلمي الرفيع الذي وصل إليه. واني أبارك للدكتور عبدالله بن ناصر بن سليمان الحارثي الأستاذ المساعد في كلية الآداب

والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس هذا العمل العلمي الرائع. وأشدّ على يده أن يمد المكتبة التاريخية العربية الإسلامية بعطائه المستمر وإثراء الدراسات التاريخية بقلمه المبدع. فحياه الله ووفقه وحفظه ذخراً للمؤرخين.

مصطفى عبد القادر النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الأوضاع الحضارية في إقليم الجزيرة الفراتية في القرنين السادس والسابع للهجرة الثاني عشر والثالث عشر للميلاد.

موضوع الدراسة وأهميتها:

نقصد بإقليم الجزيرة الفراتية تلك الأراضي الواقعة حالياً في الأجزاء الجنوبية الشرقية من تركيا والتي تشمل ديار بكر والجزء الشرقي من سوريا، وتعرف بأرض الجزيرة (الحسكة ودير الزور)، والجزء الشمالي من العراق ويعرف بمنطقة الحكم الذاتي لمنطقة كردستان العراق. وقد سميَ هذا الإقليم بالجزيرة الفراتية لوقوعه بين نهري دجلة والفرات. وقد وصف ياقوت الحموي في معجم البلدان هذا الإقليم فقال: إنه يشتمل على ديار مضر وديار بكر.

وقد سميت بالجزيرة؛ لأنها بين دجلة والفرات. وهي صحيحة الهواء، وفيرة الماء، واسعة الخيرات، وبها مدن جليلة، وحصون وقلاع كثيرة. ومن أمهات مدنها: حران، والرها، والرقة، ورأس عين، ونصيبين، وسنجار، والخابور، وماردين، وآمد، وميافارقين، والموصل وغير ذلك.

ونظراً لثورة هذا الإقليم الطبيعية - فضلا عن اعتدال مناخه - ازدهر النشاط الحضاري فيه منذ أقدم العصور. يضاف إلى ذلك: الموقع الفريد الفذ

لهذا الإقليم بين هضبة إيران وأقاليم أسيا الوسطى من ناحية، وبين بلاد الشام وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى. مما جعله معبر العديد من الهجرات والغزوات التي خرجت من جوف القارة الأسيوية. هذا فضلاً عن وقوعه على طريق التجارة البري العالمي بين الشرق والغرب من ناحية أخرى.

ونتيجة لهذه العوامل مجتمعةً حفل هذا الإقليم في الفترة التي حددناها للدراسة والتي تشمل القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) بعديد من الأجناس والديانات والمذاهب.

فبالإضافة إلى القبائل العربية التي نزحت إليه قبل الإسلام وفي ظله: استقرت على أرضه أعداد كبيرة من الأرمن الذين أسسوا لهم عدة إمارات أشهرها إمارة الرها. كذلك عاشت على أرضه أعداد لا بأس بها من السريان، كما نزحت إليه بعض قبائل الأكراد والتركمان والأتراك حتى غلب عليه النفوذ السلجوقي، فبسط سلاطين السلاجقة منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) نفوذهم على معظم أراضيه وأقاموا أعداداً من الأتابكيات، أهمها أتابكية الموصل.

وبالإضافة إلى المسلمين وجدت أعداد من اليهود والسريان النساطرة وغيرهم من الطوائف المسيحية وغير المسيحية.

وفي أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) شهدت منطقة الشرق الأدنى وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق مما يعتبر بداية مرحلة هامة خطيرة في تاريخ تلك المنطقة.

ويعنينا في هذا المقام أن الصليبيين ما كادوا يصلون إلى الأطراف الشرقية من آسيا الصغرى حتى تطلعوا إلى إقليم الجزيرة الفراتية، فاتجهت شعبة من الحملة الصليبية الأولى إلى هناك، ونجح الصليبيون في إقامة أول إمارة لهم في الشرق، وذلك في مدينة الرها سنة (٤٩٤هـ / ١٠٩٨م).

وهكذا غدا هذا الإقليم مسرحاً هاماً من مسارح الحروب الصليبية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وبالإضافة إلى نشاط أمراء الرها الصليبيين في مواجهة معاقل المسلمين، دأب هؤلاء الأمراء في تقديم المعونة لإخوانهم الصليبيين في الشام، بل وجد من أمراء الصليبيين من اعتلى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية في مستهل القرن السادس الهجري، (الثاني عشر الميلادي). ومن ناحية أخرى تصدى السلاجقة- وبخاصة أتابكة الموصل - للصليبيين في إقليم الجزيرة الفراتية مما أوقع ذلك الإقليم في حروب طاحنة، تهدأ حيناً، وتثور أحياناً.

وهنا نجد المؤرخين - المعاصرين واللاحقين - يوجهون أنظارهم إلى هذه الأحداث السياسية والحربية التي حلت بإقليم الجزيرة الفراتية في القرنين السادس والسابع للهجرة مما صرفهم عن النشاط الحضاري الذي شهده ذلك الإقليم في تلك الحقبة.

والواقع أن إقليم الجزيرة الفراتية شهد في القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) شهد نشاطاً حضارياً واسعاً، واستمر ذلك حتى كان غزو التتار لهذا الإقليم قرابة منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر للميلاد. وقد تعددت أوجه ذلك النشاط في الجوانب الأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، فضلاً عن الفنون، مما يستحق لفت الباحثين.

هدف الدراسة:

يتضح من العرض السابق أن هدف الدراسة هو الكشف عن جانب شبه مجهول من جوانب التاريخ المشرق لهذه المنطقة في فترة محددة من تاريخ العصور الوسطى.

فلا يكفي أن نقول: إن التتار في أواسط القرن السابع الهجري - الثالث عشر للميلاد - حطموا حضارة الموصل وأحرقوا ميافارقين وخربوا آمد، وإنما لا بد من أن نقف على الأحوال الحضارية لهذه البلاد عندما قدم إليها التتار، ولندرك فداحة الخسارة التي حلت بالحضارة الإسلامية على أيديهم، ونقارن

بين صورة إقليم الجزيرة الفراتية قبل غزو التتار وبعد ذلك الغزو.

ومن ناحية أخرى ندرك أيضاً كيف فرّ العديد من العلماء والفنانين من وجه التتار من إقليم الجزيرة الفراتية واتجوا غرباً إلى بلاد الشام ومصر مما أسهم في النهضة الحضارية العظيمة التي شهدتها مصر والشام في عصر سلاطين المماليك.

صعوبات البحث:

تتمثل الصعوبة الكبرى في هذا البحث في أن الفترة التي اخترناها لتكون إطاراً لدراسة الموضوع - وهي الفترة التي تشمل القرنين السادس والسابع للهجرة - الثاني عشر والثالث عشر للميلاد - كانت بالنسبة لإقليم الجزيرة الفراتية عصر نشاط حربي وسياسي واسع النطاق، الأمر الذي استأثر بجهود العلماء المعاصرين، فأغفلوا ذكر النشاط الحضاري، أو على الأقل لم يعطوه حقه من العناية.

ولا شك في أن هذا الأمر يجعل مهمة البحث صعبة، لأنه شتان بين أن يعالج باحثٌ حروبَ عماد الدين زنكي التي حفلت بها المصادر والحوليات، وبين أن ينقب في المصادر ليقف على مدى عناية زنكي بإنشاء مؤسسة: مدرسة، أو بيمارستان، أو خان، أو رعاية زنكي لعالم مرموق أو فنان موهوب.

منهج البحث:

يتطلب منهج البحث في هذا الموضوع استيعاب كافة المصادر المعاصرة وبخاصة كتب التاريخ والطبقات والتراجم، فضلاً عن الموسوعات الأدبية وكتب المكتبة الجغرافية العربية.

وقد وضعنا في اعتبارنا أن بعض العلماء المعاصرين لهذه الفترة لهم ميولهم التي قد لا يتمكنون من إخفائها، فالمؤرخ الكبير ابن الأثير مثلاً كان متحمساً للبيت الأتابكي بالموصل - عماد الدين زنكي وذريته - لأن ابن الأثير

ربيب هذا البيت، مما جعله في بعض الحالات يبالغ في إضفاء المديح على هذه السلسلة من الأتابكة وكذلك يبالغ في ذم - أو نقد - خصوم ذلك البيت؛ ولذا فإن منهج البحث يتطلب من الباحث اليقظة ومعرفة ميول المؤلف واتجاهاته للحكم على المادة العلمية المستقاة من مؤلفاته. هذا فضلاً عن المقارنة بين ما جاء في شتى المصادر للوصول إلى الحقائق سليمة كاملة غير مبتورة.

دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع

تتميز مصادر الدراسة في غالبيتها بأنها مصادر معاصرة لفترة الدراسة، وليس هذا فحسب، بل إنّ مؤلفيها من أبناء الجزيرة الفراتية ممن كانوا يعيشون في فترة الدراسة، وإن كان بعضهم ليس من أبنائه الأصليين فهم ممن قدموا إليه وكانوا شاهدي عيانٍ لبعضٍ أحداثه.

ويأتي في مقدّمة تلك المصادر كتاب التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل. وتكمن أهميته في أنّ مصنّفه عزّ الدين بن الأثير من أبناء الإقليم وكان معاصراً لبعض أحداثه التي دوّنها بنفسه. والأحداث التي سبقته نجده ينقلها شفاهة عن والده الذي كان أحد العاملين في البيت الزنكي في جزيرة ابن عمر في الموصل، أما في الأحداث السابقة لوالده فنراه يستقيها من مصادر قريبة العهد منه، ومؤلفوها من أبناء الإقليم، وكانوا معاصرين لتلك الأحداث، ومن هؤلاء ابن الأزرق الفارقي مصنف تاريخ آمد وميافارقين وغير ذلك من المصنفات.

ولكون الكتاب قد تناول فيه مؤلفه تاريخ البيت الزنكي بصفة عامة وأتابكية الموصل بصفة خاصة، فقد استفدنا منه كثيراً وخاصّة في الحديث عن ظهور البيت الزنكي ودوره على مسرح الأحداث وتأسيس عماد الدين زنكي أتابكيّته الزنكية في الموصل، ثم لتوسعه على حساب جيرانه في إقليم الجزيرة الفراتية من أراتقة وأكراد وعرب، ثم استيلائه على بعض مدن بلاد الشام،

كحلب وحمص وغيرها، ثم لجهاده البطولي ضدّ الصليبيين، والذي توّج بفتح الرّها، إلى أن قتل خلال حصاره لقلعة جعبز بغية الاستيلاء عليها.

ثم يتحدث الكتاب عن انقسام أتابكيته - أعني أتابكية عماد الدين - من بعده إلى أتابكيتين: إحداهما ببلاد الشام، وقاعدتها حلب، وكانت من نصيب ابنه نور الدين محمود، ومن بعده ابنه إسماعيل.

ثم يخصص دراسته عن أتابكية الموصل وما يتبعها من إقليم الجزيرة الفراتية، وكانت من نصيب ابنه سيف الدين غازي الأول، ثم لابنه الثالث قطب الدين مودود حيث انحسرت في عقبه، فتتبعهم حتى عهد الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه (٦٠٧-٦١٥هـ / ١٢١٠-١٢٢٨م) الذي في عهده بدأ نور الدين لؤلؤ - مملوك والده - يستبدّ بأمور هذه الأتابيكة، وإن كان ابن الأثير لم ير إلى ذلك.

ثم يأتي بعده كتاب الكامل في التاريخ، وهو لابن الأثير أيضاً، فيذكر فيه أحوال البيت الزنكي وعلاقته بالقوى الأخرى مما لم يرد ذكره في الكتاب السابق، أعني كتابه التاريخ الباهر.

وقد استفدت من هذا الكتاب كثيراً؛ إذ إنه يعدّ أهم وأشمل وأدقّ مصدر تاريخي معاصر لفترة الدراسة، خاصّة في الجوانب السياسية والعسكرية، وكذلك بداية ونهاية حكم كل خليفة عباسي، أو سلطان سلجوقي، أو ملك ارتقي، أو زنكي، أو أيوبي، وكذلك عن وفيات بعض العلماء والأعيان الذين تطرقنا إلى ذكرهم في دراستنا، وذلك حتى عام (٦٢٨هـ) وهو التاريخ الذي توقّف عنده ابن الأثير.

ومن هذه المصادر المعاصرة والهامة - التي رجعنا إليها في الجوانب العسكرية والسياسية وعن علاقة القوى المتصارعة في المنطقة، مثل السلاجقة الزنكيين والأراتقة والصليبيين، ثم الأيوبيين - كتاب «تاريخ دولة آل سلجوق» للعماد الأصفهاني اختصار الفتح بن علي البنداري، وكتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي، وكتاب «زبدة الحلب من تاريخ حلب» لابن العديم، وكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، المعروف بسيرة صلاح الدين الأيوبي

لابن شداد الموصلي، وكتاب «عيون الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية «لأبي شامة المقدسي، وكتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» لابن واصل، وكتاب «تاريخ مختصر الدول «لابن العبري، خصوصاً في تاريخ وأحوال النصارى في إقليم الجزيرة الفراتية، وكذلك كتاب «ذيل مرآة الزمان» لليونيني.

ومن المصادر المتممة لهذه المراجع كتاب «المختصر في أخبار البشر» المعروف بتاريخ أبي الفداء، وكذلك كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر «المعروف اختصارا بتاريخ ابن خلدون.

أمّا بالنسبة لأوضاع إقليم الجزيرة الفراتية من الناحية الجغرافية والاقتصادية فقد خدمتنا المصادر الجغرافية الإسلامية خدمة جليلة في هذا الشأن. ويأتي في مقدمة هذه المصادر «معجم البلدان» لياقوت الحموي. وقد رجعنا إلى هذا المصدر في كل ما يختص بالجغرافية والمدن؛ وذلك لكون مصنفه معاصراً لفترة الدراسة، وقد زار إقليم الجزيرة، بل وأتم معجمَه هذا بالموصل.

ومن هذه المصادر أيضاً كتاب «رحلة ابن جبير» . ويعد ابن جبير شاهد عيانٍ في هذه الفترة، وقد تطرّق أيضاً للأوضاع السياسية والاجتماعية. ومنها كتاب «آثار البلاد وأخبار العباد» للقزويني، وهو من الكتب المعاصرة المهمة، وقد أمدّنا بمعلومات كثيرة في الناحية الاقتصادية، كالموارد الطبيعية - مائية أو معدنية - والنشاط الزراعي والتجاري.

وأما المصادر القديمة - كالمسالك والممالك للإصطخري، وكتاب صورة الأرض لابن حوقل، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي وتقويم البلدان لأبي الفداء والذي جاء خاتمة لهذه الكتب الجغرافية الرائدة - فقد أفادتنا جميعاً عن موقع الإقليم - أعني إقليم الجزيرة الفراتية - من حيث التحديد الجغرافي له، وعن أنهاره وطرق مواصلاته وفئات سكانه، وعن وصف مدنه وقراه، وما بها من محاصيل زراعية وثروات معدنية وحيوانية، وكذلك عن نشاط أهلها التجاري والصناعي، وعن فن العمارة فيها.

وأخيراً، كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ، وهو كتابٌ صغير في حجمه كبيرٌ في فوائده؛ حيث أمدّنا بمعلومات قيمة عن النشاط الاقتصادي، خاصة عن أسلوب صيد الأسماك من أنهار الجزيرة الفراتية، وعن الحياة الاجتماعية، كممارسة هواية صيد الحيوانات المتوحشة والطيور البرية.

وأمّا كتب التراجم والطبقات فقد خدمتنا كثيراً عند حديثنا عن النشاط الثقافي، والحياة العلمية والدينية، فقد أمدّتنا بمعلومات قيمة عن علماء إقليم الجزيرة الفراتية، وأهم مؤلفاتهم، وعن حياة المدرسين وطلاب العلم، وما يتعلّق بالمدارس والربط والخانقاوات.

ويأتي كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان وكتاب تاريخ إربل المسمى «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل» لابن المستوفي: على قائمة المصادر؛ وذلك لأنّ مؤلفيهما من أبناء إقليم الجزيرة الفراتية، وكانا معاصرين لفترة الدراسة، . وقد لعب ابن خلكان وابن المستوفي دوراً هاماً في الحياة العلمية والسياسية؛ فابن خلكان كان قاضي القضاة في بلاد الشام ومصر، وكان على اتصالٍ بمجريات الأحداث، وعلى علم ومعرفة بأبناء الإقليم.

وأمّا ابن المستوفي فكان متولياً وظيفة المستوفي بأتابكية إربل؛ ومن ثم جاءت معلوماتهما أشبه بالوثيقة الرسمية.

ثم جاءت الكتب الأخرى مكمّلة لما لم يتطرقا إليه، أو لما بعدهما زمنيا، ككتاب «العبر في خبر من غبر «للذهبي، و«معجم الأدباء» لياقوت الحموي، وكتاب «فوات الوفيات» والذيل عليها للكتبي، وكتاب «غاية النهاية في طبقات القراء «للجزري، وكتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي، وكتاب «الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، وكتاب «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة «لابن الفوطي، وكتاب «الذيل على الروضتين» لأبي شامة. وهذا الكتاب تراجم لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين. وأخيراً كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي، وقد استفدنا منه كثيراً من المعلومات عن علماء

المذهب الحنبلي الذين هم من أبناء إقليم الجزيرة الفراتية.

وأمّا المعاجم اللغوية، فكان للسان العرب لابن منظور ومختار الصّحاح للرازي - فضلٌ كبيرٌ في التعريف ببعض المصطلحات والاشتقاقات اللغوية؛ فكانا - بحق - أهم مرجعين رجعت إليهما في هذا المجال.

كذلك كان لمقدّمة ابن خلدون دورٌ بارز في التعريف ببعض العلوم والمصطلحات والحرَف المهنية.

أما المراجع الحديثة، فتأتي دراسات سعيد الديوه جي - وهي «تاريخ الموصل، والموصل في العهد الأتابكي، والصناع المواصلة - في مقدمة الدراسات الحديثة؛ إذ قد استفاد كثيراً من طبيعة عمله لمتحف الموصل؛ وذلك لوجود كثير من التحف المعدنية - النحاسية والفخارية - التي تم صنعها أثناء فترة الدراسة.

وتتضمن أيضاً - دراسات الديوه جي - نتائج الدراسات الأثرية التي تناولت الفنون المعمارية والصناعية، وقد استفدنا منها كثيراً خاصة عند دراسة الصناعة والفنون في إقليم الجزيرة الفراتية.

وقد أفدنا أيضاً من كتاب «تاريخ الموصل» للقسّ سليمان صائغ عن شعراء وأدباء اللغة الآرامية الذين لم تتطرّق إليهم المصادر الإسلامية.

وكذلك فإننا قد استفدنا من كتاب «تاريخ الحروب الصليبية» لـ (رنسيمان) ترجمة السيد الباز العريني، وكتاب «حركة الحروب الصليبية» لأستاذنا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ويبين لنا هذا الكتاب وجهتي النظر الإسلامية العربية والمسيحية الغربية حول الحروب الصليبية.

وهناك كتاب آخر لأستاذنا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، كان له الفضل الكبير في توجيهنا نحو المواضيع التي تطرّقنا إليها في الحياة الاجتماعية في إقليم الجزيرة الفراتية، وهو كتاب «بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته».

وأخيراً فإننا لا ننكر فضل الدراسات والرسائل العلمية والبحوث الأكاديمية التي قام بها عددٌ كبيرٌ من الأساتذة والباحثين من الجامعات العراقية

وغيرها، والتي تناولت تاريخ العراق وحضارته بصفة عامة وإقليم الجزيرة الفراتية بصفة خاصة، والتي استفدنا منها كثيراً في جوانب متعددة من دراستنا هذه.

الباحث/ عبد الله بن ناصر الحارثي

الفصل الأول

الأوضاع السياسية في إقليم الجزيرة الفراتية

خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

(الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)

الفصل الأول

الأوضاع السياسية في إقليم الجزيرة الفراتية في القرنيين

السادس والسابع الهجريين، الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

انكماش نفوذ الخلفاء العباسيين، وهيمنة السلاطين السلاجقة:

وصل السلاجقة إلى الحكم في العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر المبلادي)، ووضعوا أيديهم على مقاليد الأمور في عاصمة الخلافة العباسية، وذلك بدخول السلطان السلجوقي طغرلبك بغداد عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣١-١٠٧٥م)، وخطب له في سائر البلاد الخاضعة لنفوذ الخلافة العباسية[١].

---

(١) استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام، الدار العالمية: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ص (١٤٠).

الزهراني: نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية، مؤسسة الرسالة ببيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ص (١٠٨، ١٠٧)، (١٦٢ - ١٦٨).

حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (٤:٣٠٦ - ٣٠٩). - مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٢. حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٠ ص (٣٩ - ٤٠).

فوزي: تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الإسلامية (٣٣١).

حسنين عبد المنعم: إيران والعراق في العصر السلجوقي، دار الكتب الإسلامية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ص (١٣٩).

ومع احترام السلاطين السلاجقة لمكانة الخليفة العباسي الروحية، إلا أنهم تعدوا على مكانة الخلافة، فقد عمد طغرلبك إلى تجريد الخليفة العباسي من سلطانه، مستغلاً ضعفه فاستأثر بجميع سلطاته، حتى تلك التي تتعلق بالخليفة نفسه وحياته الخاصة[١].

الموقع الجغرافي الحالي لإقليم الجزيرة الفراتية:

لا يمكننا أن نعيّن إطاراً ثابتاً لموقع هذا الإقليم حالياً؛ حيث صار يقع ضمن أراضي ثلاث دول متجاورة تتقاسمه فيما بينها، هي: تركيا، والعراق، وسورية.

فالجمهورية التركية تضع يدها على الجزء الشمالي من هذا الإقليم، وتستحوذ على منابع نهري: دجلة والفرات العظيمين، وما قد يوجد فيه من آبار النفط، بينما تستأثر جمهورية العراق بحصة الأسد؛ لاستيلائها على الأراضي الشرقية والجنوبية من هذا الإقليم، وهي الأراضي الغنية بالنفط، والتي تمدّ العراق بمعظم ثروته النفطية.

أما الجمهورية العربية السورية فتضع يدها على الجزء الغربي من إقليم الجزيرة، وهو الجزء المحاذي لبادية الجزيرة وتأتي غالبية الثروة النفطية السورية (إذا لم تكن كلها) منه[٢].

هذا وتطالعنا وسائل الإعلام المختلفة: المحلية، والدولية هذه الأيام بما يشهده هذا الإقليم من أحداث واضطرابات وحروب دامية تكاد تكون يومية، خاصة على الجانبين التركي والعراقي.

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل) تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى بغداد ص (٥١).

(٢) يعتبر هذا الجزء من إقليم الجزيرة الفراتية ضمن الأراضي السورية أكثر الأجزاء هدوءاً واستقراراً من الجزءين الآخرين، وربما يعود ذلك إلى النسبة الضئيلة من سكانه الأكراد بالنسبة إلى الجزءين العراقي والتركي، وقد يرجع ذلك أيضاً إلى قلة نسبة الأكراد بالنسبة للسكان الآخرين في القطاع السوري.

التحديد الجغرافي لإقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة البحث:

نعني بإقليم الجزيرة الفراتية: ذلك الإقليم الواقع بين نهري: دجلة، والفرات عند خروجهما من بلاد الروم أي: الجزء العلوي الشمالي من بلاد ما بين النهرين، الذي قال عنه اللغويون(١): «إنه موضعٌ بعينه»، وزاد الزبيدي قوله: قال أبو عبيد «وإذا أطلقت الجزيرة ولم تضف إلى العرب فإنما يراد بها هذه «والنسبة إليه» الجزيريّ».

وقد سمّاه كلٌ من المقدسي، وياقوت الحموي باسم «أقور»، وكذلك الزبيدي في كتابه: تاج العروس، لكن بدون ألف، أي: «قور» بضم القاف.

يطلق على هذا الإقليم أيضاً ديار بكرٍ ومضرَ وربيعة، مثلما ذكر القزويني، والقرماني؛ وذلك نسبةً إلى القبائل العربية الشهيرة: «بكر ومضر وربيعة»، التي استوطنته قبل الإسلام فعرفت كل دارٍ بالقبيلة التي استوطنتها. كذلك سمي مع الموصل (الموصلان) كقولهم عن البصرة والكوفة (البصرتان)، يقول الشاعر الطائي:

وبصرة الأزد منّا، والعراق لنا . . . والموصلان، ومنا الحل والحرم(٢)

---

(١) انظر: ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر بيروت بدون تاريخ.
ابن منظور: لسان العرب، دار الفكر، وصادر بيروت بدون تاريخ.
الرازي: مختار الصحاح، نشر داري الفيحاء والإيمان بيروت دمشق.
الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم الترزي، وراجعه عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)
المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة ٢٧ دار المشرق بيروت ١٩٨٤م.

(٢) انظر في الموضوع: الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق د محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة شفيق غربال، نشر دار القاهرة (١٣٨١هـ/ ١٩٦١م) ص (٥٢).
ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، نشر دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٩م، ص (١٨٩).
المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق د محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ص (١٢١). =

وقد حدد ياقوت الإقليم بالدرجات، فذكر أن طوله سبع وثلاثون درجة ونصف، في حين يبلغ عرضه ستا وثلاثين درجة ونصف الدرجة[١].

وأما عن حدوده الجغرافية، فيذكر أبو الفداء أنه تحدُّه بعض أرمينية وبلاد الروم غرباً، وبعض بلاد الشام وبعض البادية جنوباً، والعراق شرقاً، وبعض أرمينية شمالاً[٢].

في حين ذكر بعض المحدثين مثل: جورجي زيدان[٣] أن حدوده من الشمال ميافارقين وما يليها غرباً على الفرات قرب ملطية، ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على نهر دجلة؛ ويحده من الغرب الجنوبي بادية الجزيرة، ومن الشرق الجبال وأذربيجان ويشكل نهر الفرات الحد الغربي لإقليم الجزيرة الفراتية، الذي يفصله عن بلاد الشام[٤]. وقال ابن جبير:

= ياقوت الحموي: معجم البلدان، نشر دار صادر بيروت (٢:١٣٤).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ص (٣٥١).
أبو الفداء: تقويم البلدان، دار صادر بيروت ص (٢٧٣).
لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة شيرفرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص (١١٤).
مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة بيروت ١٩٨٣ص (١١٨ - ١١٩).
القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق د. أحمد حطيط، ود. فهمي سعد، عالم الكتب (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ص (٣:٣٤٨).
جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة بيروت (٢:٢٩٤).
الديوه جي، سعيد: تاريخ الموصل، نشر المجمع العلمي العراقي والمكتبة الوطنية، بغداد (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ص (٢٢:٢٣).

(١) معجم البلدان: (٤:١٣٤).
(٢) تقويم البلدان ص (٢٧٣).
(٣) تاريخ التمدن الإسلامي (٢:٢٩٤).
(٤) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، نشر المكتبة الأهلية ومطبعة الإرشاد بغداد (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) ص (١٤).

«والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر»[1].

الموقع وأثره في تاريخ إقليم الجزيرة الفراتية:

يقول المقدسي عن موقع إقليم الجزيرة الفراتية: «هو واسطة بين العراق والشام ومنازل العرب في الإسلام»[2]. والواقع أن إقليم الجزيرة الفراتية يمتاز بموقع هام، وفريد بين هضبة إيران وإقليم آسيا الصغرى من ناحية، وبين بلاد الشام وحوض البحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى؛ مما جعله معبر العديد من الهجرات والغزوات التي خرجت من إقليم الشرق، فضلاً عن وقوعه على شريان هام من شرايين طريق التجارة البري العالمي بين الشرق والغرب من ناحية أخرى[3].

يضاف إلى ذلك ثرواته الطبيعية وموارده المائية الكثيرة، واعتدال مناخه؛ مما جعل منه منطقة جذب سكاني، فاستقرت على أرضه هجراتٌ سكانية كثيرة، وقامت على أرضه حضاراتٌ عريقةٌ كالآشورية، والكلدانية، وغيرها.

وفي مجال التنازع والتنافس للسيطرة على المنطقة. شهد ذلك الإقليم العديد من الغزوات، والحروب بين الإمبراطورية الرومانية ووريثتها الإمبراطورية البيزنطية من جهة، والدولة الفارسية من جهة أخرى، حتى كانت الفتوحات الإسلامية، وعندئذٍ تحوّلَ الصراع الحضاري بين الفرس والروم إلى صراع ديني بين المسلمين الفاتحين والروم المسيحيين[4].

---

(١) رحلة ابن جبير، نشر دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة بيروت ص (١٧٦).

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢١).

(٣) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور من خلال توجيهه في البحث.

(٤) انظر: الشمس، ماجد عبد الله الخضر: العاصمة العربية نشر مديرية الآثار العراقية، المقدمة. الديوه جي، سعيد: تاريخ الموصل، نشر المجمع العلمي العراقي والمكتبة الوطنية بغداد (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ص (٩-١٣). غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر، دار الفكر اللبناني بيروت ١٩٩٠ص (١٤) مشروع جنوب شرق =

هذا وقد أجمعت غالبيّة المصادر الإسلامية على أن بَطَلَ الفتوحات الإسلامية في إقليم الجزيرة الفراتية هو القائد المسلم عياض بن غنم الفهري[(١)] الذي أنجز مهمة السيطرة على معظم الإقليم عن طريق الصلح[(٢)]. ومن ذلك ما يقال عن صلح الرها «فصالحوه على أن لهم هيكلهم وما حوله، وعلى ألا يحدثوا كنيسة إلا ما كان لهم، وعلى معونة المسلمين على عدوهم. فإن تركوا شيئاً مما شرط عليهم في ذمة لهم، ودخل أهل الجزيرة فيما دخل فيه أهل الرها»[(٣)].

أما الطبري فيقول[(٤)]: «فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً، فكانت تلك السهولة مهجنة[(٥)] عليهم وعلى من أقام فيهم من المسلمين». وقد تمت تلك الفتوحات بين سنتي ١٨،٢٠هـ/ ٦٣٩، ٦٤١م[(٦)].

= الأناضول (غاب) إصدار الحكومة التركية، تطور المنطقة وسدودها المائية.
نشرة العالم بين يديك - ندوة عن المشكلات المائية في الوطن العربي (عن نهري: دجلة والفرات).
وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة بيروت ط٣ (١٠: ٤٤٤- ٤٤٥)

(١) هو عياض بن غنم بن زهير من بني الحارث بن فهر، أسلم قبل صلح الحديبية، وشهد صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ -، كان رجلاً صالحاً. انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى دار صادر بيروت (٧: ٣٩٨).

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي نشر دار بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ (٢: ١٥).

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، نشر مكتبة الهلال بيروت ط١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص (١٧٢- ١٧٦).

(٤) تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) مؤسسة عز الدين بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ص (٤: ٣٣٧).

(٥) مهجنة: ربما يقصد بها مكرمة من الكلمة العربية (هجن) وامرأة «هجان» أي: كريمة، انظر: الرازي: مختار الصحاح، نشر داري الفيحاء والإيمان بيروت ودمشق.

(٦) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان (٢: ١٣٥- ١٣٦). =

الموارد الاقتصادية:

وإقليم الجزيرة الفراتية غني بثروته الطبيعية التي تشكل موارد اقتصادية هامة، أهمها: الموارد المائية، والمعادن، والمواد الخام الأخرى.

أما الموارد المائية[١]: فتأتي في مقدمة الموارد الاقتصادية بوصفها عماد الحياة النباتية والحيوانية. وتعتبر الأنهار في إقليم الجزيرة الفراتية شرايين الحياة؛ حيث أنها تمدّ الأرض بالمياه والخصوبة، فضلاً عن أنها تستخدم أيضاً لإدارة طواحين الحبوب.

كذلك تشكل الأنهار طرفاً هاماً للمواصلات وهي بذلك تدعم الطرق البرية، فعلى سطح مياهها المتدفقة تتحرك السفن لنقل المسافرين، والتجار، كما تنقل السلع التجارية، كل ذلك بالإضافة إلى ما يتوافر في هذه الأنهار من ثروة سمكية[٢] وقد حبا الله (عز وجل) هذا الإقليم بعدد كبير من الأنهار الصغيرة والكبيرة والعيون المائية الطبيعية والمعدنية، أهمها: الفرات، ودجلة، والخابور، وهي الأنهار الكبيرة والمشهورة منها[٣]. وقد عبر عن ذلك

= ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، نشر دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة بيروت ١٩٨٣م (٢: ٩٥١- ٩٥٥).

دائرة المعارف الإسلامية (١١: ٤٣٤).

(١) تنقسم الموارد المائية إلى أربعة مصادر، هي: الأمطار، والعيون المائية، والآبار التي يحفرها الإنسان لاستخراج الماء، وأخيراً الأنهار - وهي أهمها - وهي التي تعنينا هنا.

(٢) انظر: نشرة العالم بين يديك، ندوة عن المشكلات المائية في الوطن العربي، ومشروع جنوب شرق الأناضول (غاب).

(٣) عن أنهار إقليم الجزيرة الفراتية انظر: الإصطخري: المسالك والممالك ص (٥٤).

معجم البلدان ص (٥٠٨: ٢).

القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٢٨١)، (٣٥٤) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ص (٣: ٢٨٠).

المقدسي بقوله: «والمياه واسعة، أكثرها من دجلة والفرات والخابور»[1].

أما عن الثروة المعدنية في إقليم الجزيرة الفراتية: فهي كثيرة ومتعددة، ومن أهمها: النحاس، والحديد، والمعادن المستخدمة في صنع الزجاج، فضلاً عن القار والنفط والكبريت والملح[2].

وصف إقليم الجزيرة الفراتية:

وصفه ابن حوقل بقوله: «والجزيرة إقليم جليل بنفسه، شريف بسكانه، وأهله رُفَّهٌ بخصبه، كثير الجبايات لسلطانه؛ إذ كانت الأموال والأقوال والدخل على سلطانه داخلٌ من وجوهه وخارج من مَظانِّه»[3].

في حين قال المقدسي عنه «إنه إقليم نفيس... معدن الخيل العتاق، ومنه ميرة أكثر العراق، رخص الأسعار، جيد الثمار، ومعدن الأخبار»[4].

ونرى أن خير وصف لإقليم الجزيرة الفراتية ما جاء عن شيخ البلدانيين

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٧).

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م (١٠: ٦٠٥).

أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل بيروت (١: ٣٦).

ياقوت الحموي: معجم البلدان (٢: ٢٠٨).

ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف بيروت ط ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ص (١٢: ١٩١).

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة (٢٧: ١٤٢).

سعاد ماهر: كتاب الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٦م ص (١٣١)

ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ص (٢٠٥).

سليمان صائغ: تاريخ الموصل (١: ٣٥).

(٣) ابن حوقل: المرجع السابق ص (١٩٠).

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢١).

ياقوت الحموي حيث يقول: «وهي صحيحة الهواء، جيدة الرّيع والنماء، واسعة الخيرات، بها مدنٌ جليلة وحصون وقلاع كثيرة، ومن أمهات مدنها: حران، والرّها، والرّقة، ورأس عين، ونصيبين، وسنجار، والخابور، وماردين، وآمد، وميافارقين، والموصل، وغيرها. وقد صنف لأهلها تواريخ، وخرج منها أئمة في كل فن»[1].

وينقسم إقليم الجزيرة الفراتية إلى ثلاث مناطق، وقد نوه على ذلك المقدسي بقوله: «وقد قسمنا هذا الإقليم على بطون العرب؛ لتعرف ديارهم وتميزها، وجعلناه ثلاث كور على عدة بطونهم، أولها من قبل العراق: ديار ربيعة، ثم ديار مضَر، ثم ديار بكر وتوضيح حدود هذه الديار كما يلي:

ديار ربيعة:

قصبتها المَوْصِل، ومن مدنها: الحديثة، ومعلثاي، اللحسنة، تلعفر، سنجار، الجبال، بلد، أذرمة، برقعيد، نصيبين، دارا، كفرتوثا، رأس عين، ثمانين. وكانت ناحيتها جزيرة ابن عمر ومدنها: فيشابور، باعيناثا، المغيثة، الزوزان. بينما يضيف إليها الحموي[2]: دنيسر، والخابور كله، وما بين ذلك من المدن والقرى.

ديار مضَر:

تشمل السهل الشرقي للفرات نحو حران، والرّقّة، وشمشاط، وسروج، وتل موزن، وقصبتها مدينة الرقة، ومن مدنها: المحترقة، الرافقة، الحانوقة، الحريش، تل محري، باجروان، حصن مسلمة، ترعوز، حران، الرها، وكانت ناحيتها: سروج، كفرزاب، كفر سيرين.

---

(١) معجم البلدان (٢ : ١٣٤).
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢١).

(٢) معجم البلدان (٢ : ١٣٤).

ديار بكر:

حدها ما وقع غربي دجلة إلى بلاد الجبل المطلّ على نصيبين إلى دجلة، وهي أصغر الديار الثلاث، قصبتها مدينة آمد، ومن مدنها: ميافارقين، تل فافان، حصن كيفا، الغار، حاذية، وغيرها[(١)].

أما التقسيم الإداري فلم يكن ثابتاً، لأنه يتغير من حين لآخر حسب طموحات أمراء الأتابكة، وتوسعهم على حساب بعضهم البعض خلال فترة دراستنا، هذا من جهة، وبالإضافة لما تعرض له هذا الإقليم من مستجدات سياسية من جهة ثانية، كالغزو الصليبي، واستيلاء الأيوبيين على معظم أجزائه ثم لتعرضه لغزو التتار في (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي)[(٢)].

أهم مراكز العمران الرئيسية في إقليم الجزيرة الفراتية:

قبل الدخول في تفاصيل أهم مراكز العمران والمدن الرئيسية في إقليم الجزيرة الفراتية، لا بد لنا من ذكرها ما اشتهر به هذا الإقليم من وجود أماكن ومواضع في أراضيه لها وقعها في نفوس المؤمنين وعن ذلك قال المقدسي: «ثم له فضل؛ لأن به مشاهدَ الأنبياء، ومنازل الأولياء، به استقرت سفينة نوح على الجودي، وبه تاب الله على قوم يونس، وهو ثغرٌ من ثغور المسلمين ومعقل من معاقلهم»[(٣)]. ومن أشهر هذه الأماكن: جبل الجودي، وتل توبة، وحرّان.

جبل الجودي:

رجح المفسرون، والمؤرخون، والجغرافيون على أنه هو الجبل الذي

---

(١) أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٧٤- ٢٨٦).

(٢) انظر لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١١٤ - ١٤٣).
د. عصام الفقي: بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي نشر دار الفكر العربي ص (٢١٥ - ٢٢٢).

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢١).

رست على قمته سفينة نوح (عليه السلام) بعد انحسار الطوفان الذي أغرق الدنيا كلها، وأنه بالموصل بالجزيرة الفراتية، وبالذات بجزيرة ابن عمر، بينه وبين نهر دجلة ثمانية فراسخ[1]، وموضع جنوح السفينة على رأس هذا الجبل إلى هذه الغاية[2] (أي: إلى سنة «٣٣٢هـ/ ٩٤٣م»).

ويورد الحموي[3] في سياق حديثه ترجمةً حرفية (كما ورد في التوراة) عن قصة الطوفان ونوح (عليه السلام)، وأنه لما جف الماء بنيَ مسجد لا زال موجوداً إلى الآن بالجودي. (وذكر القزويني ذلك أيضاً لكنه سماه ديرا)، وأنه لم يجدد بناؤه إلى عهد القزويني[4] المتوفي في عام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م).

وعلى سفح جبل الجودي بنى أولئك الثمانون نفراً الذين كانوا مع نوح (عليه السلام) في السفينة - قرية الثمانين المنسوبة إليهم، ثم اندثرَ نسل هؤلاء حيث كانت مشيئة الله أن يكون البشر كلهم من نسل نوح (عليه السلام) من أولاده الثلاثة[5] المذكورين حسب قوله (عز وجل): ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[6].

---

(١) انظر: السيوطي: تفسير وبيان القرآن الكريم، وتفسير الجلالين.
تاريخ الطبري (١: ٩٦).
الإصطخري: المسالك والممالك ص (٥٥).
الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وجمال الدين الشيال. مكتبة المثنى بغداد ص (١).
ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ص (٢٠٦).

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر (١: ٤٠- ٤١).

(٣) معجم البلدان (٢: ١٧٩).

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد ص (٣٦٩).

(٥) وهم: سام، وحام، ويافث.

(٦) سورة الصافات آية (٧٧).

تل توبة:

وهو من تلك المعالم الأثرية الهامة ويسمى أيضاً تل يونس (عليه السلام) وهو يقع قرب مدينة نينوى[1] القديمة الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، مقابلة لمدينة الموصل الحالية، والتي تقع على الضفة الغربية منه. كذل يوجد في الموصل مشهد النبي جرجيس (عليه السلام)، الذي يحتوي على مسجد، والقبر في زاوية منه[2].

حرّان:

تعتبر مدينة حران الواقعة بديار مضر - بل هي قصبته - إحدى المآثر الدينية التي قال عنها ابن جبير[3]: «كفى بهذا البلد شرفاً وفضلاً أنها البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم (عليه السلام)، وله بقبليها نحو ثلاثة فراسخ. مشهد مبارك فيه عينٌ جارية، كان مأوى له ولسارة، ومتعبداً لهما».

وذكر أبو الفداء[4] أنها كانت مدينة للصابئة، بها سدنتهم السبعة عشر،

---

(١) مدينة نينوى: كانت عاصمة للدولة الآشورية: إحدى الدول القديمة، التي قامت بين النهرين ودمر زعماؤها بيت المقدس.
انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٨٩).
وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (١:٤٤٤- ٤٤٥).

(٢) تاريخ الطبري (٢:٣٢٣).
المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٣).
رحلة ابن بطوطة: ص (١٥٧- ١٥٨).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٦١).
أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٨٤ - ٢٨٥).
القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٣:٤٩٣).
لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١١٨).

(٣) رحلة ابن جبير ص (١٧٤).

(٤) تقويم البلدان ص (٢٧٦- ٢٧٧).

والتل الذي يتجهون إليه في صلاتهم، فهم يعظمونه، وينسبونه إلى سيدنا إبراهيم (عليه السلام)[١].

أما حديثنا عن أهم مراكز العمران والمدن الرئيسية في إقليم الجزيرة الفراتية فسنحصره في أمهات مدنه التي أشار إليها ياقوت الحموي[٢] في معجمه، وهي:

١ - مدينه حران[٣]:

تقع مدينة حران بديار مضر على الطريق الواصل بين مدينة الموصل وبين بلاد الشام، وبلاد الروم[٤]. وبين حران والرها مسيرة يوم أو أربعة فراسخ، وبينهما (حران والرها) وبين مدينة الرقة مسيرة يومين أي: ثمانية فراسخ[٥].

وتضاربت الأقوال في وصفها، فبينما اتفق كل من: الإصطخري[٦]، وابن حوقل[٧]، وأبو الفداء[٨] على أنها قليلة الماء والشجر، وإن شرب أهلها من قناة تأت من عيون بخارجها، ومن الآبار - نجد المقدسي[٩] يصفها بأنها

(١) لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٣٤)، والمنجد في اللغة والأعلام مادة حران نقلاً عن التوراة.
(٢) معجم البلدان ص (٢: ١٣٤).
(٣) الظاهر من اسم هذه المدينة أنه عربي.
انظر: أبو الأشبال أحمد محمد شاكر محقق كتاب المعرب من الكتاب الأعجمي على حروف المعجم للجواليقي، نشر دار الكتب المصرية ١٣٦١هـ ص (١٢٣).
(٤) تقع الآن ضمن الأراضي التركية، المنجد في اللغة والأعلام.
(٥) انظر: الحموي: معجم البلدان (٢: ٢٣٥)، وقدامة بن جعفر: نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتاب، ضمن كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص (١٧٤).
(٦) المسالك والممالك ص (٥٤).
(٧) كتاب صورة الأرض ص (٢٠٤).
(٨) تقويم البلدان ص (٢٧٦، ٢٧٧).
(٩) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٥).

مدينة نزيهة، وبأنها جيدة الإقطان، وبالدقة في موازينها حتى أصبحت مضرباً للأمثال.

ووصف ابن جبير[1] مسجدها فقال: «فشاهدنا من بناء هذا الجامع، وحسن ترتيب أسواقه المتصلة به، مرأى عجيباً، قلّ ما يوجد في المدن مثل انتظامه».

وكان بناء المدينة، وجامعها، وقلعتها وسورها، والخندق الذي يحيطها بالحجارة وهي مدينة كبيرة لها مدرسة، ومارستان، وبها نهر صغير في جبهتها الشرقية[2].

واختتم ابن جبير[3] وصفه لها بقوله: «والبلد كثير الخلق، واسع الرزق، ظاهر البركة، كثير المساجد، جم المرافق على أفضل ما يكون من المدن. وصاحبه مظفر الدين بن زين الدين[4]، وطاعته إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي». وفي عام (٦٧٠هـ) نقل التتار من بقي على قيد الحياة من سكانها إلى المناطق الشرقية من نهر الفرات بعد المجزرة التي ارتكبوها فيها»[5].

٢- مدينة الرها:

مدينة متوسطة الكبر، تقع بديار مضر بين مدينة الموصل، وبلاد الشام. على مسافة ستة فراسخ على الجانب الشرقي الشمالي من نهر الفرات، طولها ٧٢ درجة و٣٠ دقيقة، وعرضها ٣٧ درجة و٣٠ دقيقة، نزهةٌ بها كثير من المياه، والبساتين، والزروع.

اشتهرت بكثرة كنائسها؛ لأن غالبية سكانها نصارى من الأرمن، وبها

---

(١) رحلة ابن جبير ص (١٧٥).

(٢) لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٣٤).

(٣) رحلة ابن جبير ص (١٧٥).

(٤) هو مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك بعد أن تولى ملك إربل بعد أبيه وأخيه.

(٥) الذهبي: العبر في خبر من غبر، دار المكتبة العلمية بيروت (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) (٣٢١:٣).

أكثر من ثلاثمائة كنيسةٍ، ودير، وبها كنيسة عجيبة مكسية بالفسيفساء، تعد إحدى عجائب الدنيا، وقد بني المسجد الأقصى في القدس على غرارها.

استولى عليها بلدوين - أحد أمراء الحملة الصليبية الأولى - الأول خلال الحملات الصليبية على بلاد الشام، وأسس فيها إمارة صليبية دامت نصف قرن، ثم فتحها عماد الدين زنكي سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م).

وأعادها إلى الحكم الإسلامي بعد انتزاعها من يد ملكها جوسلين الثاني[١].

٣- مدينة الرقة[٢]:

مدينة مشهورة، ووقوعها على الفرات وتخوم الشام جعل لها مكانة خاصة، لكن لإحاطة البدو بها صار من الصعوبة بمكان اجتياز طرقها؛ وذلك لما يقومون به من عمليات السلب والنهب[٣].

---

(١) تقع مدينة الرها حالياً ضمن الأراضي التركية وتسمى أورفا.
انظر: لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٣٥)، والمنجد في اللغة والأعلام.
الإصطخري: المسالك والممالك ص (٥٣)، ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ص (٢٠٣).
الحموي: معجم البلدان (٣: ٥٨).
البكري: معجم ما ستعجم من أسماء البلاد والمواضع (٣/ ٦٦٦).
ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب (٢: ٣٤).
القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٣: ٣٧٥).

(٢) الرَّقَّة: تعني كل أرض بجانب واد ينبسط عليها الماء عند المد، وينحسر عند الجزر، فلذلك سميت بالرَّقَّة.
انظر: المراجع الآتية في الهامش التالي.

(٣) الإصطخري: المسالك والممالك ص (٥٤). ابن حوقل: صورة الأرض ص (٢٠٤).
البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٦: ٦٧٨).
المقدسي: أحسن التقاسيم (١٢٥).

٤- مدينة رأس عين(١):

مدينة عظيمة مشهورة في إقليم الجزيرة الفراتية، من ضمن ديار ربيعة من جهة ديار مضر، تقع بين مدن: حران، ونصيبين، ودنيسر، بينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً، ويقارب ذلك المسافة بينها وبين حران، وهي إلى دنيسر أقرب، لكون المسافة بينهما عشرة فراسخ.

اشتهرت بكثرة عيونها المائية؛ إذ بها أكثر من ثلاثمائة عين، أهمها:

أ - عين الصرار:

وتعتبر أشهر تلك العيون، لصفاء مائها حتى لتبين الحصاة في قاعها، مع أن عمقها لا يزيد على عشرة أذرع، وسبق للخليفة العباسي المتوكل على الله أن نثر فيها عشرة آلاف درهم أدركها أهلها كلها لم يضع منها درهم واحد؛ وذلك لأنها تنبع من صخر صلد ولو كان نبعها من طين لما أمكن إخراجها بتلك السهولة؛ لكونها ستغوص في الوحل، ثم إن الوحل سيغير لون الماء عند نزول أي جسم عليه، فكيف بعشرة آلاف درهم؟ ثم لنزول بعض أهل المدينة فيها(٢).

= الحموي: معجم البلدان (٣:١٠٦)، ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب (٢:٣٤).

القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٣:٣٧٣).

أبو الفداء: تقويم البلدان (٢٧٦، ٢٧٧).

(١) واقعة حالياً ضمن الأراضي السورية، وهي مركز قضاء محافظة الحسكة. تسميها العامة «رأس العين» وتسمى أيضاً «عين وردة».

انظر المنجد في اللغة والأعلام.

(٢) انظر: ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب (٢:٧، ٢٥).

الحموي: معجم البلدان (٣:١٣- ١٤).

أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٧٨- ٢٧٩).

القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٣٧٣).

ب - عين الزاهرية:

كانت في الماضي تسير فيها الزوارق الصغيرة حتى تصل إلى عين الهاشمية، وهذا دليل على غزارة مائها وعمقها، وكان أهل رأس عين يستخدمون تلك القوارب الصغيرة كوسيلة للنقل النهري للوصول إلى بساتينهم، لكنها في زمن الحموي (أي: خلال فترة دراستنا) انعدمت تلك القوارب وربما كان السبب في ذلك هو ما ذكره الحموي حيث قال: «لعل الهمم قصرت فعدم ذلك» مع أن مياهها لا زالت كثيرة.

وهناك بالقرب من عين الزاهرية عينٌ كبريتية، ماؤها أخضر، يلتقي ماؤها مع مياه عين الزاهرية فيشكلان مجرى واحداً حتى يصبان في نهر الخابور[١].

وذكر المقدسي[٢] أن مبانيها كانت بالحجارة، والجصّ وأخذ عنه لي سترنج.[٣]، الذي فيما يبدو يستقي عنه معلوماته.

٥ - مدينة نصيبين[٤]:

تقع بديار ربيعة على الطريق التجاري الواصل بين الموصل، وبلاد الشام، وهي مدينة كبيرة تعتبر أنزه مدينة في إقليم الفراتية، وأكثرها خضرة، اختصها الله بالورد الأبيض حتى لا تكاد توجد فيها نبتة لورد أحمر[٥].

---

(١) انظر: الإصطخري: المسالك والممالك ص (٥٣).
ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ص (٢٠)، الحموي معجم البلدان (٣:١٤).

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٤).

(٣) بلدان الخلافة الشرقية ص (١٢٥).

(٤) تقع حالياً في الأراضي التركية.

(٥) انظر: الاصطخري: المسالك والممالك ص (٥٢).
البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ص (٢:١٣١٠).
ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب (٣) مادة: نصيبين.
أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٨٢ - ٢٨٣).
القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٣:٤٩٢).

تقوم مدينة نصيبين على سهل مستوٍ منبسط، فسيح، كثير المياه والبساتين، والأشجار، والفواكه؛ حتى قيل: إن بها وبقراها أربعين ألف بستان، ويرويها نهر يحيط بها ينبع من جبل قريب منها، يتفرع هذا النهر بين بساتينها ومنازلها، لكن كان لتلك المياه الكثيرة والأشجار الكثيفة ردة فعل على هوائها، حتى وصف بالوخامة؛ مما يؤثر على قاطنيها، خاصة الغرباء الذين لم يألفوا العيش بها.

كذلك وصفت بكثرة هوامها، فعقاربها كبيرة الحجم، سامة قاتلة. وهي مدينة مكتملة المرافق، ومن مرافقها: جامعان ومدرستان، ومارستان واحد وأسواقها مكتظة بالبضائع وعلى نهرها قنطرة (معقودة من الأحجار الصلدة) لعبوره[(١)].

وأما عن صفات أهلها فإننا نجد ابن بطوطة يشيد بصلاحهم بينما نجد القزويني[(٢)]، ومن بعده القرماني[(٣)] يصفانهم بالظلم وعدم قبول العدل، حتى وإن جاءهم أعدل الحكام.

٦ - مدينة سنجار[(٤)]:

مدينة مشهورة بديار ربيعة، تقع في وسط بريتها، وتكاد تكون المدينة الوحيدة في إقليم الجزيرة الفراتية التي توجد فيها أشجار النخيل، وبالإضافة

---

(١) انظر: الاصطخري: المسالك والممالك ص (٥٢)، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٤).
رحلة ابن جبير ص (١٧٠- ١٧١)، القزويني آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٦٧).
القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٤٩٢:٣).

(٢) رحلة ابن بطوطة (١٥٨ - ١٥٩) آثار البلاد وأخبار العباد ص (٣٩٣).

(٣) أخبار الدول وآثار الأول ص (٣:٣٨٣).

(٤) مدينة سنجار حالياً مدينة عراقية تتبع محافظة نينوى في شمال العراق.
انظر: المطبعي: رحلتي في شمال العراق ص (٥٥ - ٦٤)، المنجد في اللغة والأعلام.

إلى النخيل تكثر فيها أشجار الفاكهة الأخرى، التي يتم رَيُّها بواسطة العيون، والقنوات المائية، التي تنبع من جبل سنجار[1] الذي يعتبر أخصب الجبال في الإقليم، حيث قامت المدينة على سفحه.[2]، وشبهت لذلك بمدينة دمشق (التي تقع تحت جبل قاسيون)، إضافة إلى عمارتها حتى قال عنها القزويني[3]: «كأنها مختصر دمشق» أي: كأنها دمشق مصغّرة.

وأشاد القزويني بروعة وحسن حماماتها حيث يقول: «ما رأيت أحسن من حماماتها وفرشها نصوص وكذلك تأزيرها، وتحت كل أنبوبة حوض حجرية مثمنة في غاية الحسن، وفي سقفها جامات ملونة بالأحمر، والأصفر، والأخضر، والأبيض على وضع النقوش، فالقاعد في الحمام كأنه في بيت مدبج».

٧ - مدين حصن كيفا[4]:

مدينة بديار بكر تطل على نهر دجلة، كثيرة الخيرات، في قلعة حصينة وكنائس كثيرة. أشاد الحمنوي بقنطرتها التي على نهر دجلة فقال: «لم أرَ في البلاد التي رأيتها أعظم منها قنطرة عالية حسنة البناء»[5].

---

(١) يرتفع جبل سنجار حوالي ألف قدم عن مستوى سطح البحر.
انظر المطبعي: رحلتي إلى شمال العراق ص (٦٤).

(٢) انظر: الاصطخري: المسالك والممالك ص (٥٣).
الحموي: معجم البلدان (٣: ٢٦٢).
ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب (٢: ١١٤).
أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٨٢ - ٢٨٣).

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٣٩٣).

(٤) تقع مدينة حصن كيفا حاليا في الأراضي التركية بولاية ماردين، وازدهرت في عصر الأراتقة حيث كانت عاصمة لإحدى دولهم (٤٩٦ - ٦٥٩هـ/١١٠٢ - ١٢٦٠م).

(٥) أنشأها الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود الأرتقي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري.

ووصفت المدينة وقلعتها بأنهما عظيمتان، وربضها عامرٌ بالأسواق، والحمامات، والفنادق، والمساكن الجميلة المبنية بالحجر والجص ولها رساتيق كثيرة، وضياع عامرة، ولكنها وخمة الهواء، خاصة في فصل الصيف[1].

وذكر القرماني[2] أنها تقع بين مدينتي: سنجار وتكريت، وبالرجوع إلى خريطة الإقليم تبين لنا أن مدينة سنجار هي التي تقع بين مدينة حصن كيفا في أعلى الشمال: وتكريت في أسفل الجنوب منه، وبذلك تفصل بينهما مدن وقرى عديدة.

٨ - مدينة ماردين[3]:

وهي مدينة حصينة منيعة مبنية على ارتفاع فرسخين من مستوى سطح الأرض، لا يمكن فتحها عنوة؛ فهي قلعة شماء من القلاع المشهورة في الإقليم، تشرف على دنيسر، ودارا، ونصيبين، وذلك الفضاء الواسع أمامها.

يعتمد أهلها في شربهم، وزراعتهم على عيون مائية قليلة، وذلك بخلاف غالبية مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية المشهورة بالأنهار والعيون والينابيع الكثيرة، وجل شربهم من صهاريج يخزنون فيها مياه شربهم في منازلهم[4]

---

(١) الناسخ والمعلق على كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص (٢٠٢).

(٢) أخبار الدول وآثار الأول ص (٣: ٣٥٤).

(٣) تقع حالياً داخل الأراضي التركية. انظر: المنجد في اللغة والأعلام. ذكر الحموي أن «ماردين» جمع صحيح لمارد، وأن مؤسسها قال بعد اكتمال بنائها: «هذه ماردين كثيرة لا مارد واحد». والنسب إليها ماردي. انظر الحموي: معجم البلدان (٥: ٣٩).

(٤) انظر: الإصطخري: المسالك والممالك ص (٥٢)، الحموي: معجم البلدان (٥: ٣٩).
أبو الفداء: تقويم البلدان (٢٧٨ - ٢٧٩).
ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب مادة ماردين.

وكان العنب أشهر فواكهها، ففيها أكثر من سبعين صنفاً كما يقول القرماني[(١)].

٩ - مدينة آمد[(٢)]:

تقع في الإقليم الخامس، طولها ٧٥ درجة، و٤٠ دقيقة، وعرضها ٣٥ درجة و١٥ دقيقة، وهي تقع غربي نهر دجلة، وتعد من أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً، وأشهرها ذكراً، بل هي قاعدتها، وقصبة ملكها. تقوم على ربوة جبل يطل على نهر دجلة على ارتفاع يتراوح ما بين خمسين إلى مائة قامة، يحيط بها، وبعيونها، ومزارعها سورٌ حصين، مبني بحجارة سوداء، شديدة الصلابة، لا تتأثر بطرق الحديد ولا بالحرق بالنار سمي ذلك السور ميموناً لشدة سواده.

وللمدينة أربعة أبواب حديدية، تقابل الجهات الأصلية الأربع، يسمى الباب الشرقي باب دجلة، والشمالي باب الأرمن، والغربي باب الروم، والجنوبي باب التل. ويضيف المقدسي باباً خامساً يسمى باب أنس، وهو باب صغير يستخدم في وقت الحروب[(٣)].

= القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد (٢٥٩ - ٢٦٠).
البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٤:١١٧٥)، رحلة ابن بطوطة ص (١٥٩)

(١) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٣:٤٨٦).
لي سترنج: بلدان الخلافةالشرقية (١٢٥).

(٢) مدينة آمد: وهي حالياً داخلة ضمن الأراضي التركية في الجنوب الشرقي من الجمهورية التركية، وهي عاصمة إقليم ديار بكر متابعة للوسائل الإعلامية الحالية، يقول الحموي عن اسمها «وما أظنها إلا لفظة رومية، ولها في العربية أصل حسن؛ لأن «الآمد» تعني: الغاية، من أمد الرجل يأمد أمدا، إذا غضب فهو آمد.... فحصانتها مع نضارتها تغضب من أرادها». انظر الحموي: معجم البلدان (١:٥٦).

(٣) انظر: الاصطخري: المسالك والممالك ص (٥٣).
ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ص (٢٠١).
المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢١)، (١٢٤).

وخارج هذا السور سور آخر مبني من نفس الحجر المذكور سابقاً، علوه عشر أذرع، يفصل بينهما رَبَضٌ[(١)] عرضه خمسة عشر ذراعاً، وبه أيضاً أربعة أبواب حديدية تقابل أبواب السور الداخلي[(٢)].

وذكر الحموي[(٣)]: أنها مدينة قديمة حصينة، مبنية بالحجارة السود على تل، يحيط بها نهر دجلة، كما وصفت بوسعها، وأنها تتوسطها عيون مائية؛ من قوة جريان مياهها وضعت عليها طواحين لطحن الغلال والحبوب[(٤)].

وأما آبارها فمياهها قريبة لا يزيد عمقها عن ذراعين؛ حتى إنها تنزف مياهها باليد وهي كثيرة الأشجار والبساتين والفواكه المختلفة، والمحاصيل الزراعية الأخرى[(٥)].

= الحموي: معجم البلدان (١ :٥٦).
ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب (١ :٢١).
أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٨٦ - ٢٨٧).
لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٤٠ - ١٤١).

(١) الربض: ربض المدينة (بفتحتين): ما حول المدينة من مبانٍ، وأسواق وغيرها.
الرازي: مختار الصحاح، والمعجم الوسيط. وقال ياقوت الحموي: الربض في الأصل حريم الشيء، وهو أساس المدينة والبناء، والربض: ما حوله من الخارج. الأول مضموم، والثاني بالتحريك يجمع على أرابض ولا تخلو مدينة من ربض معجم البلدان: (٣ :٢٥).

(٢) لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية (١٤١).

(٣) معجم البلدان (١ :٥٦).

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد (٤٩١).

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص (٢٠١). المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٤).

١٠ - مدينة ميافارقين[١]:

تقع هذه المدينة بديار بكر وبينها وبين مدينة آمد ثلاثة برد[٢]، طولها ٧٤ درجة و٤٠ دقيقة، وعرضها ٣٧ درجة و٣٠ دقيقة.

تقع في الإقليم الجغرافي الخامس، وهي مدينة محصنة بسور مبنى بالحجر الأبيض، بخلاف سور مدينة آمد المبني بالحجارة السوداء تزن كل قطعة حجر منه خمسمائة مَنّ، وبني فيه برجٌ عظيم بعد كل خمسين ذراعاً لزيادة تحصينه[٣]. وللمدينة باب من الحديد الخالص لا يدخل فيه الخشب البتة، يقع في جهتها الغربية. ويفصل بين سور المدينة والخندق العميق الذي يحيط به فاصلٌ من الأرض، ربما وضع حتى يتمكن المدافعون من فوق سورها من رؤية المهاجمين، إذا ما عبروا ذلك الخندق العميق.

وكانت هذه المدينة منيعة وحصينة جداً؛ حتى إن ياقوت سروات الحموي يقول فيها: «إنها إلى وقتنا هذا (وهو سنة ٦٢٠) لم تؤخذ عنوة قط».

أما مباني المدينة فإنها مزدحمة فوق بعضها، وأسواقها ضيقة تقع بالخارج من ربضها. وبها جامع متوسط الحجم، جيد البناء، وفي وسط أسواقها مسجد آخر، ثم تأتي بعد تلك الأسواق بساتينها ومزارعها الكثيرة.

---

(١) تقع حالياً في تركيا، ومن كثرة حروف هذه المدينة أسقط بعضها للنسب فقيل: فارقى، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٣: ٣٠٠).

(٢) البريد يساوي ١٢ ميلاً انظر: مختار الصحاح. إذن تصير المسافة بينها وبين مدينة آمد ٣٦ ميلاً.

(٣) انظر: الجواليقي: المعرب من الكلام الأعجمي، والبكرى: معجم ما استعجم (٤: ٢٣٥).

ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب.

ابن حوقل: صورة الأرض ص (٢٠٢).

أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٧٨- ٢٧٩).

لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٤٣).

ووصف هواؤها بأنه وخيمٌ، وربما يعود ذلك لازدحام مبانيها وضيق أسواقها[1].

١١ - مدينة الموصل[2].

هي قاعدة ديار ربيعة، بل هي عاصمة إقليم الجزيرة الفراتية برمته، تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة، وتقابلها من البر الآخر الشرقي مدينة نينوى، وفي جنوبها يصب نهر الزاب الأصغر في نهر دجلة عن مدينة آشور القديمة[3]. طولها ٦٩ درجة، وعرضها ٣٤ درجة و٢٠ دقيقة، والمسافة بينها وبين بغداد أربعة وسبعون فرسخاً[4].

وكفاها وصفاً ما قاله ياقوت الحموي[5] في حقها بأنها: «المدينة المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، قليلة النظير: كبراً، وعظماً، وكثرة خلقٍ، وسعة رقعة؛ فهي محط رحال الركبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان».

وقيل: إن بلاد الدنيا العظام ثلاث: نيسابور، لأنها باب الشرق،

---

(١) الحموي: معجم البلدان (٥:٢٣٥). ابن حوقل: كتاب صورة الأرض (٢٠٢)، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٥٤).

(٢) الموصل حالياً مدينة عراقية، قاعدة محافظة نينوى، ومركز قضاء الموصل، والنسبة إليها: موصليّ.
وقد وردت عدة أقوال حول سبب تسميتها بالموصل جمعها ياقوت الحموي فقال: «لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل: وصلت بين دجلة والفرات، وقيل: لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة، وقيل: بل الملك الذي أحدثها كان يسمى الموصل».

(٣) كانت مملكة آشور القديمة مشهورة بقوتها وكانت عاصمتها مدينة نينوى القديمة، وإربل إحدى مدنها. انظر: المنجد في اللغة والأعلام، ودائرة معارف القرن العشرين.

(٤) تقدر المسافة حالياً بينها وبين وبغداد ب- ٣٣٢ كيلو متر.

(٥) معجم البلدان (٥:٢٢٣).

ودمشق؛ لأنها باب الغرب؛ والموصل؛ لأن أغلب القاصدين إلى المدينتين السابقتين يمرون بها. ومن هنا تتضح لنا أهمية موقع الموصل كهمزة وصل بين العراق وبلاد الشام؛ ثم لكونها في طريق المواصلات التجارية النشطة بين الشرق والغرب.

ولقبت بالخضراء؛ وذلك لخضرة بقاعها، كما جاء لقبها بالبيضاء، لأن اللون الغالب على منازلها، ومنشآتها المعمارية المختلفة هو اللون الأبيض؛ وذلك لبنائها بالجص والرخام، ولطلائها بالنورة البيضاء[١].

أما طبيعتها فوصفت بجودة التربة، ووصف هواؤها بأنه صحيّ نقي خاصة في فصل الربيع، وقد أشار إلى ذلك الحموي[٢] فقال: «إن الغريب إذا أقام في بلد الموصل سنة تبين في بدنه فضل قوة، . . . . وما نعلم لذلك سبباً إلا صحة هوائها، وعذوبة مائها».

وليس لديهم ماء صالح للشرب أو للري غير نهر دجلة، وينفرد المقدسي بذكر نهر زبيدة وربما يشير بذلك إلى القناة التي شقت من نهر دجلة كما ذكر القزويني[٣].

وكما اتصفت الموصل (شأنها شأن أي مدينة) بجوانب إيجابية فلا بد أن يكون لها جوانب سلبية منها: قلة بساتينها؛ وبالتالي قلة مزروعاتها وفواكهها، كذلك تذبذب طقسها، فهي شديدة الحرارة صيفاً، قاسية البرودة شتاء، وساعد على ذلك بناء عمرانها من الحجر والجص؛ لكونهما يتأثران بارتفاع درجات الحرارة وانخفاضها[٤].

---

(١) انظر الموصلي: تاريخ الموصل (١ :٥٧)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٣).

(٢) معجم البلدان: (٥ : ٢٢٤).

(٣) انظر الاصطخري: المسالك والممالك ص (٥٣).
المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٣).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٦١).

(٤) تتراوح درجة الحرارة في فصل الصيف بين ٣٥ - ٤٠ درجة، وفي فصل الشتاء تنخفض إلى ١٢ درجة مئوية ((كلام مبهم)) الموصلي: تاريخ الموصل (١ : ٣٥).

وبالنسبة لهندسة عمرانها، فأبنيتها جيدة وثيقة جميلة المنظر؛ لأنها مبنية بالنورة والرخام، ومصممة على شكل آزاج[1]، وسراديب، وقلما تستخدم الأخشاب في سقوفها ويحيط بها سور عريض سميك موثوق بالبروج المشيدة، وكلاهما مبني بالحجارة والجص، ويحيط بهذا السور خندق عميق من كل الجوانب ما عدا الجانب المطل على نهر دجلة؛ فإنه وأبراجه قد أرسيت قواعدهما في مياهه. ويذكر ابن بطوطة أنه لم يرَ سوراً مثله في أيّ بلاد زارها إلا سور مدينة دهلي حاضر ملك الهند[2].

في حين وصفه أبو الفداء[3] (المتوفى عام ٧٣٢هـ) أنه أكبر من سور مدينة دمشق، وأن الباقي منه في زمانه نحو ثلثيه، وكذلك قلعتها التي تعرضت هي الأخرى للخراب والدمار، لكنه لم يشر إلى سبب ذلك؛ ولكونه عاش في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي فإنه مما لا شك فيه كان ذلك الدمار من فعل التتار، الذين غزوا المشرق الإسلامي ومن ضمنه إقليم الجزيرة الفراتية في القرن الذي سبقه، حيث نشروا الدمار والخراب.

ويوجد بالمدينة جامعان:

أحدهما: قديم، بناه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وعرف هذا الجامع بـ «الجامع العتيق».

والثاني: وعرف بالجامع النوري فقد بناه نور الدين محمود زنكي في

---

(١) آزاج: جمع أزج وهو البيت الذي يبنى حولاً، ويجمع أيضاً على آزج انظر: دائرة معارف القرن العشرين.

(٢) دهلي القديمة: هي مدينة دلهي الحديثة، وكانت مقراً وعاصمة لمملكة الهند المغولية الإسلامية.

انظر: الحموي: معجم البلدان (٥: ٢٢٣- ٢٢٤).

رحلة ابن بطوطة (١٧٥).

رحلة ابن جبير ص (١٦٧ - ١٦٨).

القزويني: آثار البلدان ص (٤٦١).

(٣) تقويم البلدان ص (٢٨٥).

سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢م) وهو كبير جيد البناء، وفي صحنه قبة في داخلها قاعدةٌ من رخام مثمنة الشكل، بها نافورة للماء يخرج الماء منها بقوة الضغط، ويضاف إلى هذين الجامعين الجامع الريفي الذي بناه الأمير مجاهد الدين قايماز(١) على شاطئ نهر دجلة، والذي قال عنه ابن جبير(٢): إنه لم ير جامعاً أفضل منه بناء، تحيط به شبابيكُ حديديةٌ تتصل بمصاطب تطل على نهر دجلة في غاية الحسن والإتقان». كما أنشأ مجاهد الدين أيضاً مارستاناً رائعاً جيد البناء.

أما دار المملكة فهي متصلة بالسور، والبروج، والقلعة التي وصفها ابن جبير بأنها قلعة عظيمة، وذلك قبل تعرضها لتدمير التتار. ويفصل دار المملكة عن باقي المدينة الشارع الذي يمر بوسط المدينة. وللمدينة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق(٣).

أما قيسارية الموصل الجميلة المربعة ذات الأبواب الحديدية، فتعرف بسوق الأربعاء، حيث يقام سوق الأربعاء من كل أسبوع، ويوجد على كل ركن من أركانها فندق ينزل فيه التجار والمسافرين، وأكثر أسواق الموصل مغطاة؛ لتحفظ الناس، والبضائع من حرارة الشمس ومن الأمطار(٤).

---

(١) هو قايماز بن عبد الله الزينبي الخادم، كان متولياً قلعة الموصل، وكان الحاكم المتنفذ في الدولة الأتابكية من سنة (٥٧١هـ) إلى سنة ٥٩٥هـ).
انظر: - ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٩٣).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤ : ٨٢٤).

(٢) رحلة ابن جبير: ص (١٦٨).

(٣) الحموي: معجم البلدان (٥ : ٢٢٤).
رحلة ابن بطوطة ص (١٥٧).
المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٣).
لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١١٥-١١٧).

(٤) انظر: المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٣).
لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١١٥ - ١١٧).

١٢ - جزيرة ابن عمر[١]:

تنسب إلى مؤسسها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي (المتوفى عام ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م).

ويقال: إنه هو الذي شق الوصلة التي تصلها بالبر فصارت بذلك جزيرة، وكانت قبل ذلك شبه جزيرة تحيط بها مياه نهر دجلة من جميع الجهات، وكانت بذلك كالهلال.

كما ذكر الحموي وقد حفر هناك خندق. أجري فيه الماء ونصبت عليه رحى فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق، وهذه الجزيرة تعد من نواحي ديار ربيعة، وتقع على خط طول ٤٢ درجة و١١ دقيقة شرقاً، وعلى خط عرض ٢٧ درجة شمالاً.

وهي تقع شمالي مدينة الموصل وبينها وبين الموصل مسيرة ثلاثة أيام، وتقدر المسافة بينهما بثلاثين فرسخاً، ومن مدنها وقراها: فيشابور، باعيناي، والمغيثية، والزوزان.

ولكونها جزيرة في وسط مياه نهر دجلة، فمما لا شك فيه أن المياه العذبة متوفرة فيها بكثرة؛ ولذلك فأرضها خصبة كثيرة الأشجار، وبها مسجد عتيق جيد البناء، وسورها حصين، وبها سوق حسن نشط في الحركة التجارية. وكانت عند زيارة ابن بطوطة لها في عام (٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م - ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) كثيرة الخراب ربما لتعرضها لتدمير التتار[٢].

---

(١) تقع حالياً في الأراضي التركية، وهي قضاء في سنجق ماهاردين بولاية ديار بكر. والنسبة إليها جزري.

(٢) انظر: ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب مادة جزيرة.
الإصطخري: المسالك والممالك ص (٥٣).
المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢١)و (١٢٤).
ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ص (٢٠٢) و (٢٠٣).
أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٨٢ - ٢٨٣).

١٣- مدينة إربِل(١):

تقع مدينة إربل بين الزابين الأعلى والأسفل، طولها ٦٩ درجة وعرضها ٣٥ درجة ونصف وثلث درجة. وهي مدينة مشهورة بإقليم الجزيرة الفراتية قرب مدينة الموصل من جهتها الشرقية، وبينهما مسيرة يومين وقيل: مرحلتين. كانت تعد من أعمال الموصل حتى استقل بها زين الدين علي كوجك مؤسساً أتابكية مستقلاً بها (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)، وقد ازدهرت في عهد ابنه مظفر الدين كوكبوري(٢) (٥٨٦-٦٣٠هـ/ ١١٩٠-١٢٣٢م).

وهي مدينة كبيرة أنشئت في فضاء من الأرض واسع منبسط، يتوسط إقليماً غنياً خصباً، وهي شبه هضبة(٣) مستوية الارتفاع، ومع أنها تعتبر خط تقسيم المياه بين نهري الزاب إلا أنه لا يوجد بها نهر يجري طول العام، وإنما تنساب فيها عدة أودية أو نهيرات صغيرة غير ثابتة الجريان، تجري فقط في

= لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٢٣).
دائرة المعارف الإسلامية مادة جزيرة.

(١) مدينة إربل: مدينة عراقية تسمى حالياً أربيل، وهي محافظة تتبعها عدة أقضية، واسمها عربي مشتق من الربل، وهو نوع من الشجر.

(٢) علي كوجك: كوجك: اسم أعجمي يعني: الصغير، وعلي كوجك تركماني الأصل (ت٥٦٣هـ).
أما مظفر الدين فهو ابنه أبو سعيد كوكبوري الذي اشتهرت إربل في عهده وصارت لها مكانة مرموقة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤:١١٣).

(٣) انظر: ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب مادة: إربل.
ياقوت الحموي: معجم البلدان: (١:١٣٧- ١٣٨).
دائرة المعارف الإسلامية مادة إربل. لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٢١).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٢٩٠).
القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٣:٢٩٨)
ويبلغ متوسط ارتفاع هذه الهضبة (١٣٠٠ قدم) بينما يرتفع الجزء الأسفل من المدينة (١٣٣٢قدماً) من مستوى سطح البحر.
الفقي: بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي ص (٢٦٧).

فصل الشتاء الممطر؛ لذا تعتمد الزراعة فيها إلى حد ما على قنوات مائية شقت تحت الأرض، ولا توجد حولها بساتين للفاكهة، وإنما تجلب إليها الفواكه من الجبال المجاورة.

وتدل الشواهد الحضارية بها على أن هذه المدينة العريقة قد مرت بعصر أكثر تحضراً وعمراناً مما هي عليه الآن.

أما الناحية التجارية: فللمدينة أهمية كبيرة؛ لكونها محطة تجارية هامة، ومركزاً لحركة تجارية نشطة، ففيها تلتقي عدة طرق للقوافل، والطريق التجاري القديم المار بها يعتبر أقصر الطرق بين بغداد والموصل، على مسيرة سبعة أيام للقوافل، ويتفرع منها طريقان يتجهان نحو الشرق والشمال فيخترقان ممرات جبلية وعرةً حتى ينتهيا إلى أذربيجان.

وأما الناحية العمرانية، فتنقسم مدينة إربل إلى قسمين: علوي، وسفلي، ويشمل العلوي القلعة وما حولها، والقلعة مقامة على تل عالٍ مخروطي الشكل. حصينة يحيط بها سورٌ يبلغ ارتفاعه ثمانية وأربعين قدماً، وبه أبراج، وفتحات للمراقبة، ورمي السهام، وغيرها من وسائل الدفاع الأخرى.

ويحيط بهذا السور خندق عميق؛ وذلك لزيارة الاحتراس، والدفاع، ولمنع المهاجمين من تسلق السور، وليفصلهم عنه، ويجعلهم عرضة لسهام المدافعين عن القلعة.

ومن جانبه شبه ياقوت الحموي قلعة إربل بقلعة حلب الشهباء إلا أن قلعة إربل أكثر وأوسع رقعة. وكثيراً ما يقارن بينها وبين قلعة حلب وحمص[١]

---

(١) بحمد الله وفضله شاهد الباحث القلاع الثلاث: قلعة نزوى، وقلعة حلب، وقلعة حمص، وللأسف لم نتمكن من زيارة إقليم الجزيرة الفراتية؛ وذلك للظروف التي يعيش فيها هذا الإقليم حالياً.
عن الموضوع انظر: الحموي: معجم البلدان (١ :١٣٧).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٢٩٠).

وهذا يدلنا على تقاربٍ في النمط الحضاري المعماري الإسلامي.

وعن مسجد الكف الذي بها قال القزويني[1]: «فيه حجرٌ عليه أثر كف إنسانٍ، ولأهل إربل فيه أقاويل كثيرة، ولا ريب أنه شيء عجيب»، ومع ذكره المظفر الدين كوكبوري فإنه لم نسب بناء هذا المسجد إليه، كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية.

وتذكر بعض الدراسات الحديثة[2]: أنه يوجد في هذه المدينة الكبيرة (التي قامت في ربض القلعة وخارج أسوارها) أسواقُ، وقيساريات ينزل فيها التجار، كما تذكر أن مظفر الدين كوكبوري قام بإنشاء مسجد كبير، له منارةٌ رائعة يبلغ ارتفاعها خمسمائة وثلاثة أقدام، ويبلغ محيطها ثمانية وأربعين قدماً.

أهمية القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد):

شهد إقليم الجزيرة الفراتية خلال القرنين السادس، والسابع الهجريين (الثاني عشر، والثالث عشر للميلاد) تغيراتٍ عديدة شملت الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية. فبالنسبة للأوضاع السياسية: حدث منذ منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أن بسط سلاطين السلاجقة نفوذهم على معظم مشرق العالم الإسلامي وأقاموا لهم عدداً من

= القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٣:٢٩٨).

لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٢١ - ١٢٢).

دائرة المعارف الإسلامية مادة إربل.

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص (٢٩٠).

(٢) لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٢١ - ١٢٢). - دائرة المعارف الإسلامية مادة إربل.

ورد ذكر إربل في الكتابات السومرية في الألف الثانية قبل الميلاد باسم «إرباليو» انظر: المنجد في اللغة والأعلام.

الإمارات الخاضعة لنفوذهم عرفت باسم: الأتابكيات. وعلى هذا النحو قامت في إقليم الجزيرة الفراتية الإمارات الأرتقية في الأجزاء الشمالية، بينما قامت الزنكية في الأجزاء الجنوبية منه.

وكان الصراع الداخلي، والتطاحن على الأرض والسلطة بين هذه القوى على أشده؛ مما أدى إلى ضعفهم فيما بعد، وبالتالي أتاح لبعض الخلفاء العباسيين استرداد بعض ما كان لهم سابقاً من نفوذ وسلطان. وكان وصول الصليبيين في أواخر القرن الخامس الهجري، نذيراً بظهور عدوٍّ جديد وهم الفرنجة الصليبيون، الذين غزوا المنطقة ثم أقاموا أول إمارة صليبية لهم في مدينة الرها بإقليم الجزيرة الفراتية[1] في سنة (٤٩٤هـ/١٠٩٨م).

وبهذا أصبح إقليم الجزيرة الفراتية مسرحاً من مسارح الحروب الصليبية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وبالإضافة إلى نشاط أمراء الرها الصليبيين في مهاجمة معاقل المسلمين في هذا الإقليم دأب هؤلاء الأمراء على تقديم المعونة لإخوانهم الصليبيين في بلاد الشام، بل إن بلدوين دي بواين - أمير الرها- اعتلى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية في مستهل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وفي النصف الثاني من هذا القرن (السادس الهجري) شهد هذا الإقليم صراعاً جديداً كان في تلك المرة بين الأمراء الأتابكية من: زنكيين وأراتقة من جهة، وبين الأيوبيين من جهة ثانية، حتى استولى الأيوبيون على غالبية هذا الإقليم.

وهكذا حتى كان النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) عندما أصيب إقليم الجزيرة الفراتية (كغيره من بلاد المشرق الإسلامي) بنكبة فادحة نتيجة للغزو التتري، إذ اجتاح التتار بلاد فارس، ثم

---

(١) انظر: حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي (المقدمة). مقدمة كتاب ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم للمحقق.
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٢).

العراق، وإقليم الجزيرة الفراتية حتى دخلوا بلاد الشام.

أما عن الجانب الاجتماعي: فقد حفل إقليم الجزيرة الفراتية خلال هذين القرنين بعديد من الأجناس، والديانات، والمذاهب، بالإضافة إلى القبائل العربية التي استقرت على أرضه منذ ما قبل الإسلام والقبائل التي نزحت إليه بعد الفتوحات الإسلامية[١].

ويضاف إلى ذلك أن أعداداً كثيرة من السريان والأرمن أقاموا لأنفسهم عدة إمارات أشهرها إمارة الرها، وكذلك نزحت إلى هذا الإقليم فضلاً عن بعض قبائل الأكراد والتركمان ثم الأتراك الذين نزحوا إلى هذا الإقليم أيضاً.

أما بالنسبة للأديان، والعقائد، والمذاهب: فبالإضافة إلى المسلمين وجدت أيضاً أعداد كبيرة من الطوائف النصرانية كالنساطرة، واليعاقبة. وكذلك وجدت أعداد غير قليلة من اليهود وغيرهم من الطوائف الأخرى[٢].

وإذا نظرنا إلى النشاط الاقتصادي في إقليم الجزيرة الفراتية، فإننا نلمس نموا، وازدهاراً ملحوظين في الحياة الاقتصادية، مما أدى إلى ازدهار الحركة العمرانية فاتسعت الرقعة الزراعية، وتنوعت المحاصيل الزراعية، وكثرت الفواكه، وغيرها، وعم الرخاء.

وقد ظهر الازدهار الاقتصادي بوضوح في عالم التجارة؛ إذ نشطت الحركة التجارية في مدن، وقرى إقليم الجزيرة الفراتية، وفيما بينها وبين مدن بلاد الشام، على الرغم من الحرب المستمرة بين المسلمين والصليبيين في القرنين الخامس والسادس للهجرة[٣].

---

(١) انظر حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي (المقدمة).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر في حديث عن الحياة الاجتماعية.

(٢) انظر: أ.د: سعيد عبد الفتاح عاشور: توجيهات في البحث.
حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي (المقدمة).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر. حديثه عن الحياة الاجتماعية فيها.

(٣) انظر: غندور: ن. م ص (٣٣٢).

ولا شك في أن هذا الازدهار الاقتصادي جاء مصحوباً بنشاط في مجالي: الصناعة، والفنون، إذ نزح كثيرٌ من صناع وبنائي مدينة تكريت المشهورين في هاتين الحرفتين إلى إقليم الجزيرة، وذلك بتشجيع من ملوك هذا الإقليم وأعيانه وأثريائه؛ مما أدى إلى تقدم الصناعة أيما تقدم. وقام أولئك الصناع المهرة بصناعة تحف معدنية راقية، خاصة تلك التحف النحاسية الرائعة التي نقشت عليها أسماء صناعها.

كما وجدت صناعة المنسوجات القطنية، والحريرية التي عرفت بالموسليني - نسبة إلى مدينة الموصل، كذلك تقدمت الفنون الهندسية، فأنشئت قصور فخمة، ومساجد، ومدارس جميلة زخرفت بأنواع مختلفة، ومتعددة من الزخارف، والرسوم النباتية، والحيوانية.

أما من الناحية الفكرية: فقد تميز إقليم الجزيرة الفراتية بكثرة علمائه، ومفكريه، كما اتسع تيار التصوف في تلك الحقبة، وقد وجد به عدد كبير من العلماء في مختلف مجالات العلوم العقلية والنقلية، والشعراء، والأدباء الذين نسبوا إلى مدن هذا الإقليم، ومن هؤلاء العلماء: أسرة أبناء الأثير الجزري، وأبناء عبد الكريم الجزري، نسبة إلى جزيرة ابن عمرٍ، كذلك من العلماء المشهورين: العالم المتعدد المواهب أبو القاسم حسن بن بشر الآمدي، نسبة إلى مدينة آمد، والعالم المحدث أبو أحمد القاسم الشيباني الإربلي نسبة إلى مدينة إربل، والعالم أبو عمر هلال الرقي نسبة إلى مدينة الرقة، وأبو الحسن على الحراني نسبة إلى مدينة حران، وهو مصنف تاريخ الجزيرة وغيرهم كثيرون[١].

- عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٤٣٢ - ٤٣٣).

(١) انظر: أ.د: سعيد عبد الفتاح عاشور: توجيهات في البحث.
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٣٢٠- ٣٢١).
عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٤٥٤ - ٤٥٥).
مقدمة محقق كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي.
الصرفي، رزق الله: تاريخ دول الإسلام، الدار العالمية، القاهرة (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) (٢:٩٦).

وهكذا حتى كان غزو التتار المدمر له في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)؛ مما دفع أولئك العلماء، والشعراء، والأدباء، والصناع، والبنائين المهرة إلى الهجرة إلى مناطق أخرى أكثر منه أمناً، واستقراراً، كبلاد الشام، ومصر، وغيرهما من المناطق المجاورة، حيث نشروا بها ما بجعبتهم من معارف، وعلوم وصناعات كان لها تأثيرها في تلك البلاد.

وسار خلفاء طغرلبك من بعده على ذلك المنوال، حتى أصبح نفوذ الخليفة العباسي نفوذاً اسمياً، وقد حدد ذلك السلطان مسعود بن محمد فقال: «لا أريد يجلس إلا من لا يدخل نفسه في غير أمور الدين، ولا يجند، ولا يتخذ، ولا يجمع، ولا يخرج عليّ ولا على أهل بيتي»[(١)].

وسارت الأمور على تلك الحال حتى وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه. وعن موته قال ابن الأثير[(٢)]: «ومات معه سعادة البيت السلجوقي» (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) وهو آخر سلاطين السلاجقة العظام في العراق؛ حيث بدأ الخلفاء العباسيون بعده يستردون بعض سلطتهم، ونفوذهم.

وإذا كان نفوذ الخلافة قد انكمش داخل بغداد، مركز الخلافة نفسها، فمما لا شك فيه أن يكون ذلك الانكماش قد حدث أيضاً في المناطق الأخرى، ومن بينها إقليم الجزيرة الفراتية، إذ دأب سلاطين السلاجقة على إرسال القادة، ويعينون عليه الولاة، والحكام دون الرجوع إلى الخليفة العباسي. وكان خضوع إقليم الجزيرة الفراتية لسلطة السلاطين السلاجقة عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م)، وكانوا يعينون عليه الولاة الذين عرفوا في التاريخ باسم الأتابكة[(٣)].

---

(١) تاريخ ابن الأزرق الفارقي بذيل، تاريخ دمشق لابن القلانسي ص (٥٠، ٥١) نقلاً عن الأنباري بكونه شاهد عيان ابن أبي واصل: مفرج الكروب: (١: ٦٠- ٦٢).

(٢) الكامل في التاريخ دار صادر بيروت (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م) (١١: ١٦٠).

(٣) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ: (١٠: ١٣٤- ١٣٧).

ابن الأزرق: تاريخ الفارقي تحقيق د. بدوي عوض، دار الكتاب اللبناني بيروت ص (٢١٢- ٢١٣).

ابن خلكان: وفيات الأعيان (١: ٣٦٥).

والأتابك: مصطلح سياسي مركب من كلمتين «أتا» وتعني: أب، و«بك» وتعني أمير، وتعني الكلمتان مجتمعتان: «الأمير الوالد»، أو «مربي الأمير»، وهي كلمة تركية أطلقها السلاجقة على من يتولى تربية، ورعاية شئون الأمير السلجوقي الصغير، الذي ينوب عن والده السلطان في تولي ولاية من الولايات السلجوقية.

وكان أول من لقب به هو الوزير السلجوقي الشهير، نظام الملك[١]، لقبه إياه السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م)، حين فوض إليه تدبير شئون السلطنة السلجوقية في عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)، وأنعم عليه بألقاب جليلة منها هذا اللقب الهام، الذي انبثق عنه نظام حكم استمر أكثر من قرنين من الزمان[٢].

قيام الدول الأتابكية (الأتابكيات) في القرنيين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي:

ظهر في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر

---

(١) هو أبو الحسن بن إسحاق من أبناء الدهاقين، بمدينة طوس (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م).
انظر: حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٣٠- ٣٣).
تاريخ أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة (٢: ٢٠٢).

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٨٠)، أبو الفداء: المرجع السابق (٢: ١٨٩).
القلشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح محمد حسين، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٧/ ١٩٨٧) (٤: ١٨).
دائرة المعارف الإسلامية مترجمة (٢: ٤٥- ٤٨).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل، دار النهضة العربية، بيروت (١٩٧٠) ص (٢٧).
جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٤: (٤٧٢)، دار مكتبة الحياة، بيروت.
حسن، وعلي إبراهيم: النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية ص (٧٥).

الميلادي) نظام الإقطاع الحربي الزراعي، الذي انبثق أساساً من نظام الإقطاعات العسكرية، الذي كان من أهم الأنظمة السياسية، والاجتماعية، التي وضعها السلاطين السلاجقة لإدارة دفة الأمور في أقاليم دولتهم الكبيرة المترامية الأطراف.

وكان الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك هو عمم، وطور هذا الإقطاع الحربي الزراعي، فأشار على السلطان السلجوقي ملكشاه بأن يقطع الأمراء السلاجقة، والمقربين إليهم تلك الإقطاعات؛ حتى يعفي الحكومة المركزية دفع المرتبات الثابتة لهم، وقد خص أقاربه، وذويه بالإقطاعات الهامة في بلاد فارس[1].

وقد منح أولئك القادة، والامراء تلك الاقطاعات الزراعية لاستثمارها، مقابل تعهدهم توفير الأمن، والاستقرار في مناطقهم، ودفع الغزاة عنها إذا كانت ضمن مناطق الثغور والقيام بالخدمة العسكرية التي تطلب منهم في أوقات الحرب، وجباية الضرائب والخراج، ودفع ما يشرط عليهم من مبالغ مالية لخزانة الدولة السلجوقية، وهؤلاء الأمراء المقطعون كانوا مسؤولين مسؤولية مباشرة أمام السلطان السلجوقي[2].

---

(١) البنداري: الفتح بن علي بن محمد: اختصار تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة بيروت (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) ص (٦٠-٦١).

(٢) انظر فوزي: تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية ص (٣٣٠ - ٣٣١).

حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٠٩ - ٢١٣).

الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢٧).

غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (١٠٩ - ١١٠).

حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص (٤٦).

طرخان، إبراهيم علي: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) ص (٢١ : ٢٤).

وكان الأتابكة من جملة مماليك[1] السلاطين السلاجقة في العصر التركي، جلب غالبيتهم من بلاد القفجاق[2] بالشراء، وضموا إلى بلاط الخلفاء العباسيين، وسلاطين السلاجقة، ونشئوا تنشئة إسلامية على المذهب السني الحنفي تبعاً لأسيادهم السلاجقة.

وكانت تسند إليهم وظائف منها: رئاسة الخدم، وتنظيم القصور، ومنهم من يلحق بحرس الخليفة، أو السلطان، أو في الجيش السجلوقي بصفة عامة. وإذا ما أدوا خدمات جليلة للدولة، وأظهروا كفاءة حربية ممتازة، وبرهنوا على إخلاصهم، وولائهم للدولة. وصلوا على أعلى المناصب في الجيش، والبلاط؛ فيكونون مقربين جداً من السلطان؛ حيث اعتمد السلاطين السلاجقة عليهم. وفي مقابل ذلك كانوا يقطعون منطقة من مناطق السلطنة السلجوقية، ويكلفون بحمل أمير سلجوقي صغير معهم؛ ليتولوا رعايته، وتربيته على أساليب الحكم، والإمارة، وبذلك أطلق عليهم الأتابكة، وهو لقب قصد به التشريف، والتكريم، لأولئك القادة الكبار. وبفضل هذا النظام صار للدولة السلجوقية جيش ثابت يقوم بخدمتها دون أن يكلفها ذلك شيئاً من الأعباء المالية[3].

هذا فضلاً عن تخفيف العبء عن السلطة المركزية والعمل على توطين السلاجقة البدو في مناطق جديدة وربطهم بالأرض بدلاً من التنقل والترحال وما يجره ذلك من حروب واضطرابات، ولكن مع مرور الزمن بدأت أواصر هذه الروابط المصلحية تنفصم عراها؛ إذ حدث بعد موت السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م) أن قام صراع مرير بين أبنائه، ثم أحفاده للوصول إلى منصب السلطنة السلجوقية، وبذلك أخذ هذا النظام يتقوض تدريجياً، حتى فقد أولئك السلاطين السيطرة على زمام الأمور في سلطنتهم.

---

(١) الأتابكة: هم مماليك للسلاطين السلاجقة، وهم رقيق أبيض بخلاف العبيد الذين هم رقيق أسود.

(٢) بلاد القفجاق: تقع شمال البحر الأسود.

(٣) فوزي: تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية ص (٣٣٠).

وقد ساعد على ذلك طموح الأتابكة، الذين انفسح المجال أمامهم لتحقيق مآربهم الشخصية والتي تتمثل في:

١- سحب السلطة من الأمراء في مناطق نفوذهم.

٢- ثم إعلان استقلالهم بهذه المناطق.

ولم يكتف الأتابكة بذلك ، بل تدخلوا في شئون البيت السلجوقي، فحاول كل أمير أتابكي أن يوصل ذلك الأمير السلجوقي الصغير (صنعة يده) إلى منصب السلطنة، ليكون بالتالي هو المهيمن على مقدرات الأمور في السلطنة السلجوقية.

ولا شك في أن الصراع بين الملوك السلاجقة أتاح الفرصة لأولئك الأمراء الأتابكة لتكوين إمارات شبه مستقلة: إدارياً ومالياً، تدور في فلك السلطنة السلجوقية اسما فقط وأضفوا على أنفسهم ألقاباً فضفاضة الظاهر منها خدمة الدين، والدولة؛ وذلك لجذب قلوب الناس، واستطاعوا بهذا الأسلوب تكوين إماراتهم التي ورثوها لأعقابهم[(١)].

هكذا قامت الإمارات الأتابكية في مشرق العالم الإسلامي الخاضع لنفوذ السلطنة السلجوقية. ونذكر من هذه الإمارات:

---

(١) رحلة ابن جبير ص (١٧٢)، حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص (٣٨).

- الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ص (١٢٠، ١٦٧، ١٦٨).

- طرخان، إبراهيم: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي القاهرة (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ص (٣٠)، (٣١).

- فوزي: تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية ص (٣٣٠).

- حسنين: عبد النعيم: إيران والعراق في العصر السلجوقي، دار الكتب الإسلامية - القاهرة وبيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ص (١٣٩، ١٤٠).

١- أتابكية أرمينية (٤٩٣-٦٠٤هـ/ ١١٠٠-١٢٠٧م):

أسسها سقمان (سكمان) القطبي، وقضى عليها الأيوبيون.

٢- أتابكية ديار بكر الأراتقة (٤٥٩-٨١١هـ/ ١١٠١-١٤٠٨م):

أسسها أرتق بن أكسب التركماني، فرع كيفا قضى عليه الأيوبيون (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)، أما فرع ماردين فقضى عليه قراقيونلي (٨١١هـ/١٤٠٨م):

٣- أتابكية دمشق (٤٩٧-٥٤٩هـ/ ١١٠٣-١١٥٤م):

أسسها سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين. قضى عليها نور الدين زنكي؛ حيث ضمها للأتابكية الزنكية ببلاد الشام.

٤- أتابكية الزنكيين (٥٢١-٦٣١هـ/ ١١٢٧-١٢٣٤م):

أسسها عماد الدين زنكي بن أقسنقر. وقضى عليها مملوكهم بدر الدين لؤلؤ، ثم قضى عليها التتار سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م).

٥- أتابكية أذربيجان (٥٣١-٦٢٢هـ/ ١١٣٦-١٢٢٥م):

أسسها إيلدكز مملوك السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، سلطان العراق وما يتبعها. قضى عليها السلطان جلال الدين خوارزم شاه.

٦- أتابكية إربل (٥٣٩-٦٣٠هـ/ ١١٤٤-١٢٣٢م):

أسسها على كوجك بن بكتكين، وأعادها الخلفاء العباسيون إلى دولة الخلافة بعد وفاة مظفر الدين كوكبوري.

٧- أتابكية فارس (٥٤٣-٦٨٦هـ/ ١١٤٨-١٢٨٧م):

وأسسها سنقر بن مودود التركماني، ثم خضعت للتتار[1].

(١) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٦م =

ولم تكن هذه الأتابكيات ثابتة في رقعة جغرافية محددة، فهي تتوسع وتنكمش حسب قوة الأتابكي، ويزيد عددها كلما مات أتابك من أتابكياتها فتنقسم أتابكيته بين أولاده، وهذا ما كان يحدث دائماً للأتابكيات الأرتقية، والزنكية في إقليم الجزيرة الفراتية، وسنتحدث عنها حسب التسلسل الزمني لقيامها[1].

= ص (١١٦).

جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣-٤٧٢- ٤٧٢).

استانلي بول: الدول الإسلامية، القسم الأول، ترجمة محمد صبحي فرزات: مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق ص (٣٤٠- ٣٤١).

حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جداول الأتابكيات (٤:٦٢ - ٦٦)، (٨٢ - ٩٤).

الصرفي: تاريخ دول الإسلام (٢:١٢٨- ١٤٣).

الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢٧ - ٣٠).

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠:٢٨٢ - ٢٨٣، ٣٤٣).

ابن خلكان: وفيات الأعيان (١:١٩١)، دار صادر بيروت.

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق مع كتب أخرى، مكتبة المتنبي القاهرة ص (١٣٥).

أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٢:١١٩).

أستانلي بول: الدول الإسلامية ص (٣٥١).

سعيد عاشور: الحركة الصليبية (١:٢٣٧).

أستانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ص (١٥٦).

الصرفي رزق الله: تاريخ دول الإسلام (٢:١٣٤)، دائرة معارف القرن العشرين، مادة أراتقة، وتركمان.

حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤:٨٠ - ٨١)، خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، مؤسسة الرسالة (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) بيروت ص (٥٧ - ٦٥، ٨٧ - ٨٨، ٩١ - ٩٢).

ابن خلدون: العبر والمبتدأ والخبر. دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة ١٩٨٣م (٥:٤٦١ - ٤٦٧). ابن الأزرق: تاريخ الفارقي ص (٢٧٧)، (٢٧٩)، (٢٨٣).

أولاً: الأتابكيات الأرتقية:

ينسب الأراتقة إلى جدهم أرتق بن أكسب[1]، الذي ينتمي إلى قبيلة التركمان إحدى القبائل التركية.

وكان أرتق بن أكسب أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م)، ثم صار أحد قادة الجيش السلجوقي، وخدم مع تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق؛ فأقطعه بيت المقدس. وبعد وفاة أرتق في سنة (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) خلفه ابنه سقمان.

وعندما هزم الجيش السلجوقي من قبل الصليبيين عند مدينة أنطاكية سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م)، وتفرقت جموعه، وضعفوا، استغل الفاطميون ذلك الضعف كما استغلوا موت أرتق أيضاً؛ فاستولوا على مدينة بيت المقدس، بقيادة أمير الجيوش الأفضل بن بدر الدين الجمالي سنة (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م). بينما ذكر ابن خلكان أن ذلك كان في عام (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م).

وأنعم الأفضل على الأميرين: سقمان وأخيه، إيلغازي ومن معهما- بالأمان، وسمح لهم بالخروج من بيت المقدس، فتوجهوا إلى ديار بكر بإقليم الجزيرة الفراتية، ثم سار إيلغازي إلى بغداد، في حين أقام سقمان بمدينة الرها، وبعد ذلك استولى على مدينتي حصن كيفا في عام (٤٩٥هـ/ ١١٠١م)، وماردين في عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٣م)، ثم أقطعه إياهما رسمياً السلطان محمد بن ملكشاه، وأضاف إليهما مدينة نصيبين، وجزءاً من مدينة ميافارقين، وأقام بذلك أولى الأتابكيات الأرتقية بديار بكر بإقليم الجزيرة الفراتية.

انقسام الأتابكية الأرتقية:

بعد وفاة سقمان بن أرتق بن أكسب في سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م)، انتزع

---

(١) هكذا ورد عند ابن الأثير بالباء، بينما ذكر ابن خلكان، وأبو الفداء بأن اسمه أكسك بالكاف بدل الباء.

أخوه إيلغازي بن أرتق ماردين من ابن أخيه إبراهيم بن سقمان، واستقل بها، وبذلك انقسمت الأتابكية الأرتقية إلى فرعين: الفرع الأول بحصن كيفا. والفرع الثاني بماردين[1]:

فرع الأتابكية الأرتقية بحصن كيفا (٤٩٥-٦٢٩هـ/ ١١٠١-١٢٣١م):

خلف إبراهيم بن سقمان أباه في هذا الفرع، الذي كانت مدينة حصن كيفا قاعدته، وتوارث ملكه بنو سقمان، فبعد إبراهيم جاء أخوه داود (٥٠٢-٥٤٣هـ/ ١١٠٨-١١٤٨م)، ثم فخر الدين قرا ارسلان، الذي عظم شأنه، وملك أكثر ديار بكر (٥٤٣-٥٦٢هـ/ ١١٤٨- ١١٦٦م). ثم نور الدين محمد بن قرا ارسلان الذ حكم من (٥٧٠ - ٥٨١هـ/ ١١٧٤-١١٨٥م).

وكانت له علاقة وطيدة مع السلطان صلاح الدين الأيوبي؛ حيث تعاون معه في حروبه ضد الأمراء المحليين، والصليبيين، فكافأه صلاح الدين بمنحه مدينة آمد بعد أن أخذها من صاحبها ابن نيسان[2]، وذلك في عام (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م). وفي عهد قطب الدين سقمان الثاني بن محمد (٥٨١ - ٥٩٧هـ/ ١١٨٥ -١٢٠٠م) حاول عمه عماد الدين بن قرا ارسلان أن يملك البلاد بعد وفاة أخيه (٥٨١هـ/ ١١٨٥م) ولكنه لم يتمكن من ذلك.

مدينة خرتبرت[3]:

في عهد قطب الدين سقمان الثاني، أصبح هذا الفرع تابعاً لصلاح الدين

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٣٨٩ - ٣٩٢).
أبو الفداء: تاريخ أبي الفداء (٢: ٢١٩).
الصرفي: تاريخ دول الإسلام (٢: ١٣٤- ١٣٥).
خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٩٢).

(٢) اشتهر بالظلم، والتعسف على رعيته، وبالبخل الشديد؛ مما جعلهم يسخطون عليه، ويسلمون المدينة لصلاح الدين.

(٣) خرتبرت: مدينة في أقصى ديار بكر من بلاد الروم، بينها وبين ملطية مسيرة يومين، =

الأيوبي، واستمر على تلك الحال حتى قضى عليه الملك الأيوبي الكامل بن العادل سنة (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)، وذلك في عهد آخر ملوكها (أي / ملوك مدينة خرتبرت) المسعود بن محمود بن محمد الأرتقي (٦١٩ - ٦٢٩هـ/ ١٢٢٢-١٢٣١م)[1].

فرع الأتابكية الأرتقية بماردين (٤٩٨- ٨١١هـ/ ١١٠٤- ١٤٠٨م):

توجه نجم الدين إيلغازي بن أرتق بعد رحيله مع أخيه سقمان من بيت المقدس إلى بغداد، وهناك ولاه السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ/ ١١٠٤- ١١١٧م) شحنكية لبغداد.

وبعد وفاة أخيه سقمان قصد ديار بكر بإقليم الجزيرة الفراتية، واستولى على مدينة ماردين من إبراهيم بن أخيه سقمان، وأقام بها أتابكية ماردين، واتخذها قاعدة له. وكانت مدة ملكه ثمانية عشر عاماً (٤٩٨- ٥١٦هـ/ ١١٠٤-١١٢٢م).

وفي عهده وسع رقعة أتابكيته، فضم إليها عدداً من القلاع، والحصون، والقرى في ديار بكر، وبلاد الشام، وفي عام (٥١١هـ/ ١١١٧م) ضم إليها مدينة حلب، وفي سنة (٥١٥هـ/ ١١٢١م) أقطعه السلطان السلجوقي مغيث

= ويفصلهما نهر الفرات.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف بيروت (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ص (١٣: ٩٣).

سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ٣٨٢).

أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق أحمد بسيوني البيومي، القسم الثاني، دمشق ١٩٩٢م ص (٩٥، ٩٦).

ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٤٨٢ - ٤٨٤).

أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٣: ٦٤، ٦٨).

استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ص (١٥٦).

الصرفي: تاريخ دول الإسلام ص (١٣٦ - ١٣٧).

الدين محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١- ٥٢٥هـ/ ١١١٧- ١١٣١م) مدينة ميافارقين، وفوّض إليه رسمياً حكم ماردين وميافارقين، واستمر الوضع كذلك إلى أن توفي في عام (٥١٦هـ/ ١١١٢م) بمدينة ميافارقين، ثم انقسمت أتابكيته بين أولاده وأبناء إخوته[(١)] على النحو التالي:

صارت مدينة ماردين من نصيب ابنه الأكبر حسام الدين تمرتاش كما كان من نصيبه الجزء الجنوبي من ديار بكر. وأخذ ابنه الثاني شمس الدولة سقمان مدينة ميافارقين (أي: الجزء الشمالي من ديار بكر)، بينما أخذ بدر الدولة سليمان ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق مدينة حلب، أما نور الدولة بلك ابن أخيه بهرام بن أرتق فكانت مدينة خرتبرت في الشمال من نصيبه، وأضاف عليها مدينة حران في الجنوب في سنة (٥١٧هـ/ ١١٢٣م).

على أن هذا التقسيم لم يكن ثابتاً، فقد تغير عدة مرات، فبالإضافة إلى استيلاء بلك بن بهرام على حران أخذ في نفس العام أيضاً مدينة حلب من ابن عمه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار؛ لأنه لم يستطع المحافظة عليها، حيث سلم حصن الإثارب إلى الصليبيين. وبقيت حلب بيد بلك إلى أن قتل في سنة

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٥٣١- ٥٣٢، ٥٩١ - ٥٩٢)، تاريخ أبي الفداء (٢: ٢٣٠- ٢٣١، ٢٣٦).

تاريخ ابن خلدون (٥: ٤٦٨- ٤٦٩)، ابن الأزرق: تاريخ الفارقي ص (٢٨٣).

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، نشر مكتبة المتنبي، القاهرة ص (٢٠٢)، (٢٠٧).

سعيد عاشور: الحركة الصليبية (١: ٥١١).

استانلي بول: الدول الإسلامية ص (٣٥٢) طبعة سنة ١٩٦٣.

طبقات سلاطين الإسلام ص (١٥٦)، (١٥٧).

خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٩٥).

حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٩٩).

الصرفي: تاريخ دول الإسلام ص (١٣٧)، (١٣٩).

حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٨١).

(٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، خلال محاصرته لمدينة منبج فخرج عليه الصليبيون لمنعه من أخذها؛ خوفاً من أن يقوى بها؛ فقاتلهم حولها، وخلال قتاله أصابه سهم فقتله، ثم أخذ ابن عمه حسام الدين تمرتاش مدينة حلب من بعده، لكنه لم يستطع الاستقرار في بلاد الشام؛ لكثرة الحروب مع الصليبيين وكان أن طلب أهل الشام نجدة صاحب الموصل سيف الدين أقسنقر البرسقي، وسلموه المدينة، وتم ذلك في عام (٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، وبذلك خرجت حلب وبلاد الشام من هذه الأتابكية(١).

علاقة الأراتقة بالقوى في المنطقة:

كانت أولى تلك العلاقات علاقتهم الرسمية بالخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية، وقد وصفت بأنها علاقات جيدة، وذلك منذ قيام هذه الأتابكية على يد سقمان بن أرتق عام (٤٩٥هـ/ ١١٠١م).

فكان أمراؤها يخطبون للخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة معاً، ويضربون السكة باسمهم، معلنين الطاعة، والخضوع لهم، ويدفعون لخزانة الدولة السلجوقية مبلغاً معلوماً من المال سنوياً مقابل إقطاعهم تلك الأراضي، ويساهمون بمجموعة من العساكر في الجيوش السلجوقية عندما يطلب منهم ذلك.

---

(١) انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، مع كتب: ابن الأزرق الفارقي، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، والحافظ الذهبي ص (٢٠٨ - ٢١٢).
ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٦١١، ٦١٩، ٦٢٣، ٦٢٤).
أبو الفداء: تاريخ أبي الفداء (٢: ٢٣٦- ٢٣٨).
سعيد عاشور: الحركة الصليبية (١: ٥١١) طبعة ١٩٦٣م.
استانلي بول: الدولة الإسلامية ص (٣٥٢).
استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ص (١٥٦- ١٥٧).
الصرفي: تاريخ دول الإسلام ص (١٤٠).
الفقي: بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي ص (٢٢٠).

لكن حدث - عندما تم إقطاع عماد الدين زنكي الموصل، وما فتحه من إقليم الجزيرة، وبلاد الشام عام (٥٢١هـ -١١٢٧م) من قبل السلطان السلجوقي محمود بن محمد (٥١١- ٥٢٥هـ/ ١١١٧- ١١٣١م) أن تغير ميزان القوى في المنطقة، سواء من ناحية الصلات الداخلية بين الأمراء المحليين، أو من حيث علاقات القوى الإسلامية بالصليبيين[١].

وسبب ذلك أن زنكي عندما أقام أتابكيته في الموصل، أخذ في التوسع على حساب جيرانه، وكان من بينهم الأراتقة، فأخذ منهم مدينة نصيبين في سنة (٥٢١هـ/ ١١٢٧م). كذلك استولى في عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) على عدد من المدن، والقرى، والحصون التابعة لهم بديار بكر، ثم خضع فرع الأتابكية الأرتقية بماردين للزنكيين، سواء كانوا في الموصل، أو في بلاد الشام، وبعد ذلك خضع لصلاح الدين الأيوبي[٢]. وكان ذلك في عهد حسام الدين پولق أرسلان بن إيلغازي الأرتقي (٥٨٠- ٥٩٧هـ، ١١٨٤- ١٢٠٠م) الذي خلف والده قطب الدين إيلغازي الثاني، صاحب ماردين وميافارقين (٥٧٢- ٥٨٠هـ/ ١١٧٦- ١١٨٤م)، وحليف صلاح الدين الأيوبي.

---

(١) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (١٠٨)، (١٠٩)، وسنتناول ذلك بتفصيل أكثر عند حديثنا عن الخطر الصليبي، ومقاومته من قبل القوى المحلية، (ومن ضمنها الأراتقة)، وعن البيت الزنكي وعلاقته بالقوى المحلية، وعن ظهور التتار في المنطقة.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٦٤٦ - ١١: ٩٤، ٤٧٥٦- ٤٧٦).

تاريخ أبي الفداء (٢: ٢٣٩، ٣: ٢٦، ٦٤: ٦٩). حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ١٨).

الفقي: بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي ص (٢٢١).

سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد (١٣٧٠، ١٣٧١هـ/ ١٩٥١، ١٩٥٢م القسم الأول (٣٨٣، ٣٨٤).

أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين القسم الثاني، تحقيق أحمد البسيوني، وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٩٢ ص (٩٥، ٩٦).

وكان يولق أرسلان هذا طفلاً صغيراً، تكفله خال والده شاه أرمن، صاحب خلاط. ولما توفي أرسلان هذا طمع شاه أرمن في أخذ ميافارقين، لكنه توفي هو الآخر بها وعندما علم السلطان صلاح الدين الأيوبي بوفاته سار لأخذ خلاط؛ لأن شاه أرمن لا وريث له. وفي طريقه رأى أن يستولى على مدينة ميافارقين أولاً، فاستولى عليها سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م).

وبذلك تم فصلها عن أتابكية ماردين، التي حاول العادل الأيوبي فيما بعد القضاء عليها لكنه لم يتمكن من ذلك[١].

واستمر الأراتقة من سلالة إيلغازي في ماردين إلى القرن التاسع الهجري (٨١١هـ) الخامس عشر الميلادي (١٤٠٨م)، وذلك في فترة سيطرة التتار على إقليم الجزيرة الفراتية وخضع لهم الأراتقة، وقدموا لهم الولاء والطاعة بخلاف الملوك الآخرين؛ مما جعل التتار يكافئونهم، فضم هولاكو إليهم: مدينة نصيبين، والخابور في سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨م) ثم أضافوا إليها ديار ربيعة، ومضر في سنة (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م)[٢].

وقد أشاد بملوك الأراتقة (خاصة الملك المنصور)[٣] الشاعر المشهور صفى الدين الحلي (ت ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م) بقصائده، التي سماها الأرتقيات،

---

(١) انظر: ابن الأثر: الكامل في التاريخ (١١: ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٣، ٥١٥، ٥١٦).
تاريخ أبي الفداء (٣: ٦٨، ٦٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ٣١٦).
الصرفي: تاريخ دول الإسلام (٢: ١٤٠).

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي القاهرة (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، (١: ٤٥٧- ٤٥٨).
الفقي: بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي ص (٢٢١).
القرماني: أخبار الدول وآثار الأول (٢: ٤٧١، ٤٧٢).

(٣) هو الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازي بن الملك المظفر قرا أرسلان الأرتقي (٦٩٣- ٧١٢هـ/ ١٢٩٤-١٣١٢م) ملك ماردين.
ابن كثير: البداية والنهاية (١٤: ٦٨)، استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ص(١٥٨).

وجعل حروف أوائل أبياتها كحروف أواخرها، وجعل عدد أبياتها بعدد حروف الهجاء، وضمها في ديوانه: دور البحور في مدائح الملك المنصور[1].

الأتابكية الزنكية:

سنتطرق هنا إلى ذكر قيام الأتابكية في الموصل، وما تفرع عنها من أتابكيات في إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) تاركين الحديث عن علاقاتها مع القوى الأخرى في المنطقة لحين حديثنا عن البيت الزنكي ودوره على مسرح الأحداث.

١- أتابكية الموصل (٥٢١- ٦٦٠هـ/ ١١٢٧- ١٢٦٢م):

سبق لنا أن تحدثنا عن قيام سلاطين السلاجقة بإقطاع مناطق من أرضهم لكبار رجال دولتهم - سواء كانوا من الأمراء السلاجقة، أو من قادة جيوشهم الذين كانوا أصلاً من مماليكهم الخواص - مكافأةً لهم على جهودهم، وولائهم لهم.

وكانت الموصل ضمن تلك المناطق، التي تعاقب عليها عددٌ من أولئك القادة في الفترة (٤٨٩- ٥٢١هـ/ ١٠٩٥-١١٢٧م)، وكان من بينهم جيوش بك الذي أقطعه إياها السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ/ ١١٠٤-١١١٧م) وعهد إليه بتربية ابنه مسعود وجعله أتابكا له.

وبعد وفاة السلطان محمد المذكور عام (٥١١هـ/ ١١١٧م) أراد جيوش بك أن يجلس مسعوداً على عرش السلطنة السلجوقية سنة (٥١٤هـ/ ١١٢٠م)، وانضم إليه في ذلك عماد الدين بن زنكي بن أقسنقر الحاجب، ولكن باءت محاولتهم بالفشل، واستتب الأمر للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه

---

(١) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٥٠٢)، دائرة معارف القرن العشرين مادة «أراتقة».

(٥١١- ٥٢٥هـ/ ١١١٧- ١١٣١م)[١].

ثم قام السلطان محمود بن محمد بعزل جيوش بك عن الموصل؛ لكثرة تمرده عليه، وولاها أقسنقر البرسقي الغازي، واستمر فيها أقسنقر حتى وفاته (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م). وخلفه ابنه مسعود، الذي بقي سنة واحدة، وتوفي عام (٥٢١هـ/١١٢٧م)، وبعده أقطعت الموصل لعماد الدين زنكي بن قسيم الدولة أقسنقر الحاجب، حيث صدر منشور من السلطان محمود بن محمد بإقطاعه إياها مع بقية إقليم الجزيرة الفراتية، وبلاد الشام، وعهد إليه بتربية ولديه: ألب أرسلان، وفروخ شاه المعروف بالخفاجي، وجعله أتابكا لهما[٢].

ومنذ ذلك التاريخ أطلق على عماد الدين زنكي «أتابك» وأخذ في توسيع رقعة أتابكيته بحيث إنه لم يمت إلا وكانت أتابكيته قد شملت غالبية مدن، وقرى الجزيرة الفراتية، وأجزاء من بلاد الشام، ومدينة شهرزور من بلاد الجبل. وبذلك صارت أتابكيته تمتد من شهرزور شرقاً إلى قرب سواحل بلاد

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠:٢٨٥، ٣٤١- ٣٤٢، ٣٨٢- ٣٨٤، ٤٢٢- ٢٢٥، ٤٢٦، ٤٣٠، ٤٥٧- ٤٥٩، ٥٣٩- ٥٤٢، ٥٦٢ - ٥٦٥، ٥٨٨).
تاريخ أبي الفداء، أو المختصر في أخبار البشر (٢:٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٥، ٢٢١، ٢٣٠، ٢٢٦).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٢:١٥٢، ١٩٥).
الموصلي: تاريخ الموصل (١:١٥٣- ١٦٥).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٥١ - ٢٥٤).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤:٦٦- ٦٩).

(٢) انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المتنبي ببغداد ص (٣١-٣٢)، الكامل في التاريخ: ابن الأثير (١٠:٦٣٣)، (٦٤٣ - ٦٤٥).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، نشر وتحقيق سامي الدهشان، دمشق (٢:٢٣٤- ٢٣٨)، (٢٤١). تاريخ أبي الفداء: (٢٣٨ - ٢٣٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢:٣٢٧- ٣٢٨). حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤:٧٠).
الموصلي: تاريخ الموصل (١:١٦٢- ١٦٦).

الشام غرباً، ومن آمد بديار بكر، وجبال الأكراد شمالاً إلى مدينة الحديثة جنوباً[١].

وبعد قتل عماد الدين زنكي عند قلعة جعبر خلال محاصرته لها (٥٤١هـ/ ١١٤٦م)، انقسمت أتابكيته إلى قسمين: قسم غربي ببلاد الشام، وبعض أجزاء من إقليم الجزيرة الفراتية، وقاعدته مدينة حلب، وكان ذلك من نصيب ابنه نور الدين محمود. وقسم شرقي بإقليم الجزيرة الفراتية، ومدينة حمص ببلاد الشام، وقاعدته الموصل، وكان من نصيب ابنه الأكبر سيف الدين غازي[٢] وعرفت هذه الأتابكية بالأتابكية الزنكية بالموصل.

والتي خلفه عليها أخوه قطب الدين مودود (٥٤٤- ٥٦٥هـ، ١١٤٩ - ١١٦٩م)، الذي ورثها لأبنائه وأحفاده من بعده.

وخلال عهد قطب الدين تبادل مع أخيه نور الدين محمود تلك المدن، والقرى المتداخلة بين أتابكيتهما، فأخذ نور الدين محمود حمص، والرَّقَّة، والرحبة ببلاد الشام مع الخزينة المالية الموجودة في مدينة سنجار. وأخذ قطب الدين مدينة سنجار بإقليم الجزيرة الفراتية. واستمر ملك أتابكية الموصل وأعمالها في عقب قطب الدين مودود، حتى خرج عليهم مملوكهم بدر الدين لؤلؤ، الذي قام بما يعرف بالانقلاب السياسي، أو الثورة على ولدي سيده الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني بن نور الدين أرسلان شاه الأول (٦٠٧ - ٦١٥هـ/ ١٢١٠ - ١٢١٨م) وهما: نور الدين أرسلان شاه الثاني، وناصر الدين محمود وكان لؤلؤ يتحين الفرص للتقرب إلى الخليفة وحاشيته، فقدم لهم الهدايا، والتحف الثمينة، فهيمن على الحكم في عهدهما إلى أن قتل

---

(١) الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٢٤)؛ الجميل: دولة الأتابكة في الموصل ص (٥٤).

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١:١١٢- ١١٣).
ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص (٨٤ - ٨٦)، (٩٥ - ٩٧).
حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي (١٠٠- ١٠١).

أخوهما ناصر الدين محمود (٦١٥ - ٦٣١هـ/ ١٢١٨ -١٢٣٣م)، فذكر اسمه على منابر بلده، ونقشه على السكة: العين والورق، وتلقب بالملك المسعود، وذلك في سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م)[1].

ثم ورثها لأبنائه بعد وفاته (٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م)، فتولى ولده الأكبر الملك الصالح إسماعيل الموصل (١٢٥٨ - ١٢٦١م/ ٦٥٧ - ٦٦٠هـ)، وعلاء الدين علي سنجار تلعفر، وسيف الدين إسحاق جزيرة ابن عمر، وحكم الاثنان الأخيران (٦٥٧ - ٦٥٨هـ/ ١٢٥٨ - ١٢٥٩م) وقضى عليهما التتار عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م).

٢- أتابكية سنجار (٥٦٦ - ٦١٧هـ/ ١١٧٠ - ١٢٢٠م):

أقامها عماد الدين زنكي الثاني بن قطب الدين مودود بن زنكي، انفصالاً عن أتابكية الموصل؛ وذلك لأن والده أوصى له بالملك من بعده على

---

(١) انظر: ابن الفوطي البغدادي: الحوادث الجامعة في المائة السابعة ص (٣٢).
ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٣٥٥) وما بعدها، (١٢: ٢٩٣، ٣٣٣، ٣٣٩).
ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص (٩٧) وما بعدها.
أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٣: ١٩٨).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ١٣٦).
الصرفي: تاريخ دول الإسلام (٢: ١٨٦ - ٢٠٠).
استانلي بول: طبقات السلاطين الإسلام ص (١٥١ - ١٥٢).
حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص (١٠٠ - ١٠١).
استانلي بول: الدول الإسلامية ص (٣٤٤).
بدري محمد: تاريخ العراق في العهد العباسي الأخير، نشر جامعة بغداد ١٩٧٣ ص (٤٣-٥٠).
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، تحقيق الأب أنطون اليسوعي نشر دار الرائد اللبناني، بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م) ص (٤٣٥).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٠٨- ٢١٠).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٥٥).

الموصل؛ لكونه أكبر أولاده، لكن زوجته خاتون بنت حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي أم سيف الدين غازي، ومملوكه فخر الدين عبد المسيح[1] المتنفذ في الدولة - جعلاه يغير من وصيته له إلى أخيه الأصغر سيف الدين غازي الثاني؛ لأن عبد المسيح يكرهه؛ لتقربه من عمه نور الدين محمود، صاحب حلب، ثم ليسهل لنفسه السيطرة على أمور الدولة حين يتولى الملك فيها طفل صغير، ولعدم وجود من يساند هذا الطفل إذا تحكم فيها عبد المسيح، بينما سيكون نور الدين نصيراً لعماد الدين؛ لأنه تربى عنده وزوج ابنته[2].

وهذا ما حدث فعلاً بعد وفاة قطب الدين مودود (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) لكن عماد الدين زنكي استنجد بعمه نور الدين محمود، وأبلغه بسوء تصرفات فخر الدين عبد المسيح فما كان من نور الدين محمود (الذي كان يكره عبد المسيح) إلا أن تحرك؛ لتصحيح الوضع؛ فعبر إلى إقليم الجزيرة الفراتية، واستولى

---

(١) فخر الدين عبد المسيح: كان نصرانياً فأسلم، وقيل: إنه بقي على نصرانيته. ومن ثم فقد شتت رجال العلم والدين المسلمين، وأبعدهم وأذى كثيراً من المسلمين، وكان نور الدين يكرهه.
انظر: أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين (النورية، والصلاحية) تحقيق أحمد البيسومي، نشر وزارة الثقافة السورية. دمشق ١٩٩١م القسم الأول ص (٣٠٥).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٢ : ٢٦١).
ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١ : ٣٣٢)، التاريخ الباهر ص (١٣٦).

(٢) انظر: أبو شامة: نفس المرجع والصفحة. ابن كثير: البداية والنهاية (١٢ : ٢٦١).
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٧١).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية (بدمشق) (٢ : ٣٣١)، الموصلي: تاريخ الموصل (١ : ١٧٩).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤ : ٧٧- ٧٨).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٣)، الموصل في العهد الأتابكي ص (٣٠).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٩١- ٩٢).

على الرقة، ثم على منطقة الخابور كلها ومدينة نصيبين، وجمع العساكر، وسانده نور الدين محمود بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا. ثم استولى على سنجار، ثم حاصر مدينة الموصل التي سلمها إليه عبد المسيح لما رأى أن الأمراء يميلون إلى نور الدين محمود، بشرط: أن تبقى بيد سيف الدين، وأن يعطيه الأمان في ماله ونفسه. وسلمها نور الدين محمود بدوره إلى سيف الدين غازي الثاني، وجعل عنده مملوكه سعد الدين كمشتكين، وأمر سيف الدين أن يسيّر الأمور حسب مشورته. هذا في حين أقطع الابن الأكبر لقطب الدين (وهو عماد الدين زنكي الثاني) مدينة سنجار وأعمالها، فأقام بها أتابكيته على مضض؛ لكونها أقل أهمية من الموصل التي صارت بيد أخيه الأصغر منه سناً. لذا لم يستقم الحال بينهما، فتحالف عماد الدين فيما بعد مع صلاح الدين ضد أخيه سنة ٥٧٠هـ، وعند عودته إلى حلب اصطحب نور الدين محمود معه عبد المسيح، وغير اسمه إلى عبد الله، وأقطعه بعض المناطق في بلاد الشام[١]. وبعد وفاة نور الدين محمود، واستنجاد ابنه الملك الصالح إسماعيل بسيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل؛ للحد من توسعات صلاح الدين الأيوبي - رفض عماد الدين مساعدة سيف الدين؛ لأن صلاح الدين الأيوبي وعده بضم الموصل إليه. ثم خضعت الأتابكيتان لنفوذ صلاح الدين الأيوبي، وخلفائه من بعده، واستمر خلفاء عماد الدين زنكي الثاني في حكم سنجار إلى أن قضى عليها الملك الأشرف بن العادل الأيوبي عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م). وفي عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) وقعت الأتابكية في قبضة التتار[٢].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٣٦٢ - ٣٦٥)، (٤٢٠، ٤٢١).
التاريخ الباهر (١٥٢- ١٥٤)، تاريخ أبي الفداء: (٣: ٥٠)، ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٣٣١ - ٣٣٢).
أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين، القسم الأول ص (٣٠٦، ٣٠٧).
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٧٢- ٣٧٣)، الديوه جي، تاريخ الموصل (٢٩٣- ٣٩٤). الصرفي: تاريخ دول الإسلام (٢: ١٨٩).
(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٨).

٣- أتابكية الجزيرة العمرية (٥٧٦ - ٦٤٨هـ/ ١١٨٠ - ١٢٥٠م)[(١)]:

أقامها معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي الثاني بن مودود صاحب الموصل، أكبر إخوته. وكان عمره عند وفاة والده اثني عشر عاماً، لكن أمراء أتابكية والده أشاروا عليه بتولية أخيه عز الدين مسعود بن مودود؛ لكونه أكبر سناً، وأكثر خبرة بأمور الحكم والحرب، ولما اتصف به من شجاعة، وإقدام، ورجاحة عقل، وللتصدي لتوسعات صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام، والجزيرة الفراتية. فعمل بنصيحتهم، وولّى اتابكية الموصل أخاه عز الدين مسعود، وولى ابنه سنجر شاه (هذا) جزيرة ابن عمر، وقلاعها، وأعمالها، وبذلك تم فصلها عن أتابكية الموصل[(٢)]. ولإبعاده عن ملك والده في أتابكية الموصل حدث عنده رد فعل، فنقم على رعيته، وتعاون مع أعداء عمه كما فعل من قبل عمه عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود الذي تحالف مع صلاح الدين الأيوبي ضد أخيه سيف الدين غازي المذكور، وابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود. وقد وصف سنجر شاه بأنه: سيء السيرة، مدمن للخمر، مولعٌ بالطرب واللهو، ومعاقرة الغواني، وأنه ظالمٌ لرعيته، يستحل أموالهم بغير وجه حق، وكان يعاقب بأقسى أنواع العقاب: كحلق اللحى أو قطع الآذان، والأنوف، والألسنة، بل تعداه إلى قتل الأبرياء[(٣)]. ولم يسلم من شره هذا أقرب الناس إليه! أولاده الذين أبعدهم عن

= استانلي بول: الدول الإسلامية (٣٤٤). طبقات سلاطين الإسلام (١٥٢).

(١) نسبة إلى جزيرة ابن عمر سبق الحديث عنها في المقدمة الجغرافية.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٤٦٢، ٤٦٣)، الصرفي: تاريخ دول الإسلام ٢: ١٩٢ التاريخ الباهر ص (١٨١)، ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٣: ٣٩)، تاريخ أبي الفداء (٣: ٦٢)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٧٩)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ٣٠٥، ٣٠٦) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٩).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٤٢٠- ٤٢١)، (١٢: ٢٧٩- ٢٨٢)، ابن واصل: مفرج الكروب (٣: ١٨٧- ١٨٨)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٩).

قصره، ووضعهم في سجنين متباعدين عن بعضهم. ويذكر ابن الأثير تلك المعاناة التي عاشها ابنه الأكبر سيف الدين غازي في سجنه؛ مما أدى به إلى قتل والده الظالم سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م)، وهو غارقٌ في أحد مجالس الخمر والنساء. على أن الابن أيضاً قد تعرض للقتل على يد كبار رجال أتابكية أبيه، ونصبوا أخاه الأصغر معزّ الدين محمود الذي قتل أخاه الأصغر مودوداً[١]، ثم خضعت هذه الأتابكية كغيرها من الأتابكيات الزنكية والأرتقية في إقليم الجزيرة الفراتية لنفوذ وسيطرة صلاح الدين الأيوبي، ثم لخلفائه من بعده، وكانت من نصيب الملك العادل الأيوبي، وأبنائه خاصة الملك الأشرف موسى، حتى استولى التتار على المنطقة بأسرها[٢].

٤- أتابكية إربل (٥٦٣ - ٦٣٠هـ، ١١٦٧ - ١٢٣٢م)

وتسمى أيضاً الأتابكية البكتكينية نسبة إلى مؤسسها زين الدين على كوجك بن بكتكين وهو قائد تركي كان مملوكاً لعماد الدين زنكي.

وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على أن تاريخ قيام هذه الأتابكية كان عام (٥٣٩هـ/ ١١١٤م)[٣]، والحقيقة أن هذا التاريخ لا يتفق مع الظروف التي كانت تعيشها أتابكية الموصل، وهي في عز وحدتها وقوتها بفضل جهود مؤسسها عماد الدين زنكي، فكيف يسمح بانفصال إربل عنها؟ هذا إلى أنّ زين الدين علي كوجك كان أحد أعمدة الأتابكية الزنكية، وأخلصَ رجالها للأتابكة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٢٧٩- ٢٨٢)، تاريخ أبي الفداء (٣: ١١١، ١١٢).

ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٥٢)، ابن الموصلي: مفرج الكروب (٣: ١٨٨، ١٨٩)

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٩).

(٣) استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام (١٥٤، ١٥٥).

حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص (١٠٦: ١٠٧).

استانلي بول: الدول الإسلامية (٣٥٠).

حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٩).

الزنكيين في الموصل؛ لذا شغل منصب نائب الأتابك لكل من عماد الدين زنكي، ولولديه: سيف الدين غازي وقطب الدين مودود. وكان له دور بارز وكبير في توليتهما على هذه الأتابكية. والتاريخ المشار إليه كان تاريخ توليته للموصل، عندما جعله عماد الدين زنكي نائباً عنه فيها وفي الأجزاء الشرقية من أتابكيته كسنجار، وحران، وتكريت، وإربل، وغيرها. ونرجح أن تاريخ قيام هذه الأتابكية كان عام (٥٦٣هـ/ ١١٦٧م) كما أشار ابن الأثير، وذلك حين ترك زين الدين على كوجك النائب عن قطب الدين مودود صاحب الموصل خدمة سيده، وتنازل عن تلك المناطق التي أقطعت له بمحض إرادته، واحتفظ لنفسه بمدينة إربل بعد أن أحسّ بأنه قد عجز وضعف بسبب المرض فانتقل إليها، واستقر بها، وتوفي بها في ذلك العام. وبعد وفاته نصب مملوكه مجاهد الدين قايماز ابنه الأصغر زين الدين يوسف، وتولى الوصاية عليه بعد أن فرّ ابنه الأكبر مظفر الدين كوكبوري إلى الموصل، وهناك أقطعه صاحبها عزّ الدين مسعود بن مودود مدينة حران. ويرجع ذلك إلى حدوث خلاف بينه وبين مجاهد الدين قايماز[1]. ولما قام صلاح الدين الأيوبي بحركته التوسعية في إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام مستهدفاً توحيد القوى الإسلامية ضد الصليبيين، تحالف الأخوان معه، وانضما إلى صفوفه، وخضعا له مثلما خضع غيرهما من الأمراء في المنطقتين. وأقطع مظفر الدين كوكبوري[2] الذي كان قد أشار إليه من قبل بضم هذه المناطق لسلطته - حران، والرها، وسمساط.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٣٣١)، والتاريخ الباهر (١٣٥: ١٣٦).
ابن العبري: مختصر تاريخ الدول (٣٦٩)، وأبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء) (٣: ٤٤).
الصرفي: تاريخ دول الإسلام (٢: ٨٨)، أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين، القسم الأول ص (٢٨٧).

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٩- ٨٠)، حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي (١٠٦- ١٠٧). استانلي بول: الدول الإسلامية ص (٣٥٠).
استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام (١٥٤، ١٥٥).

ولما توفي أخوه زين الدين يوسف (٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) طلب مظفر الدين من صلاح الدين (الذي أصبح سلطاناً على المنطقة بتفويض من الخليفة العباسي) أن يوليه خلفاً لأخيه على إربل وشهرزور، فوافق صلاح الدين، وأقطع تلك المدن لابن أخيه تقي الدين عمر[١].

واستمر في حكمه لها إلى أن وافاه الأجل المحتوم في سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م). ولما لم يكن له أولادٌ ذكور يرثونه؛ فقد أوصى بأن يؤول ملك إربل للخليفة العباسي. وكان وقتها المتنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ، ١٢٢٦ - ١٢٤٢م)، فظلت تحت سيطرة الخلفاء العباسيين الذين كان نفوذهم قد بدأ يعود بعد القضاء على السلطنة السلجوقية نهائياً عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) على يد الخوارزميين، فولاها الخليفة شمس الدين باتكين، وكان أميراً على البصرة، فولى عليها من تولى إدارة شؤونها، ثم استولى عليها التتار عند غزوهم واستيلائهم على المنطقة مجتمعة[٢].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٤٨٢- ٤٨٣)، (١٢: ٥٦- ٥٧).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٣: ٧٩- ٨٠).
أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين القسم الثاني (٨٢ - ٨٣).

(٢) ابن الفوطي البغدادي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث، بيروت (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص (٢٨ - ٣١).
أبو شامة: الذيل على الروضتين، دار الجيل بيروت (١٩٧٤م) تحقيق عزت العطار الحسيني ص (١٦١).
استانلي بول: دول الإسلامية (٣٥٠).
استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام (١٥٥).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٨٠).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٨٦- ١٨٧).
حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي (١٠٦، ١٠٧).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٠٠).

ظهور الخطر الصليبي وأثره في إقليم الجزيرة الفراتية:

لا يسعنا في دراستنا هذه - التي حددناها في إقليم جغرافيّ معين، هو إقليم الجزيرة الفراتية، وفي فترة زمنية بعينها- أن نلم بكل ما يتعلق بالحروب الصليبية، والذي يهمنا من هذا كله، هو الخطر الصليبي وأثره على الأوضاع في إقليم الجزيرة الفراتية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين - الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، فنقول: كان لوفاة السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان في سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، وتولية ابنه الصغير محمود- وكان عمره أربع سنين وشهور- أثره في انكماش سلطة سلاطين السلاجقة خاصة في الجهات الغربية من الدولة السلجوقية وأعني بها: العراق، وإقليم الجزيرة الفراتية، وبلاد الشام وفي الإقليمين الأخيرين تقع مناطق الثغور المحاذية للإمبراطورية البيزنطية، التي ناصبت الدولة الإسلامية العداء منذ أن فتح العرب المسلمون هذه المناطق التي كانت خاضعة لنفوذها وسلطانها[(١)]. وهذا الأمر قد حدا بالإمبراطورية البيزنطية إلى استغلال الفرصة السانحة لها للانتقام، والثأر من هزيمتها على يد السلاجقة في موقعة ملاذكرد (مناكرد) في سنة (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، لذا تحالفت مع الكنيسة الغربية الكاثوليكية (البابوية في الفاتيكان)، التي وجدتها هي الأخرى فرصة لفرض سلطتها الدينية على كافة النصارى؛ فكان أن رفعوا شعار الصليب[(٢)]؛ لاسترجاع بيت المقدس من

---

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا، وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٩١، (١: ٣٥٣، ٣٨٣، ٣٩٢).

مجموعة من الباحثين: دراسات في تاريخ العراق، وحضارته بغداد ١٩٨٨م (٢: ١٤٢ - ١٤٦).

(٢) البنداري: اختصار تاريخ دولة آل سلجوق، (٤٠- ٤٤).

عاشور: الحركة الصليبية (١: ١٠٣- ١٠٧).

حسنين عبد المنعم: إيران والعراق في العصر السلجوقي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، وبيروت، (١٤٠/ ١٩٨٢) ص (١٠٩- ١١١).

مقدمة السيد الباز العريني: مترجم تاريخ الحروب الصليبية لستيفن رنسيمان (٢: =

يد المسلمين بدعوى أن المسلمين يمنعون النصارى من زيارته.

فكان أن خرجت الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، وشقت طريقها حتى وصل شطر منها إلى إقليم الجزيرة الفراتية، بعد عدة معارك خاضوها ضد المسلمين في آسيا الصغرى (الخاضعة لسلاجقة الروم)، حيث سقطت «نيقية» بأيديهم في سنة (٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م) وبعد أن انتصروا في موقعة «أسكي شهر» واصلوا سيرهم حتى عبروا جبال طوروس، وتابعوا سيرهم جنوباً واستولوا على مدينة أنطاكية من يد السلاجقة، وذلك في عام (٤٩١هـ، ١٠٩٧م)[١]. في حين انشق قسم من هذه الحملة قاصداً الرها في إقليم الجزيرة الفراتية وهناك أقام الصليبيون أول إمارة لهم في الشرق.

إقامة إمارة الرها الصليبية:

الواقع أن مدينة الرها تحتل موقعاً في إقليم الجزيرة الفراتية؛ لوقوعها على طريق التجارة بين الشرق الإسلامي (العراق وبلاد فارس)، وغربه (بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية) إضافةً إلى خصوبة أرضها التي تحيط بها أنهار كبيرة كالفرات ودجلة والبليخ؛ لذا فإن قيام إمارة صليبية فيها قد شكل خطورة كبيرة على الأوضاع، ليس في المنطقة المحيطة بها، بل شكلت خطراً كبيراً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب، وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وبين مدن إقليم الجزيرة الفراتية الشرقية وساحل بلاد الشام. كما أنها تعتبر أقرب إمارة صليبية تهدد بغداد عاصمة الخلافة العباسية، فضلاً عن أنها كانت تمثل حاجزاً بين السلاجقة في العراق وبلاد فارس وبين

= ٥- ٨، ٣: ٥- ٦). ابن خلدون: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة بيروت ١٩٨٣ (٥: ٣٨٥- ٣٨٨). سيديو: تاريخ العرب العام ص (٢٢٥).

(١) أبو الفداء: تاريخ أبي الفداء (٢: ٢١٠- ٢١١).

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (١٣٤ - ١٣٨).

ابن الأثير: الكامل (١٠: ٢٧٤- ٢٧٨). حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي (١١١- ١١٣).

الصليبيين في بلاد الشام. وكانت الرها وما حولها (أقاليم جبال طوروس، وملطية، وأنطاكية) قبل وصول الصليبيين بمثابة جزيرة مسيحية أرمنية في وسط بحر إسلامي من الأتراك والسلاجقة[1] كون فيها هؤلاء الأرمن إمارات صغيرة مستقلة نوعاً ما عن الإمبراطورية البيزنطية، والسلاجقة في آسيا الصغرى المحاذيتين لها. وأحكموا -بإتقان- ممارسة سياسة التوازن بينهما مع الاحتفاظ بكيانهم العقائدي، فهم نصارى على المذهب الكاثوليكي المغاير للمذهب الأرثوذكسي الذي تعتنقه الإمبراطورية البيزنطية. وهكذا فإن وجودهم هذا شرقي آسيا الصغرى، وأطراف الشام والعراق: قد مهد لحكم الصليبيين للمنطقة، وذلك عند قدومهم وتأسيسهم إمارة صليبية في الرها سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م)، كما مهد لإنشاء مملكة أرمينية الصغرى الصليبية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي التي كانت في الجزء[2] الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى).

وكان الأرمن - قبل عشرين عاماً من وصول الجيوش الصليبية إلى منطقتهم - قد أرسلوا سفارة إلى روما لتقنع الباب بضرورة توجيه حملة لإنقاذهم مما هم فيه من خطر السلاجقة المسلمين، ومن أمرائهم الذين أصبح ولاؤهم للإمبراطورية البيزنطية ليس سياسياً فحسب، بل عقائدياً إذا تمذهبوا بمذهب أباطرة القسطنطينية - مذهب الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية؛ ولذا رحبوا بقدوم الجيوش الصليبية إليهم، واعتبروها المنقذة لهم، وقدموا لها كل

---

(١) الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (١٩٨٦) ص (٣٣، ٣٤، ٥٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٩: ٤١٣، ٤٦٠، ١٠: ٣٢٤- ٣٢٥)، دجلان (٣٣٣- ٣٣٤)

عاشور: الحركة الصليبية (١: ٧٨- ٨١)، حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي (١١٢). انظر أيضاً: فليب متى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، نشر دار الثقافة بيروت (١٩٥٩م، ٢: ٢٢٥).

الجميلي، رشيد: دولة الأتابكة في الموصل، دار النهضة العربية بيروت ص (٥٣٠).

معونة يستطيعون تقديمها[1]. كذلك وجد الصليبيون عند وصولهم إلى قيلقية عام (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م) في الأرمن حليفاً لهم ضد الدولة البيزنطية والسلاجقة، حيث قدموا لهم كثيراً من الخدمات عند عبورهم هضبة الأناضول، فكانوا هم المرشدين لهم خلال مرتفعات طوروس، وساعدوهم عند حصارهم أنطاكية. وقد أشاد البابا جريجوري الثالث عشر بتلك المساعدات التي قدمها الأرمن للجيوش الصليبية بقوله: «لم يقدم أي شعب، أو أية أمة مساعدات تلقائية للصليبيين أكثر من الأرمن، الذين أمدوهم بالرجال والخيول والسلاح والطعام».

وخلال وجوده في تل باشر استلم بلدوين البولوني رسالة من ثوروس أمير الرها[2] يدعوه فيها بإلحاح لنجدته من كربوقا صاحب الموصل؛ لأنه كان يعد جيشاً لإنقاذ أنطاكية من الصليبيين[3].

وقد لقيت هذه الاستغاثة هوى في نفس بلدوين؛ لأنها تحقق أطماعه السياسية في تكوين إمارة له في الشرق، ومع هذا فقد أحاط موافقته على الذهاب إلى الرها بشروط تلائمه. وكان ثوروس يرغب في استخدامه كتابع له، مقابل ما يقدمه له من: أموال، ومنح، وهدايا ثمينة، لكن بلدوين رغب في أكثر من ذلك. وبعد مفاوضات وافق ثوروس على أن يتخذ بلدوين ابناً وريثاً له بالتبني - لكونه لم ينجب ولداً - وقسيماً له في حكم بلاده في حياته؛ وذلك لتقدمه في العمر وللأخطار المحدقة بدولته من قبل التركمان والأتراك في الشمال خاصة الأراتقة أصحاب ماردين وحصن كيفا، ونصيبين بديار بكر،

---

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) (٣٠٤).

(٢) الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٤٥- ٤٦، ٥٣)، وانظر أيضاً مشاركة الأرمن في الحروب الصليبية: ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ١٢٩- ١٥١). تاريخ أبي الفداء (٢: ٢١٠، ٢١١)، حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي (١١٢)

(٣) عاشور: الحركة الصليبية (١: ١٤٣، ١٤٤).

وللأخطار المحدقة بإمارته. وعند وصول بلدوين إلى الرها في شهر فبراير سنة (١٠٩٨م/ ٤٩١هـ) تم استقباله من قبل ثوروس. وأهل الرها وقادتها بكل حفاوة وترحيب وتمت مراسم تبنيه وفقاً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة الأرمينية في تلك الفترة، وبهذا التبني أصبح بلدوين وريثاً شرعياً لصاحب الإمارة وشريكاً له في الحكم[١].

وبعد أن استقر بلدوين في الرها. رأى أنه من الواجب القضاء على إمارة سميساط التركية؛ لأنها تشكل خطورة على أمن إمارة الرها، وتقطع طريق اتصالها بالغرب. وسانده أهلها على تنفيذ خطته؛ لكون أميرها بلك بن بهرام الأرتقي أشد الأعداء مراساً للحروب، وأقربهم موقعاً للرها، ولمهاجمته قطعانهم وحقولهم، وأخذه الجزية منهم. وساعد الأرمن بلدوين وجيشه الصليبي. لكن جيش بلك فاجأهم وقتل منهم ألف رجل وقبل أن ينسحبوا، استولى بلدوين على قرية جعلها بمثابة منطقة مراقبة لحركات بلك، وجيشه، وذلك للحد من تحركاتهم وفعلا وفق في ذلك. وبعد عودته ثار أهل البلد ضد ثوروس يساندهم قسطنطين الأرمني أمير كركر، وكان بلدوين على علم بهذه المؤامرة، إن لم يكن له ضلع كبير فيها[٢].

وخلاصة القول: أن أهل الرها كانوا يكرهون ثوروس؛ لانتمائه إلى كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية، ولانتمائه السياسي الخاضع للدولة البيزنطية، ثم إنه لم يستطع حماية محاصيلهم الزراعية وتجارتهم من جيرانهم المسلمين، وفرضه ضرائب باهظة عليهم؛ ليدفعها للمسلمين مقابل الهدنة معهم، فضلاً عن أنه كان بخيلاً مستبداً ومكروهاً بسبب استبداده. إذا فهذه الثورة لها دوافع قديمة، مما هيأ لها عوامل النجاح، فقتلت الجماهير الثائرة ثوروس. وبعد

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية (١: ١٤٤، ١٤٥).
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (١: ٣٠٥- ٣٠٧).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٥٥- ٥٨).

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (١: ٣٠٧- ٣٠٨). عاشور: الحركة الصليبية (١: ١٤٤- ١٤٥)، الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (١: ٥٨، ٥٩، ٧٢-٧٤).

ثورة مارس عام ١٠٩٨م هذه، أصبح بلدوين بوصفه الوريث الشرعي لثوروس، هو سيد الرها، وأميرها، وصاحب السلطان فيها بلا منازع، وتلقب بكونت الرها.

وهكذا حقق بلدوين أهدافه في تكوين أول إمارة صليبية مستقلة لنفسه في الشرق (١٠٩٨ - ١١٠٠م/ ٤٩٢ - ٤٩٤هـ) وهي الإمارة التي لعبت دوراً مهماً في الدفاع عن الوجود الصليبي في بلاد الشام من هجوم يأتيها من الشرق(١).

وبعدما تمّ لبلدوين من زعامة، أراد أن يبرهن لرعاياه الأرمن أنه أهل لثقتهم فيه، فبادر من جديد ببذل جهوده للاستيلاء على إمارة سميساط. ولما علم أميرها بلك الأرتقى بتلك الاستعدادات عرض على بلدوين تسليم المدينة مقابل عشرة آلاف دينار يدفعها بلدوين له فوافق بلدوين على ذلك، ودفعها ودخل سميساط منتصرا(٢)، وفكّ أسر الذين أخذهم بلك بن بهرام، الموجودين في قلعة سميساط وأعادهم إلى أهلهم، مما زاد في محبة أهل الرها له. وعندما لم يثق في إخلاص بلك له استدعاه إلى الرها ليكون في خدمته. ولم يكتف بلدوين باستيلائه على سميساط، بل أراد أن يؤمن حدود إمارته فتطلع إلى قلعة سروج الواقعة في الجنوب الشرقي من إمارته في بداية الطريق التجاري، الواصل بين الموصل وحلب، وكانت لنور الدولة بلك بن بهرام الأرتقى وكان بلك هو السبب في ذلك، إذ طلب مساعدة بلدوين ضد المسلمين الذين رفضوا دفع ما عليهم من مكوس لبلك، وكان بلك هذا متهاوناً في تقدير خطورة بلدوين. وبعد أن شدد بلدوين حصاره على المدينة

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية (١: ١٤٥- ١٤٦) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (١: ٣٠٨- ٣٠٩)

الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٩٥- ٦٧)/ حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام (٤: ٢٤٧).

(٢) رنسيمان: المرجع السابق (١: ٣١١).

عاشور المرجع السابق (١: ١٤٧).

وضربها بالمنجنيق، وافق أهلها على تسليم المدينة، ودفع الجزية لبلدوين. وبعد أن استولى بلدوين على المدينة ضمها إلى إمارته وكان ذلك في سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م)[١]، وقد حاول بلدوين أن يقيم سياسة التوازن بين سكان إمارته من مسلمين، وصليبيين، وأرمن، فأعطى للمسلمين حرية العبادة خاصة وأن أغلب سكان سروج كانوا من العرب المسلمين. لكن تسامحه هذا مع المسلمين لم يعجب الصليبيين. أما مع الأرمن فقد تزوج الأميرة أردا ابنة أحد زعماء الأرمن وأثريائهم؛ للربط بين الأرمن والصليبيين، لكنه لم يستطع أن يحقق ذلك[٢]؛ لأنه كان حريصاً على أن يكون العنصر اللاتيني هو دعامة مجتمعه الجديد، فشجع هجرة كثير منهم إلى إمارته، وأغدق عليهم الأموال ببذخ، مما جعلهم ينظرون إلى الأرمن نظرة استعلاء؛ لأنهم كونوا طبقة أرستقراطية عسكرية، بينما ظل الأرمن يشتغلون بالزراعة والتجارة. ومع مرور السنين استولى هؤلاء الأرمن على العمل لديهم في ظل قيود النظم الإقطاعية المعروفة في الغرب الأوربي آنذاك، إضافة إلى الضرائب الباهظة التي كان أهل الرها يدفعونها كما كانوا في عهد ثوروس. لذلك عزم الأرمن على التخلص من ذلك الحكم، فدبروا مؤامرة لقتل بلدوين، أو طرده من الرها واتصلوا بالأراتقة لمساعدتهم. ولما علم بلدوين بتلك المؤامرة أمر بالقبض على المتآمرين فسمل عيون اثنين منهم، وجدع أنوف الباقين، وقطع أرجلهم، وسجن كثيراً من الأرمن المشتبه في اشتراكهم فيها، وصادر أموالهم، وعندما لم يعثر على أموالهم قرر على كل واحد من المسجونين فداء نفسه بمبلغ ما بين عشرين ألفاً إلى ستين ألف دينار. أما صهره الذي لم يثبت اشتراكه معهم فعاد إلى منطقة الجبال، وحمل معه ما بقي من ممتلكات ابنته الأميرة، وقدره سبعمائة دينار.

---

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (١: ٣١١).

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٣١٥- ٣١٦)، عاشور الحركة الصليبية (١ : ١٤٨). الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٧٠- ٧٢).

وبهذا الأسلوب المتشدد استطاع بلدوين أن يقضي على خطر الأرمن، وإن كان لم يستغن عن خدماتهم في الوظائف العليا فعين أبا الغريب - وهو منهم - حاكماً على البيرة[1].

إمارة الرها في عهد بلدوين دي بورج (٤٩٤ - ٥١٢هـ/ ١١٠٠ - ١١١٨م):

عندما ترك بلدوين الأول البولوني إمارة الرها؛ ليتولى حكم بيت المقدس بعد وفاة أخيه جود فري (٤٩٤هـ في الثامن عشر من يوليو سنة ١١٠٠م)، كانت رقعة إمارة الرها قد امتدت على ضفتي نهر الفرات الشرقية، والغربية من رواندان، وعين تاب غرباً إلى مشارف حران شرقاً، ومن بهسنى وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً. وحكمها بعده ابن عمه وسميه بلدوين دي بورج، الذي تلقب ببلدوين الثاني.

وقد اقتصرت هذه الإمارة على عاملين مهمين لأمنها واستقرارها، هما: الحدود الطبيعية، والتجانس بين عناصر سكانها الذين يتألفون أساساً من المسيحيين السريان اليعاقبة، والأرمن، كما دخل في نطاقها مدن إسلامية مثل سروج. وكان الفرنج قد أقاموا لهم حصوناً منيعة شحنوها بالجند الذين قاموا بجباية الضرائب، والجزية من القرى المجاورة، وشنوا الغارات على ما وراء الحدود وغنموا منها أموالاً كثيرة.

ومع هذا فقد عانى بلدوين الثاني من قلة المحاربين معه، وخطر الأعداء، ونقص الأموال، مما اضطره إلى اتباع سياسة سلفه بلدوين الأول في الاعتماد على الأرمن دون أن يرهقهم بالضرائب، وعمل على استرضائهم، والتقرب إليهم، فأحسن معاملة الكنيسة الأرمنية، ورجالها، وقام بحماية مطران اليعاقبة؛ مما قوى من الترابط بين الفرنجة الصليبيين الغربيين،

---

(١) عن الموضوع انظر: عاشور، الحركة الصليبية (١: ١٤٨). رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (١: ٣١٥، ٣١٦). الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٧٠- ٧٢).

والمسيحيين الشرقيين أهل البلاد الأصليين[١] كذلك تزوج حاكم ملطية الأرمني: مورفيا ابنة جبريل، وكان حين ذلك تابعاً لأمير الرها، ولقي بلدوين الثاني كل دعم مالي، وعسكري.

وبقدوم ابن عمته جوسلين دي كورتناي إلى الرها اعتبره سنداً له، وسُرَّ به بلدوين الثاني، فمنحه جميع أراضي إمارته، الواقعة غربي الفرات بما فيها حصن تل باشر؛ لتكون مركزاً له، ودلوك، عند مفترق الطرق بين مرعش وحلب، والرها، وعين ثاب، إلى الجنوب الشرقي من دلوك، وغيرها، وهكذا أصبح جوسلين الرجل الثاني بعده، بل شاركه في السيطرة على تلك المنطقة ذات الموقع الهام بين: سلاجقة حلب، وسلاجقة بلاد فارس. وقد قام جوسلين بقطع طرق الاتصال بين حلب، والفرات، بينما غزا بلدوين الأجزاء الشرقية من هذا الطريق حتى قلعة جعبر، والرقة، وماردين. ولكي يقوي صلته بملطية رأى أنه لا بد من التوسع على حساب الأتابكيات في الموصل، وديار بكر، وابتدأ بالأراتقة في ديار بكر. وقد سبق لبلدوين الأول أن استولى على مدينة سروج التي تبعد أربعين كيلو متراً إلى الجنوب من الرها - من صاحبها بلك بن بهرام الأرتقي، وبذلك صارت سروج المدينة الثانية في هذه الإمارة شرقي نهر الفرات، وأقطعها لفوشيه دي شارشر أحد الفرسان الصليبيين. ولما تولى بلدوين الثاني حكم الرها هاجم سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا سروج، وفي المعركة التي دارت بين الطرفين هزم الصليبيون وقتل فوشيه في (ربيع ٤٩٤هـ/ يناير ١١٠١م)، واستولى المسلمون على سروج، بينما بقيت القلعة في يد الصليبيين، وانسحب بلدوين إلى الرها، ثم توجه إلى أنطاكية؛ لطلب النجدة من تنكرد، وعاد ومعه قوة استطاع بها فك الحصار، الذي فرضه الأراتقة على قلعة سروج، وهزمهم، ودخل سروج، وعاقب أهلها المسلمين؛ لمساندتهم الأراتقة وأسر كثيرين منهم، وسبى حريمهم، ونهب أموالهم، ولم يسلم إلا من هرب[٢].

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٤٣- ٣٤٤)- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٢٤- ٢٦/ ٦٢- ٦٥)، الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٨٦- ٨٨).

(٢) عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٤٤- ٣٤٥)- ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: =

هذا الانتصار شجع بلدوين الثاني على القيام بإغارات على المسلمين في المدن، والقرى المجاورة، التابعة للأراتقة فقام في سنتي (٤٩٦هـ، ٤٩٧هـ/ سبتمبر، وأكتوبر ١١٠٣م) بغزوة حول ماردين، فأسر كثيراً من أهلها، وغنم قدراً كثيراً من الغنائم، واستولى على تل موزن، وتل قراد بالقرب من ماردين، كذلك قام في سنة (٤٩٧هـ/ نوفمبر ١١٠٣م) بإغارة على عدة مدن وقرى في إقليم الجزيرة الفراتية مثل: جعبر، والرقة (وكانتا تابعتين للعقيليين)، وأسروا كثيراً من أهلها، ونهبوا مواشيهم[١].

أما سلطنة السلاجقة فكانت تعيش حينئذ خاصة بين السلطان بركياروق، وأخيه محمد ابني ملكشاه في حالة من الضعف والانقسام، وقد تم الصلح بين السلطان بركياروق، وأخيه محمد، على أن يأخذ بركياروق فارس، وبغداد، ويأخذ محمد الأقاليمَ الغربية (إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام). لكن سلطتهما أضحت صورية فقط، والأمور بيد الأتابكة الذين استمروا في صراع، وتنافس؛ لتوسيع أتابكياتهم على حساب بعضهم البعض، مما شغلهم عن مواجهة خطر الصليبيين، الذين استغلوا هذا الوضع، فقاموا بتوسيع رقعة إماراتهم في هذا الإقليم، وعندما رغب أمير الرها بلدوين الثاني في الاستيلاء على حران، الواقعة في الجنوب الشرقي من الرها في اتجاه بغداد، كانت بيد قراجة أحد مماليك السلطان ملكشاه، وكان استبدادياً تعسفياً. وفي عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٣م) قام محمد الأصفهاني (أحد رجاله)، وانتزع ملكها منه،

= ٣٢٤- ٣٢٥).

دحلان: الفتوحات الإسلامية (١/ ٤٤٠)، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٦٥- ٦٦)

جنزوري: إمارة الرها الصليبية (٨٨- ٩٣).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٣٦٩)، دحلان: الفتوحات الإسلامية (١/ ٤٤٠، ٤٤١)

عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٤٤- ٤٥)، الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٩٢، ٩٣).

بمساعدة أهلها، الذين ضاقوا ذرعاً من ظلمه، مستغلاً فرصة غيابه عنها، لكن جاولي تغلب عليه فقتله، ونصب نفسه حاكماً عليها عام (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م)، وصادف ذلك وصول بلدوين الثاني ومن معه من الأمراء الصليبيين، مثل: جوسلين صاحب تل باشر، وبوهيموند أمير أنطاكية، وابن أخته تنكرد، إضافة إلى عدد كبير من الأمراء الآخرين، ورجال الدين، وأعداد كبيرة من الأرمن، إضافة إلى المقاتلين الصليبيين، الموجودين في هذه الإمارات.

وكان مجموع عدد الجيش أكثر من اثني عشر ألفاً من : الفرسان، والرجال، وكان يمثل القوة الضاربة، الكاملة عند الفرنج بشمال الشام، وإقليم الجزيرة الفراتية عدا حاميات الحصون. وعندما أوشكت حران على الاستسلام وقع نزاع بين بلدوين الثاني أمير الرها، وبوهيموند أمير انطاكية حول أيهما يرفع علمه أولاً عليها عند سقوطها؛ وكان ذلك في المساء، ظنا منهما أنها ستسقط في الصباح، لكن حدث عكس ما كانوا يتوقعون؛ لأن هجوم بلدوين الثاني هذا على حران ألف بين خصمين متعاديين هما[1]: جكرمش صاحب الموصل، وسقمان بن أرتق صاحب ماردين، وحصن كيفا، فاتفقا فيما بينهما لإنقاذ حران، وجمعا جيشاً كبيراً مقداره عشرة آلاف مقاتل من العرب، والترك، والأكراد، والتركمان، واجتمعا عند رأس العين على نهر الخابور، ثم توجها للقاء الصليبيين في موقعة البليخ بالقرب من حران على ضفاف نهر البليخ؛ لذلك سميت بموقعة البليخ في: شعبان (٤٩٧هـ/ ٧ مايو سنة ١١٠٤م)، حيث هزم الصليبيون شر هزيمة، وأبيد غالبية جيش إمارة الرها، وقتل من الصليبيين اثنا عشر ألف قتيل بين فارس، وراجل. وحاول بلدوين الثاني وجوسلين الفرار، لكنهما وقعا في أسر التركمان الأراتقة. وبعد انتهاء المعركة كاد ينشب نزاع بين أتباع سقمان الأرتقي التركماني، وأتباع جكرمش من السلاجقة الأتراك حول الأسرى.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٣٦٩- ٣٧٢، ٣٧٣)، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٧٠- ٧٢). عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٤٥- ٣٤٨). الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٩٣- ٩٧).

ثم اتجه جكرمش لحصار الرها، ومعه أسيره بلدوين الثاني أمير الرها. وكان لوقعة البليخ هذه نتائجها السيئة، بالنسبة للصليبيين بصفة عامة، ولإمارة الرها بصفة خاصة، التي تزعزع مركزها، في حين فقدت أنطاكية الأمل في الاستيلاء على حلب، وكذلك فشل خطة الصليبيين في عزل المسلمين في شرقي الفرات عن إخوانهم في غربيه[1].

أما الرها فقد ظلت تعاني من مشاكل داخلية، خاصة من قبل الأرمن، الذين ضجروا من حكم الصليبيين، وأبدوا استياءهم منهم، فسلموا حصن أرتاح لسلاجقة حلب، تخلصاً من جورهم. ويعود ذلك إلى تعسف الصليبيين الغربيين مع الكنيسة الأرمينية، وإهمالها، واضطهاد رجالها في كثير من الأحيان، مما دفع الأرمن إلى الاتصال سراً بالسلاجقة. وإذا كانت إمارة الرها، وغيرها من المعاقل الصليبية قد استطاعت البقاء وسط المحيط الأرمني شرقي آسيا الصغرى، وفي الأجزاء العليا الشمالية من إقليم الجزيرة الفراتية، وأطراف الشام، فإن ذلك يعود إلى انقسام المسلمين، وتناحرهم فيما بينهم بعد فرار بوهيموند أمير أنطاكية، وابن أخته تنكرد من موقعة البليخ، ووصولهما إلى الرها، ووقوع بلدوين الثاني أسيراً في يد جكرمش صاحب الموصل، وابن عمته جوسلين صاحب تل باشر في قبضة سقمان بن أرتق، وحبسهما في قلعة حصن كيفا. وخوفاً من سقوط الرها في يد جكرمش الذي زحف لحصارها؛ أظهر الأرمن من أهل الرها ولاءهم لبوهيموند، وتنكرد، ودعوا تنكرد ليقوم بالوصاية على الرها، ورعاية شؤونها، حتى يتم إطلاق سراح أميرها بلدوين الثاني. فقبل، واستقر بها، بينما رحل بوهيمند إلى أنطاكية، في الوقت نفسه وصل جكرمش بجيشه، وحاصر الرها، فأبدى تنكرد عزيمة في الدّفاع عنها وشجع أهلها على الصمود والقتال عنها وأرسل إلى خاله، بوهيموند يطلب نجدته. وفي الليل هجم تنكرد، وجيشه على جكرمش وجيشه، وهم نائمون

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (١٤٣)، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٧٢-٧٥).

ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠ : ٣٧٣- ٣٧٥).

واكتمل انتصارهم بوصول بوهيموند، وجيشه وفرّ جكرمش، ورجاله، وانسحبوا بعد أسبوعين من حصارهم لها، وأسرَ الصليبيون أحدَ كبار الأمراء السلاجقة. ويذكر رنسيمان أنه يمت بصلة إلى جكرمش مما حدا بجكرمش إلى مبادلته ببلدوين الثاني أمير الرها. أو دفع فدية قدرها خمسة عشر ألف دينار مقابل إطلاق سراح الأمير السلجوقي، وأخذ بوهيموند الفدية؛ لحاجته الماسة إليها وبقي بلدوين الثاني أسيراً.

وبعد أن رحل بوهيموند نهائياً عن أنطاكية تولى أمرها تنكرد، وأناب عنه بالرها ريتشارد دي سالرنو، الذي حكمها في الفترة من سنة (٤٩٨ - ٥٠٢هـ/ ١١٠٤ - ١١٠٨م)، بالتعسف، والجشع، والصلابة تجاه الأرمن، بينما كان ضعيفاً أمام الفرنج الغربيين.

وفي فترة حكمه السيئة هذه، تعرضت الرها لهجمات من جكرمش عام (٤٩٩هـ/ ١١٠٥م) وقلج أرسلان (٥٠٠-٥٠١هـ/ ١١٠٦ - ١١٠٧م)، وكان أن ذهب وفد من رعاياه من أهل تل باشر، وقد حملوا معهم فدية؛ لإطلاق سراح جوسلين بلغ مقدارها عشرين ألف دينار. وبعد خروجه من السجن سنة (٥٠١هـ/ ١١٠٧م) عمل جوسلين على إطلاق سلاح سيده بلدوين الثاني أمير الرها، وحاول أن يغري جكرمش صاحب الموصل بالمال لكنه رفض. وبعد وفاة جكرمش تولى أمر الموصل جاولي، الذي عزله السلطان محمد؛ لعدم خضوعه له، ورفضه دفع ما تعهد به من مبالغ مالية، ونصب مكانه الأمير مودود ابن التونتكين في عام (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م).

ولما ترك جاولي الموصل حمل معه الأمير بلدوين الثاني، وتوجه إلى قلعة جعبر مع صاحبها سالم بن مالك، وكان في حاجة إلى المال، وإلى حليف ضد السلطان محمد، والأمير مودود صاحب الموصل، فوافق على إطلاق سراحه، مقابل دفع سبعين ألف دينار شريطة أن يتعهد بإطلاق سراح جميع أسرى المسلمين في الرها، وأن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وجنده وماله. ولم يكتف جاولي بإطلاق سراح بلدوين بل خلع عليه، وأحاطه هو وجوسلين بمظاهر الحفاوة والتكريم، حتى أصبحت العلاقة بين الطرفين علاقة صداقة، ومحالفة

شخصية، وكان بلدوين قد بقي في الأسر مدة خمسة أعوام[1].

ولما رفض تنكرد أمير أنطاكية، ونائبه ريتشارد إعادة الرها إلى أميرها بلدوين الثاني استعان - هو وجوسلين صاحب تل باشر- بحليفهما جاولي. وبعث بلدوين إلى جاولي مائة وستين رجلاً من أسرى المسلمين بعد أن كساهم، وسلحهم؛ ليقوموا بدورهم لمساعدة جاولي، وبلدوين معاً. ثم انضم إليهم حليف ثالث، وهو كوغ باسيل الأرمني أمير كيسوم الذي خاف من سياسة تنكرد، الرامية إلى ضم المنطقة إلى حكمه، وطبع المنطقة بالطابع اللاتيني الغربي، فأمد بلدوين بقوة أرمينية مقدارها ألف فارس، وألف راجل لاسترداد إمارته. وقبل أن يشتد القتال بين الطرفين، تدخل برنارد فالنس بطرق أنطاكية لحسم النزاع بينهما، وكانت له مكانة كبيرة في نفوس المسيحيين، تعادل مكانة الإمام عند المسلمين، بحيث إنه كان لا يخالف أمره، فحكم بأن يأخذ بلدوين الثاني الرها، وكان ذلك في (٨ صفر سنة ٥٠٢هـ/ ١٨سبتمبر ١١٠٨م).

ولما عاد بلدوين الثاني إلى إمارته، اتبع مع حليفه جاولي سياسة التسامح، فأطلق سراح أسرى المسلمين، الموجودين في إمارته، سواء في الرها، أو حران، أو غيرها من المدن المجاورة، وسمح لجاولي أن يعمر مساجد سروج، حتى أن رئيس سروج كان مسلماً فارتد عن الإسلام وصار نصرانياً، وأخذ يسب الإسلام، فلما علم بلدوين بذلك قال: هذا لا يصلح لنا ولا للمسلمين، فقتله[2].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٥٠).
ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٤٥٧- ٤٦٠).
عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٥٠- ٣٥٣).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٠٣- ١٠٨).
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٧٦).
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٤٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٤٦١، ٤٦٢).
عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٥٣، ٣٥٤).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٠٨، ١٠٩).

قيام جبهتين متعارضتين: إسلامية، وصليبية

لم يثبت الصلح الذي تم بين بلدوين الثاني أمير الرها، وتنكرد أمير أنطاكية. كما أن الملك رضوان، صاحب حلب ألقى القبض على عدد من حاملي فدية بلدوين الثاني أمير الرها إلى جاولي؛ مما جعل جاولي صديق أمير الرها، الذي أصبح بلا إمارة بعد طرده من الموصل يحاول إنشاء إمارة لنفسه في إقليم الجزيرة الفراتية بأن يستولي على مدينة بالس في سنة (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)[١].

وكانت بالس تابعة لرضوان بن تتش، صاحب حلب؛ لذا لم يجد الملك رضوان بدا من محالفة عدوه القديم تنكرد، أمير أنطاكية، الذي أصبح عدواً لبلدوين أمير الرها، حليف جاولي، وطلب جاولي النجدة من أمير الرها، وسامحه مما بقي عليه من الفدية، فأمده بثلاثة آلاف مقاتل. وفي المعركة بين حلب، والرها، انتصر فريق رضوان تنكرد حسبما ذكر أستاذنا سعيد عاشور بينما ذكر ابن العديم العكس. إذ قال: إن تنكرد هو الذي استعان برضوان

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٥٤، ٣٥٥).

ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٤٦٣- ٤٦٥).

ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ١٥٣).

الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (١٣٤- ١٣٥) نقلاً عن ابن الفرات في: تاريخ الدول والملوك (١: ٢٢).

فأمده بعسكر حلب. ولما علم جاولي أن الفرنج يريدون الاتفاق ضده، مال على أصحابه أمير الرها، وجوسلين صاحب تل باشر «وقتل فيهم، وهرب بعد أن قتلهم عن آخرهم، وهلك جميع رجّالة تنكرد، وأكثر خيله».

ويبدو أن معلومات ابن العديم هنا مضطربة، فالمنهزمون هم فريق جاولي (بلدوين الثاني حسبما ذكر ابن الأثير)، ولم يبق غير هزيمة صاحب أنطاكية، فحينئذ عمد أصحاب جاولي إلى جنائب القمص، وجوسلي، وغيرهما من الفرنج فركبوها وانهزموا «لأن طاعته عليهم قد انتهت بأخذ الموصل منه. وكان عماد الدين زنكي منهم، وانهزم هو وعسكره. وقدرت خسارة الصليبيين - في معركة منبج - بما يقرب من ألفي قتيل، وقتل كثير من المسلمين وأخذت أموالهم، وأثقالهم، والتجأ كثير منهم إلى بلدوين وجوسلين، فداووا جراحهم، وكسوهم، وسيروهم إلى بلادهم[١].

أمير الرها وتغيير سياسته تجاه الأرمن:

لمّا علم الأرمن بهزيمة أميرهم، وجوسلين صاحب تل باشر، وانتصار تنكرد وريتشارد - متولي شؤون الرها خلال سجن بلدوين الثاني - خافوا أن يعود هذان المنتصران، ويسيطرا على الرها من جديد بالتسلط والجبروت. ولعدم معرفتهم بمصير أميرهم اجتمعوا في كنيسة القديس حنا بالرها لمناقشة الأمر، ودعوا إلى ذلك الاجتماع رئيس الأساقفة الكاثوليكي، الذي وجهوا إليه بعض الإساءات والاتهامات؛ مما أنذر بحدوث صدام بين الأرمن والصليبيين الكاثوليك داخل الرها. ولما رجع بلدوين إلى الرها وعلم بذلك الاجتماع غيّر من سياسته السابقة تجاه الأرمن التي تقوم على الترابط بين الفرنج والأرمن[٢]. وأصبح ينظر إلى الأرمن نظرة الريب، والشك. وكرد انتقامي قام بحبس

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٤٦٥، ٤٦٦).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ١٥٣).
عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) عاشور: ن. م (١: ٣٥٥).

كثيرين منهم، وطرد آخرين وسمل عيون غيرهم، حتى الأسقف الأرمني كاد يسمل عينيه، لولا أنه فدى نفسه بمبلغ كبير من المال. ومن ذلك الوقت أخذ يضطهدهم، واستبعدهم نهائياً من حكومته، حيث اعتمد فيها على الصليبيين الغربيين وحدهم. هذه السياسة التعسفية الجديدة التي انتهجها بلدوين تجاه الأرمن زادت الموقف سوءاً، فرأوا أن الصليبيين أكثر عداءً من المسلمين لهم، مما دفعهم إلى الاتصال بمودود صاحب الموصل عند قيامه بحملته ضد الصليبيين في سنة (٥٠٦هـ/ ١١١٢م)، عارضين عليه استعدادهم لتسليمه الرها. ولما علم بلدوين بذلك قام بطردهم من الرها ولم يترك بها من غير الصليبيين سوى السريان، واليعاقبة[١].

حملة مودود صاحب الموصل على الرها في سنة (٥٠٤هـ/ ١١١٠م):

رأينا ما كان من أمر عزل جاولي عن الموصل، وتعيين مودود عليها، وتكليفه بمهمة استئناف الجهاد ضد الصليبيين. وكان أن أعد مودود بتفويض من السلطان محمد بن ملكشاه، حملة كبيرة لمحاربتهم اشترك معه في تلك الحملة سكمان القطبي، أمير خلاط وميافارقين، ونجم الدين إيلغازي بن أرتق أمير ماردين في ديار بكر. وكان معه جيش كبير من التركمان زاد عدده عن مائة ألف مقاتل، وقاموا بحصار الرها. ولما علم أميرها بلدوين الثاني أرسل جوسلين إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس طالباً نجدته، وكان عندئذ يحاصر بيروت، وما كاد يفرغ من استيلائه عليها حتى لبى دعوته وتوجه على رأس قوة كبيرة، رافقه فيها أمير طرابلس مع مجموعة من فرسانه. وعند سميساط انضم إليه بعض زعماء الأرمن، وكان في مقدمتهم كوغ باسيل ولكنهم ما كادوا يقتربون من الرها حتى رفع مودود الحصار عنها وتوجه نحو حران[٢]. وهناك انضم إليه طغتكين أتابك دمشق بقواته. ولمواجهة ذلك

---

(١) عاشور: ن. م (١: ٣٥٥، ٣٥٦).

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٦٩).

ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب ص (١٥٤).

الموقف رأى بلدوين الأول ملك بيت المقدس، أنه لا بد من توحيد جهود الصليبيين ضد الجيوش الإسلامية، فأرسل إلى تنكرد أمير أنطاكية، يستدعيه للمشاركة في تلك الحرب، فاستجاب بعد تردد، واشترك بقوة مقدارها ألف وخمسمائة فارس، كذلك شارك ملك بيت المقدس، في تلك الحملة وابن صنجيل صاحب طرابلس الشام.

وكان مودود قد وضع خطة لاستدراك الصليبيين إلى حران بعيداً عن الرها، حتى يتم الإيقاع بهم كما حدث في معركة البليخ السابق ذكرها، لكن ملك بيت المقدس فطن لخطته تلك، وأراد أن ينزل ضربته بالجيوش الإسلامية قبل تنفيذها، وكاد ينجح لولا أن الأحقاد القديمة عادت إلى الظهور، فانسحب تنكرد بقواته إلى سميساط، واضطر ملك بيت المقدس إلى الرجوع إلى مملكته بعد أن تلقى أخباراً بخطورة هجمات الفاطميين على بيت المقدس، ولم يكن لديه وقت كاف ليوفق بين الأمراء الصليبيين مرة أخرى، لكن تم الاتفاق على تحديد مدينة الرها مكاناً يحتشدون فيه للدفاع عنها، على أن تخلى بقية المراكز الواقعة على ضفة الفرات من سكانها الأرمن، واليعاقبة؛ ولتطبيق سياسة الإجلاء هذه قام الصليبيون بترحيل المسيحيين الشرقيين، ليس من الرها فحسب، بل من إقليم الجزيرة الفراتية إلى الجهات الشمالية الغربية في اتجاه سميساط أي: على الضفة الغربية لنهر الفرات، حيث التجأوا إلى مناطق الأرمن الواقعة في المناطق الجبلية المحيطة بكيسوم، وكان مودود وجيشه موجودين عند حران يرقبون الموقف فاستغلوها[1] فرصة، واجتاحوا المزارع، والضياع، والقرى المسيحية حتى وصلوا إلى الفرات. وعندما علموا بعبور

= عاشور: م السابق (١: ٣٥٧).

الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٣٧- ١٣٩).

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٥: ١٩٩).

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (١٦٩- ١٧٠). ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (١٥٤- ١٥٥). عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٥٨- ٣٥٩).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٣٩، ١٤٠).

الجيوش الصليبية إلى الضفة الغربية لنهر الفرات، وبقي آلاف من المهاجرين الأرمن ينتظرون دورهم للعبور؛ وذلك لقلة السفن التي يستقلونها، فهاجمهم مودود وجيشه، وفتكوا بهم، وقتلوا منهم عدة آلاف، وأسروا منهم الكثيرين، وعادوا بهم، وبالغنائم الكثيرة التي غنموها إلى حران. ولم تستطع الجيوش الصليبية إنقاذهم؛ لوجودها في الضفة الغربية من النهر.

وهكذا فشل التجمع الصليبي دون أن يحقق أهدافه، حيث عاد بلدوين الأول ملك بيت المقدس لحماية إمارته من الفاطميين، وتنكرد إلى أنطاكية، وبلدوين الثاني إلى الرها، التي أصبحت خربة؛ بسبب تدمير مزارعها وقراها، وضياعها. وبهذا الوضع أصبح موقف الصليبيين في أطراف إقليم الجزيرة الفراتية سيئاً للغاية، ومع هذا احتفظوا بالرها، وسروج كقلعتين كبيرتين في شرقي الفرات، ولكنهما في وسط أرض خربة، مقفرة، لا ضرع فيها، ولا زرع؛ لخلوها من السكان حيث تم ترحيل سكانها الأصليين منها، الذين كانوا يقومون بزراعتها[١].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٧٠).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ١٥٥)، عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٥٩).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٤٠، ١٤١).

الدعوة للجهاد ضد الصليبيين

عاش إقليم الجزيرة الفراتية، وبلاد الشام في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وضعاً مضطرباً قلقاً كئيباً؛ لاستيلاء الصليبيين على كثير من مدنهما وقراهما، فقتلوا كثيراً من أهلها، وأسروا الكثيرين، وسبوا كثيراً من النساء، والأطفال، ونهبوا الأموال، والدواب؛ مما كان له رد فعل على نفوس الناس، وشعورهم بالاستياء فارتفعت الأصوات مستنكرةً ذلك الوضع، ومنادية للجهاد[1]؛ ومثل هذا الوضع لم يعهده المسلمون منذ أن فتح العرب المسلمون هذه المناطق في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي). وذكر ذلك ابن الأثير بقوله. «فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد مستنفرين على الفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء، وغيرهم، فقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا ومنعوا الصلاة، وكسروا المنبر، فوعدهم السلطان بإنفاذ العساكر للجهاد» وقد حدث ذلك في سنة (٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، وكان قد وصل قبلهم مبعوث الإمبراطور البيزنطي للسلطان يستحثه على إخراج الفرنج. وفي الجمعة الثانية توجهوا إلى جامع القصر بدار الخلافة، ومعهم أهل بغداد، ودخلوه، وكسروا شباك المقصورة، والمنبر، وبطلت الجمعة

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٥٩، ٣٦٠).
ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص (١٧١، ١٧٢).
ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٤٨٢).

كسابقتها وأرسل الخليفة العباسي المستظهر بالله إلى السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه «في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه» ويصيحون للسلطان «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام قد أرسل إليك في جهادهم «بينما ذكر ابن القلانسي أنهم «فعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء، والضجيج، والاستغاثة، والنحيب». ووصلت عقيب ذلك السيدة خاتون زوجة الخليفة المستظهر، وهي أخت السلطان محمد إلى بغداد قادمة من أصفهان، ومعها الجواهر والآلات وأصناف المراكب، والدواب والأثاث وأنواع الملابس الفاخرة والخدم، والغلمان، والجواري، والحواش «ما لا يدركه حزر فيحصر» ولا عد فيذكر واتفقت هذه الاستغاثة فتكدر ما كان صافياً من الحال والسرور بمقدمها».

وقد أنكر الخليفة المستظهر بالله ما جرى، وعزم على معاقبة من كان السبب في ذلك، فمنعه السلطان محمد من ذلك، وعذر الناس على ما أقدموا إليه، وكان موقف السلطان محمد مشرفاً، فأصدر أوامره إلى أمراء المناطق للاستعداد للجهاد وسير ولده الملك مسعودا مع الأمير ابن التونتكين صاحب الموصل[1]، وكان ذلك في عام (٥٠٤هـ/ ١١١٠م). ولم يكن يهم الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ما أصاب المسلمين وديارهم من تدمير، وتعسف الفرنجة كما تصور أولئك المستغيثون، وإنما كان همه - كما يقول أستاذنا سعيد عبد الفتاح عاشور- بأنه في ذلك الوقت بلغ العداء أشده بين البيزنطيين والصليبيين، وحتمت مصلحة الإمبراطور أن يحرّض عليهم السلطان السلجوقي ليكفيه شرّهم[2]. وإذا لم يكن قد قام بتلك الدعوة للجهاد أهل إقليم الجزيرة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٤٨٢، ٤٨٣).

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٧٣، ١٧٤)، ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ١٥٧- ١٥٨). عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٦٠).

الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٣٧).

حنين، عبد المنعم، إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١١٥، ١١٦).

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٧٣، ١٧٤).

الفراتية، فإن الذي تولى قيادة تلك الحملة الإسلامية الكبيرة كان مودود أمير الموصل في شهر محرم سنة (٥٠٥هـ/ ١١١١م)، فاجتمع تحت قيادته جميع أمراء أقاليم الدولة السلجوقية بأمر السلطان محمد منهم: سقمان القطبي صاحب خلاط، وتبريز، وبعض ديار بكر، والأميران: إيلبكي، وزنكي ابنا برسق، حاكم همذان، وخوز ستان، والأمير أحمد يل (أحمد الثاني) الكردي، صاحب مراغة في أذربيجان، وأبو الهيجاء صاحب إربل، وإياز ابن الأمير إيلغازي، صاحب ماردين.

اجتمعت تلك القوات في مدينة سنجار، حيث فتحوا عدة حصون للفرنج، وقتلوا كثيراً منهم، ثم توجهوا إلى حصار مدينة الرها، قاعدة الصليبيين في إقليم الجزيرة الفراتية. وكان الصليبيون قد استعدوا فيها منذ العام السابق، فزودوها بالزاد، والمؤن، والسلاح، والمدافعين عنها؛ لمواجهة أي هجوم مباغت عليها، وتجمعت جيوشهم فيها. فلما رأت الجيوش الإسلامية صمود المدينة، واستحالة الاستيلاء عليها[١] عبرت الجيوش الإسلامية بقيادة مودود، صاحب الموصل نهر الفرات غرباً؛ لمهاجمة تل باشر، الواقعة غربي الفرات[٢]. وفي طريقها قامت بتخريب كل ما صادفها من ضياع، ومزارع للصليبيين في تلك المنطقة.

= عاشور الحركة الصليبية (١ : ٣٦٠)، الجنزوري، إمارة الرها الصليبية ص (١٤١).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١ : ٤٨٥، ٤٨٦).
ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص (١٧).
عاشور: الحركة الصليبية (١ : ٣٦٠، ٣٦١).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (١٤٢- ١٤٣).
انظر أيضاً اليافعي: مرآة الجنان (٣: ١٧٧).
ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) (٥: ٤٨٣: ٤٨٤).
ابن تعري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٥: ٢٠١).
الشيزري أسامة بن منقذ: الاعتبار، دار الفكر الحديث ص (٦٩).

(٢) الكامل في التاريخ (١٠: ٤٨٥، ٤٨٦).

وقد دام حصار الجيوش الإسلامية لقلعة تل باشر خمسة وأربعين يوماً قام المسلمون خلالها بعدة هجمات، ضاغطين على أميرها جوسلين، ولما لم يحالفهم الحظ في الاستيلاء عليها قاموا بتخريب ما حولها من البلاد.

وكان الملك رضوان بن تتش صاحب حلب، وسلطان بن منقذ صاحب شيزر قد طلبا من مودود، وأحمد يل نجدتهما وإنقاذهما من ضغط الفرنجة، بقيادة تنكرد صاحب أنطاكية. كذلك عجل بالانسحاب وفاة سقمان القطبي صاحب أرمينية، وخلاط، وديار بكر، وعودة جنده بجثمانه إلى بلاده، واستعجال أحمد يل الكردي في الرحيل إلى السلطان طالباً منه إقطاعه، ووصول الأمير برسق بن برسق صاحب همذان، وهو مريض لا يقوى على خوض الحرب، فعاد إلى بلاده أخيراً. هذا كله بالإضافة إلى نشوب الخلافات والانقسامات بين قادة هذه الحملة، مما أدى إلى فشلها، وعند انسحابها هاجم جوسلين صاحب تل باشر مؤخرتها، وقتل منهم ما يقرب من ألف رجل، وعاد بما غنمه منهم إلى بلاده.

وفي الوقت الذي تفكك الجيش الإسلامي، نجد في الجانب الآخر تجمع القوى الصليبية، وتوحدها من جديد بعد الاختلاف، والتباين، فأقبل بلدوين الثاني أمير الرها، وجوسلين صاحب تل باشر، وتنكرد أمير أنطاكية لملاقاة بلدوين الأول، ملك بيت المقدس، ومعه برتزام أمير طرابلس، وغيرهم كثيرون. واجتمعت الجيوش الصليبية كلها قرب فامية الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاص، وكان الجيش الإسلامي بقيادة مودود وطغتكين على الضفة الغربية له عند مدينة شيزر، حيث اجتمع بهما صاحبها سلطان بن منقذ، وهوّن عليهما أمر الفرنج، وحرّضهما على الجهاد، وكان ذلك في عام (٥٠٥هـ/ ١١١١م)، ثم عبر المسلمون إلى الضفة التي فيها الصليبيون. ودارت بينهما عدة مناوشات عاد بعدها مودود إلى الموصل والأمراء الآخرون إلى إماراتهم. وبذلك انتهت حركة الجهاد الجماعية هذه[1]؛ ما عدا تلك التي قام

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (١٧٦- ١٧٨).

بها بعد ذلك منفرداً مودود صاحب الموصل عام (٥٠٦هـ/ ١١١٢م) على الرها التي حاصرها لمدة شهرين، ثم انتقل إلى سروج، وهزم فيها من قبل جوسلين. وعند حصاره لسروج ترك جنوده خيولهم ترعى في الحقول المحيطة بها دون أخذ الحيطة، والحذر من عدوهم جوسلين، الذي باغتهم على رأس حملة عددها ثلاثمائة فارس، ومائة راجل، في حين كان عدد جيش مودود ألف وخمسمائة. وكان قد أخذ كثيراً من خيولهم على غفلة منهم. ولما تواجه الطرفان هزم المسلمون، وقتل كثير منهم، وأسر خمسة من كبار مقاتليهم، وفرّ الباقون، وتوجهوا مرة ثانية إلى الرها؛ لأن مودود اتفق مع الأرمن على تسليمه الرها وذلك بأن يفتحوا له أبواب إحدى قلاعها التي يتولون حمايتها، ولما علم جوسلين بتلك المؤامرة من قبل الأرمن أسرع لمساعدة أميرها بلدوين الثاني بصورة سرية وسريعة، استطاع من خلالها اقتحام تلك القلعة قبل وصول مودود وجيشه إليها.

وبذلك فشلت حملته تلك[1].

ولم يمض وقت طويل حتى قتل مودود بجامع دمشق في صلاة الجمعة وذلك في ربيع الأول عام (٥٠٧هـ/ أكتوبر ١١١٣م) على يد باطني وقيل إن لطغتكين صاحب دمشق يداً في قتله. وكان أن ولى السلطان محمد قسيم الدولة أقسنقر الموصل خلفاً لمودود، أوكل إليه القيام بقيادة عمليات الجهاد

= ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٤٨٦- ٤٨٧، ٤٥٤).

ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ١٥٩- ١٦١).

عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٦١- ٣٦٣).

الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٤٥- ١٤٧).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٤٩٢)، تاريخ ابن خلدون (٥: ١٨٣، ١٨٤).

ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٧،١٨)، عاشور: الحركة الصليبية (١: ٣٦٥، ٣٦٦).

الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (١٤٧- ١٤٩)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٤٦).

ضد الصليبيين، وسير معه ولده الملك مسعود، فسار بحملته بصحبة عماد الدين زنكي وتميرك صاحب سنجار وأجبر إيلغازي الأرتقي صاحب ماردين على تسيير ولده إياز مع ثلاثمائة فارس(١).

وكان مجموع جيش البرسقي هذا المتوجّه إلى الرّها حوالي خمسة عشر ألف فارس، وذلك في عام (٥٠٨هـ/ ١١١٤م). وبعد حصار لها دام أكثر من شهر، ولم يتمكن من فتحها وقام لينتقم بتخريب، ضياع، ومزارع الرها، وسميساط، وسروج، وغيرها من القرى والضياع الواقعة على ضفتي نهر الفرات. وعند عودته قبض على إياز بن إيلغازي، ثم هاجم ماردين لينتقم من صاحبها إيلغازي بن أرتق؛ لكونه لم يخرج بنفسه معه لقتال الفرنج، فهزمه إيلغازي، وأسر مسعود بن السلطان محمد، ثم أطلقه خوفاً من أبيه، ثم تحالف مع طغتكين صاحب دمشق، وروجر أمير أنطاكية. ولما رحل أقسنقر إلى بغداد نصب السلطان محله برسق بن برسق صاحب همذان، لقيادة الجيوش الإسلامية في جهادها ضد الصليبيين. وتوجهت تلك الحملة في سنة (٥٠٩هـ/ ١١١٥م) إلى بلاد الشام، لكنها توقفت في الرها ونهبت تل باشر. وهناك تحالف أمراء الشام، وديار بكر المسلمين مثل: إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين بإقليم الجزيرة الفراتية، وطغتكين صاحب دمشق المتهم بقتل مودود صاحب الموصل، ولؤلؤ الوصي على تاج الدولة ألب أرسلان بن رضوان بن تتش صاحب حلب مع الصليبيين ضد برسق، الذي تمت هزيمته على يد هذا التحالف(٢). وفي سنة (٥١٥هـ/ ١١٢١م) أقطع السلطان محمود بن محمد

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (١٨٧- ١٨٨)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٤٩٥- ٤٩٧، ٥٠١).
ابن الأثير: التاريخ الباهر (١٩)، تاريخ ابن خلدون (٥: ١٨٤).
الجنزوري: المرجع السابق (١٥٠،١٥١)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٦١).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٥٠٩- ٥١١).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب: ص (١٧٤- ١٧٥).

الموصل وأعمالها كجزيرة ابن عمر، وسنجار، ونصيبين، وغيرها لقسيم الدولة أبي سعيد الغازي سيف الدين أقسنقر البرسقي، الذي ضمّ إليه مدينة حلب بطلبٍ من أهلها بعد أن تخلى عنها صاحبها حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي الأرتقي؛ تجنباً لكثرة الحروب مع الصليبيين. وفي عام (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) قتلت الباطنية أقسنقر البرسقي بعد صلاة الجمعة بالجامع العتيق بالموصل وتولى بعده ابنه عز الدين مسعود، وبعد ثلاثة أشهر توفي وهو يحاصر مدينة الرحبة(١).

وعندما علم جوسلين بذلك قام بالاستيلاء على مدينة رأس العين، حيث قتل كثيراً من أهلها، وذلك بخنقهم، وأسرَ الرجال، وسبى النساء والأطفال، ونهب ما بها(٢)، وكان أكثر من تصدى من أمراء الأراتقة في هذه الفترة للصليبيين في إمارة الرها وما حولها، الأمير بلك بن بهرام ابن أخي إيلغازي بن أرتق، الذي حاصر الرها مدّة طويلة، ولم يظفر بها عام (٥١٥هـ/ ١١٢١م)، فانسحب عنها، وتبعه صاحبها جوسلين. لكن مشيئة الله أرادت بهم الهزيمة، فغاصت خيولهم في أرض وحلة، فلم تتمكن من الجري، فرماهم بلك، وجيشه بالنشاب، وهلك غالبيتهم، وتمّ أسر كثيرين منهم ومن بينهم: جوسلين أمير الرها، وسروج، وابن خالته، وغيرهم من فرسانهم المشهورين. وحملوا إلى قلعة خرتبرت، حيث تم سجنهم، ولم يقبل بلك الفدية منهم. وفي سنة (٥١٧هـ/ ١١٢٣م) استولى بلك بن بهرام على مدينة حران، وتسلم

= تايخ ابن خلدون (٥: ١٨٤- ١٨٦)، الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٥٢- ١٥٣).

خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٢٢٨- ٢٣٣).

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢١٤).

ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٥٨٨)، التاريخ الباهر (١٩، ٢٣، ٣١، ٣٢).

الجنزوري: المرجع السابق ص (١٥٤، ١٥٥).

ابن خلكان: وفيات الأعيان (١: ٢٤٢- ٢٤٣).

(٢) الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٥٥).

مدينة حلب من ابن عمه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار أرتق بن أكسب. ولما حاصر بلك قلعة كركر، بالقرب من خرتبرت هاجمه بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ليزيحه عنها، وذلك حتى لا يزداد قوة بملكها[١].

والتقى الطرفان في شهر صفر من العام نفسه، واقتتلوا، فانهزم الفرنج، وأسر ملكهم، ومعه جماعة من أعيان فرسانهم، وسجنهم بلك مع جوسلين أمير الرها، وسروج، ومن معه في قلعة خرتبرت. ولما توجه بلك إلى حران في ربيع الأول من هذا العام، استغل الفرنج رحيله وعملوا لحيلة فيما بينهم ربما رشوا حراس القلعة، واستولوا عليها، وأفرجوا عن المسجونين وعاد بلدوين الثاني إلى مملكة بيت المقدس. ولما علم نور الدولة بلك بذلك قدم إليها بعساكره، واستعادها من الفرنج، وشدد الحراسة عليها من جديد، ورجع. وفي عام (٥١٨هـ/ ١١٢٤م) ألقى بلك القبض على الأمير حسان البعلبكي[٢]، صاحب منبج، وحاصر قلعة منبج، ولكنها امتنعت عليه، فسار إليه الصليبيون؛ ليمنعوه من الاستيلاء عليها؛ حتى لا يقوى بها، فسار إليهم وقاتلهم وهزمهم، وقتل الكثير منهم، ثم رجع إلى منبج، وحاصر قلعتها مرة ثانية. وأصيب بسهم غارب لا يعرف راميه، وكان سبب قتله، فاضطرب عسكره، وتفرقوا، وخلص حسان من سجنه، وعاد إلى إمارته، في حين عاد تمرتاش بن إيلغازي بجثمان بلك إلى مدينة حلب واستولى عليها، وسلمها لنائب عنه يثق فيه هو عمر الخاص، ورحل إلى ماردين، وقد سبق الكلام عن ذلك في موضعين سابقين[٣].

---

(١) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٢٢٧).

(٢) حسان بن كمشتكين البعلبكي: كان يحكم منبج منذ عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩١م).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٦١١، ٦١٩)، (٦٢٣- ٦٢٤).
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٢١٠).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ٢١٨- ٢٢١).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (١٧٤- ١٨٠).

البيت الزنكي ودوره على مسرح الأحداث

نركز بحثنا عن البيت الزنكي، ودوره على مسرح الأحداث في إقليم الجزيرة الفراتية في النقاط التالية: علاقة الزنكيين بالسلاطين السلاجقة، علاقتهم بالخلفاء العباسيين، علاقتهم بالقوى المحلية، ودور عماد الدين زنكي في الجهاد ضد الصليبين. أما دورهم الحضاري فسيأتي في الفصول اللاحقة التي تعالج النشاط الاقتصادي، والثقافي والاجتماعي.

علاقة الزنكيين بالسلاطين السلاجقة:

تبدأ علاقة البيت الزنكي بالسلاطين السلاجقة بأبي سعيد أقسنقر بن عبد الله الذي كان من أخصّ مماليك السلطان السلجوقي ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، فرباه السلطان مع ولده جلال الدولة ركن الدين ملكشاه، واستمر في صحبته، فكان رفيقه في عهد الطفولة والصبا. ولما أصبح ملكشاه سلطاناً على دولة السلاجقة بعد وفاة أبيه قربه إليه، وجعله من أعيان أمراء دولته، وأخصّ أوليائه، يعتمد عليه في الأمور المهمة الصعبة، ويفضي إليه بأسراره، ووثق به وثوقا تاماً، حيث وجد فيه الحزم، والعزم، والإقدام. وبلغ من علو مرتبته عنده: أن لقبه بقسيم الدولة، وبالحاجب، ثم زاده تشريفاً بأن لقبه بأمير حاجب، وهو أسمى الألقاب التي تعطى للمقدمين عند السلطان وذلك «حين كانت الألقاب مصونة لا تعطى إلا لمستحقيها». وكان مكانه دائماً على يمين السلطان لا يتقدم عليه أحد؛ لذا حسده الأمراء، وصار يتقيه أقرب

الناس إلى السلطان ملكشاه مثل: الوزير (نظام الملك) مع تحكمه على السلطان، وتمكنه في المناصب. وقد استحث نظام الملك السلطان ليولي أقسنقر مدينة حلب، وأعمالها[١]، وأن يضيف إليه غيرها من بلاد الشام مثل منبج واللاذقية وحماة فأقطعه الجميع، محكماً إياه في عساكرها، وأموالها، وكان نظام الملك يهدف من ذلك أن يتخذ عند قسيم الدولة يداً. ثم ليبعده عن خدمة السلطان ملكشاه، فيصفو له الجو في التفرد والتنفذ عند السلطان. وتم ذلك لقسيم الدولة عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م).

وكان أن أظهر قسيم الدولة كفاءة، ومقدرة في مهمته الإدارية، والقيادية، فأرسى دعائم الأمن والاستقرار في إمارة حلب، وما حولها حتى أصبحت واحة أمن وسط عالم مضطرب، ودافع عن سلطنة ملكشاه بكل إخلاص ووفاء، ثم حافظ على ملك ولده بركياروق من بعده، فوقف في وجه أطماع عمه تتش حتى خرّ أقنسقر صريعاً على يدي تتش عام (٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م) بعد هزيمة جيشه، تاركاً وحيداً اسمه زنكي[٢].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٤، ٨).
ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (١: ١١) تحقيق جمال الدين الشيال.
أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين القسم الأول ص (١٨١، ١٨٢).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (١: ٢٤١).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ١٠٢- ١٠٣).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي بغداد (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م) ص (١٦، ١٧).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣٠، ٣١).

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان طبع حيدر أباد (٨: ١٨٩).
ابن الأثير: التاريخ الباهر (٨، ١٣، ١٥).
الكامل في التاريخ (١٠: ١٥٠).
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (١٢٦).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ١٠٩- ١١٢).
ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (١/ ١٩، ٢٥-٢٧).

علاقة عماد الدين زنكي بالسلاطين السلاجقة:

ولد زنكي سنة (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م)، وكان وحيدَ والده، فلم يكن لأقسنقر أولاد غيره. وعند قتل والده كان زنكي صبياً عمره عشر سنوات. ولم ينس السلطان بركياروق خدمات قسيم الدولة أقنسقر الحاجب، فردّ الجميل لابنه الوحيد هذا إذ تعهده برعايته، واهتمامه، وأمر ولاته على الموصل بالعناية به، فالتف حوله مماليك والده، وكان من بينهم زين الدين على كوجك بن بكتكين، ثم تولى رعايته ولاة الموصل، وكان في مقدمتهم كربوقا، الذي نقله، ومماليك والده معه إلى الموصل، وأدخلهم في خدمته العسكرية، وكانت أولى مشاركات زنكي الحربية.

وهكذا واصل زنكي نشاطه مع هؤلاء الولاة، فاتخذه جكرمش ولداً له، تقديراً لمكانة والده[1]. ثم دخل في خدمة جاولي سقاو (٥٠٠ - ٥٠٢هـ/ ١١٠٦ - ١١٠٨م) ثم في خلافة مودود بن التونتكين عام (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)، حاكم الموصل وصحبه في حروبه ضد الصليبيين، خاصة خلال محاصرته لطبرية عام (٥٠٧هـ/ ١١١٣م) وعندئذ أظهر زنكي بطولة رائعة صارت مضرب

= تاريخ ابن خلدون (٥: ١٨، ٣٢، ٣٣).

عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٣٩، ٤٤٠)، الجميلي: الدولة الأتابكية في الموصل (٣١- ٣٤).

الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٥٧، ٢٥٨)، الموصل في العهد الأتابكي ص (١٦، ١٧).

تاريخ أبي الفداء: (٢: ٢٠٤).

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٥- ١٩).

الموصل: تاريخ الموصل (١: ١٥٤- ١٦٦).

عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٤٠).

الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٥٩). الموصل في العهد الأتابكي ص (١٧، ١٨).

الجميلي: الدولة الأتابكية في الموصل (٣٥- ٣٧).

الأمثال، كما أبلى بلاء حسناً عندما شارك في حروب أقسنقر البرسقي ضد الصليبيين في الرها، وسميساط، وسروج، وسنجار[١].

وعندما عصى جيوش بك السلطان محمود محاولاً تنصيب ربيبه الملك مسعود بن محمد بن ملكشاه سلطاناً للسلاجقة نصحه زنكي بعدم الإقدام على ذلك، ولما لم يرتدع جيوش بك رفض زنكي السير معه وأبلغ السلطان محمود. الذي قدر له موقفه. ولما أقطع الأمير أقسنقر البرسقي الموصل وما حولها في عام (٥١٥هـ/ ١١٢١م) أمر بتقديم زنكي، والأخذ بمشورته، فعمل أقسنقر بذلك.

وكان عام (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) بداية مشوار عماد الدين زنكي ليستقل ويتخلى عن التبعية للأمراء الآخرين. فعندما أقطع السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١ - ٥٢٥هـ/ ١١١٧- ١١٣١م)، الأمير أقسنقر البرسقي واسط شحنكية[٢] والبصرة، بعث البرسقي زنكي إلى البصرة، وأظهر كفاءته، وحسن إدارته في القضاء على الثورات، وتوطيد الأمور التي عجز غيره عنها. وقد خافه الأمراء المجاورون، وكان له دور بارز في هزيمة عسكر الأمير دبيس بن صدقة العقيلي، أمير الحلة، الذي ثار ضد الخليفة العباسي، المسترشد بالله

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر (١٦ : ٢٠)، ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ٢٨- ٢٩).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٥٩، ٢٦٠)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣٧).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي (١٨)، أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين القسم الأول ص (١٨٣).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٢٢- ٢٥).
ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٥٨٨، ٦٠٤، ٦٠٥).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٥: ٢٠٧).
سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ط حيدر آباد (٨: ١٨٩). الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٦٠، ٢٦١)، الموصل في العهد الأتابكي (١٨- ١٩). الجميلي الدولة الأتابكية في الموصل ص (٣٩، ٤٠)

(٥١٢- ٥٢٩هـ/ ١١١٨- ١١٣٥م)، وكان ذلك في سنة (٥١٧هـ/ ١١٢٣م).

وعندما أقطع أقسنقر البرسقي الموصل للمرة الثانية استدعى معه زنكي فرفض الذهاب معه وقال لأصحابه: «قد ضجرنا مما نحن فيه كل يوم، قد يملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره، وإرادته»، فأشاروا عليه بخدمة السلطان، الذي اعتمد عليه في كثير من حروبه، وأحله محل والده قسيم الدولة على يمينه، ثم أقطعه البصرة؛ لحمايته لها في العام السابق من هجمات العدو. وفي عام (٥١٩هـ/ ١١٢٦م) كلفه السلطان محمود للقيام بمهمة حربية ضد الخليفة العباسي المسترشد بالله، فنجح في مهمته تلك، وأوقع الهزيمة بجيوش الخليفة، الذي أذعن للصلح مع السلطان في محرم عام (٥٢١هـ/ يناير ١١٢٧م).

ونتيجة لموقف زنكي الحاسم عينه السلطان في شحنكية[١] بغداد في ربيع الآخر عام (٥٢١هـ/ في إبريل ١١٢٧م)؛ مما جعله رقيباً على تحركات الخليفة المسترشد بالله. وفي سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م عين السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١ - ٥٢٥هـ/ ١١١٧ - ١١٣١م) عماد الدين زنكي أتابكاً على الموصل وأعمالها، وبلاد الشام، وكان ذلك في وقت أخذ نفوذ السلاطين السلاجقة في الهبوط، وعلا نفوذ الأتابكة، الذين صاروا مستقلين بأتابكياتهم، لا يربطهم بالسلطنة السلجوقية سوى سلطتها في توليتهم، أو عزلهم، كما سبق ذكره. وكان ذلك في الوقت الذي أخذ نفوذ الخلفاء العباسيين يزداد، فاستبد الخليفة العباسي المسترشد بالله بالأمور في العراق، ولم يبق للسلطان محمود سوى الخطبة[٢].

وفي عام (٥٢٣هـ/ ١١١٨م) عرض الأمير دبيس بن صدقة على السلطان محمود أن يدفع له مائة ألف دينار في مقابل أن يوليه إحدى الولايات

---

(١) الشحنة: كلمة فارسية تعني محافظ المدينة أو الوالي بالمفهوم العربي الإسلامي. وهي وظيفة إدارية أحدثها السلاجقة.

(٢) الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٢١٣)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٦٨).

الإسلامية، ورفض الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩هـ/ ١١١٨ - ١١٣٥م)؛ ذلك لمواقف دبيس العدائية ضد الخليفة، وغاراته على بغداد، ومساندته الصليبيين. وعندما علم عماد الدين زنكي أن السلطان ينوي توليته الموصل، وأعمالها، توجه إلى السلطان، وحمل معه خيولاً أصيلة، وهدايا جليلة وقدم له مائة ألف دينار على ان يسري ذلك سنوياً، وللخليفة مثلها، مقابل أن يبقيه في ولايته، فوافق الخليفة وتمت الصفقة.

أما السلطان محمود فخشي من ازدياد نفوذ عمه سنجر عليه بمساعدة دبيس، وأقره على ما أقطعه إياه سابقاً، وما في يده من البلاد في إقليم الجزيرة الفراتية وبعض مدن بلاد الشام[١].

وبعد وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه في سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) خلفه ابنه داود، بينما أراد عماد الدين زنكي أن يتولى ربيبه أرسلان شاه السلطنة، ليتمكن من فرض نفوذه على السلطنة السلجوقية من خلال سيطرته على السلطان، ولكن الخليفة رفض ذلك بحجة أن أرسلان ما زال صبياً، صغير السن، لا يمكن توليته أمور السلطنة، وأن السلطان محمود كان قد أوصى بالسلطنة لابنه داود، أما السلطان سنجر عميد البيت السلجوقي، وعم الملوك السلاجقة المتنافسين على عرش السلطنة، فإنه ولى ابن أخيه الملك طغرل بن محمد سلطاناً على العراق، وجعله ولي عهده. لكن منافسه مسعود بن محمد بن ملكشاه تغلب في سنة (٥٢٦هـ/ ١١٣١م)، واستمال إلى

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم: دار الكتب العلمية بيروت (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، (١٧: ٢٤٩- ٢٥٠).

ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٦٤٩، ٦٥٤)، تاريخ ابن خلدون (٥: ١٢١).

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥: ٢٣٤).

ابن كثير: البداية والنهاية مكتبة المعارف بيروت (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، (١٢: ١٩٨، ١٩٩).

حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٠، ٧١)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٦٨).

صفه عماد الدين زنكي مقابل أن يقطعه مدينة إربل، التابعة له، واتفقا أن يتوجها إلى بغداد، لمطالبة الخليفة بإقامة الخطبة لمسعود، في حين خرج الملك سلجوق شاه بن محمد، ومعه أتابكة قراجا الساقي طالباً السلطنة أيضاً. وكان أن التقى الطرفان قرب تكريت حيث هزم زنكي. وعندما عبر إلى تكريت، أقام له دزدارها[1] نجم الدين أيوب بن شادي، المعابر على نهر دجلة، وكان قد تم أسر كثير من أصحابه، وبعد أن أمن من المتابعة رجع إلى بلاده، ولم ينس عماد الدين جميل نجم الدين أيوب، فولاه بعض ولايات الشام، هو وأخاه أسد الدين شيركوه، ثم أبناءهم حيث ظهر شأنهم في عهد ابنه نور الدين محمود بن زنكي.

وبفضل الزنكيين وصل الأيوبيون إلى ملك مصر، وبلاد الشام وغيرها من المناطق[2]. وكتب السلطان سنجر مرة ثانية إلى الأتابك عماد الدين زنكي، والأمير دبيس بن صدقة، وأمرهما بالتوجه إلى بغداد، وكان أن التقيا بالخليفة، وجيشه في عقر قوف[3]. غربي بغداد، وبعد قتال شديد انهزم دبيس بن صدقة، وتفرق العسكر عن عماد الدين زنكي، الذي هزم هو الآخر وقتل

---

(١) ابن الجوزي: المنتظر (١٧ : ٢٧٠).
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٣٠- ٢٣١).
ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠ : ٦٧٠- ٦٧٥).
البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (١٤٦- ١٤٨).
الموصلي: تاريخ الموصل (١ : ١٦٨- ١٦٩)، ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ٤٧).
خليل: عماد الدين زنكي (٢٢٦)، طرحان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط ص (٢٩).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٤٣، ٤٤)، ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ٤٨، ٤٩).
الكامل في التاريخ (١٠ : ٦٧٥)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤ : ٧٢).
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد زياد (١ : ٥٤، ٥٥).

(٣) قرية تقع على ضفة نهر دجيل تبعد عن بغداد أربعة فراسخ (ياقوت: معجم البلدان).

كثير من عسكره، وأسر آخرون في حين عاد الخليفة إلى بغداد[1].

وفي هذه الفترة تذبذبت علاقة عماد الدين، تارة مع الخلفاء العباسيين وأخرى مع السلاطين السلاجقة، وعندما اشتدت الفرقة بين السلاطين السلاجقة مال إلى الخليفة العباسي، كما سنرى بعد. ولما قتل الخليفة المسترشد وخلع الراشد، وصفا الجو للسلطان مسعود تحسنت العلاقة بينه وبين زنكي، الذي استنجد به ضد الصليبيين لإنقاذ حلب؛ وعندما انتصر زنكي عليهم، أرسل السلطان مسعود إليه يهنئه على انتصاره وخلع عليه الخلع الكثيرة، ومنحه الألقاب الكبيرة مثل: الأمير الكبير، العادل، المؤيد، المظفر، المنصور... الخ، ولكن العلاقة بين الطرفين ساءت، وأراد السلطان مسعود أن يضع حداً لطموح زنكي، ولمعارضته له، حيث اعتبره محرضاً لأعدائه ضده. ومن هؤلاء الخليفة العباسي الراشد بأمر الله، وأمراء الأقاليم، الذين سماهم ابن الأثير أصحاب الأطراف. وكان زنكي يفعل ذلك فعلا لكي يشغل السلطان عنه، حتى يتمكن من توسيع أتابكيته. ولما قرر السلطان في عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) أن يسير بجيشه، ويأخذ الموصل وما في يد زنكي من البلاد راسله زنكي، وتم الصلح بينهما على أن يدفع زنكي للسلطان مائة ألف دينار، وأن يقوم بفتح الرها واستردادها من الصليبيين[2] وكان زنكي قد استدعى ابنه الكبير سيف الدين غازي، الذي كان السلطان مسعود يحبه، ويعتمد عليه، ويقربه ويثق به. وفي نفس الوقت أمر نائبه بالموصل نصير الدين جقر، بعدم السماح لغازي بدخول الموصل، أو المسير إليه، ورده إلى خدمة السلطان مسعود، وأرسل إلى السلطان مسعود يقول له: «إنني بلغني أن ولدي فارق

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٤٤- ٤٦).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٥٠).
تاريخ ابن خلدون (٥: ١٤٢).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧١).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر (٦٥)، الكامل في التاريخ: (١١ : ٩٣).
حسن إبراهيم تاريخ الإسلام: (٤: ٧٤، ٧٥).

الخدمة بغير إذن، فلم أجتمع به ورددته إلى بابك. فحلّ هذا عند السلطان محلاً كبيراً». ولما ثار أمراء المناطق ضد السلطان مسعود اضطر إلى مداراة زنكي؛ وذلك لدوره في دفع الخطر الصليبي ليس عن بلاد الشام والجزيرة الفراتية فحسب، بل عن بلاد السلطان مسعود نفسها؛ لذا أعفاه مما بقي عليه من ذلك المبلغ. وكان العداء بين السلطان وزنكي مستحكما قبل ذلك، وأراد السلطان أن يقتله، ويتخلص من نفوذه.

ولكن الأمير دبيس بن صدقة علم بذلك، فأرسل إلى زنكي يحذره من غدر السلطان، فلما علم السلطان بما فعل دبيس أرسل إليه من قتله، فأسف زنكي عليه وقال: «فديناه بالمال، وفدانا بالروح»[١].

أما الملك ألب أرسلان، فقام زنكي بإطلاق سراحه من معتقله سنجار، وعين له حرساً ومن يقوم بخدمته، وغرضه من ذلك خفاء موت أخيه ثم أمر باحترامه، وتلبية مطالبه. وكان يأمل أن يجعله سلطاناً بعد عمه مسعود، لكنه بعد وفاة عماد الدين زنكي أثناء محاصرته لقلعة جعبر سنة (٥١٤هـ/ ١١٤٦م) وكان مرافقاً له - فإنه توجه إلى الموصل عازماً الاستيلاء عليها، لكن الوزير الموصلي جمال الدين الأصفهاني، وصلاح الدين الباغيسياني (وكان أمير حاجب مع عماد الدين زنكي) تداركا الأمر، وحالا دون تحقيق مأربه، وسلما البلد لسيف الدين غازي بن زنكي الابن الأكبر لعماد الدين زنكي، ثم ألقى القبض على الملك السلجوقي ألب أرسلان، وسجن في قلعة الموصل، ولم يظهر في الحياة السياسية، والعامة، إلا أن اسمه قد ظهر على الدينار الأتابكي، الذي صكّ في سنة (٥٥٠هـ)، في عهد قطب الدين مودود بن زنكي، الذي خلف أخاه سيف الدين غازي سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م). ولا شك أنه أطلق سراحه[٢].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر (٦٥- ٦٦)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٥).
الكامل في التاريخ: (١١: ٩٣، ٩٤).
أبو شامة الروضتين في أخبار الدولتين: دار الجيل بيروت: (١: ٣٦).

(٢) خليل: عماد الدين زنكي ص (٢٢٨، ٢٢٩)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: =

وبوفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي في سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)، وحسب قول ابن الأثير «ماتت معه سعادة البيت السلجوقي فلم تقم له بعده راية، يعتد بها، ولا يلتفت إليها» وبذلك فقدت الدولة السلجوقية سيطرتها، ونفوذها على العراق، وإقليم الجزيرة الفراتية، وبلاد الشام. لذا لم يعد هناك نفوذ للسلاطين السلاجقة على الزنكيين، هذا وإن كان أتابك الموصل قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي قد لعب دوراً كبيراً في تثبيت السلطان محمد بن محمود في السلطنة، فساعده ضد الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٥ - ١١٦٠م)، الذي رفض الاعتراف بسلطنة محمد هذا، بعد أن أقيمت له الخطبة عقب عزل أخيه ملكشاه بن محمود واتفق مع سليمان شاه بن محمد ولي عهد السلطان سنجر شاه بأن يخطب له في بغداد شريطة أن يكفيه شرّ السلطان محمد بن محمود، فخطب له ببغداد عام (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)(١).

ويعتبر هذا التصرف من قبل قطب الدين مودود تحدّيا لسلطان سلجوقي لازالت الخبطة تلقى باسمه في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وفي مناطق أخرى، ولسلطة الخليفة العباسي الذي أقره سلطاناً في بغداد، وحاول أن يرفض السلطان محمد بالقوة، ولكن لم يتم له ذلك.

= ١٧٤، ١٧٥).

الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٢١٥)، الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٨٤، ٢٨٥).

الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٢٧، ٢٨).

ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٨٤، ٨٥).

البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص(١٨٩).

الكامل في التاريخ (١١ : ١١٢-١١٣)، ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ١٠٦-١٠٩).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ١٦٠).

الموصلي: تاريخ الموصل ص (١ :١٧٧-١٧٨).

الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢١٦- ٢١٧).

وفي نهاية عام (٥٥٤هـ/ ١١٦٠م) توفي السلطان محمد، واتفق أكابر الأمراء على تولية السلطان سليمان شاه، فطلبوا من قطب الدين مودود إطلاق سراحه وأن يكون أتابكاً له، لكنه لم يحكم طويلاً فقتل مسموماً عام (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) وفي سنة (٥٨١هـ) أنهى صلاح الدين الأيوبي العلاقة القائمة بين الزنكيين، والسلاطين السلاجقة بقطع الخطبة لهم، وأن يخطب له بدلاً منهم في الموصل، وسائر إقليم الجزيرة الفراتية[١]، وهذا سنشير إليه فيما بعد.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٢٥٤- ٢٥٥).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢١٩- ٢٢٣).

علاقة الزنكيين بالخلفاء العباسيين

وصف ابن تغري بردي دولة الزنكيين بأنها أوسط الدول التي حازت على لقب السلطان وقد سبق أن أشرنا إلى أن علاقة الزنكيين كانت في عهد عماد الدين زنكي، ومن بعده مذبذبة بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة، فعندما تتوثق مع الخلفاء تضعف مع السلاطين والعكس كذلك. وكانت كفة الميزان في هذه العلاقة تميل غالباً إلى جانب السلاطين السلاجقة، الذين كانوا مهيمنين على الخلفاء العباسيين. ولكن حدث منذ أن اعتلى المسترشد بالله عرش الخلافة العباسية (٥١٢ - ٥٢٩هـ/ ١١١٨ - ١١٣٥م) أن دب الانقسام في صفوف السلاطين السلاجقة، فأخذ الخلفاء يتحررون من ربقة سيطرتهم، وهيمنتهم، خاصة بعد أن اعتلى عرش الخلافة العباسية المقتفي لأمر الله فاستغل وفاة السلطان مسعود بن محمد ملكشاه سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)[١]، ليقوي من نفوذ الخلافة. وفي ذلك يقول ابن واصل: «وقامت الدولة العباسية، واستمرت قوتها إلى أن زالت بالتتار» (سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وكانت أولى مظاهر تلك الصحوة رفض الخليفة العباسي المسترشد بالله تولية دبيس بن صدقة، أمير الحلة، إقليم الجزيرة الفراتية، وبلاد الشام بدلاً من عماد

---

(١) حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي (١٤٠- ١٤١)، ابن واصل مفرج الكروب (١ : ٥١).

الدين زنكي؛ مما ثبت أقدام زنكي في ولايته عام (٥٢٣هـ/ ١١٢٨م)[1]، ولكن لم تلبث تلك العلاقة الطيبة بين زنكي والخليفة أن ساءت سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣٠م)، عندما أطلق زنكي سراح دبيس بن صدقة، الذي كان مسجوناً بدمشق بعد هزيمته، وأكرمه بدلاً من أن يسلمه لمبعوث الخليفة، الذي أهانه زنكي؛ لذا غضب عليه الخليفة. ثم حدث بعد وفاة السلطان محمود بن محمد أن طلب زنكي من الخليفة المسترشد أن يقيم الخطبة في بغداد لربيبه ألب أرسلان فاعتذر الخليفة عن ذلك بحجة أنه صغير السن[2].

وعندما مال زنكي إلى جانب السلطان مسعود، بعد أن رفض الخليفة المسترشد بالله إقامة الخطبة له ببغداد، وانضم إليه زنكي في حربه ضدّ الخليفة في عام (٥٢٦هـ/ ١١٣١م)، ولكن الهزيمة حلت بزنكي[3]، وفي سنة (٥٢٧هـ/ ١١٣٢م)، سار الخليفة المسترشد على رأس جيش تعداده ثلاثون ألف مقاتل إلى الموصل للاستيلاء عليها، ولتأديب زنكي. فحاصرها قرابة ثلاثة أشهر، ولكن السلطان مسعود هاجم بمساعدة دبيس بن صدقة بغداد، مما اضطر الخليفة إلى فكّ حصاره عن الموصل، وبعد ذلك في عام (٥٢٨هـ) عقد صلح بين الخليفة وزنكي، وتبودلت بينهما الهدايا. وفي الصراع الذي دار بعد

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧: ٢٥٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ١٩٩).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٤٠، ٤٤)، ابن الأثير: الكامل (١٠: ٦٥٤) والباهر في التاريخ (٤٦، ٤٧).

(٢) ابن الأثير: المرجع السابق (١٠: ٦٦٨- ٦٦٩)، ابن واصل: المرجع السابق (١: ٤٥، ٤٦).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٠- ٧١)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٧١).
الزهراني: نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ص (١٣٠).

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٤٥، ٤٦)، الكامل في التاريخ: (١٠: ٦٧٨- ٦٧٩).
ابن الجوزي: المرجع السابق (١٧: ٢٧١).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧١- ٧٢).

ذلك بين الخليفة المسترشد، والسلطان مسعود بن محمد طلب الخليفة من عماد الدين زنكي فكّ الحصار عن دمشق والتوجه إلى بغداد ليساعده ضدّ السلطان، لكن الحرب دارت بينهما قبل وصول جيش زنكي، وذلك عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٤)، وفيها هزم الخليفة وأسر، ودسّ له السلطان سنجر - بعلم من السلطان مسعود- مجموعة من الباطنية، قتلوه في خيمته. وبقتل المسترشد ضاعت الفرصة على عماد الدين زنكي لتولية ربيبه ألب أرسلان ابن محمود عرش السلطنة، وكان زنكي يأمل من خلال ذلك فرضَ سيطرته، ونفوذه على السلطنة السلجوقية[١]. ولكن حدث بعد مبايعته بالخلافة في نفس السنة أن أراد الراشد بالله أن يثأر لمقتل والده، وبتدبير من السلطان مسعود، فألب الأمراء عليه، وخطب ببغداد لابن أخيه داود بن محمود، وكان من بين هؤلاء الأمراء عماد الدين زنكي الذي أرسل له الخليفة ثلاثين ألف دينار لينفقها على جنده، ووعده بأن الخطبة والسلطنة لألب أرسلان، وأتابكية السلطنة والخلافة لعماد الدين زنكي. وفعلاً قام زنكي بنجدته، وتصدى لجيش مسعود، لكنه هزم واضطر إلى الخروج من بغداد[٢] وبصحبته الخليفة الراشد، وقفل راجعاً إلى الموصل وعندما دخل السلطان مسعود بغداد قام بخلع الراشد بعد أن جمع القضاة، والشهود، والفقهاء، وعرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد بالله للسلطان مسعود عند بيعته، وفيها بخطٍّ يده: «إني متى جندت، أو خرجت، أو

---

(١) ابن الجوزي: المرجع السابق (١٧: ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٩).
ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٤٧-٥١) والكامل (١١: ٥-٦، ٢٤-٢٧).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٥٩- ٦١).
الزهراني: نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ص (١٣١- ١٣٥).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم (١٧: ٣٠٦- ٣١١)، ابن الأثير: الكامل (١١: ٢٨، ٣٦، ٢٧، ٤٠- ٤١).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٣).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٦٩، ١٧٠).
ابن الموصل: مفرج الكروب (١: ٦٣- ٦٤).

لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف، فقد خلعت نفسي من الأمر»، وأوضح بعض أعماله التي تسيء إلى منصبه كخليفة: كشرب الخمر، فأفتوا بخلعه خوفاً من السلطان مسعود. وبعد ذلك تمت مبايعة المقتفي بالخلافة سنة (٥٣٠هـ/ ١١٣٥م)، في حين بقي الراشد في الموصل تحت حماية زنكي، ويخطب له في سائر أتابكية زنكي. ثم أرسل عماد الدين زنكي رسولاً هو كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري على الخليفة الجديد، وأحضر إلى الديوان وسمعت رسالته، وطلب منه مبايعة الخليفة الجديد المقتفي لأمر الله. وبعد أخذ ورد بين القاضي الشهرزوري، وأصحاب الديوان اقتنع القاضي ووافق، بشرط أن يرضي عماد الدين بشيء، فأمر الخليفة أن يعطي زنكي «صريفين، ودرب هارون وحربي ملكا».

وهذه من ممتلكات الخليفة الخاصة، وأن يزاد في ألقابه «وهذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيب من خاص الخليفة» ولما حقق الشهرزوري ذلك لملكه بايع، ورجع محملاً بالهدايا، والتحف - له ولزنكي - والمحضر الذي كتبه القضاة، والفقهاء، والشهود، والمتضمن خلع الراشد في الموصل فأقره قاضي القضاة الزينبي، والوزير، وعماد الدين زنكي. وبذلك تمت البيعة للمقتفي بالموصل، وخطب له وللسلطان مسعود فيها، وفي سائر أتابكية زنكي بإقليم الجزيرة الفراتية، وبلاد الشام في سنة (٥٣١هـ). أما الراشد فقد غادر الموصل واتجه إلى مراغة بأذربيجان، حيث قتل والده، ثم سار على أصفهان، وهناك قتله الباطنية في سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)[١].

وبعد وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) اضطربت السلطنة السلجوقية وكثر الخلاف والصراع بين ملوكها، في حين

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٧: ٣٢١- ٣٢٣).
ابن الأثير: التاريخ الباهر (٥٤- ٥٥) والكامل في التاريخ (١١: ٤٤- ٤٥، ٤٧).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٦٨- ٧٠) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٧٤).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٧٥).

انتعش نفوذ الخلفاء العباسيين وقوي مركز الخليفة المقتفي لأمر الله وأصبح الأتابكيون الزنكيون وغيرهم يستمدون التنصيب في أتابكياتهم ومناصبهم من الخليفة العباسي مباشرة، بالإضافة إلى رابطة الولاء الروحي السابق، فكانوا يعترفون به ويلجأون إليه للحصول على تفويض بالحكم ليأخذ حكمهم الصفة الشرعية في نظر رعاياهم؛ وقد سار الأتابكة الزنكيون على هذه القاعدة، فعند وفاة أحدهم يقوم الوزير أو النائب في الموصل بإرسال مبعوث من قبله حاملاً رسالة إلى دار الخلافة، وهي ما تعرف بالديوان العزيز ملتمساً فيها التقليد والتشريف للأتابك الجديد، فيرسل الخليفة الخلع والتقليد له ولنائبه[1].

وهكذا ظل اسم الخليفة يذكر في المساجد ويضرب على السكة، حتى في أشد الظروف التي ساءت فيها العلاقة بين الخليفة المقتفي لأمر الله وقطب الدين مودود بن زنكي أتابك الموصل (٥٤٤ - ٥٦٥هـ/ ١١٤٩- ١١٦٩م) الذي خرج عن طاعة الخليفة مناصراً للسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه الذي رفض الخليفة تعيينه سلطاناً والخطبة له ببغداد وقلد بدلاً منه عمه السلطان سليمان شاه بن محمد في سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م).

وفي سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) خرجت عساكر الموصل مناصرةً للسلطان محمد، وحاصرت بغداد لإرغام المقتفي لأمر الله، لكنهم فشلوا في تحقيق هدفهم وقوي موقف الخليفة المقتفي بوفاة عمدة سلاطين السلاجقة وعمهم سنجر بن ملكشاه (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)[2]، وبذلك تعززت مكانة الخلافة

---

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢١٦- ٢١٧)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢ : ٣٣٤- ٣٣٥).
سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ٥٤٦)، الموصلي: تاريخ الموصل (١ : ١٧٧).
ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ١٣٢).

(٢) البنداري: (٢٢٨- ٢٣٥، ٢٦٣)، ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ١٣٢).
ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٠٨، ١٠٩)، الكامل في التاريخ (١١ : ٢٠٧، ٢٢٢).
ديوه جي: تاريخ الموصل (٢٩٠)، الجميلي: الدولة الأتابكية في الموصل (٢٢٤- ٢٢٥).

العباسية وعادت إلى أحسن مما كانت عليه.

ومع هذه العلاقة المتدهورة بين الخليفة المقتفي وقطب الدين مودود فإن اسم المقتفي ظل يذكر في الخطبة ويضرب على السكة في أتابكية قطب الدين مودود. وكان ذلك عام (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م). وفي عام (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) وقف الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله موقفاً سلبياً من أتابك الموصل سيف الدين غازي الثاني بن قطب الدين مودود. عندما أذن لعمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في الاستيلاء على الموصل وأن يتولى تدبير شؤونها، وأرسل له الخلع مع مبعوثه عماد الدين الكاتب الأصفهاني[١].

وقد أخذ نور الدين محمود (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) الذي يسعى لتوحيد الجبهة الإسلامية في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية ضد الصليبيين ذلك حتى كانت وفاته سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م) وفي آخر حياته أظهر سيف الدين غازي (٥٦٥هـ -٥٧٦هـ) ولاء للخليفة الناصر لدين الله الذي تولى الخلافة (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) حيث بايع له وخطب في مساجد بلاده، كذلك تدخل هذا الخليفة في الصلح بين الطرفين ملبياً لنجدة صاحب الموصل عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود الذي أرسل إليه القاضي بهاء الدين بن شداد الذي يقول: «وكنا قد توسلنا على الخليفة الناصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولاً وشفيعاً إلى السلطان فسيره معنا» وفي سنة (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م)، وعلى الرغم من العلاقة المضطربة بين الخلفاء والزنكيين - وذلك لاستيلاء الخليفة الناصر لدين الله على «قوقا» التابعة للموصل - فقد ظل اسم الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ - ١٢٢٥م) يضرب على النقود الأتابكية في عهد عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود (٥٧٦ -

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر (١٥٢ - ١٥٤)، الكامل (١١: ٣٦٢ - ٣٦٥).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ١٩٦).
تاريخ ابن الفرات تحقيق حسن محمد الشماع (٤: ١١٠، ١١١).
ديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٤).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢٢٥، ٢٢٦).

٥٨٩هـ/ ١١٨٠ - ١١٩٣م)[١]، وفي عام (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) استنجد كل من نور الدين أرسلان شاه ابن عز الدين مسعود (٥٨٩ - ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) ومظفر الدين كوكبوري - صاحب إربل - بالخليفة الناصر لدين الله يلتمسان التدخل في الصلح بينهما وبين الملك العادل الأيوبي[٢] الذي كان يحاصر سنجار فأرسل الخليفة أستاذ الدار هبة الله بن المبارك والأمير أقباش من مماليك الخليفة المقربين لإقامة الصلح بين الطرفين، فاستجاب العادل لنداء الخليفة ورحل عن سنجار. وبعد وفاة نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) خلفه ولده الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني من بعده، وحسب القاعدة المعتادة، أرسل مملوكه الأرمني الأصل بدر الدين لؤلؤ[٣] إلى الخليفة طالباً منه التقليد والخلع. فأرسل الخليفة الخلع والتقليد للملك القاهر.

وبعد وفاة الملك القاهر في عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) أرسل الخليفة الناصر لدين الله لنور الدين أرسلان شاه الثاني بالملك ولبدر الدين لؤلؤ بالنظر في

---

(١) ابن الأثير: الباهر (١٨٣ - ١٨٤)، الكامل (١١ : ٤٨٦ - ٤٨٧)، ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ١٢٢- ١٢٣).
الديوه جي: ص (٢٩٨)، الجميلي ص (٢٢٦)، ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (٦٤) تحقيق الشيال ط ١٩٦٤م.
أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين القسم الثاني ص (٨٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١٢ : ٢٨٧)، الباهر (١٩٧). الموصلي: تاريخ الموصل (١ : ١٨٤- ١٩٨).
تاريخ ابن خلدون (٥ : ٥٩٣)، الجميلي: الدولة الأتابكية في الموصل ص (٢٢٧).

(٣) الملك الرحيم مملوك أتابك الموصل نور الدين أرسلان شاه كان مدبر دولة سيده ثم آل الأمر فيها إليه فاستقل بها، وكان لبيباً كريماً ذا دهاء وحيلة، حازماً وشجاعاً مدبراً خبيراً. انظر اليافعي: مرآة الجنان دار الكتاب الإسلامي القاهرة ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م ٤ : ١٤٨.
انظر أيضاً ابن الفوطي البغدادي: الحوادث الجامعة دار الفكر الحديث بيروت (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ص (١٦٢).

أمور الأتابكية والتشريفات لهما تلبية لطلب بدر الدين لؤلؤ[1] كان بدر الدين لؤلؤ على اتصال دائم بالخليفة الناصر لدين الله يخبره بحركات منافسيه عماد الدين زنكي الثالث صاحب قلعة شوشي وعقر الحميدية وحليفه وصهره مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل وغيرهما، تقربا وتوددا إليه. وصدرت له منه عدة رسائل. وبعد أن قتل بدر الدين نور الدين أرسلان شاه (٦١٥- ٦١٦هـ/ ١٢١٨ - ١٢١٩م) أرسل لؤلؤ إلى الخليفة يطلب التقليد والتشريف لأخيه الطفل الصغير ناصر الدين محمود بن القاهر الذي لم يتجاوز عمره ثلاثة أعوام[2].

علاقة الزنكيين بالقوى المحلية بإقليم الجزيرة الفراتية:

أولا: جهود عماد الدين زنكي مؤسس الأتابكية الزنكية في توحيد المنطقة

كان من الأهداف الهامة لإقطاع عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها القيام بواجب الجهاد ضد الصليبيين لصد خطرهم الذي وصفه ابن الأثير بقوله: «وكانت مملكة الفرنج قد امتدت من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماة ودمشق. وكانت

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ٥٤٦).
ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٩٧)، الكامل (١٢: ٢٨٧، ٢٩١- ٢٩٤).
تاريخ ابن الفرات (٥: ١١٢، ٢٥٤- ٢٥٥)، تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٩٥).
ابن واصل: مفرج الكروب (٣: ٣٦٢- ٣٦٣)، ديوه جي: تاريخ الموصل (٣٠٩-٣١١).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٩٨).
ابن الأثير: الكامل (١٢: ٣٣٩).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٨١).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٣٥- ٣٨).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢٢٧، ٢٢٨).
الديو جي: تاريخ الموصل ص (٣١٣، ٣١٤).

سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد. ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين. وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار. وانقطعت الطرق إلى دمشق. فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعباً ومشقة. وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة ليكفوا أيديهم عنهم. في حين وصف حال بلاد المسلمين وملوكها وأمرائها فقال: «فلما نظر الله تعالى إلى ملوك البلاد الإسلامية وما هم فيه من العجز عن نصرة الدين ورأى قهر عدوهم لهم فحينئذ أراد أن يسلط على الفرنج من سوء أفعالها يجازيها فنظر في جريدة شجعان أوليائه وذوي الرأي والنجدة والشهامة من أصفيائه فلم ير فيها أقوى على هذا الأمر من المولى الشهيد عماد الدين زنكي فولاه الثغور ورعاية الجمهور». وقبل أن يقدم عماد الدين زنكي على مثل هذا العمل الجليل كان لا بد له من توحيد البلاد وضمها تحت لوائه إقليم الجزيرة الفراتية فكانت البوازيج أول بلدة وضع يده عليها وهو في طريقه من بغداد إلى الموصل، ثم تسلم الموصل من جاولي مملوك البرسقي - وكان متولياً أمورها نيابة عن ابنه الصغير- وكان ذلك عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)[١].

ثم قام زنكي بتنظيم إدارتها فأقطع جاولي الرحبة على شاطئ الفرات وسيره إليها، كما قام بالعمل على تنفيذ ما اتفق عليه حين تم أقطاعه الموصل وأعمالها من قبل السلطان فعين نصير الدين جقر[٢] ليكون والياً على الموصل

---

(١) التاريخ الباهر (٣٢- ٣٥) والكامل في التاريخ (١٠: ٦٤٣- ٦٤٥).
وانظر أيضاً: أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين القسم الأول تحقيق البيومي دمشق ١٩٩١ص (١٨٣- ١٨٤). ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ٣٤).
تاريخ ابن خلدون (٥: ١١٨).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٦٤).
والموصل في العهد الأتابكي ص (٢٠، ٢١).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٦٦ - ١٦٧) الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٤٦).

(٢) جقر بن يعقوب: أخص مماليك عماد الدين زنكي وتربطه بصلاح الدين الياغيسياني مصاهرة.

كلها ودزدارياً أي محافظاً على قلعتها والقلاع الأخرى في البلاد، وعين صلاح الدين محمد الياغيسياني أميراً حاجباً له، كما عين بهاء الدين الشهرزوري[1] قاضي قضاة الموصل وأعمالها كلها وما يتم فتحه من البلاد، وزاده أملاكاً وأقطاعاً، وقربه أكثر من غيره. وكان يستشيره في كل الأمور ويأخذ برأيه فيها. وبعد أن نظم عماد الدين زنكي إدارة شؤون البلاد ورتب شؤونها الداخلية قرر قواعد الجنود وأقطع العساكر الاقطاعات»[2]. ثم وجه نظره إلى الإطار الخارجي لإمارة الموصل فشرع في ضم الإقطاعات والمدن والقرى التابعة والمجاورة لها، والتي كانت بيد أمراء الأطراف الذين كان كل واحد منهم قد استأثر بإقطاعة. وكانت أتابكية زنكي محاطة من جهاتها بإمارات وممالك منها ما هي قوية وأخرى ضعيفة. ولكنه كان يخشى في المقام الأول تلك الإمارات الصليبية التي لا يمكن الاستيلاء عليها قبل أن يوحد جهود المسلمين في صف واحد لمواجهة الخطر الصليبي الجاثم على أرضهم[3].

وفي ضوء هذه السياسة، بدأ زنكي بأقرب البلاد إلى الموصل، وهي جزيرة ابن عمر وكانت تابعة لإمارة البرسقي، فسار على رأس جيشه إليها واستولى عليها، ورتب أمورها ونظم إدارتها، وضم أيضاً إربل ثم زحف بجيشه إلى مدينة نصيبين التابعة لإمارة ماردين وصاحبها حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي الأرتقي الذي طلب النجدة من ابن عمه داود بن سقمان صاحب حصن كيفا. ولكن زنكي ضيق الحصار عليها فاستسلمت قبل أن تصل تلك النجدة

---

(١) هو أبو الحسن علي بن القاسم من بيت الشهرزوري، أصلهم من مدينة شهرزور، وبيتهم بيت مشهور بالعلم والفقه والدين. انظر: الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٦٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٦٤٥)، التاريخ الباهر ص (٣٥، ٣٦).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٣٤).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٦٤).

(٣) عدة باحثين: دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٤٧).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (١٢٠).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي (٢٢).

ومنها سار إلى سنجار وكانت ذات أهمية إستراتيجية لوقوعها على الطريق الواصل بين إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، لكنها امتنعت عليه حتى شدد الحصار عليها وعندئذ اضطرت حاميتها إلى تسليمها، ومنها أرسل فرقة من الفرسان للاستيلاء على منطقة الخابور، فتم له ذلك، وعين عليها من يدير شؤونها. ثم توجه إلى مدينة حران. وكان أهلها في ضيق من تسلط جيرانهم الصليبيين أصحاب الرها وسروج وغيرهما من بلاد إقليم الجزيرة الفراتية؛ فرحبوا بقدوم زنكي ورجاله إليهم، وعند وصوله إلى المدينة خرجوا لاستقباله فرحين مستبشرين لإنقاذهم مما هم فيه من معاناة[1]. ولما تم لزنكي ضم معظم مدن الجزيرة الفراتية رأى أنه من الحكمة أن يوهم جوسلين أمير الرها الصليبي بأنه مشغول بهمومه الداخلية حتى لا يكتشف خططه واستعداده لعبور الفرات للاستيلاء على مدينة حلب وغيرها من المدن الشامية.

وكان هدفه من ذلك التفرغ لتنظيم شئون أتابكيته الداخلية، تمهيداً لعبور الفرات وضم مدينة حلب وغيرها من المدن الشامية، فأرسل إليه يطمئنه ويهادنه وعقد معه صلحاً بعدم اعتداء كل منهما على الآخر[2]. وكانت مدينة

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر (٣٦- ٣٧)، الكامل في التاريخ (١٠: ٦٥٤- ٦٤٧).
أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين القسم الأول ص (١٨٤).
سبط بن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ١٨٩)،
تاريخ ابن خلدون: (٥: ١١٨).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٣٤ - ٣٦).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٦٧).
ديوه جي: تاريخ الموصل (٢٦٦ - ٢٦٧) والموصل في العهد الأتابكي ص (٢٢، ٢٣).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٤٧، ٤٨).
(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر (٣٦،٣٧).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٣٦).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٦٧).

حلب تعاني أيما معاناة من تهديد الصليبيين لها، مما اضطر أهلها إلى مكاتبة عماد الدين زنكي وسيروا إليه شهاب الدين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر فأعلمه بأحوالها وكان أن لبى عماد الدين زنكي دعوتهم له فأرسل جيشاً استولى على قلعة حلب الشهباء. وعندما استتب الأمر فيها ونظم صلاح الدين محمد الياغيسياني إدارتها أرسل إلى عماد الدين زنكي طالباً منه القدوم إليها، فسار إليها في جيشه. وفي طريقه استولى على مدينتي منبج وبزاغة.

وعند وصوله خرج أهلها لاستقباله وهم فرحون مستبشرون، فدخلها فرحاً سنة (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) لكونها كانت إقطاعاً وإمارة لوالده قسيم الدولة أقسنقر، وبها كان مولده ونشأته الأولى. وسرعان ما قضى على أولئك المتسببين في نكبتها، ثم قام بتنظيم إدارتها وعمارتها، وجدد سورها وحصنها، ونقل جثمان والده إليها ودفنه في المدرسة الزجاجية التي زاد في وقفها. ثم ولى أمرها سوار بن أبتكين، وكان رجلاً مشهوراً بالحروب وتدبير الأمور، له وقائع مشهورة ضد الصليبيين. وباستيلائه على حلب تحقق لزنكي الربط بين الشام والعراق وبالتالي نجم عن ذلك قطع الصلة بين إمارة الرها الصليبية وإقليم الجزيرة الفراتية من جهة وبقية الإمارات الصليبية ببلاد الشام من جهة أخرى، مما كان له أثره على الوجود الصليبي في المنطقة. هذا بالإضافة إلى توحيد الجبهة الإسلامية. ولإنجازه الباهر هذا، جاءه تفويض من السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١ - ٥٢٥هـ/ ١١١٧ - ١١٣١م)[1] بحكم

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب تحقيق ونشر سامي الدهان ص (٢٤١-٢٤٣)، (٢٤٥).

ابن الأثير: التاريخ الباهر (٣٧ - ٣٨)، الكامل في التاريخ (١٠: ٦٥٠ - ٦٥١).

ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٣٩، ٤٠)، أبو شامة: عيون الروضتين ص (١٨٥).

خليل: عماد الدين زنكي الدار العلمية بيروت (٨٥- ٨٧).

الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام مؤسسة الرسالة (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) ص (١١٣).

الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٦٧ - ٢٦٨).

الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٤٨، ٤٩).

الموصل والجزيرة الفراتية وبلاد الشام في عام (٥٢٣هـ/ ١١٢٨م)[١].

وفي سنة (٥٢٣هـ/ ١١٢٨م) استولى زنكي على مدينة حماة التي ولاها بهاء الدين سونج وذلك بخدعة دبرها للصليبيين ثم توجه زنكي إلى مدينة حمص للاستيلاء عليها وطلب من خيرخان أن يأمر ولده ومن معه بتسليمها لكنهم رفضوا مع شدة تعذيبه إياه أمامهم ثم رجع زنكي إلى الموصل ومعه سونج وخيرخان والقادة الذين اعتقلهم[٢].

علاقة عماد الدين زنكي بالأمراء الأراتقة

علم عماد الدين زنكي أن حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي الأرتقي صاحب ماردين وابن عمه داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ومعهما صاحب آمد قد اتفقوا جميعاً على حربه، وجمعوا لذلك عشرين ألف مقاتل ليسترجعوا منه نصيبين التي استولى عليها قبل ذلك، لما تشكله من خطورة على إماراتهم. ذلك أن زنكي اتخذها نقطة انطلاق لجيوشه إلى الإمارات الأرتقية في ديار بكر فسار إليهم في أربعة آلاف مقاتل وهزمهم بالقرب من دارا، ثم توجه إلى مدينتي سروج ودارا وشدد في حصارهما واستولى عليهما وكان ذلك في سنة (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) وفي عام (٥٢٨هـ/ ١١٣٣م تحالف مع تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين ضد ابن عمه داود صاحب حصن كيفا آمد دون جدوى، ثم ملك بعض القلاع بديار بكر وبعد تلك الانتصارات التي حققها زنكي في بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية[٣] رأى أنه لا بد من حماية أتابكيته من هجمات

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٦٤٥).

ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ٢٤٣).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٢٤٥- ٢٤٧).

ابن الأثير: التاريخ الباهر (٣٨)، الكامل في التاريخ (١٠: ٦٥٨- ٦٥٩).

ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٤١- ٤٢)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٦٩).

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام مؤسسة الرسالة ط ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ =

الأكراد المتكررة بعد أن تحالفوا ضده مع الخليفة المسترشد بالله عند حصاره للموصل عام (٥٢٨هـ/ ١١٢٣م) بزعامة أميرهم عيسى الحميدي، فوجه اهتمامه نحو قلاعهم المحيطة ببلاده من الشرق لكونها تشكل خطراً على أتابكيته، وهاجم قلعتي عقر الحميدية وشوش واستولى عليهما وعلى غيرهما من بلادهم انتقاماً من عيسى الحميدي ثم أجلى الأكراد الحميدية من بلادهم وهذا الإجراء الذي اتخذه عماد الدين زنكي تجاه زعيم الأكراد الحميدية جعل أبا الهيجاء بن عبد الله بن أبي الخليل بن مرزبان الهكاري زعيم الأكراد الهكارية وصاحب قلعة أشب وجزيرة ابن عمر ونوشي يطلب من عماد الدين الأمان، فحمل إليه الهدايا والأموال، وبقي عنده في الموصل، وقسم إمارته بين أولاده، فأعطى أحمد قلعة نوش وأعطى ابنه الصغير عليا قلعة أشب وبعد موت أبي الهيجاء سار ولده أحمد إلى أشب للاستيلاء عليها، فاستغل زنكي تلك الفرصة واستولى على قلعة أشب الحصينة، وخربها (وقيل: إن الأكراد هم الذين هدموها) وهناك بنى العمادية، وقيل إنه بنى مكان قلعة أشب السابق ذكرها. والعمادية نسبة إلى عماد الدين زنكي. ثم استولى على قلاع المهرانية وبلاد الهكارية وكان ذلك بين عامي (٥٢٨، ٥٣٧هـ/ ١١٢٣، ١١٤٢م) وبذلك يكون زنكي قد استولى على القلاع المنيعة الواقعة في الجهة الشرقية من أتابكيته فأمن جانب سكانها من الأكراد الذين اشتهر عنهم إثارة القلاقل والاضطرابات وقطع الطرق وتهديد الأمن والسلام في المنطقة.

واستمر زنكي في زحفه على المعاقل الحصينة في الأجزاء الشرقية من

= (١١٤-١١٦).

خليل: عماد الدين زنكي ص (٨٧، ٨٨).

ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ٥٢).

ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٣٨، ٣٩).

الكامل في التاريخ (١٠: ٦٦٤).

الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٧٠).

أتابكيته، ففي سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٦م)[١] استولى على دقوقا[٢] وما حولها من قلاع واضعاً يده على الطريق الواصل بين إربل وبغداد؛ ليأمن بذلك عدم تعاون أهل هذه المناطق مع الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة. وفي عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) توجه إلى دمشق ليعمل على مسرح بلاد الشام. ثم عاد إلى إقليم الجزيرة سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م).

استيلاؤه على مدينة شهرزور وأعمالها:

بعد أن أخضع زنكي الأكراد لنفوذه، وضم منطقتهم إلى أتابكيته، رأى أن هناك خطراً يهددها من قبل الأمير التركماني قفجاق بن أرسلان تاش، وكان مستولياً على مدينة شهرزور، الواقعة في سهل فسيح بين إربل، وهمذان يسكنه الأكراد والتركمان ويحكمهم معاً قفجاق، وكان نافذَ الكلمة في تلك المنطقة، مطاعاً من جانب التركمان، ولا يخالفون له أمراً؛ مما جعل الأمراء، والملوك يتجنبون الاحتكاك به؛ لذا تجنبوا بلاده لحصانتها.

وقد رأى زنكي ضرورة إزاحة هذا الأمير، والقضاء على خطره، خاصة انه تحالف مع السلطان مسعود السلجوقي، الذي كانت علاقته بزنكي سيئة.

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٤٨)، الكامل في التاريخ (١١: ١٤- ١٦، ٥٤، ٩١).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٥٥- ٥٧)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ١٨٩).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٧٣- ٢٧٤)، الموصل في العهد الأتابكي ص.(٢٣).
دراسات في تاريخ العراق (١٤٧- ١٤٨).
تاريخ أبي الفداء: (٣: ٨ و ١٦).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٥٠- ٥١)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧١).
أبو شامة: الروضتين (١: ٣٦).
عيون الروضتين ص (١٨٤، ١٨٥).

(٢) ذقوقا: بلدة بين إربل وبغداد معروفة منذ القدم، انظر: ياقوت: معجم البلدان.

لذلك وجه إليه جيشاً، وهزمه، ثم أعطاه الأمان وأدخله في خدمته. وبذلك تم لزنكي الاستيلاء على مدينة شهرزور، وضمها إلى أتابكيته في سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م)، وبقي أبناء قفجاق في خدمة البيت الزنكي إلى ما بعد سنة ستمائة هجرية[١].

وفي سنة (٥٣٦هـ/ ١١٤١م) ضمّ زنكي مدينة الحديثة، ونقل أهلها، وأحلّ محلّهم أتباعه؛ ليبعد خطرهم عنه[٢].

استيلاء عماد الدين زنكي على بعض مدن ديار بكر:

في عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) سار عماد الدين زنكي بجيشه زاحفاً على ديار بكر، فتم له الاستيلاء على عدة مدن، وحصون، منها: طنزة، وأسعرد، والمعدن، وحيزان، وأخذ من ماردين عدة قرى. وكذلك استولى على حصون الروق، وفطليس، وباتاسا، وذي القرنين. ثم توجه إلى مدينتي آمد. وحاني، فحاصرهما، مع أن صاحب آمد مال إلى صفه، وخطب له بها. وكان متحالفاً مع داود الأرتقي (صاحب حصن كيفا)، الذي هزمه زنكي بعد عدة حروب، واستولى منه على قلعة بهمود[٣].

دور عماد الدين زنكي في الجهاد ضد الصليبيين:

وبعد أن تم لعماد الدين زنكي ضمّ وتوحيد غالبية المدن الكبرى في

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٥٧، ٥٨)، الكامل في التاريخ (١١: ٧٥، ٧٦).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٨٤)، النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٣٩).
ديوه جي: تاريخ الموصل (٢٧٤)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ١٨٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٨٨)، ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٩٠).

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر (٤٧و٦٦)، الكامل في التاريخ (١١ :٨٨، ٩٤).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٩٢)، تاريخ أبي الفداء (٣: ١٦).
النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢).
أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين ص (١٨٤، ١٨٥).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧١).

إقليمي: الجزيرة الفراتية، والشام، واستطاع بدهائه، وحسن تدبيره أن يقيم أتابكية مرهوبة الجانب، تمتد من شهرزور شرقاً، إلى أواسط بلاد الشام غرباً، ومن آمد، وديار بكر، وجبال الأكراد الهكارية، والحميدية شمالاً إلى الحديثة جنوباً[١]، جاء دور التصدي للصليبيين في إقليم الجزيرة الفراتية وشمال الشام.

وكان حصن الأثارب أو معقل من معاقل الصليبيين يقوم زنكي بقصده؛ وذلك لما يشكله من خطورة على مدينة حلب. وبعد الاستيلاء على هذا الحصن وتخريبه[٢] سنة (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م)، هاجم حصن حارم، ثم انتقل إلى إقليم اللاذقية سنة (٥٣٠هـ/ ١١٣٥م) فأنزل هزيمة منكرة بالجيوش الصليبية التي احتشدت لمواجهته[٣].

وفي العام التالي توجه بجيشه إلى حصن بعرين، أو بارين، بين حماة وحلب فانهزم الصليبيون، وفرّ من بقي منهم على قيد الحياة.

---

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٧٩)، الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي (٢٤).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٦٦٢- ٦٣)، والتاريخ الباهر (٣٩- ٤٢).
تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٠٨).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ٢٥٩).
النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٢٧).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٦٧)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٦٩، ٢٧٠).
الجزوري: إمارة الرها الصليبية (٢٦٣- ٢٦٥)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٥٠).

(٣) ابن قلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٥٥- ٢٥٦).
ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٢٦٠، ٢٦١).
ابن الأثير: الكامل (١١» ٤٠)، النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٣١- ١٣٢).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧٠)، الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٧٥).
عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٤٧).

وكان زنكي خلال حصاره لهذا الحصن قد استرجع من الصليبيين معرة النعمان، وكفرطاب، وزردنا، وتل أغدي، وغير ذلك من القرى الواقعة شرقي نهر العاصي[١].

فتح الرَّها:

توج عماد الدين زنكي جهاده ضدّ الصليبيين بفتحه مدينة الرها، وهي الإمارة الصليبية الأولى التي أقاموها في المشرق الإسلامي[٢].

وكانت الرها الإمارة الصليبية الوحيدة في إقليم الجزيرة الفراتية، وقد تمتعت بأهمية كبيرة؛ نظراً لأهمية موقعها الإستراتيجي؛ ولما تشكله من خطورة على خطوط المواصلات الإسلامية، إذ كانت بمثابة إسفين دقه الصليبيون بين الموصل وحلب من جهة، وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى من جهة أخرى، وقد فصلها نهر الفرات عن بقية الإمارات الصليبية ببلاد الشام. وهذه الظروف مجتمعة أعطتها أهميةً بالغة عبّرَ عنها ابن الأثير بأنها العين من إقليم الجزيرة الفراتية، والحصن من الديار الإسلامية. والواقع أن إمارة الرها كانت مصدر تهديد كبير للمسلمين وطرق مواصلاتهم في إقليم الجزيرة الفراتية وشمال الشام، مما جعل زنكي يخطط لغزوها.

وهناك أمور استجدت على الساحة، ساعدت زنكي على فتحها، منها: أن أميرها جوسلين الثاني لم يشبه أباه في شجاعته، وبأسه، وكان يؤثر الراحة

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٥٩). ابن العديم: زبدة الحلب: ص (٢٥٩، ٢٦١، ٦٢).
ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٦٠، ٦١)، الكامل في التاريخ (١١: ٥١- ٥٣).
النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٣٢- ٣٣) عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٤٦).
ديوه جي: تاريخ الموصل (٢٧٦).

(٢) عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٧١- ٧٢)، فيليب حتي: تاريخ سورية، ولبنان، وفلسطين ترجمة: كمال اليازجي دار الثقافة بيروت (١٩٥٩) ص (٢٣٤).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٥٢، ٥٣).

والعافية. وكان لأمه تأثير عليه - فهي أرمينية - لذا مال إلى أخواله الأرمن وغيرهم من طوائف المسيحيين الشرقيين كالسريان والروم، وفضلهم على المسيحيين الغربيين (الصليبيين)؛ مما سبب إزعاجاً للفرسان الصليبيين داخل الرها.

ومن الأسباب التي عجلت بزنكي لفتح الرها تحالف جوسلين الثاني أمير الرها مع الأراتقة منافسي زنكي بديار بكر؛ وهم الذين بدأ زنكي بمهاجمتهم، وأخذ منهم عدة قلاع في ديار بكر، كما أن توجهه لضرب الأراتقة كان خدعةً منه ليوهم أهل الرها بأنه مشغول عنهم بحرب أخرى. لذا اطمأن أميرها، ورحل إلى تل باشر (الأجزاء الغربية من إمارته) ليقطع الطريق والاتصال بين زنكي وحلب (الأجزاء الغربية من أتابكيته). وكان زنكي قد أرسل عيونه إلى حران؛ لاستقصاء الأخبار، فأخبروه برحيل جوسلين الثاني عن الرها، وعندئذ أمر جنده - وغالبيتهم من التركمان - بالاستنفار والتوجه إليها في أسرع وقت ممكن[١].

وكان هجومه في (جمادي الأول عام ٥٣٩هـ/ ٢٨من نوفمبر عام ١١٤٤م)، ويبدو أن أهل الرها كانوا قد اتخذوا احتياطاتهم وحِذرهم من أي هجوم مباغت، فملأوا تحصيناتهم بالرجال والمقاتلين فضلاً عن العدة والعتاد والمؤن، وكان أمير الرها قد صحب معه كل قادة جيشه الأكفاء[٢]. فقام

---

(١) التاريخ الباهر ص (٦٦، ٦٧). الكامل في التاريخ (١١: ٩٨- ٩٩).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٩٣- ٩٤).
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٢: ٢٧٨، ٢٧٩).
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٧٩)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٨٧).
النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٤٣).
عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٧٢)، الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٢٩٨- ٣٠٠).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧١).

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٧٩). ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٢٧٩). =

بالدفاع عن الرها هيو الثاني رئيس أساقفة اللاتين وتكاتف معه النصارى الوطنيون، أما جوسلين أمير الرها فقد اكتفى بالبقاء في تل باشر ليقطع أي إمدادات تأتي لزنكي من حلب. وأرسل إلى إخوانه الصليبيين في أنطاكية وبيت المقدس طالباً نجدتهم، ولكن تلك النجدة وصلت متأخرة بعد فوات الأوان. أما زنكي فقد حصل على إمدادات من الأكراد والتركمان من المناطق الشمالية، كما توفرت لديه معدات لإحكام الحصار، في حين كانت غالبية المدافعين عن الرها من التجار ورجال الدين الذين تنقصهم الخبرة بفنون الحرب. وبعد حصار شديد استمر بضعة أسابيع، تم لزنكي فتح المدينة، وكانت غالبية القتلى من ضحايا الفوضى والاضطرابات التي سادت المدينة[١].

ولما دخل زنكي المدينة أعجبته، وعزّ عليه تخريبها وتدميرها، فأمر بأن ينادى في الجند بالكفّ عن السلب والنهب وبردّ الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم. ولم يكتف بذلك بل أعاد عمارة ما انهدم وترميم ما تصدع من بنيانها وطيب نفوس أهلها وبذلك عادت المدينة كسابق عهدها قبل فتحها، وعين علي كوجك صاحب إربل أميراً عليها ومعه مجموعة الجند لحمايتها[٢].

واستخدم زنكي مع سكانها الأصليين من الأرمن والسريان واليونانيين سياسة اللين وأحاطهم بعطفه ورعايته ودعا أولئك الفارين من أهلها من اضطهاد الصليبيين الكاثوليك إلى العودة إلى وطنهم.

وقد أتت سياسته التسامحية هذه مع أهلها ثمارها؛ إذ استسلمت حامية القلعة، فعفا عن رجالها من السريان والأرمن والأرثوذكس في حين انتقم

= ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٦٦- ٦٨). الكامل (١١: ٩٨، ٩٩).

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ص (٣٧٧- ٣٨١).

عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٧٢، ٤٧٣)، الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (٣٠١-٣٠٦).

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٨٠)، ابن العديم، زبدة الحلب (٢٧٩).
ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٦٩)، الكامل (١١: ٩٩).

زنكي من الصليبيين الكاثوليك وهدم كنائسهم، وأبقى على كنائس الأرمن والسريان.

وبعد ذلك توجه زنكي على المعاقل الصليبية الواقعة شرقي نهر الفرات فاستولى عليها، كمدينة سروج وغيرها. وبذلك لم يبق لجوسلين الثاني سوى البيرة تلك المدينة الحصينة الواقعة على شاطئ الفرات والتي تتحكم على أهم معبر بين الضفتين. وكانت أكثر تلك المعاقل تحصيناً من حيث المدافعين عنها والمؤن والعتاد؛ لذا لقي زنكي صعوبة في فتحها(١).

وخلال حصاره لها وصلته الأخبار بأن الملك ألب أرسلان بن مسعود المقيم معه في الموصل قتل نائبه نصير الدين. فقرر فكّ الحصار عن البيرة والعودة إلى الموصل. وخوفاً من الرجوع(٢) إلى محاصرتها مرة ثانية قررت حاميتها الصليبية وضع القلعة تحت حماية حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي أمير ماردين، وذلك بهدف الإيقاع بينه وبين زنكي، ولم يبق لجوسلين الثاني من إمارة الرها سوى القسم الغربي منها الذي يضم تل باشر وسميساط ومرعش ودلوك وعينتاب وعزاز والرواندان. وبذلك أزال عماد الدين زنكي ذلك الأسفين الذي غرسه الصليبيون في إقليم الجزيرة الفراتية وشاءت الأقدار بأن تكون الرها اول إمارة صليبية تسقط كما كانت أولها نشوءاً. وبهذا الانتصار الباهر خلع الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٦- ١١٦٠م) على زنكي ومنحه لقب «الملك الغازي» وكذلك لقب بالملك المنصور(٣).

---

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٣٨٢)، عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٧٣، ٤٧٤).

(٢) ابن القلانسي: ن. م السابق (٢٨٠)، ابن العديم، زبدة الحلب (٢: ٢٨٠، ٢٨١).
ابن الأثير: الكامل (١١: ٩٩)، (١٠٢)، التاريخ الباهر ص (٧٠- ٧١).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٩٤- ٩٦).
رنسيمان: م السابق (٢: ٣٨٣)، عاشور: م السابق (١: ٤٧٥).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ٣٠٦- ٣٠٧.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٢٨٤). ابن الأثير: الباهر (٧٠، ٧١) =

وقد اعتبر المسلمون فتح الرها فتح الفتوح وبدايةً لإزالة الوجود الصليبي في بلاد الشام، في حين رأى الصليبيون فيه صدمة كبيرة لهم وتثبيطاً لهممهم ونذيراً بتحول مجرى الأحداث لصالح المسلمين ونذير شؤم ينذر بقرب رحيلهم عن الأرض الإسلامية.

ورغم موقف زنكي التسامحي والمتعاطف تجاه الأرمن فإن هؤلاء حنوا إلى مجدهم القديم في الرها مستغلين قلة عدد الحامية التي وضعها زنكي لحماية المدينة والدفاع عنها، فتآمروا مع جوسلين الثاني ليعود مرة ثانية إلى الرها ويقضي على تلك الحامية، لكن سرعان ما علم زنكي بتلك المؤامرة فأمر بقتل المدبرين لها وبطرد كثير من سكانها الأرمن وأحل محلهم ثلاثمائة أسرة يهودية مستغلاً - في ذلك - العداء المستحكم في تلك العصور بينهم وبين النصارى[1].

نهاية زنكي:

بعد فتح الرها رأى زنكي أن يستولي على القلاع والمدن ذات الأهمية

= والكامل (١١: ١٠٢).
تاريخ أبي الفداء (٣: ١٧)، ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٩٦).
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٣٨٣)، عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٧٤- ٧٥).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية (٣٠٧، ٣٠٨).
حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (٢: ٢٣٤).
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٥٨).

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٨٢).
ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٢٨١).
رنيسمان: م. السابق (٢: ٣٨٣- ٣٨٤).
عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٧٦).
الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (٣٠٨- ٣١٢).

الإستراتيجية والمحيطة بإمارته في إقليم الجزيرة الفراتية والواقعة في نطاقها. لذا أرسل في عام (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) حملة عسكرية للاستيلاء على حصن فنك الحصين وكان للأكراد البشنوية منذ نحو ثلاثمائة عام، وهو يقع بالقرب من جزيرة ابن عمر ويطل على نهر دجلة. وكان قد أخذ منهم من قبل عدة حصون وقلاع الزوزان في حين توجه هو بنفسه على رأس جيش كبير في سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) إلى قلعة جعبر (دوسر) الحصينة[١] ليستولي عليها من أميرها عز الدين علي بن مالك بن سالم بن مالك العقيلي.

وبينما هو يحاصر جعبر، هاجمه - وهو نائم - ثلاثة من خدمه من بينهم يرنقش خادمه الخاص وكان من أصل فرنجي ويقال: إن زنكي كان قد أساء إليه في ذلك اليوم، وبذلك انتهت حياة عماد الدين زنكي بعد أن نجح في تكوين أتابكيته وتوسيع رقعتها وتوحيد معظم مدن إقليم الجزيرة الفراتية وبعض مدن بلاد الشام فضلاً عن جهاده ضد الصليبيين وإسقاط الرها أولى إماراتهم في الشرق.

انقسام الأتابكية الزنكية:

بعد مقتل عماد الدين زنكي في عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) أثناء حصاره لقلعة جعبر، قام بأمر الأتابكية الزنكية أبرز رجلين من رجال زنكي الأوفياء وهما: الأمير صلاح الدين محمد الياغيسياني أمير حاجب، والوزير جمال الدين محمد بن علي الجواد الأصفهاني رئيس الديوان. وكانا مختلفين قبل وفاته، فصفيا ما بينهما من خلاف، وصادف أن الملك السلجوقي ألب أرسلان بن السلطان محمود كان بصحبة عماد الدين زنكي عند حصاره جعبر فطمع في الاستيلاء على الملك في الموصل، وجمع العساكر حوله للتوجه إلى

(١) سلمها السلطان السلجوقي ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك بن بدران العقيلي ابن عم شرف الدولة مسلم بن خروش أميرها الحالي في مقابل تنازله عن حلب التي سلمها السلطان إلى قسيم الدولة أقسنقر والد زنكي وبقيت بيد أبنائه إلى هذا العام. انظر: ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٩٨).

الموصل، ولكن جمال الدين الأصفهاني وصلاح الدين الياغيسياني اتفقا على أن لا يمكناه من ذلك، واتبعا معه سياسة المراوغة والخداع وقالا له: «إن عماد الدين أتابك كان نائباً في البلاد وباسمك كنا نطيعه» فصدقهما وقربهما طمعاً في أن يحققا له رغبته في ملك الموصل وأعمالها ثم أرسلا إلى الأمير زين الدين علي كوجك بن بكتين صاحب إربل - وكان حينئذ نائباً لزنكي في الأجزاء الشرقية من أتابكيته بالموصل - يخبرانه بما حدث وطلبا منه أن يرسل إلى سيف الدين غازي الابن الأكبر لزنكي - وكان بشهرزور وهي إقطاعه من والده - وكذلك اتفقا أن يتوجه الأمير صلاح الدين الياغيسياني مع ابنه الثاني نور الدين محمود الذي كان مع والده فأخذ خاتمه على حلب، وليحفظ الأجزاء الغربية من الأتابكية الزنكية في شمال بلاد الشام مثل حلب وحمص وحماة، وكان نهر الخابور هو الحدّ الفاصل بين القسمين، ورافق الوزير جمال الدين الأصفهاني الملك ألب أرسلان؛ ليشغله عن أمور السياسة بشرب الخمر والخلوة بالنساء والمغنيات، كما منعه[1] من أن يعطي الأمراء والجند شيئاً من المال حتى لا تميل قلوبهم إليه، فسار معه أولاً على الرقة، ثم توجهوا إلى ماكسين فمكثوا فيها أياماً، وفي كل مدينة يمرون بها قام جمال الدين بتحليف الأمراء المرافقين لهم لسيف الدين غازي ثم يسيرهم إلى الموصل للانضمام إلى جانب سيف الدين غازي. وفي سنجار أرسل جمال الدين إلى واليها ليردّ على طلب الملك ألب أرسلان بتسليمه المدينة: «إنه مملوكه لكنه تابع

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٨٤- ٨٦)، الكامل في التاريخ (١١: ١١٢، ١١٣).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ١٠٧- ١٠٨)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٨٥- ٢٨٦).
ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٢٨٥)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص (١٩١- ١٩٢).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ٣-٤)، تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٣١- ٣٢).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٨٤). الموصل في العهد الأتابكي ص (٢٧، ٢٨).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧٤)، عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٧٧).

للموصل فمتى ملكت الموصل سلمت إليك سنجار»، وكانت الرحلة طويلة إلى الموصل لأن جمال الدين الأصفهاني حرص على أن يشغله ويطيل عليه المسافة ويبعده بالتالي عن ملك الموصل لحين وصول سيف الدين غازي إليها ليمسك بزمام الأمور فيها. وبعد أن عبر نهر دجلة وقبل دخوله إلى الموصل أرسل الأصفهاني إلى سيف الدين غازي يخبره بوصول الملك ألب أرسلان وأن يرسل إليه من يعتقله، فأرسل إليه الأمير عز الدين أتابك الدبيسي في مجموعة من العسكر فأخذوه وتم سجنه بقلعة الموصل، ولم يظهر بعد ذلك على الملأ، لكنه لم يقتل.

وعندما استقر سيف الدين غازي الأول في الملك أمر الأمير زين الدين علي كوجك على ولاية الموصل وجمال الدين محمد بن علي الأصفهاني على الوزارة وأرسلوا إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٧ - ٥٤٧هـ/ ١١٣٢-١١٥٢م) الذي لم يتوان عن إقراره على ما كان عليه والده من إقطاع؛ وذلك للعلاقة التي بينهما حيث لزم سيف الدين غازي الإقامة مع السلطان مسعود بأمرٍ من والده وكان مرافقاً له في حلّه وترحاله[١].

علاقتهم بالأراتقة:

بدأت علاقة الزنكيين بالأراتقة منذ أن بدأ عماد الدين زنكي في ربط بلاد الشام بإقليم الجزيرة الفراتية فبعد أن استولى على حلب صارت الإمارات الأرتقية بديار بكر عائقاً بين حلب والموصل، وهذا أمرٌ يتعارض مع سياسة زنكي التي أشرنا إليها من قبل والتي تستهدف إقامة جبهة إسلامية متحدة؛ لذا

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٨٦)، والكامل في التاريخ (١١ : ١١٣)، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (١٩٢: ١٩١). ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ١٠٨-١٠٩)، ابن خلطان: وفيات الأعيان (٤ : ٣-٤). تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٣٢)، الموصلي: تاريخ الموصل (١ : ١٧٤- ١٧٥). الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٨٤-٢٨٥)، والموصل في العهد الأتابكي ص (٢٨). عاشور: الحركة الصليبية (١ : ٤٧٧)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٦١- ٦٣).

استولى على جزيرة ابن عمر ونصيبين وغيرهما من القرى الأرتقية، مما حدا بالأمراء الأراتقة على التحالف ضده لوقف توسعه على حساب إماراتهم كما مرّ بنا.

وعندما أدرك زنكي خطورة هذا التحالف، لجأ إلى تكتيكه وفكر في أن يتحالف مع أحد ابني العم الأرتقيين، فوجد ضالته في أمير ماردين حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي وكان أقلهما عداوة وحقداً عليه من ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق أمير حصن كيفا، كما وجد حسام الدين تمرتاش في تحالفه معه تخليصاً له من هجماته المتكررة على إمارته في ماردين وأعمالها وإن أدى ذلك إلى التضحية بابن عمه داود.

وكما سبق أن رأينا، كانت نتيجة ذلك التحالف محاصرة مدينة آمد ثم استيلاءهما على قلعة الصور بديار بكر - وكانت من ضمن ممتلكات داود- فسلمها زنكي إلى تمرتاش تأكيداً لتحالفهما وليضمن استمرارية ذلك الحلف والتعاون بينهما. ومع هذا فقد تعرض حلفهما هذا لشيء من الفتور؛ وذلك لهروب جماعة من فلاحي الموصل إلى ماردين، ثم للجوء الأمير أبي بكر نائب زنكي بنصيبين إلى حسام الدين تمرتاش الذي رفض[1] تسليمه إلى زنكي عندما طلبه منه، فحاصر زنكي ماردين، ولما لم يستطع تمرتاش فكّ الحصار عنها سيّره إلى السلطان مسعود عدو زنكي، لكن زنكي أرسل الهدايا القيمة للسلطان ووزيره فسلموه له فسجنه، واختفى خبره بعد ذلك؛ وحتى لا يعود حسام الدين تمرتاش إلى صفه القديم مع ابن عمه داود وصاحب آمد[2] أرسل

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر (٧٩- ٨١) والكامل في التاريخ (١١: ٨٣، ٨٨، ٩٤). خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (١١٣- ١٢٠).

(٢) هو سعد الدولة إيكدي بن إبراهيم الذي توفي عام (٥٣٦هـ) وحل محله ابنه شمس الملوك محمود انظر ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص (٢٧٥) وفي الهامش. أورد الفارقي في تاريخه أن جمال الدين شمس الملوك محمود بن إيكلدي صاحب آمد هو الذي تزوج صفية خاتون ابنة حسام الدين تمرتاش وهو ابن عمتها يمنى خاتون بنت نجم الدين إيلغازي بن أرتق.

إليه زنكي في عام (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م) حاجبه صلاح الدين محمد الباغيسياني، فتم الصلح بينهما على أن يسلم حصن دارا إلى تمرتاش؛ وتوثيقاً لذلك التحالف خطب زنكي لنفسه صفية خاتون[1] ابنة حسام الدين تمرتاشن حسبما ذكر عماد الدين خليل. والصحيح أن سيف الدين غازي الأول بن عماد الدين زنكي هو الذي تزوج الخاتون ابنة تمرتاش كما سيأتي.

وأخيراً رأى الأميران الأرتقيان أن خلافهما وتنافسهما يخدم عماد الدين زنكي على حسابيهما. وبعد مراسلات متبادلة بينهما اجتمعا في مدينة ميافارقين في عام (٥٣٦هـ/ ١١٤١م) واتفقا على نبذ ذلك العداء الذي استمر سنوات عدة، وعندما أدرك زنكي أن ذلك الصلح سيحد من مطامحه بحث عن حليف جديد يواجه به حليفه القديم حسام الدين تمرتاش إذا ما حاول معاداته والتراجع عن تحالفه معه، فتحالف هذه المرة مع رجل قوي هو خصمه ونده القديم الأرتقي ركن الدولة داود بن سقمان الذي أرسل إليه أولاده لتقديم الطاعة له مما اضطر صاحب آمد سعد الدولة أن يخضع لطاعته ويخطب له في منابر مساجد آمد وأعمالها.

ولم يلبث أن قويَ مركز زنكي في ديار بكر باستيلائه على عدة مدن سبق ذكرها، ومن ثم لم يكن يهمه كثيراً أن يعقد التحالفات سواء مع حسام الدين تمرتاش أو مع غيره.

ثم إن الأمير داود بن سقمان كان قد توفي وخلفه ابنه الضعيف قرا أرسلان، واسترد زنكي القلاع التي كان قد وهبها لحسام الدين تمرتاش من قبل

---

(١) عن الموضوع انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٧٩- ٨١).
ابن الأثير: الكامل (١١: ٨٨).
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق الهامش تاريخ الفارقي ص (٢٧٤).
ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٢٧٦).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٩٠).
خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (١٢١- ١٢٤).

وكان هدفه القضاء على حكم بني أرتق بديار بكر[1].

علاقتهم بهم بعد قتل عماد الدين زنكي:

وعندما علم حسام الدين تمرتاش وابن أخيه قرا أرسلان بمقتل عماد الدين زنكي سارعا باسترداد ما استولى عليه زنكي من إمارتيهما من مدن وقرى وقلاع. وكان من أهمها مدينة دارا[2]، ظناً منهما أن أبناءه لا يستطيعون أخذها مرة ثانية. لكن سيف الدين غازي عزم على استرجاع ما أخذه حسام الدين تمرتاش، فسار في عام (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) متوجهاً إلى حصار ماردين نفسها، وخرب ونهب عسكره ضواحيَ المدينة، فلما رأى حسام الدين تمرتاش ذلك التخريب والنهب راسل سيف الدين، وتم الصلح بينهما وزوجه ابنته الخاتون، ورحل سيف الدين عن ماردين عائداً إلى الموصل، ثم جهزت الخاتون وزفت إليه، وعند وصولها إلى الموصل كان سيف الدين مريضاً فتوفي قبل أن يدخل بها، فتزوجها أخوه قطب الدين مودود على أن تكون مدينة دارا مهراً لها، لكن قطب الدين مودود لم يف بذلك مما اضطر أباها على الاستيلاء عليها فكانت أم أولاده الذين آل إليهم ملك الزنكيين في الموصل وغيرها.

وفي (صفر ٥٤٤هـ/ مايو ١١٥٠م) وبعد أن قبض التركمان على جوسلين الثاني صاحب ما بقي من إمارة الرها الصليبية - بإيعاز من نور الدين محمود الذي تسلمه وسجنه بقلعة حلب - تمّ تقسيم إمارته، فأخذ نور الدين الروندان وتل باشر، وأخذ مسعود سلطان سلاجقة الروم عين تاب ودلوك، وأخذ حسام الدين الأرتقي سميساط والبيرة وأخذ قرا أرسلان الأرتقي صاحب خرتبرت وحصن كيفا كركر وحصن منصور، وبذلك انتهت هذه الإمارة من الوجود[3].

---

(١) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (١٢٥- ١٢٨).

(٢) دارا: مدينة بإقليم الجزيرة الفراتية بديار بكر بين نصيبين وماردين ذات بساتين ومياه جارية. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٩٠- ٩١)، والكامل في التاريخ (١١: ١٢٣، ١٥٤- ١٥٥).

=

ولما استولى نور الدين محمود على مدينة سنجار التابعة للموصل استعان بقرا أرسلان داود أمير كيفا - لصداقته معه - فامده بقوات من عنده لأن قوات نور الدين محمود كانت مشغولة في مواجهة الصليبيين ببلاد الشام. وأثناء مرضه أرسل فخر الدين قرا أرسلان بن داود الأرتقي إلى نور الدين محمود ذاكراً له بقوله: «بيننا صحبة في جهاد الكفار أريد أن ترعى بها ولدي» ولما توفي وخلفه ابنه نور الدين محمد، قام نور الدين محمود بنصرته والذبّ عنه حتى ضد أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل الذي أراد أن يهاجم بلده، فبعث له أخوه نور الدين محمود ومنعه من ذلك «إن قصدته أو تعرضتَ إلى بلاده منعتك قهراً. فامتنع من قصده[1]».

وفي عام (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) توجه نور الدين محمود إلى منطقة الخابور واستولى عليها كلها، ثم استولى على نصيبين وأقام بها مدةً يجمع العساكر من المنطقة وقدم إليه نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي بجيشه تلبية لدعوة نور الدين محمود، الذي كان أكثر جيشه ببلاد الشام في مواجهة الصليبيين، فلما كثرت عساكره توجّهَ بهم إلى سنجار فاستولى عليها من ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل وسلمها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود.

= تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٣٣، ٥٣٤) وابن كثير (١٢: ٢٢٢، ٢٢٥- ٢٢٦).
خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (١٢٩- ١٣٢).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧٥).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٨٦).
عاشور: الحركة الصليبية (١: ٤٩٩- ٥٠٢).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٣٢٩- ٣٣٠)، ابن واصل: مفرج الكروب (١: ١١٩).
ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٢٩٧)، تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٣٦- ٥٣٧).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٨٨).
خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (١٣٢- ١٣٦).

وهنا نجد أن علاقة أراتقة حصن كيفا في هذه الفترة كانت إيجابية مع نور الدين محمود صاحب الشام، والعكس من ذلك مع زنكيّي الموصل، إلا أن أراتقة ماردين ظلوا محايدين بين الطرفين مع خضوع الإمارتين الأرتقيتين رسمياً لنور الدين محمود من حيث الخطبة وضرب النقود باسمه[١].

علاقة زنكيي الموصل بزنكيي الشام:

بعد وفاة عماد الدين زنكي كان من المفروض - حسب نظام الوراثة في النظام القبلي خاصة عند القبائل التركية التي ينتمي إليها الأتابكة - أن يحل الابن الأكبر محل والده في الحكم بعد وفاته، لذا وقع اختيار كبار رجال أتابكية عماد الدين زنكي بعد وفاته على ابنه الأكبر سيف الدين غازي الأول ليكون خليفة له وأن يكون بقية أفراد الأسرة الحاكمة خاضعين له بصفته كبير الأسرة، لكن أولئك الأمراء خرقوا تلك القاعدة القبلية فأشاروا على ابنه الثاني نور الدين محمود بالتوجه إلى حلب وحملوه على الاستقلال بالأجزاء الغربية من الأتابكية الزنكية (بعض مدن بلاد الشام وحلب وحماة وبعلبك). ومن أولئك الأمراء - كما ذكر أبو شامة في الروضتين[٢] - أسد الدين شيركوه الذي قال له: «والأحسن أن تتوجه إلى حلب وتجعلها كرسيّ ملك وتجمع في خدمتك عساكرَ الشام، والأمر سيصير إليك، لأن ملك الشام يحصل بحلب ومن ملكها استظهر على بلاد الشرق فكان ما أراد أسد الدين شيركوه».

وهذا التصرف خلق نوعاً من الجفوة بين الأخوين، فاعتبره سيف الدين غازي بمثابة انفصال عن مركز الأتابكية الزنكية بالموصل، وبالتالي فهو رفض لسلطته لكونه كبير البيت الزنكي وبالخوف والحذر بالنسبة لنور الدين محمود

---

(١) ابن الأثير: الكامل (١١: ٣٦٣)، ابن واصل: مفرج الكروب (١: ١٩٢).
ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٣٣٢)، تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٥٧).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٣)، خليل: الإمارات الأرتقية ص (١٣٦، ١٣٧).

(٢) أبو شامة: (١: ٤٦، ٤٧).

من أخيه سيف الدين غازي: وكان سيف الدين يرسل لأخيه نور الدين يستدعيه للحضور إليه للتفاهم معه بخصوص البلاد الشامية، ولكن نور الدين ظل متخوفاً من الحضور معللاً تخوفه بالحرص على البلاد من الغزو الصليبي. ثم عَبَرَ سيف الدين نهر الفرات غرباً، وتمّ الاتفاق بين الأخوين على أن يلتقيا لتسوية الأمور بينهما. وكان نور الدين قد استرد الرها من يد جوسلين الثاني صاحبها السابق الذي استولى عليها بتآمره مع سكانها المسيحيين بعد قتل عماد الدين زنكي مباشرةً مستغلين حالة الفوضى والاضطراب التي سادت في الأتابكية الزنكية آنذاك.

وكان سيف الدين قد سار بجيشه في اتجاه الرها لما علم باستيلاء جوسلين الثاني عليها، ولكن نور الدين سبقه وبقيت الرها في يده لم يطالب بها سيف الدين وعند لقائهما أنهيا خلافاتهما وعاد نور الدين إلى حلب وتجهز بعساكره ثم رجع إلى مخيم أخيه لخدمته، لكن سيف الدين أمره بالعودة إلى حلب والاحتفاظ بعساكره، وقال له: «لا غرضَ لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا فمن يرد السوء بنا يكف عنه»، وبعد انتهاء اجتماعهما عاد كل منهما إلى بلاده[1].

وبعد ذلك عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي، وصفا الجو بين الأخوين، وقدر نور الدين مكانة أخيه الأكبر منه سناً وسيادةً. ثم تعاون الأخوان في الجهاد ضد الصليبيين نتيجة لوصول الحملة الصليبية الثانية، وكان

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٨٦- ٨٨).
والكامل في التاريخ (١١ : ١١٤)، أبو شامة: كتاب الروضتين (١ : ٤٥).
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (٢٨٨)، ابن العديم: زبدة الحلب (٢ : ٢٩٠).
ابن واصل: مفرج الكروب (١ : ١١٠، ١١٢)، النويري: نهاية الأرب (٢٧ : ١٤٩، ١٥٠).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧٥)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٧٠- ٧٢).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٨٥).

أول تعاون بينهما هو فكهما حصار الصليبيين عن دمشق الذي فرضوه عليها عام (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، كذلك تعاون الأخوان في فتح حصن العريم وحصن أنب وحصن أقاصية.

وكان أن توفي سيف الدين غازي سنة (٥٤٤هـ) فخلفه في أتابكية الموصل أخوه قطب الدين مودود بن زنكي.

وإذا كانت العلاقة بين سيف الدين غازي وأخيه نور الدين محمود قد سادها جوّ التفاهم والتعاون طيلة فترة حكم سيف الدين غازي في الموصل حتى سنة ٥٤٤هـ، فإنها لم تكن كذلك في بداية حكم قطب الدين مودود؛ إذ أرسل بعض أمراء الموصل إلى نور الدين محمود - لكونه الأخ الأكبر- ليسلموه الملك، وذلك لكراهيتهم وحقدهم على الوزير جمال الدين الأصفهاني ولأمير الجيش زين الدين علي كوجك المتولين للأمور في الموصل بعد وفاة سيف الدين غازي.

وكان من بين هؤلاء الأمراء عبد الملك بن المقدم العامل على سنجار الذي كتب إلى نور الدين ليسلمه سنجار وأعلمه أن خزائن والده أغلبها بها، فما كان من نور الدين إلا أن توجه إليها لاستلامها ومعه سبعون فارساً من أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه ومجد الدين أبو بكر بن الداية. وكان أصحاب الموصل قد علموا بحركة نور الدين فدعوه إلى الموصل لكنه تباطأ في القدوم مباشرة ثم في الوصول إليها، وفي سنجار أرسل نور الدين إلى فخر الدين قرا أرسلان بن داود الأرتقي صاحب حصن كيفا والذي تربطه به علاقات حسنة طالباً منه نجدته، فلبيّ الأخير ذلك، وحضر مع مجموعة من عساكره إلى سنجار، وكان قد وعده بإقطاعه قلعة الهيثم[1]. اعتبر قطب الدين مودود ورجال دولته هذا التصرف من قبل نور الدين اعتداءً على ممتلكاته، فسار على

---

(١) ابن الأثير: الكامل (١١: ١٣٩- ١٤٠) والتاريخ الباهر ص (٩٥، ٩٦).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ١١٨- ١١٩)، الجميلي: دولة الأتابكة ص (٨١- ٨٢).

رأس جيش من عساكره إلى سنجار ونزل بتل يعفر وأرسل إلى نور الدين ينكر عليه وأخذه ما ليس له، وهدّده بإخراجه بالقوة إن لم يخرج اختياراً، فكان جواب نور الدين - حسبما أورده ابن الأثير في التاريخ الباهر: «إنني أنا الأكبر، وإني أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلا لما تتابعت إليّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم (يعني: زين الدين وجمال الدين) فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على إخراج الأمر عن أيدينا. وأما تهديدكم إياي بالحرب فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم».

وخوفاً من طمع الأعداء في الطرفين تم الصلح بين الأخوين على أن يعيد نور الدين سنجار إلى أخيه قطب الدين بعد أن يأخذ ما بها من أموال - وكانت كثيرة جداً - وأن يسلمه قطب الدين مدينة حمص والرحبة والرقة ببلاد الشام، وأن تبقى الرها في يد نور الدين كما كانت قبل هذا الصلح. وبذلك صار إقليم الجزيرة الفراتية لقطب الدين، وبلاد الشام لنور الدين واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم، فكان كل واحد منهما لا يصدر أمراً إلا بموافقة أخيه.

وفي عام (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م)[١] أحسّ نور الدين بمرضٍ ألمّ به فاختار أخاه قطب الدين في الحكم.

مشاركة قطب الدين مودود في الجهاد ضد الصليبيين:

في عام (٥٥٩هـ/ ١١٦٣م) عزم نور الدين على حرب الصليبيين في بلاد الشام ليمنعهم من مساعدة عموري الأول ملك بيت المقدس الذي كان متوجهاً

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر (٩٦- ٩٨) والكامل في التاريخ (١١: ١٤- ١٤١).
أبو شامة: كتاب الروضتين (٢: ٦٦- ٦٨).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ١١٩- ١٢٠)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧٦-١٧٧).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٨٨- ٢٨٩)، الجميلي دولة الأتابكة في الموصل ص (٨٣-٨٦).
تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٣٧).

لغزو مصر للتصدي لجيش نور الدين هناك بقيادة أسد الدين شيركوه فكتب إلى ملوك الأطراف وكان من بينهم قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا، وألب أرسلان الأرتقي صاحب ماردين، وأخوه قطب الدين صاحب الموصل الذي خرج بنفسه على رأس جيش الموصل وقاد نور الدين الجيوش الإسلامية إلى حصن حارم التابع لإمارة أنطاكية. ولما علم الصليبيون بذلك جمعوا صفوفهم وانضموا مع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية مثل ريموند الثالث أمير طرابلس وحاكم قيليقية البيزنطي وثوروس الثاني الأمير الأرمني، ودارت المعركة بين الجانبين بالقرب من ارتاح وقد أبلى جيش الموصل بلاء حسناً كان له أثره، وكان النصر فيها حليف المسلمين حيث قتل فيها أكثر من عشرة آلاف من الصليبيين وأسر الكثيرون، وفي مقدمتهم قادتهم الكبار السابق ذكرهم ما عدا الأمير الأرمني، ثم استولى نور الدين على حارم، ثم على بانياس على الساحل السوري وكانت تابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية(١).

وفي عام (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) اغتنم نور الدين فرصة وقوع أمير طرابلس الصليبي في الأسر، فكتب إلى أخيه قطب الدين يطلب منه الحضور إليه مع عساكره لمهاجمة طرابلس، فتوجهت الجيوش الإسلامية إلى معاقل الصليبيين ببلاد الشام، فأغاروا عليها واستولوا على عدد منها.

وعندما همّ قطب الدين بالعودة إلى الموصل، أعطاه نور الدين مدينة الرقة فاستولى عليها في طريقه(٢).

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٢٢- ١٢٦)، الكامل (١١: ٣٠١- ٣٠٥).
ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٣١٨- ٣٢١).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ١٤٣- ١٤٦).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٨٧- ٨٩).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٠).
عاشور: الحركة الصليبية (١: ٥٣٣- ٥٣٤).
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٥٩٦- ٥٩٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٣٢٧- ٣٢٨).

علاقة الأتابكيين بعد وفاة قطب الدين مودود (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م)

وكان قطب الدين مودود[١] قد أوصى بالملك لابنه الأكبر عماد الدين زنكي، لكن زوجته الخاتون بنت حسام الدين تمرتاش الأرتقي والدة سيف الدين غازي - الابن الأصغر- اتفقت مع فخر الدين عبد المسيح نائب قطب الدين ومملوكه المسيّر لأمور أتابكية الموصل لتولية ابنها سيف الدين غازي (الثاني)، فلاقى ذلك هوى في نفسه؛ لأنه كان يخشى أن يصير الأمر إلى عماد الدين زنكي لكرهه له، فعمل الاثنان المستحيل حتى يغير قطب الدين وصيته لابنه سيف الدين، وهذا الأمر أغضب عماد الدين، فاشتكى إلى عمه نور الدين - مستنجداً به بعد وفاة والده ليعيد له الملك - كما شكا من استبداد عبد المسيح وانفراده بالسلطة[٢].

وكان سيف الدين هذا ضعيفاً ألهاه عبد المسيح[٣] بملذاته وشهواته

= ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٣٢٤).
ابن واصل مفرج الكروب (١: ١٥٢- ١٥٣).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٠).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٩٠).

(١) الذي حكم (٥٤٤- ٥٦٥هـ) حيث ازدهرت دولته وتقدمت بفضل وإخلاص رجالها، وأشهرهم الوزير الجواد جمال الدين الأصفهاني، وزين الدين على كوجك التركماني اللذان نظما أمورها كما نظم البرامكة دولة بني العباس. انظر:
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧٨).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٣٠٣).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر (١٤٦)، والكامل (١١: ٣٥٥)، ابن العديم: زبدة الحلب (٢: ٣٣١).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ١٩٠- ١٩١)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧٩).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٣)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٩١- ٩٣).

(٣) يشيد القس سليمان بن صائغ بفخر الدين عبد المسيح، فيصفه بأنه كان ذا سيرة مثلى =

وتحكم هو في أمور البلاد. ولم يرض أهل الموصل بذلك، فكتبوا إلى عمه نور الدين شارحين له أحوال البلاد. فلما علم بذلك كبر لديه وشق عليه، وكان يبغض فخر الدين؛ لما يبلغه من خشونته على الرعية فقال: «أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم»، لذلك خرج نور الدين على رأس مجموعة من جنده إلى الموصل لتغيير الأوضاع فيها، وفي طريقه استولى على الرقة الواقعة على نهر الفرات ودبر أمرها، ثم استولى على منطقة الخابور كلها ثم على نصيبين التي أقام بها لجمع العساكر؛ لأنه ترك أغلب جنده في بلاد الشام لحمايتها من الصليبيين. وبعد أن اجتمع معه عساكر نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وديار بكر وغيره، توجه إلى سنجار وكانت محصنة من قبل عسكر الموصل وحاصرها حتى تم تسليمها إليه وسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن أخيه قطب الدين ترضيةً لخاطره.

وكان نور الدين قبل خروجه إلى الموصل قد أرسل عماد الدين الكاتب الأصبهاني إلى الخليفة العباسي المستنجد بالله برسالة يقول فيها: «إني قصدت بيتي وبيت والدي فأنا كبيره ووارثه» ويأخذ له منه الإذن بأخذ الموصل.

ولما كان نور الدين يحاصر الموصل جاءته خلعة الخليفة المستضيء بأمر الله فلبسها، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين ورتب أمور الموصل، وأمر بإلغاء المكوس والضرائب فيها وجميع الظلامات، وحدد تواقيع أصحاب المناصب وبنى الجامع النوري، وفوض القضاء بسنجار ونصيبين والخابور إلى عبد الله بن أبي عصرون فولى بها نوابه.

وعلق كمال الدين بن الشهرزوري على إقرار نور الدين سيف الدين في

= وسياسة سديدة. وهذا بخلاف ما ذكر عنه من ظلم وعسف وتسلط. وربما يعود ذلك للعاطفة التي تربطهما.

انظر الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧٩).

وذكر أبو شامة أنه بقي على نصرانيته وله بيعة في دارة وتتبع العلماء المسلمين وشتهم وآذى المسلمين. عيون الروضتين ص (٣٠٥).

الملك بقوله: «هذا طريق إلى أذى يحصل لبيت أتابك؛ لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف ويطمع الأعداء».

وبذلك تكون أتابكية الموصل قد خسرت أجزاءً منها، وأصبح صاحبها خاضعاً لعمه وتحت وصاية نائبه، وأعلنت الخطبة في مساجدها باسم عمه الذي ضربت السكة أيضاً باسمه.

وليضفي نور الدين الشرعية على ما بيده أرسل في عام (٥٦٨هـ/١١٧٢م) القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة المستضيء بأمر الله طالباً ما بيده من بلاد مصر والشام وإقليم الجزيرة الفراتية وخلاط وغيرها، فأجيب إلى ذلك[1]. ولتوطيد علاقته بسيف الدين غازي ابن أخيه وتقريبه إليه أرسل له هدايا قيمة كان أرسلها إليه صلاح الدين الأيوبي من خزائن القصر الفاطمي، وهي: تمثال رائع لفيل يعتبر من التحف النادرة في ذلك العصر، ومنسوجات، وعود وعنبر[2].

---

(١) ابن الاثير: التاريخ الباهر ص (١٥٣، ١٥٤)، الكامل (١١: ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٩٥، ٤٢٠).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ١٩٣، ١٩٦).
تاريخ ابن الفرات (٤: ١١٠- ١١٤)، أبو شامة: عيون الروضتين (٣٠٦).
تاريخ ابن خلدون (٥: ٥٥٨).
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٣٧٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ٢٦٣).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥: ٣٨٤)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٧٩).
عاشور: الحركة الصليبية (٢: ٥٦٣).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٩٤)، والموصل في العهد الأتابكي ص (٣١).
الجميلي: دولة الأتابكي في الموصل (٩٧- ٩٨).

(٢) الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٩٨، ٩٩).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٢٢٦).

وفاة نور الدين محمود (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)[١]:

كان نور الدين محمود قبل مرضه الذي توفي بسببه سنة (٥٦٩هـ) قد أرسل إلى الأمراء والملوك بإقليم الجزيرة الفراتية كالموصل وديار بكر لحشد العساكر لغزو الصليبيين، فسار سيف الدين غازي ابن أخيه صاحب الموصل في جنده وفي مقدمتهم سعد الدين كمشتكين نائب نور الدين بالموصل. وفي الطريق أتاه الخبر بوفاة عمه فهرب كمشتكين إلى حلب خوفاً من سيف الدين أن ينتقم منه، واستولى سيف الدين على كل البلاد التي سبق أن اقتطعها عمه من أتابكية الموصل في إقليم الجزيرة الفراتية[٢].

وفي سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) ظهر صلاح الدين يوسف بن أيوب على مسرح بلاد الشام ليعيد بناء الجبهة الإسلامية المتحدة بحيث تمتد من الفرات إلى النيل. وبعد أن نجح صلاح الدين في ضم دمشق وحمص وحماة وبعلبك... وغيرها، أخذ يتطلع إلى إقليم الجزيرة إتماماً لمشروع الجبهة الإسلامية. وكان الملك الصالح إسماعيل - ابن نور الدين محمود- قد أرسل إلى ابن عمه سيف الدين غازي في الموصل طالباً نجدته ضد صلاح الدين. ولما أحس سيف الدين أن صلاح الدين قد استفحل أمره وعظم شأنه، خشي إن غفل أن يستولي على البلاد كلها، ولذا جمع عساكره واستعد لخوض الحرب[٣].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٧٥)، الكامل (١١: ٤٠٦).
ابن واصل: مفرج الكروب (١: ٢٥٨، ٢٥٩).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٤). الجميلي: المرجع السابق ص (١٠٠).

(٢) استولى على نصيبين والخابور وحران والرها والرقة وسروج، ما عدا قلعة جعبر؛ لحصانتها وتمنعها عليه، ورأس عين التي كانت بيد ابن خاله قطب الدين الأرتقي صاحب ماردين.

(٣) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (٥٠).
أبو شامة: كتاب الروضتين (١: ٢٤٨).

وكان أن كتب سيف الدين غازي إلى أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار؛ ليتعاون الأخوان في الدفاع عن ابن عمهما، لكن صلاح الدين الأيوبي كان قد راسل عماد الدين زنكي وأطمعه في ملك الموصل باعتباره أحق بالملك من أخيه؛ لأنه الأكبر سناً، وأنه سيعيده إليه إن انضم إلى صفه.

لذا لم يستجب عماد الدين لدعوة أخيه، مما اضطر سيف الدين أن يتوجه إليه بنفسه بفرقة من جيش الموصل بينما أرسل معظم جيشه إلى حلب مع أخيه عز الدين مسعود، وجعل عز الدين محمود زلفندار القائد والمدير لهذا الجيش، وكان أن حاصر سيف الدين سنجار في رمضان من عام (٥٧٠هـ) لكنها صمدت في وجهه.

ومن ناحية أخرى فإن صلاح الدين أرسل إلى قادة جيش الموصل وحلب من أجل الصلح وعدم قيام الحرب بينهم وأن يسلمهم حمص وحماة على أن تبقى دمشق في يده كنائب للملك الصالح فيها، فرفضوا وقالوا: «لا بد من تسليم جميع ما أخذه من الشام وعودته إلى مصر». وهكذا لم يعد أمام صلاح الدين سوى أن يجمع عساكره ويتجهز للحرب.

وعندما التقى الطرفان عند قرون حماة، وذلك في رمضان من نفس العام، هزم الموصليون والحلبيون. ويشير ابن الأثير على قائد الجيش عز الدين محمود زلفندار فيقول: «وكان زلفندار جاهلاً بالحرب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه» أما عز الدين مسعود أخو سيف الدين فقد ثبت بعد فرار أصحابه من ساحة المعركة، فلما رأى صلاح الدين ثباته قال: «إما أن يكون هذا أشجع الناس، أو أنه لا يعرف الحرب»[1] فأمر صلاح الدين بالحملة

---

(١) ابن الأثير: الكامل (١١: ٤٢٠- ٤٢١)، ابن العديم زبدة الحلب (٣: ٢٢- ٢٣). ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ٣٠-٣٢)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٨٢- ١٨٣).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (١١٧- ١٢٠).
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٦٥٧- ٦٥٨).

عليه، وبذلك أزيح عن موقعه.

وانسحب الموصليون والحلبيون وتبعهم عساكر صلاح الدين وأسروا مجموعة كبيرة منهم - أمر صلاح الدين فيما بعد بإطلاقهم - وغنموا كثيراً من الأسلحة وآلات الحرب والخيول منهم، ثم تبعوهم إلى حلب التي فرضوا عليها الحصار، وحينئذ قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح، وأزال اسمه عن النقود المضروبة في بلاده.

ولما طال الحصار عليهم راسلوه طالبين الصلح، فتم الصلح على أن يكون لصلاح الدين ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم، وفكّ عن حلب، ثم توجه إلى حماة، وهناك وصلته خلع الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله وتقليده بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وكان صلاح الدين يلقب بملك مصر والشام، وليس بالسلطان(١).

وعندما علم سيف الدين غازي بهزيمة جيشه صالح أخاه عماد الدين وفك حصاره عن سنجار وعاد إلى الموصل. وخلال تلك الفترة أي في شوال عام (٥٧٠هـ/ مايو ١١٧٥م) أرسل صلاح الدين إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس قبل أن يسبقه الزنكيون ويعقدوا معه اتفاقاً ضده، وعرض عليه سلمه وصداقته إذا لم يتعاون مع الزنكيين ضده، وفي مقابل ذلك يطلق صلاح الدين جميع الأسرى الصليبيين الذين كانوا بيده، وقد ذكر أستاذنا سعيد عبد الفتاح عاشور أن سيف الدين هو الذي أقدم إلى ذلك(٢).

---

(١) ابن الأثير: الكامل (١١: ٤٢١- ٤٢٢)، ابن العديم: زبدة الحلب (٣: ٢٣- ٢٤).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ٣٢- ٣٤).
عاشور: الحركة الصليبية (٢: ٥٨٧)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (١٢٠- ١٢٢).
أبو شامة: كتاب الروضتين (١: ٢٥٠)، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٦٥٨).

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ص (٦٦١). وذكر ابن الأثير أن ذلك كان بادرة =

ومن جانبه أرسل سيف الدين غازي رسولاً إلى الأمراء بحلب يوبخهم على قبولهم الصلح مع صلاح الدين، ويحرضهم على نقضه، ويدعوهم إلى التحالف معه ضد صلاح الدين لإرغامه على الخروج من الشام، ولما أخذ الرسول مواثيق أمراء حلب توجه إلى دمشق ليستطلع ما عند صلاح الدين وليأخذ العهد منه لسيف الدين.

وقد أخطأ الرسول فبدلاً من أن يعطيه نسخة اليمين بينه وبين سيف الدين أعطاه نسخة اليمين والمواثيق بين الحلبيين وسيف الدين[1]، وبذلك تأكد لصلاح الدين بأنهم نقضوا العهد الذي أبرموه معه من قبل، وكتب إلى أخيه العادل نائبه بمصر بإرسال المدد والعساكر إليه.

وفي الوقت نفسه، كان سيف الدين غازي بالموصل يستعد بجمع الجيوش، ففرق الأموال في جيشه، وأرسل يستنجد بأمراء المناطق كصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما من الأمراء التركمان، وحضر معه أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعد أن تصالحا.

ووردت الأخبار بأن جيشهم فوق العشرين ألفاً، وإمداداتهم متواصلة وموعودون بالنصر من الصليبيين مقابل إطلاقهم سراح أرناط صاحب الكرك وجوسلين صاحب الرها السابق، بينما بلغ تعداد جيش صلاح الدين ستة آلاف[2].

وفي عام (٥٧١هـ/ ١١٧٥م) خرج سيف الدين غازي بجيشه من الموصل متوجهين إلى نصيبين وأقام بها حتى نهاية فصل الشتاء - مما كان له آثاره

= من الفرنج في المحرم عام (٥٧١هـ). انظر: الكامل (١١: ٤٣٥).
عاشور: المرجع السابق ص (٥٨٧).
الجميلي: دولة الأتابكة ص (١٢٢).

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ص (٣٦، ٣٧).
الجميلي: المرجع السابق ص (١٢٢، ١٢٣).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ٣٧، ٣٨).
تاريخ أبي الفداء (٢: ٥٨)، الكامل (١١: ٤٢٧).

السلبية على نفوس الجند فضجروا من طول الانتظار ونفد ما عندهم من نقود وفضلوا العودة إلى بيوتهم - ثم عبر إلى حلب، وهناك التقى بسعد الدين كمشتكين مدبر دولة الملك الصالح ومعه جيش حلب.

وكان صلاح الدين بدمشق ومعه قلة من عساكره؛ لأنه كان ينتظر وصول الإمدادات من مصر، ولو زحفوا إليه لهزموه، لكنهم انتظروا قدومه بتل السلطان.

وزحف صلاح الدين بعد وصول الإمدادات والعسكر إليهم، فوصل إليهم بجيشه في حالة شديدة من التعب والعطش وألقى الجنود سيوفهم على الأرض، فأشير إلى سيف الدين بلقائهم في تلك الحالة واعترض زلنفدار وقال: «ما بنا حاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة، وغداً نأخذهم كلهم».

وفي الغد، اصطفوا للقتال فوضع زلفندار أعلام الموصليين والحلبيين في مكان منخفض لا ترى إلا من مكان قريب، وعند اشتداد المعركة لم يروا أعلامهم، فظن أكثرهم أن سيف الدين قد انهزم؛ فانهزموا وولوا هاربين[١]، وبينما كان مظفر الدين بن زيد الدين علي كوجك في الميمنة قد كسر ميسرة جيش صلاح الدين.

ولما انهزموا أسر منهم مجموعة من بينهم فخر الدين عبد المسيح، فأطلقهم صلاح الدين ولم يتبع الفارين منهم وقتل رجل واحد في هذه المعركة التي لم تطل مدتها بسبب عدم كفاءة زلفندار لقيادة الجيوش وتدبير فن الحرب، فغنم جيش صلاح الدين مخيمهم وأثقالهم التي تركوها[٢].

---

(١) ابن الأثير: الكامل: (١١ : ٤٢٧- ٤٢٨)، ابن العديم: زبدة حلب (٣: ٢٤- ٢٧).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ٣٩).
ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (٥١، ٥٢).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٢٤- ٢٥).

(٢) وكان سرادق سيف الدين غازي طيور من القماري والبلابل والهزارات والببغاء في الأقفاص أرسلها صلاح الدين مع أحد ندماء سيف الدين إليه وقال له: قل له: «عد =

وكان أن ترك سيف الدين أخاه عز الدين مسعود في حلب لقيادة الجيش ورحل هو إلى الموصل، خوفاً من أن يتبعه صلاح الدين الذي حاول الإمساك به وأسره لكنه نجا، ولما وصل إلى الموصل أراد مفارقتها والاعتصام بقلعة عقر الحميدية، لكن وزيره جلال الدين بن جمال الدين الأصفهاني ومجاهد الدين هدّأ من روعه وأقنعاه بالبقاء في الموصل كرسي ملكه.

وقرر سيف الدين بعد ذلك عزل زلفندار عن قيادة جيشه ونصب مكانه مجاهد الدين قايماز. وقد حاول كل من ابن الأثير في تاريخه والعماد الكاتب في البرق الشامي أن يقلل من عدد جيش من يميل إليه ويكثر عدد جيش خصمه ليظهر قوة وحزم صاحبه[1].

وبهذا الانتصار السريع والحاسم انفتح الطريق أمام صلاح الدين لضم حلب وأعمالها، ومع هذا فإن حلب نفسها لم تستسلم له بتلك السهولة. ولتضييق الخناق عليها ولإضعاف مقاومتها قام صلاح الدين بالاستيلاء على الحصون والقلاع المحيطة بها من جهة الشمال لمنع وصول الإمدادات إليها وقطع اتصالها بالموصل[2].

وبعد ذلك توجه صلاح الدين إلى حصار حلب وبقي محاصراً لها مدة شهر من منتصف ذي الحجة عام ٥٧١هـ إلى منتصف شهر محرم من عام ٥٧٢هـ، ودافع عنها أهلها من سنّة وشيعة كما ذكر ابن العديم، ثم اتفق الطرفان على الصلح ووقعه الملك الصالح إسماعيل، وسيف الدين غازي

= إلى اللعب بهذه الطيور؛ فهي أسلم لك عاقبة من الحرب». ومشهور عن سيف الدين اللهو وحبه للمجون وعدم كفاءته في إدارة شؤون الدولة على الوجه الحسن. انظر: ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ٣٩- ٤٠)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٦).

(١) ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ٤٠- ٤١)، ابن الأثير: الكامل (١١: ٤٢٨- ٤٢٩).

(٢) الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (١٢٥، ١٢٦).
ابن الأثير: الكامل (١١: ٤٣).

صاحب الموصل، وصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين الأرتقيان، والملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وتحالفوا واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر، وبذلك فكّ حصاره عنها[1].

علاقتهم بهم قبيل وفاة الملك الصالح إسماعيل:

ثم كان أن مرض الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود مرضاً شديداً أيس فيه من الحياة، وعندئذ أحضر أمراء دولته وأوصاهم بتسليم حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل، وحلفهم على ذلك فقال له بعضهم: «إن عماد الدين ابن عمك أيضاً وهو زوج أختك، وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همذان ولا حاجة له على بلدك» فقال: «إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلب على البلاد الشامية سوى ما بيدي، ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام، وإن سلمتها إلى عز الدين حفظها بكثرة عساكره وبلاده[2].

فاستحسنوا هذا القول منه، وعجبوا من حسن رأيه مع شدة مرضه وصغر سنه، ثم توفي يوم الجمعة ٢٥ من شهر رجب عام (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) وكان عمره عند وفاته تسعة عشر عاماً.

---

(١) ابن الأثير: المرجع السابق (١١: ٤٣١).
ابن العديم: زبدة الحلب (٣: ٢٩- ٣٠).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ٤٦).
ابن شداد: سيرة صلاح الدين (٥٢).

(٢) ابن العديم: زبدة حلب (٣: ٤١). ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٨٢).
الكامل (١١: ٤٧٣). ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ١٠٧- ١٠٨).
ابن شداد سيرة صلاح الدين ص (٥٥).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦: ٨٩). أبو شامة: كتاب الروضتين (٢: ٢١، ٢٢).

وقد أرسل الأمراء الكبار بحلب إثر موت الملك الصالح إسماعيل إلى عز الدين مسعود يستدعونه لتولي ملك حلب، فقدم ومعه مدبر دولته مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الزيني، وقبل وصوله إلى حلب توقف بقلعة البيرة[1] وأرسل إلى الأمراء فحضروا عنده وجدد له قسم اليمين فساروا جميعاً إلى حلب، وعند دخوله حلب استقبله مقدموها ورؤساؤها وسلم قلعتها.

وكان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين شاهنشاه بن أيوب بمنبج عندما كان عز الدين مسعود بالبيرة فأراد أن يحول بينه وبين حلب؛ لأنه كان في عدد قليل من حاشيته لكنه تراجع عن ذلك.

ولما وصل عز الدين على الموصل رحل تقي الدين من منبج إلى حماة التي ثار أهلها في وجهه ونادوا بشعار «عز الدين وأتابك» لميل الناس إلى إعادة الدولة الأتابكية، فأشار عساكر حلب على عز الدين بالاستيلاء عليها وعلى دمشق، بل على بقية بلاد الشام التي بيد صلاح الدين «وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي» - يعني البيت الزنكي - فلم يوافق وقال: «بيننا يمين؛ فلا نغدر به».

أما صلاح الدين فكان حينئذ بمصر فلما علم بأخذ عز الدين حلب قال: «خرجت حلب عن أيدينا ولم يبق لنا فيها طمع»، وأقام عز الدين بحلب عدة شهور ثم رحل عنها إلى الرقة حيث أقام بها طيلة فصل الربيع.

وذكر أستاذنا سعيد عبد الفتاح عاشور أن اختيار عز الدين لتولي ملك الموصل وحلب لم يكن وليد الرغبة في مقاومة صلاح الدين فحسب، بل

---

(١) البيرة: قرية مطلة على الضفة الشرقية لنهر الفرات: بإقليم الجزيرة الفراتية، انظر:
ابن العديم: المرجع السابق (٣: ٤٢- ٥٢).
ابن شداد: المرجع السابق ص (٥٥).
ابن الأثير: المرجعين السابقين ص (١٨٢، ٤٧٣، ٤٧٤).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ١٠٨).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٢٠٤- ٢٠٥) و (٧: ١٦٩- ١٧٠).

بدافع الولاء والإخلاص للبيت الزنكي وقد ظهر ذلك واضحاً في مدينة حماة التي ثار أهلها كما مرّ بنا في وجه عز الدين عمر «ونادوا بشعار عز الدين» ولو استجاب عز الدين لمطالب الحلبيين على دمشق حيث كان شعور الولاء للزنكيين لا يزال ظاهراً لتمكن من توحيد بلاد الشام والجزيرة الفراتية قبل عودة صلاح الدين من مصر[١].

وكان عماد الدين زنكي قد أرسل إلى أخيه عز الدين مسعود يطالبه بمقايضة حلب بسنجار، فرفض عز الدين ذلك وأرسل إليه مرة ثانية يهدده بتسليم سنجار إلى صلاح الدين إذا لم يتنازل له عن حلب، ومعنى هذا أن صلاح الدين سيصير قريباً من أملاكه فيهدد الموصل نفسها.

وأقنع عزّ الدين أمراء دولته بالموافقة، خاصة مجاهد الدين قايماز الزيني المتنفذ في دولته والبلاد والعساكر كلهم تحت يده، الذي خشي أن يقوى عز الدين بعساكر وأمراء حلب الذين لم يكونوا كلهم راضين عن مجاهد الدين، لذا لم يخضعوا له كما خضع له أمراء الموصل فكانت بينهم مواحشة فأراد مجاهد الدين أن يتخلص منهم[٢].

هذا، إلا أن بعض أمراء حلب كانوا يرغبون في تولي عماد الدين أمور حلب، مثل علم الدين سليمان بن جندر وحسام الدين طمان بن غازي وغيرهم، ربما لضعفه حتى يسهل عليهم السيطرة عليه والتنفذ بأمور البلاد، وقد يكونون هم الذين أقنعوه بفكرة مقايضة عز الدين سنجار بحلب، وتهديده بصلاح الدين إذا لم يوافق على ذلك.

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية (٢: ٦٠١).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١١: ٤٧٤- ٤٧٥)، الباهر ص (١٨٣).
ابن العديم: زبدة الحلب (٣: ٤٧).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ١٠٩)، ابن شداد، سيرة صلاح الدين ص (٥٥، ٥٦).
النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٨٤) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٧، ٢٩٨).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (١٣٢، ١٣٣).

ولم يلبث أن هرب الأمير علم الدين سليمان إلى صلاح الدين، وانضم طمان إلى جانب عماد الدين حيث فوضه بتسلم قلعة حلب من عز الدين بعد أن تمت الموافقة على المقايضة، وأرسل عز الدين من تسلم سنجار من أخيه عماد الدين[1]، وكان عز الدين قد وافق على ذلك التبادل مكرهاً.

لذلك فضل عز الدين التخليَ عن حلب ومشاكلها، وأن يحتفظ بإقليم الجزيرة الفراتية موحداً وأن يحسن علاقته بأخيه لمواجهة خطر صلاح الدين. وقبل رحيله عنها استولى على كل ما خلفه نور الدين بقلعة حلب، وما فيها من السلاح والزرد والقسي والخوذ والنشاب والآلات، وحمله إلى الرقة. ولم يترك فيها إلا شيئاً قليلاً من السلاح القديم. فلما علم صلاح الدين أن عماد الدين قد أخذ حلب علق قائلاً: «أخذنا - والله - فقيل له: «كيف قلت في عز الدين لما أخذها: خرجت حلب عن أيدينا، وقلت حين أخذها عماد الدين: أخذنا حلب». فقال: «لأن عز الدين ملك صاحب رجال ومال، وعماد الدين لا مال ولا رجال»[2].

علاقتهم بالأيوبيين:

علاقة الأيوبيين بالزنكيين قديمة، وقد سبق أن أشرنا إلى أن نجم الدين أيوب - والد صلاح الدين - ربيب البيت الزنكي. ويعنينا هنا أن نلقي الأضواء على رغبة الأيوبيين في فرض سيطرتهم على إقليم الجزيرة الفراتية وإخضاع ملوكه لنفوذهم، وذلك ابتداءً من صلاح الدين الأيوبي وحتى ظهور التتار في المنطقة.

ذلك أن صلاح الدين ما كاد يعلم بوفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، وما ترتب على ذلك من أحداث ومتغيرات في بلاد الشام خاصة ما حدث في حلب، وأن عز الدين مسعود صاحب الموصل نكث

---

(١) ابن العديم: المرجع السابق ص (٤٥- ٥٢).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب (٣: ٥١، ٥٥).

بالصلح وأرسل إلى الصليبيين يحثهم على حرب صلاح الدين ليشغله بهم عن القدوم إلى حلب والموصل وغيرهما من ممتلكات البيت الزنكي - حتى قرر العودة إلى بلاد الشام فوصل إلى دمشق في سنة (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) عازماً على انتزاع حلب والموصل من الزنكيين لإحياء مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة ضد الصليبيين، ولما علم بذلك عماد الدين زنكي صاحب حلب أرسل إلى أخيه عز الدين مسعود صاحب الموصل يستنجد به[١].

وبدأ صلاح الدين بحلب وحاصرها، ثم رحل عنها. وذكر ابن الأثير أن حصاره لحلب تغطيةً عن قصده لإقليم الجزيرة الفراتية حتى يفاجئ أصحابها قبل أن يستعدوا لمواجهته.

وقد التقى صلاح الدين بحليفه مظفر الدين كوكبوري غربي الفرات - أي في الجانب الشامي منه - [٢] ثم عبرا النهر عند البيرة، وهناك أرسل صلاح الدين إلى ملوك الأطراف: «من جاء مستسلماً سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة[٣]». فاستجاب له نور الدين بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا الذي كان قد استنجد به من قبل وانضم إلى صفوفه في مقابل أن يستولي صلاح الدين على آمد ويسلمها إليه.

---

(١) ابن العديم: نفس المرجع (٣: ٥٦)، ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (٥٦).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ١١٥)، ابن الأثير: الباهر (١٨٣)، الكامل (١١: ٤٧٥).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٢٠٥)، عاشور: الحركة الصليبية (٢: ٦١٠).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (١٣٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل (١١: ٤٨٢- ٤٨٣).
ابن الأثير: الباهر ص (١٨٣).
أبو شامة: كتاب الروضتين (٢: ٢٢).
ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (٥٦، ٥٧).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ١١٧).

وكان عز الدين مسعود لما طلب عماد الدين صاحب حلب نجدته - كما مرّ بنا - قد جمع العساكر وتوجه بهم إلى نجدته، ولما وصلوا إلى دارا علموا بعبور صلاح الدين الفرات فعادوا إلى الموصل.

أما صلاح الدين فقد اتجه من البيرة إلى الرها وحاصرها، وأخذها من صاحبها الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفراني (صاحب حماة سابقاً) وأقطعها مظفر الدين كوكبوري صاحب حران. ثم أخذ الرقة من قطب الدين ينال بن حسان المنجبي الذي التجأ إلى عز الدين مسعود، وسلمها إلى فخر الدين بن الزعفراني.

وبعد ذلك توجه صلاح الدين إلى وادي الخابور، فاستولى على مدنه وقراه وأهمها قرقيسيا وماكسين ورأس عين، كما استولى على نصيبين وأقطعها أبا الهيجاء حسام الدين الكردي، وبعد ذلك توجه إلى الموصل وحاصرها أياماً فرآها حصينةً لا يمكن فتحها بسهولة وأنها لا تحصل إلا بالاستيلاء على قلاعها وأعمالها التابعة لها لإضعاف أهلها على طول الزمان[1].

ثم رحل صلاح الدين عن الموصل إلى سنجار للاستيلاء عليها، فأرسل الموصليون نجدةً لها ولكن صلاح الدين تصدى لهم وأخذ سلاحهم ودوابهم وبعد تشديد الحصار عليها سقطت في يده.

وفي العام التالي استولى على آمد من ابن نيسان وسلمها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي حيث وعده بذلك من قبل.

---

(١) ابن الأثير: الكامل (١١: ٤٨٣- ٤٨٧).
ابن العديم: زبدة الحلب (٣: ٥٧- ٥٨).
ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (٥٧).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ١١٧- ١١٩)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٨٧).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٢٠٥، ٢٠٦)، عاشور: الحركة الصليبية (٢: ٦١٠).
سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ٣٨٣) وما بعدها.

ثم عاد صلاح الدين إلى حصار الموصل مرة ثانية في سنة (٥٨١هـ/ ١١٨٥م) فأرسل إليه عز الدين والدته - ومعها مجموعة من نساء البيت الزنكي - وابنه نور الدين أرسلان شاه لطلب الصلح، فردهم خائبين ظنا منه أنه عاجز عن حماية الموصل، ولما رأى أهل الموصل تصرفه ذلك بذلوا قصارى جهدهم في الدفاع عن مدينتهم.

وخلال حصاره علم بوفاة شاه أرمن ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سقمان القطبي صاحب خلاط، وخشي بكتمر مملوك صاحبها من أن تؤخذ منه فاستدعى صلاح الدين ليتسلمها، لكن شمس الدين بهلوان بن الدكز سبق إليها وتصالح مع بكتمر وزوجه ابنته، فأرسل إلى صلاح الدين يعتذر عن تسليمه إياها.

وقبل رجوع صلاح الدين عن خلاط، استولى على ميافارقين بعد تشديد الحصار عليها، وذلك بالصلح خديعةً، حيث كان صاحبها قطب الدين إيلغازي بن قمرتاش الأرتقي قد توفي قريباً وتركها لابنه الطفل الصغير حسام الدين بولق أرسلان، فسلمها له القائمون على حفظها؛ خوفاً من أن تقع في يد أمراء المنطقة لقمة سائغة.

ثم عاد صلاح الدين إلى حصار الموصل للمرة الثالثة في نفس العام، وقام بحصرها طيلة شهري شعبان ورمضان، وكان الحر شديداً فمرض مرضاً شديداً أشرف فيه على الموت، فرحل عنها إلى حران[1] في مستهل شوال،

---

(١) ابن الأثير الكامل (١١: ٤٨٤- ٤٨٩). (٤٩٣- ٩٤)، (٥١١- ٥١٧).
ابن العديم: زبدة الحلب (٣: ٥٨- ٦٠).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ١٢٠- ١٢٤)، (١٣٢- ٣٩)، (١٥٥- ١٥٧). (١٦٥- ١٧١).
ابن شداد: سيرة صلاح الدين (٥٧- ٥٨)، (٦٧- ٧٠).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٢٠٦- ٢٠٧).
عاشور: الحركة الصليبية (٢: ٦١٠- ٦١٣).
الموصلي: تاريخ الموصل (١٨٨- ١٩٢)، الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٩٩- ٣٠١). =

وعندئذ استغل عز الدين مسعود الفرصة فأرسل إليها القاضي بهاء الدين بن شداد وبهاء الدين الربيب وفوّض إليهما التوقيع على الصلح.

يقول ابن شداد[1]: «فندبوني لهذا الأمر وبهاء الدين الربيب، وفوض إلي أمرُ النسخة التي حلف بها، وقالو: أمضيا بما يصل إليه جهدكما وطاقتكما، فاحترمنا احتراماً عظيماً، وجلس لنا وكان أول جلوسه من مرضه. وحلف في يوم عرفة، وأخذ منه بين النهرين وكان أخذها من سنجر شاه فأعطاها المواصلة، وحلفته يميناً تامة وحلفت أخاه الملك العادل، ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه».

بينما ذكر ابن واصل[2]: أنه لما مرض صلاح الدين مرضاً أزعجه ندم على رد نساء البيت الزنكي وعدم قبول شفاعتهن، فأمر عماد الدين زنكي مودود صاحب سنجار (الذي أخذت منه حلب) بأن يقوم الصلح بينه وبين عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل، ودخل رسولا صلاح الدين وهما: وزيره شمس الدين عبد الكافي وشمس الدين قاضي العسكر الموصلي، وكان هذا قبل رحيل صلاح الدين إلى حران وكان من شروط الصلح أن يتسلم صلاح الدين «بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ما وراء الزابين من البوازيج والرستاق وبلد القرابلية وبني قفجاق».

ومن كلام ابن شداد السابق أخذ صاحب الموصل جزيرة ابن عمر التي سماها (بين النهرين)، على أن تضرب النقود (السكة) باسمه، وأن يخطب له - أعني بذلك صلاح الدين - في جميع مساجد الموصل وأعمالها مقابل أن

= الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (١٤١- ١٤٦)، (١٤٩- ١٥٨).

(١) سيرة صلاح الدين (٧٠- ٧١).

(٢) مفرج الكروب (٢: ١٧٠- ١٧٣)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٢٠٧).
تاريخ أبي الفداء (٣: ٦٩)، الديوه جي: تاريخ الموصل (٣٠٠).
الموصل: تاريخ الموصل (١: ١٩٢- ١٩٣).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (١٥٨- ١٦٠).

ينسحب جيشه ويفك حصاره عن الموصل.

وبذلك قطعت خطبة السلاطين السلاجقة بالموصل كما فقدت أتابكية الزنكيين بالموصل استقلالها، وأخذت المدن والقرى التابعة لها، وأصبح صاحبها اتابك عز الدين مسعود تابعاً لصلاح الدين كنائب له فيها. وعلى هذا المنوال صار خلفاؤه من بعده تابعين للملوك الأيوبيين في المنطقة حتى ظهور التتار.

ولما تم الصلح قدم صلاح الدين لعز الدين مسعود هدايا عظيمة - ولوالدته ولزوجته ولابنه نور الدين - قدرت بعشرة آلاف دينار - إضافة إلى الخيل والملابس والعطور والطيب وغيرها من التحف الثمينة.

وبعد ذلك اتجه صلاح الدين لحصار حلب، فدافع عنها صاحبها عماد الدين زنكي ابن مودود ومعه العسكر النوري[1].

على أن عماد الدين زنكي لم يلبث أن مال إلى تسليم حلب، فتم الاتفاق على أن يسلم عماد الدين حلب إلى صلاح الدين ويأخذ بدلاً منها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وأن يكون عماد الدين في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتج بحجة، وحلف كل منهما للآخر على ذلك.

قال ابن الأثير: «وباستلامه حلب عاصمة الزنكيين في بلاد الشام ثبت صلاح الدين قدمه ببلاد الشام، وكان ذلك في (٢٣ من صفر عام ٥٧٩هـ/ ٢٠ مايو ١١٨٣م).

ومع أن حلب ليست من إقليم الجزيرة الفراتية إلا أنها كانت عاصمة للزنكيين ببلاد الشام، ثم إن صاحبها أحد أفراد البيت الزنكي، ثم إنه عوّض

---

(١) ابن الأثير: الكامل (١١: ٤٩٦- ٤٩٧).
ابن العديم: زبدة الحلب (٣: ٦٣- ٦٥).
ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (٥٩).
ابن واصل: المرجع السابق ص (١٤١- ١٤٢).

عنها بمدن في إقليم الجزيرة الفراتية[1].

وكذلك يذكر أستاذنا سعيد عبد الفتاح عاشور[2]: «ولا شك في أن استيلاء صلاح الدين على إمارة حلب وتوابعها كانت ضربة خطيرةً وجهت للصليبيين، فبعد استيلائه عليها أكثر صلاح الدين من هجماته على معاقل الصليبيين ببلاد الشام».

وكان صلاح الدين قد أعلن عند استيلائه على ملك الزنكيين أن هدفه من ذلك توحيد البلاد وتقوية الجبهة الإسلامية للقيام بالجهاد ضد الصليبيين[3]؛ لذا كان من ضمن الاتفاق الذي تم بينه وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل أن تساهم عساكر الموصل في الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام.

وقد وفى عز الدين بذلك حيث اشتركت تلك العساكر في معظم الحروب التي وقعت بين الصليبيين والمسلمين بزعامة صلاح الدين في الفترة ما بين عامي (٥٨٣ - ٥٨٨هـ/ ١١٨٧ - ١١٩٢م).

وكانت أولى مساهماتها اشتراكها في الهجوم على طبرية عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، ثم اشتراكها في معركة حطين الشهيرة التي حدثت في ربيع الثاني عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م).

وكان قائد عساكر الموصل في هذه المعارك الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفراني، ولا يسعنا الدخول في تفاصيل هذه الحروب؛ لكونها خارجة عن موضوع دراستنا، وإنما يهمنا منها مشاركة زنكيي إقليم الجزيرة الفراتية فيها مثل: عز الدين مسعود صاحب الموصل وعماد الدين زنكي صاحب سنجار

---

(١) وقال محيي الدين بن زكي قاضي دمشق في ذلك مادحاً صلاح الدين بقصيدة مها قوله:

«وفتحكمُ حَلَباً بالسيف في صفر   مبشر بفتوح القدس في رجب»

وكان ذلك فأل خير حيث فتحت القدس في رجب عام (٥٨٣هـ).

(٢) الحركة الصليبية (٢: ٦١٣).

(٣) غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (١٣١، ١٣٢).

ونصيبين والخابور والرقة، وسروج، ابني قطب الدين ومودود بن زنكى، ومعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي الثاني بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر. وقد خضعوا جميعاً لحكم صلاح الدين، وتعهدوا بالمشاركة معه في الجهاد ضد الصليبيين وأن يمدوه بالمال والعتاد والعسكر فكانوا عند تعهدهم[١].

وفي معركة عكا في سنة (٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) أرسل عز الدين مسعود مجموعةً كبيرة من الأسلحة كالتّراس والرماح، وكان أهمُّها النفطَ الأبيض[٢] الذي يَرْمي به المهاجمون على باب المدينة لحرقها واقتحامها، وقد شكره صلاح الدين على إرساله ذلك النفط لحاجة الجيوش الإسلامية إليه.

ولم يَكْتَفِ عز الدين بذلك بل أرسل ابنه علاء الدين خرمشاه على رأس جيش الموصل في عام (٥٨٦هـ/ ١١٩٠م)، وأكرمه صلاح الدين وأنزله بين ولديه الأفضل والطاهر، ولقّبه بالملك السعيد، ثم عادت تلك القواتُ إلى الجهاد مع جيوش صلاح الدين في عام (٥٨٧-٥٨٨هـ/ ١١٩١-١١٩٢م) وكان في مقدمتهم ظهيرُ الدين وابن المهدي، كذلك ساهم الموصليون في تحصين مدينة بيت المقدس حيث أرسل عز الدين مسعود خمسين رجلاً كانوا يتسلّمون رواتبهم من عنده طيلة الستة أشهر التي استغرقها ذلك . . .[٣].

---

(١) خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٣٣)، (٤: ٤)، النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٩٣).
ابن الأثير: الكامل (١١: ٥٢٩- ٥٣٨)، ابن شداد: سيرة صلاح الدين (٧٥- ٧٩).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ١٨٦- ١٩٨)، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٢: ٧٣٣- ٧٤٣).
عاشور: الحركة الصليبية (٢: ٦٢٨- ٦٣٧).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (١٦١).

(٢) النفط الأبيض: آنية من النفط الملتهب في حجم القنابل اليدوية، تتكون موادها بمزج النفط . . . والزيت النباتي والشحم وعدة معادن ومواد ملتهبة أخرى، وهي قديمة الاستخدام لكن شاع استخدامها خلال الحروب الصليبية. انظر الموسوعة العربية الميسرة والمنجد في اللغة والأعلام.

(٣) ابن الأثير: الكامل (١٢: ٣٤)، (١٥).

أما بالنسبة للأمراء الزنكيين الآخرين الذين شاركوا في حصار عكا فكان منهم عماد الدين زنكي بن مودود (صاحب سنجار ونصيبين وغيرهما الذي كان صاحب حلب من قبل) وسنجر شاه بن سيف الدين غازي الثاني بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر. وضربت خيمته بجانب عمه عماد الدين.

وكان سنجر شاه دائم الإيقاع بين عمه عز الدين مسعود وبين صلاح الدين مستغلاً تحالفه مع صلاح الدين ضد عمه عز الدين مسعود، لكن سنجر شاه هذا ضجر من طول الإقامة حول عكا فاستأذن للعودة إلى بلاده فلم يأذن له صلاح الدين وقال له: «هذا وقت تقدم فيه العساكر وتجتمع لا وقت تفرقها».

ولكنه أصر على الرحيل فودع السلطان ورحل في يوم عيد الفطر، فكتب إليه صلاح الدين مع نجاب فلحقه بطبرية، ومما كتبه إليه: «فانظر لنفسك وأبصر من تنتمي إليه غيري وأحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات» وقرأ الكتاب ولم يهتم بما فيه.

وفي الطريق لقيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين فعلم منه ما حدث، وكان تقي الدين شهماً فأجبره على العودة إلى المعسكر السلطاني، وبعد ذلك أدخله على السلطان فطلب الصفح عنه فعفا عنه[1].

ثم كتب صلاح الدين إلى عز الدين مسعود يأمره بأخذ جزيرة ابن عمر منه، لكن عز الدين طلب من صلاح الدين منشوراً بذلك بخط يده، فأرسل إليه ذلك المنشور في أول عام (٥٨٧هـ) فحاصرها عز الدين مدة أربعة أشهر، ثم تدخل في الصلح بينهما عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين صاحب إربل

= الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (١٦٢- ١٦٣).
ابن شداد سيرة صلاح الدين ص (١٠٩- ١١٠).

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (١٢١، ١٢٢، ١٤٥، ١٤٦).
انظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل (١٢ : ٥١)، (٦٠- ٦١).
ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ٢٩٥- ٢٩٧)، (٣١٣- ٣١٤).
تاريخ ابن الفرات (٤ : ٢٣٨- ٢٣٩).

حيث شفعا له عند صلاح الدين، فأرسل رسولاً بذلك إلى عز الدين مسعود، وتم الصلح على أن يكون لعز الدين نصف دخلها والنصف الآخر لسنجر شاه مع بقاء الجزيرة بيده.

وينقل ابن الأثير[1] قول صلاح الدين فيه: «ما قيل لي عن أحد شيء من الشر فرأيته إلا كان دون ما يقال فيه إلا سنجر شاه؛ فإنه كان يقال لي عنه أشياء استعظمها فلما رأيته صغر في عيني ما قيل فيه». لذا كان صلاح الدين غاضباً عليه، ولم يذكر ذلك ابن الأثير في كتابه التاريخ الباهر[2]؛ حتى لا يظهر أن عز الدين مسعود خاضع لأمر صلاح الدين الأيوبي.

كذلك استأذن عماد الدين زكي بن مودود في الرحيل مراراً في رقاع كان يرسلها إلى صلاح الدين، فكتب صلاح الدين بيده على ظهر آخرها بيتاً من الشعر:

من ضاع مثلي من يديه   فليت شعري ما استفاد

فلما قرأها عماد الدين انقطع عن المراجعة كلية وصرف نظره عن الرحيل، لكن لما حل فصل الشتاء واشتد البرد والمطر وأمن صلاح الدين من شر العدو سمح للعساكر الإسلامية بالعودة إلى بلادهم لأخذ راحتهم، فرحل عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وبعده ابن أخيه معز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، وأنعم عليهما بما لم ينعم به على غيرهما، ثم رحل الأمير الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مكرما مشرفاً.

وكان رحيل العساكر الإسلامية هذا في آخر عام (٥٨٦هـ)، ثم قدمت تلك الجيوش مرة ثانية إلى عكا ابتداء من شهر جمادي الثانية عام (٥٨٧هـ)، ثم رحلوا وعادوا مرة ثالثة في عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)، وهكذا حتى تم الصلح بين المسلمين بزعامة صلاح الدين الأيوبي والصليبيين بزعامة ريتشارد قلب الأسد

---

(١) الكامل (١٢: ٦٠- ٦٢)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (١٦٥- ١٦٦). النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٩١).

(٢) ص (١٨٤)، تاريخ ابن الفرات (٤: ٤٢- ٤٥).

ملك إنجلترا، وهو الذي عرف بصلح الرملة في (٢٢ من شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر ١١٩٢م)[١].

علاقة الزنكيين بخلفاء صلاح الدين الأيوبي:

توفي صلاحي الدين بدمشق في شهر صفر عام (٥٨٩هـ/ فبراير ١١٩٣م) وعندئذ تقاسم أولاده وإخوته وأبناء إخوته دولته، ويهمنا أمر إقليم الجزيرة الفراتية الذي آل إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب. ذلك أن عز الدين مسعود صاحب الموصل أراد أن يستغل انقسام البيت الأيوبي على نفسه بعد وفاة صلاح الدين ليسترد إقليم الجزيرة الفراتية منهم، فاجتمع مع أمراء دولته وأهل الرأي فيها واستشارهم فيما عزم عليه. وكان مجد الدين أبو السعادات مبارك بن محمد بن الأثير هو الذي أوعز إليه بهذا وحرضه عليه؛ لكون تلك البلاد لا مانع لها منه، لكن مجاهد الدين قايماز نائب عز الدين مسعود في الموصل عارض هذا الرأي، ورأى أن يرسل عز الدين لأصحاب الأطراف والمدن في إقليم الجزيرة الفراتية، مثل: عماد الدين زنكي صاحب سنجار، ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، ومظفر الدين كوكبوري صاحب إربل.

وكان أن أخذ عز الدين مسعود برأي نائبه وأرسل إليهم يدعوهم إلى الاتفاق معه لتوحيد موقفهم ضد خلفاء صلاح الدين، واسترجاع ما أخذ من

---

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين (١٤٦)، (١٥١- ١٥٢)، (١٦٤- ١٦٥)، (٢١١)، (٢٣٤- ٢٣٥).

سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ٤٠٤- ٤٠٥).

تاريخ ابن الفرات (٤/ ١: ٢٣٧)، (٢٤٣) و (٤/ ٢: ٢)، (١١).

ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٨٣- ٨٤)، (٨٥- ٨٧).

ابن واصل: مفرج الكروب (٢: ٣٤٠- ٣٤١)، (٣٤٦)، (٣٥٤) (٤٠٢- ٤٠٦).

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٣: ١٣٨- ١٤٠).

عاشور: الحركة الصليبية (٢: ٧٠٥- ٧٠٧).

بلادهم، فكان رد أولئك الملوك التريث حتى ينظروا ما يسفر عنه الموقف بين أبناء صلاح الدين وعمهم العادل.

ولم يوافق عز الدين مسعود على خطته تلك إلا أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين وغيرهما، فسار الأخوان بعساكرهما إلى تل موزن بين رأس العين وسروج قاصدين الرها للاستيلاء عليها. وكان الملك العادل الأيوبي معسكراً بها فراسلهم في الصلح على أن تكون له حران والرها والرقة كإقطاع له من عز الدين مسعود صاحب الموصل؛ لكونه القائم بهذه الحركة فرفض عرضه هذا[1].

وفي تلك الأثناء مرض عز الدين مسعود مرضاً شديداً اضطره إلى العودة إلى الموصل مع نائبه مجاهد الدين قايماز ومجد الدين أبي السعادات ومجموعة من عساكره، وترك غالبية جيشه مع أخيه عماد الدين؛ ليتفاوض مع الملك العادل الأيوبي، بما يتفقا عليه من الصلح.

ولم يلبث أن توفي عز الدين مسعود في شهر شعبان من نفس العام فخلفه ابنه أبو الحارث نور الدين أرسلان شاه الأول، وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايماز[2]. وبوفاة عز الدين مسعود لم يتحقق هدفه في استرجاع البيت

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٨٥- ١٨٦)، الكامل (١٢: ٩٩- ١٠٠).
ابن اواصل: مفرج الكروب (٣: ١٧- ١٩)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٩٥).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٠١)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (١٦٩- ١٧٢).

(٢) ابن الأثير: تاريخ الباهر (١٨٥- ١٩١) والكامل (١٢: ١٠١).
ابن واصل: مفرج الكروب (٣:١٩-٢٥).
النويرى: نهاية الأرب (٢٧: ١٨٧).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ١٩٥).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص(٣٠١- ٣٠٢).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (١٦٩- ١٧٢).

الزنكي لسيادتهم وظل الزنكيون تابعين لنفوذ الأيوبيين حتى وصول التتار إلى المنطقة.

وفي ذلك الصراع المرير الذي استعرت نيرانه طيلة تلك الفترة، شهدت العلاقة القائمة بين البيتين الزنكي والأيوبي أسلوبين متغايرين فمرة اتخذت طابع الصراع والتنافس، ومرة أخرى اتخذت طابع التعاون والتحالف والمصاهرة سواء كان ذلك داخل البيت الواحد - كل على حدة - أو بين البيتين كل مع الآخر، أو ضد طرف ثالث كالأراتقة ومظفر الدين صاحب إربل.

وهكذا ظلت السلطة الأيوبية على البيت الزنكي في إقليم الجزيرة الفراتية في يد الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، الذي عهد بها إلى ابنه الملك الأشرف موسى وبعد وفاته خلفه أخوه الملك الصالح إسماعيل. وذلك حتى قضى بدر الدين لؤلؤ على البيت الزنكي كما ذكرنا في حديثنا عن الأتابكيات[١].

= سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ٤٢٣- ٤٢٤).

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر (١٩١- ١٩٣)، (١٩٤- ١٩٧) والكامل (١٢: ١٣٢- ١٣٤).

ابن واصل: مفرج الكروب (٣: ٢٦)، (٧٨- ٨١)، (١٠٢- ١٠٣)، (١٣٩- ١٤٠) (١٥٠-١٥٢)، (١٥٥-١٥٩).

ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٣٨٩- ٣٩٠)، (٤٠٤- ٤٠٦)، (٤٣٥).

تاريخ أبي الفداء (٢: ١٥٩- ١٦٠).

تاريخ ابن الفرات (٥: ٨٦ - ٩٥)، الموصلي: المرجع السابق ص (١٩٦- ٢٠٩)، (٢١٤- ٢١٥).

الديوه جي: تاريخ الموصل (٣٠٣- ٣٠٥)، (٣٠٩- ٣١٨).

الجميلي: دولة الأتابكة ص (١٧٣- ٢١٠).

استيلاء التتار على إقليم الجزيرة الفراتية:

ثم كان أن ظهر التتار على مسرح المشرق الإسلامي في القرن السابع الهجري، الثالث عشر للميلاد، وكان وصولهم إلى إقليم الجزيرة حسبما ذكر ابن الأثير في عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) وذلك خلال ملاحقتهم للسلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، الذي انهزم أمام جيوشهم فلاحقوه من بلد إلى آخر حتى وصلوا إلى آمد، وفيها هزموه شر هزيمة وتفرق عنه جنده وهناك اختفى أثره(١).

ولما دخل التتار البلاد نهبوا سواد آمد وآرزن وميافارقين، ثم توجهوا إلى مدينة اسعرد فقاتلهم أهلها وحاصروها مدة خمسة أيام ثم أعطاهم التتار الأمان، ولما وثقوا بهم واستسلموا نكثوا بهم وقتلوا الغالبية العظمى منهم، حتى بلغ عدد القتلى ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل(٢).

وفعلوا مثل ذلك بالمدن والقرى التي مروا عليها يقتلون وينهبون ويأسرون، حتى وصلوا إلى ماردين فنهبوها واحتمى صاحبها وأهلها وأهل دينسر بقلعة ماردين، وانضم إليهم أهل المدن والقرى المجاورة، ثم واصلوا سيرهم إلى نصيبين وجزيرة ابن عمر وسنجار ومنطقتي الجبال والخابور وعربان، فنهبوا أموال أهلها وقتلوا من وجدوه من أهلها وسارت مجموعة منهم إلى قرية المؤنسة على طريق الموصل فنهبوها، واحتمى أهلها بخان فيها فقتلوا كل من فيه.

ويورد ابن الأثير كثيراً من الروايات والقصص عن حالة الخوف والهلع

---

(١) الكامل في التاريخ (١٢ : ٣٥٨- ٣٦٠).

(٢) ابن الأثير: المرجع السابق ص (٤٩٩، ٥٠٤).
الذهبي: العبر في خبر من غبر (٣: ٢٠٠).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣ : ٨٢ - ٨٧).
النويري: نهاية الأرب (٢٧: ٣٤٣)، دحلان: الفتوحات الإسلامية (٢: ٥٠- ٥١).
شلبي: مجموعة التاريخ الإسلامي (٧: ٥٦٤)، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك (١ : ٢٨٠).

والذل التي وصلت إليه نفوس المسلمين من جراء غزوات التتار. وقد واصلت مجموعة منهم طريقها إلى إربل فقتلوا من التقوا به في طريقهم من التركمان الإيوانية والأكراد الجوزقان وغيرهم، ولما دخلوا إربل نهبوا قراها، وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك النواحي وارتكبوا جرائم لم يسمع بها من قبل، وخرج إليهم صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري بعساكره وعساكر الموصل، فلما علم بعودتهم إلى أذربيجان رجع عنهم[1].

وفي عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) عاودوا الغزو مرة ثانية على المنطقة، فاكتسحوا قرية نينوى فنهبوها وقتلوا كثيراً من أهلها، وفي العام التالي زحفوا على إربل وضربوا عليها الحصار ونصبوا المجانيق على سورها حتى نقبوه، واقتحموا المدينة ونهبوها، وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا كثيراً من النساء والأطفال، وامتنعت عليهم قلعتها وكان بها نائب للخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣- ٦٤٠هـ/ ١١٢٦- ١٢٤٢م).

ولما أرسل الخليفة جيشاً لإنقاذها رحلوا عنها، وذكر ابن العبري[2] أن أهل إربل تحصنوا بقلعتها: «وحاصروها أربعين يوماً ثم أعطوا مالاً فرحلوا عنها».

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٤٩٩- ٥٠٢) حوادث عام (٦٢٨هـ) آخر أحداث كتابه.
دحلان: الفتوحات الإسلامية (٢: ٥٠- ٥١).

(٢) تاريخ مختصر الدول (٤٣٦- ٤٣٧)، الذهبي، العبر في خبر من غبر (٣: ٢١٦، ٢١٨).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ١٤٥)، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد (٢٩٠).
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك (١: ٢٩١)، (٢٩٦).
أبو شامة: الذيل على الروضتين (١٣٥).
ابن الفوطي: الحوادث الجامعة (٤٧)، (٥٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦: ٢٩٦- ٢٩٧).
منقريوس: تاريخ دول الإسلام (٢: ٢٧٧).

وفي عام (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) عاودوا الكرة على إقليم الجزيرة الفراتية، حيث وصلت مجموعة منهم إلى ميافارقين وفر صاحبها شهاب الدين غازي الأيوبي منهم تاركاً البلد لهم، فعبثوا في ديار بكر أشد العبث واستولوا على حران والرها عنوةً، وعلى ماردين صلحاً[١]، بينما ذكر آخرون[٢] أن ذلك كان في عام (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)، ومنها زحفوا على رأس عين وسروج وغيرها، وقتلوا أكثر من عشرة آلاف من أهلها.

ثم كان أن سقطت بغداد في أيديهم سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) فقضوا على الدولة العباسية، وقتلوا آخر خلفائها المستعصم بالله (٦٤٠- ٦٥٦هـ/ ١٢٤٢- ١٢٥٨م)، وذلك بقيادة هولاكو والي الجهات الغربية من إمبراطورية المغول.

عندما تم ذلك أرسل هولاكو رسائل إلى ملوك المنطقة بضرورة الإذعان له[٣]. وفي عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) توجه هولاكو بجيوشه غرباً لغزو بلاد الشام ثم لإخضاع مصر لسيطرته، وفي طريقه مرّ على إقليم الجزيرة الفراتية مكتسحاً ما بقي من مدنه وقراه التي سقطت في يده واحدة بعد أخرى إن سلماً أو حرباً[٤] ولا يسعنا الدخول في تفاصيل سقوط كل مدينة على حدة، ونكتفي

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة (٩٨).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ١٨٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧: ٢٥).

العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (١: ٦٩)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (٨: ٧٨٧).

(٣) دامت الخلافة العباسية خمسمائة وأربعة وعشرين عاماً، قام فيها سبعة وثلاثون خليفة، ابتدأت بأبي العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي، وانتهت بالمستعصم بالله عبد الله بن المستنصر بالله من أحفاد المعتصم بالله.

(٤) ابن كثير: المرجع السابق (٢٠٠- ٢٠٣)، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٤٥٩)، (٤٧١)، (٤٧٥).

حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي (١٤٩- ١٥٠)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام.

بذكر كيفية استيلاء التتار على مدينتين هما: ميافارقين والموصل، بوصفهما كبرى المدن الإسلامية في إقليم الجزيرة.

استيلاء التتار على مدينة ميافارقين:

وجه هولاكو فرقة من جيشه إلى ميافارقين وكانت للملك الكامل محمد ابن غازي بن العادل الأيوبي، فحاصرتها ونصبت عليها المجانيق من كل ناحية، فقاتلهم أهلها وصبروا على شدة الحصار، وشحت عندهم المؤنة حتى أكلوا الكلاب والسنانير والميتة، وأخيراً سقطت بعد عامين من الحصار الشديد، فقتلوا عدداً كبيراً من الجند وأسروا من بقي حياً، وألقي القبض على صاحبها الملك الكامل وتسعة من مماليكه، وحملوا إلى هولاكو فقتلوا كلهم إلا مملوكاً واحداً.

استيلاء التتار على الموصل:

اشتهر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالدهاء والحزم وسياسة التوازن في المنطقة، مما ساعده على إقامة علاقات طيبة مع جيرانه في معظم الأوقات، وعندما غزا التتار المنطقة شارك في مقاومتهم ففي عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) دافع عن إربل مع صاحبها مظفر الدين كوكبوري، وكان يراقب تحركاتهم بحذر شديد، ثم صار يخبر الخليفة العباسي عنها أولاً بأول.

ولما رأى أن الموقف صار في المنطقة بيد التتار، خاصةً بعد وفاة حليفه الملك الأشرف الأيوبي عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) ولم يبق من يعول عليه[(١)] في الدفاع عن الموصل، أخذ يصانع التتار، وفي نفس الوقت لم يقطع صلته بالخليفة العباسي، وكان همزة الوصل بينه وبين الخليفة الشريف تاج الدين أبي المعالي محمد بن الصلايا العلوي نائب الخليفة في إربل بعد موت صاحبها

---

(١) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (١: ١٩٩- ٢٠١).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (١٦٣).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٣١٧- ٣١٨).

مظفر الدين، وقد استمر بدر الدين لؤلؤ في تعاونه مع التتار يقدم لهم ما يطلبونه من مشورة خاصةً بعد غزوهم لإربل عام (٦٣٤هـ) وعجزهم عن فتحها، إذ أشار عليهم بتركها والعودة إليها في فصل الصيف؛ لأن سكانها الأكراد يفرون من حرارة الصيف إلى الجبال، فعهدوا إليه بمواصلة حصارها وانسحبوا عنها[١]. ولما رأى أنه لا أمل في قدرة الخليفة على الدفاع عن بغداد انحاز كلياً إلى التتار، خاصةً بعد أن وصل إليه مبعوثان: الأول من هولاكو يطلب منه معدات للحرب كآلات الحصار وغيرها، والثاني من المستعصم بالله يطلب منه جماعة من مطربي الموصل المشهورين وعندئذ قال: «انظروا إلى المطلوبين وابكوا على الإسلام وأهله»[٢]، لذا قرر لؤلؤ الوقوف إلى جانب التتار، حفاظاً على ملكه، وأرسل مجموعة من جيشه لمساعدتهم في حصار بغداد وفتحها لكنها وصلت متأخرة بعد فتح بغداد، مما جعل هولاكو يشك في نواياه.

وكان أن أخذ لؤلؤ يفكر في أمره «فأخرج جميع ما في خزائنه من الأموال واللآلئ والجواهر والمحرمات من الثياب، وصادر ذوي الثروة من رعاياه، وأخذ حتى حليّ خطاياه والدرر من حلق أولاده «وتوجه إلى جبال همذان حيث مقر هولاكو لتقديمها له وإعلانه الطاعة والخضوع لحكمه، وبذلك رضي عنه هولاكو واحترمه لكبر سنه. وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة وأصعده إليه على التخت. وكان مع بدر الدين لؤلؤ حلقتان فيهما درتان يتيمتان فاستأذنه بأن يضعهما بيده في أذنيه فأذن له بذلك[٣].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب (٤: ٥٠- ٥١).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣١٨).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٣٣).

(٢) فوزي: تاريخ العراق ص (٣٦١).

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٤٨٢- ٤٨٣).
انظر أيضاً: العيني: عقد الجمان (١: ١٧٩- ١٨٠)، تاريخ ابن خلدون (٥: ١١٥١).
=

وأقام لؤلؤ أياماً في خدمة هولاكو ثم رجع إلى بلاده مسروراً، لكنه كان مذعوراً مما شاهده من عظمة هولاكو وهيبته، فضلاً عما أصابه من مشقة السفر، وكان عمره قد تجاوز الثمانين عاماً فأصيب بجهد كبير فمرض ومات بعد أيام قلائل من وصوله، وذلك عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م) بعد أن حكم الموصل قرابة خمسين عاماً[١].

تولى حكم الموصل بعد بدر الدين لؤلؤ ابنه الملك الصالح إسماعيل (٦٥٧ - ٦٦٠هـ/ ١٢٥٨-١٢٦١م) وتولى ابنه علاء الدين سنجار وابنه المجاهد إسحاق جزيرة ابن عمر.

وبعد هزيمة التتار على يد الملك المظفر سيف الدين قطز رابع سلاطين المماليك (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩- ١٢٦٠م) في موقعة عين جالوت الشهيرة انتعشت الروح المعنوية لدى المسلمين وتاقت نفوسهم إلى الجهاد ضدّ السيطرة التترية، وكان من بينهم أبناء بدر الدين لؤلؤ، فالتحق علاء الدين بالظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠- ١٢٧٧م) الذي عينه نائباً له بحلب، ثم لحق به أخوه إسحاق صاحب جزيرة ابن عمر.

وأرسل علاء الدين إلى أخيه الملك الصالح يحثه على مغادرة الموصل واللحاق بهما في مصر؛ ليحض الظاهر بيبرس على مساعدتهم لاسترجاع ملكهم من قبضة التتار، وربما أضاف إليه بلاداً أخرى غير الموصل، ووقعت الرسالة بيد محمد بن يونس الباعشيقي أحد الأمراء، وكان نائباً لوالده في

= الموصلي: المرجع السابق (١: ٢٣٥- ٢٣٦)، غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (١٦٤).

الديوه جي: المرجع السابق ص (٣١٩).

(١) العيني: عقد الجمان (١: ١٨٠- ١٨١)، (١٩١- ٢٠٠).

ابن واصل: مفرج الكروب (٤: ٥١).

الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٣٥- ٢٣٦)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣١٩).

غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص(١٦٤)، تاريخ أبي الفداء (٣: ١٩٨).

نينوى فهرب إلى التتار وسلمهم الرسالة.

وخوفاً على حياته خرج الملك الصالح إلى دمشق(١)، وكان معه ولده علاء الدين ومجموعة من رجاله وأخوه إسحاق فواصلوا سفرهم إلى القاهرة حيث أكرمهم الظاهر بيبرس وخلع على الأخوين وشفعهما في أخيهما علاء الدين وأطلقه من سجنه فقد أساء السيرة عندما ولي نيابة حلب فكان يأخذ أموال أهلها.

وكان أن عاد الملك الصالح إلى الموصل بالمدد المالي والعسكري الذي أمده به الظاهر بيبرس ووعده بإرسال جيش آخر وتحصن بها، وكان جيش التتار بقيادة سمدغو محيطاً بها ومحاصراً لها مانعاً دخول الإمدادات الغذائية والعسكرية إليها، وخلال تلك الأثناء وصلت رسالة من الظاهر بيبرس بإرسال جيش إلى الملك الصالح، لكن الرسالة وقعت بيد التتار الذين التقوا به قرب سنجار وقضوا على جيشه وغنموا كل ما معه من خيل وسلاح ثم شددوا الحصار على الموصل حتى انعدم الطعام.

وأخيراً طلب الصالح الصلح ووعده التتار بالأمان إن هو خرج بنفسه للاتفاق، فخرج إليهم ومعه المغنون والمطربون يضربون على الطبول، فقبضوا عليه، ودخل الجيش التتري الموصل وعاثوا فيها ثمانية أيام(٢) سلباً ونهباً

---

(١) العيني: المرجع السابق (١: ٢٤٣- ٢٤٥)، (٣١٤- ٣١٦).
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٤٨٦)، (٤٩٢- ٤٩٤).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧: ٩٧).
ابن الفوطي: الحوادث الجامعة (١٦٦- ١٦٧).
العراق في التاريخ (مجموعة من الباحثين) (٥٤٨).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٣٦- ٢٣٧).
الديوه جي: المرجع السابق (٣٢١- ٣٢٢). تاريخ أبي الفداء: (٣: ٢٠٥).

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٤٩٥- ٤٩٦)، أبو شامة: الذيل على الروضتين (٣١٢- ٣١٣).

الذهبي: العبر في خبر من غبر (٣: ٢٩٧)، اليونيني: ذيل مرآة الزمان (١: ٤٩٢- ٤٩٥). =

وقتلاً، وحمل الصالح وولده علاء الدين إلى مقر هولاكو فقتلا هناك شر قتلة، وأسر كثير من أهل الموصل خاصة أهل الحرف والصناعات حتى كادت المدينة تخلو من أهلها[1].

وبذلك خضعت الموصل كغيرها من مدن إقليم الجزيرة الفراتية للتتار، وكان ذلك في عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م).

وقد أصبحت الموصل حسب التقسيم الإداري الذي أقامه التتار بعد سقوط بغداد واستيلائهم على إقليم الجزيرة الفراتية والأجزاء الشرقية من العالم الإسلامي قاعدة لإقليم ديار بكر - أي إقليم الجزيرة الفراتية - ومن مدنه ميافارقين ونصيبين وسنجار وأسعرد ورأس العين وحران والرها وجزيرة ابن عمر والعمادية وإربل ودنيسر وخرتبرت وملطية وسميساط[2].

علاقة التتار مع المسيحيين:

ظهر التعاون بين التتار والمسيحيين منذ عهد جنكيز خان حيث تزوج أبناؤه من أميرات مسيحيات من الكرج، كان لهن نفوذ كبير عليهم[3]، كذلك

= ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (٢: ٣٦٤- ٣٦٦)، (٤١٧- ٤٢٠).

العيني: عقد الجمان (١: ١٦٧)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٣٧- ٢٣٩).

الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٢٢- ٣٢٣).

تاريخ أبي الفدا: (٣: ٢٠٧- ٢٠٩).

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٢٣)، العراق في التاريخ ص (٥٤٨).

(٢) النويري: نهاية الأرب (٢٧: ٣٩٢).

العراق في التاريخ ص (٥٤٩).

العيني: عقد الجمان (١: ٤١٥- ٤١٦).

تاريخ ابن خلدون: (٥: ١١٥٤).

الموصلي: المرجع السابق (١: ٢٣٥).

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٤٠١- ٤٠٢)، (٤٣٤- ٤٥٠).

أظهر التتار بعد استيلائهم على العراق وإقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام اهتماماً خاصاً بالمسيحيين الشرقيين وعطفاً شديداً عليهم؛ فحافظوا على كنائسهم وأديرتهم.

وهذا خلاف ما فعلوه مع المسلمين كما مرّ بنا[1]، حتى أن هولاكو القائد التتري فاتح بغداد أنعم على البطرق النسطوري في بغداد بالهدايا الثمينة وخصص أحد قصورها مقراً له، وقد اعتنق بعض التتار الديانة النصرانية ومنهم دوقور خاتون زوجة هولاكو.

وكان هولاكو (٦٥٤ - ٦٦٣هـ/ ١٢٥٦- ١٢٦٥م) قد طلب الزواج من ابنة إمبراطور القسطنطينية، لكنه توفي قبل الدخول عليها فتزوجها ابنه أبقا إيلخان الذي صار ملكاً بعد أبيه على إيلخانية فارس والعراق (٦٦٣- ٦٨٠هـ/ ١٢٦٥- ١٢٨١م)، فأثرت عليه بعقيدتها النصرانية، فصار يميل إليها ويحتفل بأعياد النصارى.

وقد اعتمد التتار على المسيحيين في إدارة البلاد ففي عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م) ولى أبقاخان مسعود البرقوطي نصرانياً من إربل ولاية الموصل، كان أبوه علم الدين يعقوب التاجر من أعز المقربين إلى أبقاخان، كذلك عين سمديغو على جزيرة ابن عمر رجلاً نصرانياً اسمه «مرحسيا»[2]؛ ليدبر شؤونها.

ويلاحظ أن المسيحيين الشرقيين من أرمن وسريان ويعاقبة ونساطرة تحمسوا لقدوم التتار وساعدوهم وساروا في ركابهم. وكان الشعور السائد عند المسيحيين في تلك الحقبة هو أن التتار بحكم وثنيتهم يمكن تحويلهم إلى الديانة المسيحية، واستغلالهم في الضغط على المسلمين في الشرق الأوسط،

= رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٣: ٤٢٤- ٤٢٥).
الكتبي: فوات الوفيات (٤: ٢٤٠).

(١) عاشور: الحركة الصليبية (٢: ٨٩٤- ٨٩٥).
ورسالته لأهل بغداد، انظر النويري: نهاية الأرب (٢٧: ٤٠٢).

(٢) المرحسيا: منصب ديني مسيحي، انظر غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (١٧٣).

وبذلك يقع العالم الإسلامي بين الصليبيين من الغرب والتتار من الشرق، واستمر هذا الشعور سائداً حتى دخل تتار فارس والعراق في الإسلام منذ (القرن الثامن الهجري الرابع عشر للميلاد).

الفصل الثاني

النشاط الاقتصادي في إقليم الجزيرة الفراتية

خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

(الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)

الفصل الثاني

النشاط الاقتصادي في إقليم الجزيرة الفراتية

يشتمل النشاط الاقتصادي في إقليم الجزيرة الفراتية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) على الأنشطة الخاصة بالزراعة والرعي والصناعة والتجارة، مع مراعاة التقلبات السياسية وأثرها على الأوضاع الاقتصادية وبصفة خاصة على التجارة.

النشاط الزراعي والرعوي:

مقومات الزراعة في إقليم الجزيرة الفراتية متوفرة وذلك لكثرة المياه بأرضه، لوجود نهري دجلة والفرات وفروعهما فيه، وكثرة العيون المائية[١] التي تنبع بأرضه ولوجوده في منطقة معتدلة الحرارة ممطرة شتاء لتأثرها بمناخ إقليم البحر المتوسط، إضافة إلى خصوبة التربة فيه مع اعتناء حكامه من الزنكيين والأراتقة ثم الأيوبيين بالمشاريع التي تخدم الزراعة من شق القنوات المائية من الأنهار وحفر الآبار ومساعدة المزارعين وعدم إجحافهم في فرض الضرائب والإتاوات الباهظة عليهم مع جلب محاصيل زراعية لم تكن متوفرة من قبل[٢] وعن دور الزنكيين في ذلك خاصة عندما تولى عماد الدين زنكي

---

(١) سبق الحديث عنها في المواد المائية المقدمة الجغرافية.

(٢) ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية (٣٤٠- ٣٤٢).
حميدة: جغرافية الوطن العربي (٢٧٧- ٢٧٨)، (٣٢٤- ٣٢٦).

أمور أتابكية الموصل يصف ابن الأثير[1] الفارق الكبير بين ما كانت عليه الموصل قبله وما صارت عليه خلال ملكه لها بقوله: «وكانت الموصل أقل بلاد الله فاكهةً، فكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقرض به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهرها وفي ولايتها، فهي اليوم أكثر البلاد فاكهة، فالرمان يبقى على أن يدرك العتيق الجديد وكذلك الكمثري وقريب منه العنب. وأما التفاح فيجمع العتيق والجديد» وهكذا عمرت القرى التابعة لها بعد أن كانت مهجورة، وقدم إليها الناس واستوطنوها؛ طلباً للأمن والاستقرار اللذين توفرا في العهد الأتابكي، حتى بلغ عدد قراها ستة آلاف قرية. وكان جل أهلها يشتغلون بالزراعة وما قيل عن الأتابكة قيل أيضاً عن الأراتقة ملوك ديار بكر ودورهم[2]. وقبل الدخول في تفاصيل المحاصيل الزراعية لا بد لنا من التنويه إلى تقسيم الأراضي الزراعية والعناية بها، كنظام الري والوسائل المتبعة في ذلك وطرق الزراعة والآلات المستخدمة في الفلاحة.

تقسيم الأراضي الزراعية:

أما عن تقسيم الأراضي الزراعية، فكان على نوعين:

١- الملكية التامة وتكون وراثية يرثها الابن عن والده ويؤخذ عليها العشر، وهي ما تسمى بأرض الخراج.

= الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٢٩٨- ٢٩٩)، غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر (٢٠٦).

الأعظمي بحث في حضارة العراق (٥: ٢٥٨).

الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٢٠، ٣٣٦).

(١) التاريخ الباهر (٧٧، ٧٨).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ١١١)، الجميلي: الدولة الأتابكية في الموصل (٣٠٠).

خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٣٢).

٢- نظام الإقطاع وهذه الإقطاعات تمنح لكبار القادة والأمراء وأصحاب النفوذ وهذا هو النظام السائد خلال فترة دراستنا هذه، وفي هذه الأراضي يقوم المقطع باستغلالها مقابل ما يطلب من خدمات لا يتقاضى أجراً عنها.

ويقوم الفلاحون والمزارعون بفلاحة هذه الأرض للمقطعية مقابل جزء مما تدره الأرض تدفعها الدولة لمثل هؤلاء المسؤولين الذين ينصبون وكلاء لهم يديرون شؤونها فيعينون فلاحين يقومون بزراعتها وكان هؤلاء الفلاحون يقومون بدفع رسوم قليلة سهلة لا تثقل كاهلهم(١).

ولم يمنع عماد الدين زنكي تطبيق النظام الإقطاعي عن كبار رجال دولته كما ذكر الديوه جي(٢) بل شجع على تطبيقه ومنعهم من اقتناء الأملاك بقوله: «مهما البلاد لنا فأي حاجة بكم إلى الأملاك فإن الإقطاعات تغني عنها(٣)».

نظام الري:

يعتمد نظام الري في إقليم الجزيرة الفراتية على الأمطار والآبار والعيون والقنوات الجوفية، وهي عبارة عن آبار تحفر تحت الأرض، ويوصل بعضها إلى بعض حتى تظهر على سطح الأرض، وتسمى محلياً الكهاريز كالنهر الصغير. وكانت أكثر الغلال الزراعية تعتمد في ريها على الأمطار وتعرف هذه الأراضي بالأراضي الديمية وليس للإنسان دخل في ريها فما على المزارع إلا

(١) عن نظام الإقطاع انظر: طرخان النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى (٢١- ٢٣).

دحلان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط (٤٧- ٤٨)، حسن وعلي إبراهيم: النظم الإسلامية ص (٢٢٨- ٢٢٩). بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٣٢٣- ٣٣٣)

مجموعة باحثين: العراق في التاريخ (٤٦٨- ٤٦٩)، مجموعة باحثين: حضارة العراق (٥: ٣٧٧- ٣٨٠).

(٢) تاريخ الموصل (٤٢٥) والموصل في العهد الأتابكي.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٧٧).

أن يهيئ أرضه من حرث وبذر وتسميد فقط. أما المصادر المائية الأخرى فلا بد من استخدام وسائل لسحب المياه منها؛ لأن مستوى المياه في الأنهار غالباً ما يكون منخفضاً جداً عن مستوى سطح الأراضي الزراعية ولذا يستخدم الناعور (الساقية) وهو آلة يديرها تيار مياه النهر المتدفقة وفي حالة ضعف التيار يستخدم الدولاب الذي يديره حيوان: حصان، أو ثور، أو بغل.

وتنشأ القناطر أو السدود التي تُبنى بالجص والآجر[1] على كثير من أفواه القنوات المائية لتنظيم توزيع الماء، ولرفع مستوى الماء في هذه القنوات الفرعية؛ حتى يسهل الري سيحاً بما يعرف حالياً الري غمراً، وكذلك يتم الري بهذه الطريقة من مياه العيون التي تسيح على وجه الأرض أما مياه الآبار فإنها تجر بواسطة الدالية التي يديرها حيوان وتستخدم آلات أصغر منها كالشادوف والفرافات ويديرها الإنسان[2].

الطرق المتبعة في الزراعة:

توقفت هذه الطرق على نوعية المزروعات، فالحبوب كالحنطة والشعير والشوفان والبقوليات وما شابهها تجري زراعتها بحرث الأرض أولاً ثم نشر البذور وتغطيتها. أما الفواكه والحمضيات فتتم زراعتها بواسطة البذور أو الغرس بواسطة الشتلات[3] حتى تكبر شجيراتها، ثم تنقل إلى مقرها الدائم.

---

(١) الجص: أحجار كلسية تطحن وتطلي بها جدر المباني يونانية معربة. الآجر: كلمة فارسية معربة مادة يبنى بها، النورة: من حجر الكلس، الرازي، مختار الصحاح والمنجد في اللغة والأعلام.

(٢) بحث للدكتور عواد الأعظمي، حضارة العراق (٥: ٢٥٨- ٢٦٠).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٦٢).

(٣) تكوين الشتلات: يتم بدفن غصن من الشجرة الأم في الأرض وهو متصل بأمه حتى يتم تكوين الجذور عليه في الأرض ثم يفصل بعد ذلك من أمه فيصبح نباتاً جديداً مستقلاً بذاته وتستمر هذه الشتلة في مكانها المؤقت لمدة من (٣-٦ شهور) وقد تصل إلى عام كامل. انظر: عبد الله الحارثي، عمان في عهد بني نبهان الأحوال =

أما النخيل: فتزرع بالبذور أو بواسطة الفسيلة[1] التي تؤخذ من أمها النخلة فيحفر لها حفرة وتنظف من الأحجار والحشائش الموجودة ثم توضع فيها بعض أوراق الأشجار الجافة ثم توضع الفسيلة ويردم عليها بالتراب حتى يتم كبس الحفرة، مع المحافظة على الفسيلة كي لا يصل التراب إلى جوفها أي: الأغصان الداخلية بها[2].

وهناك طرق أخرى لتكاثر الأشجار كالترقيد والتطعيم. ولإعطاء المحاصيل الزراعية إنتاجية أكبر يعتمد على طريقة المناوبة الزراعية فيزرع نصف الأرض ويترك نصفها الثاني ليزرع في العام التالي، وذلك لتأخذ تلك الأرض راحتها، ولتجديد حيويتها وخصوبتها ويضاف سماد الحيوانات إليها، ولحرث الأرض يستخدم المحراث الخشبي البسيط الذي يجره الثور. وهناك آلات أخرى لعزق الأرض وتسويتها وتمهيدها، وقلع الحشائش وتهذيب الأشجار[3].

وللمحافظة على غلال المحاصيل الزراعية - كالحبوب من حنطة وشعير وذرة من أكل الطيور، ولطرد الطيور خاصةً العصافير عنه - تستخدم الطبول والأبواق وتعلق رموز بعض الطيور المخيفة كالغراب وغيرهما أو أشكال آدمية، وقد يلجأ إلى الصراخ والمقالع الحجرية[4].

= السياسية والأوضاع الاقتصادية ص ١٠٩- ١١٠.

(١) الفسيلة (مفرد) وجمعها فسائل: وتعني النخلة الصغيرة تقطع من أمها فتغرس. انظر الرازي: مختار الصحاح والمنجد في اللغة والأعلام.

(٢) الأعظمي: حضارة العراق (٥: ٢٦٠)، الحارثي عبد الله المرجع السابق ١٠٣- ١٠٥ والأوضاع الاقتصادية في عهدهم ص (٩٥- ٩٦).

(٣) من تلك الآلات الحديدية التي تخدم الفلاحة المنجل والمنشار والمسحاة والمحش وغيرها.

(٤) الأعظمي: المرجع السابق ص (٢٦٠- ٢٦١)، صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ص (٣٧٩- ٣٨١). حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤ : ٣٨٧).

المحاصيل الزراعية:

أولى تلك المحاصيل وأهمها الحبوب (من حنطة - قمح وشوفان وشعير وأرز وذرة) ولتوافر الظروف الطبيعية المناسبة لزراعتها من تربة جيدة وأمطار شتوية وجودة الصرف المائي لميل سطح الإقليم؛ انتشرت زراعتها في غالبية مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية؛ لكونها المادة الأساسية التي يعتمد عليها في الطعام وما يزيد عن حاجة سكانها يصدر للمناطق المجاورة وكان هذا الإقليم المخزن الذي يمون العراق - خاصة بغداد - بالحبوب في أوقات الشدة[1].

وتأتي البقوليات والخضروات في المرتبة الثانية بعد الحبوب من حيث قيمتها الغذائية واعتماد أهل الجزيرة الفراتية عليها في غذائهم؛ لذا انتشرت زراعتها في نواحي عدة من الإقليم، وتتمثل في الماش والعدس والحمص والبطاطا والباقلاء واللوبيا والفاصوليا والجزر والسلق والشلجم والجوز واللوز والبندق وشاه بلوط[2] والسمسم والزيتون والخيار والقثاء والبصل والثوم والباذنجان والفجل وبلغت بساتين الخضرة في مدينة الموصل وحدها خمسة وتسعين بستاناً[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢ : ٤٤٧)، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام (٤ : ٣٨٧). خليل: عماد الدين زنكي (١٠٤)، صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها (٣٧٩- ٣٨١).
متز: الحضارة الإسلامية في ق ٤ هـ(٢: ٢٥٣)، حضارة العراق (٥ : ٢٧٢- ٢٧٣).
العراق: دراسة إقليمية (١ : ١٢٠- ١٢٢)، (١٣٠).

(٢) شاه بلوط: هو المعروف حالياً بالكستنا وثمرته من المكسرات وقشرته سميكة وهي بنية اللون. انظر المنجد في اللغة والأعلام ويكثر وجوده في حران بديار بكر.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٤٤٧). القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد (٤٦٢).
متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٢٥٨- ٢٦١). غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر (٢٠٥).
الموصلي: تاريخ الموصل (١ : ٣٣٦). حضارة العراق (٥ : ٢٧٣).
ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (٢٥٢).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٢٥) والموصل في العهد الأتابكي ص (٤١).

أما الفواكه، فإن إقليم الجزيرة الفراتية اشتهر بكثرة أشجار الفواكه به وتعدد أنواعها وأصنافها ومواسم حصادها، فمنها ما هو شتوي ومنها ما هو صيفي الخ. . وأولى تلك الأشجار وسيدتها النخيل قال عنه عز وجل: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾[1] ووصفها سيدنا رسول الله - ﷺ - بأنها ابنة عمنا نحن بني آدم. وتنفرد مدينة سنجار عن غيرها بوجود بساتين النخيل بها وأيضاً بتل أعفر[2].

وبعد ذلك يأتي العنب والكروم لانتشار زراعته وكثرتها في إقليم الجزيرة الفراتية من بين أشجار الفاكهة ويزرع في الموصل كما اشتهرت به مدينة عانة حتى نسب العرب إليها الخمر وتطلق كلمة كرم في العراق قديماً على الحقل المزروع بالكامل عنباً وكان كثير الأصناف التي لا تدرك لكثرتها وتنوعها حتى كان يوجد في مدينة ماردين وحدها سبعون نوعاً منه[3].

أما الحمضيات (كالنارنج والأترج والليمون الحامض والحلو والبرتقال والسفرجل وغيرها) فلم تكن زراعتها معروفة في العالم الإسلامي قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وينقل عن المسعودي أنه قال: «وكذلك شجر النارنج والأترج المدور جلب من أرض الهند بعد الثلاثمائة فزرع بعمان ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام، حتى كثر في دور الناس كما جلب الليمون الحامض[4].

---

(١) سورة ق الآيتان (١٠ و١١).

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض (١٩٩). ياقوت الحموي: معجم البلدان (٣: ٣٦٢).
دور الموصل (٢٥٢)، حضارة العراق (٥: ٢٧٢)، لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية (١٤٦).

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤١٨).
متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٢٥٥).
خليل: الإمارات الأرتقية ص (٤٣٤).

(٤) الحموي: معجم البلدان (٣: ٢٦٢)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٣٨٧).
متز: المرجع السابق (٢: ٢٥٦). =

وهناك أشجار فواكه أخرى كثيرة كالرمان والتفاح والتين والبطيخ والإجاص. والمشمش والكمثري والخوخ وكان الرمان والتفاح والكمثري في الموصل - لكثرته - يلاقي الجديد القديم[1]. كما يوجد بسنجار ألذ أنواع الرمان والتين، الذي يثمر طوال العام واشتهرت جزيرة ابن عمر بالتين والتفاح، جودة وكثرةً خاصة التفاح القريشي (نسبة إلى قرية القرشية بها) وبلغ عدد بساتين الفاكهة في الموصل ستة وثلاثين بستاناً. يضاف إلى ما سبق محاصيل أخرى مثل قصب السكر الذي زرع في غالبية مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية، وذلك لصلاحية أرضها لزراعته ثم لأهميته في الحياة اليومية، في المأكولات والشراب، وذلك بعد عصره وتصنيعه. ومن تلك المحاصيل أيضاً القطن والكتان. ويعتبر إقليم الجزيرة الفراتية أحد المراكز الهامة لزراعة القطن في العالم الإسلامي فقد نشر الحمدانيون -حكام الموصل وحلب - زراعته فيه، وكثرت زراعته بمنطقة الخابور بصفة خاصة[2] ولا غرو في ذلك لأهميته في كساء الإنسان حيا وميتاً وزرع الكتان في الموصل بكثرة؛ لذا قامت فيها صناعة القطن والكتان. ونظراً لخصوبة أرضه واعتدال مناخه

= صبحي الصالح: النظم الإسلامية (٣٨٠) حضارة العراق (٥: ٢٧٢)، ندوة دور الموصل (٢٥٢).

(١) وفي ذلك دليل على استغناء الناس عنه حتى تبقى ثماره في شجرة حتى العام المقبل، انظر ابن الأثير: التاريخ الباهر (٧٨) انظر أيضاً: صبحي المرجع السابق (٣٨٠) حضارة العراق (٥: ٢٧٢)، خليل: الإمارات الأرتقية (٤٣٥). غندور: جزيرة ابن عمر (٢٠٦- ٢٠٧).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٤٢٥- ٤٢٦) والموصل في العهد الأتابكي (٤١).
المطبعي: رحلتيْ إلى شمال العراق (٦٢) ابن حوقل: صورة الأرض (١٩٩).

(٢) متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٢٦١)، (٣٠٠)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٣٨٧).
خليل: عماد الدين زنكي (١٠٤). ندوة دور الموصل ص (٢٥٣).
لي سترينج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٢٧).
حضارة العراق (٥: ٢٧٣)، خليل: الإمارات الأرتقية ص (٤٣٥).

ولحياة التمدن والرفاهية التي كان يعيشها أهله وحكامه: انتشرت في مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية زراعة نباتات الزينة والعطور، وتأتي الورود - في مقدمتها - بنوعيها الأبيض والأحمر وقد مرّ بنا أن مدينة نصيبين اختصت بالورد الأبيض حتى كاد لا يوجد فيها شجيرة لورد أحمر.

ويعتبر فصل الربيع فصل الزهور والرياحين، حيث تزهو فيه أنواع عديدة من الزهور والرياحين إضافة إلى الورود، مثل القرنفل والياسمين بأنواعه، والبنفسج، والنرجس[١]، كذلك كان يزرع الزعفران ذو الشعر الفائق، خاصة في السهل المحاذي لجبل نصيبين[٢]، كما وجدت نباتات تصنع منها النيلة وهي التي تستخدم في أصباغ الأثواب، وفي تزيين الوجوه.

وخارج إطار المدن والقرى، أي في المناطق الخلوية والبراري وعلى مجاري الأنهار وعلى سفوح الجبال والسهول حيث تنهمر الأمطار شتاء كانت تكثر الغابات التي يأتي نموها تلقائياً دون تدخل الإنسان. وهي متعددة الأجناس والأحجام. وأهم أشجار الغابات الصنور التي تنمو في منطقة تتساقط فيها الثلوج. وكان الآشوريون قديماً يسمون شجرة الصنوبر «ملكة الشجر» لأنها زاهية الشكل وتدوم فيها الخضرة، ولجمال خشبها وصلابته حيث تزخرف به المعابد وقصور الملوك والأثرياء. ومن أشجار الغابات أيضاً أشجار السرو والسنديان (البلوط) وأشجار السماق[٣] التي تستخدم ثمارها وأوراقها لصباغة الشعر. وقد تزرع هذه الأشجار للانتفاع بأخشابها أو استخدامها كسياج للحدائق والمدن.

---

(١) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص (٣٨٠)، حضارة العراق (٥: ٢٧٤).

(٢) الحموي: معجم البلدان (٢: ٥١١). الإمارات الأرتقية (٤٣٣)، ندوة دور الموصل (٢٥٢).

(٣) المطبعي: رحلتي في شمال العراق ص (٢٠٠- ٢٠٥). غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر (٢٠٦). خليل: عماد الدين زنكي (١٠٤)، لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٢٨) ندوة في دور الموصل (٢٥٢). وعن أشجار السنديان والسماق والسرو انظر المنجد في اللغة والأعلام.

وهناك أصناف كثيرة من النباتات البرية كانت تستخدم ثمارها وأوراقها كأدوية، سواء كانت على صورة شراب أو دهان أو قطور، كما أن هناك نباتات أخرى تستخدم أليافها لصناعة الخيوط والحبال مثل القنب، ونباتات أخرى تصنع منها البسط والحصر كالقصب أو الحلفاء[١]. وعلى أشجار التوت تربى دودة القز التي تقوم بإنتاج خيوط حول شرانقها حماية لها، ومنها يتم صناعة نسيج الحرير[٢].

الثروة الحيوانية:

هناك ارتباط وثيق بين مهنة الزراعة وتربية الحيوانات، فكل منهما يكمل الآخر إضافة إلى وجود أراض رعوية واسعة منتشرة هنا وهناك في سهول وبراري إقليم الجزيرة الفراتية، مغطاة بالأعشاب والحشائش ترعى عليها قطعان كبيرة من الحيوانات الأليفة والبرية.

وتقدم تلك الحيوانات خدمات عديدة للإنسان بصفة عامة وللمزارع وزراعته بصفة خاصة[٣] قال الله (عز وجل) في ذلك: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

ومع أن الإسلام كره تربية الكلاب في المنازل إلا أنه استثنى من ذلك

---

(١) عن نباتي القنب والقصب انظر المنجد في اللغة والأعلام، متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٣٠٤).

(٢) دور الموصل ص (٢٥٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٤٧٣)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٣٤) وهامش (٢٠١).
خليل: الإمارات الأرتقية (٤٣٦)، غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر (٢٠٧- ٢٠٨).
حميدة: جغرافية الوطن العربي (٣٣٢)، دور الموصل (٢٥٤).

(٤) سورة النحل الآيات (٥-٨).

الكلاب التي تؤدي خدمات للزراعة وحراسة الغنم والصيد وقد جاء في الحديث الشريف قول رسول الله - ﷺ - «من أمسك كلباً فإنه ينقص كل يوم من عمله قيراطاً إلا كلب غنم أو حرث أو صيد»[1]. أما أهم الحيوانات التي كانت تُربى فهي:

١- الأغنام:

وتقسم إلى نوعين: العرق الكردي، ويمتاز بصوفه الخشن الطويل. والعرق العواسي وهو الشائع في غالبية الوطن العربي، ويمتاز بقصر شعره ونعومته وقابليته للتنقل في الظروف البيئية المحيطة به. وتُربّى الأغنام (الخراف) من قبل المزارعين والبدو وشبه البدو أي: في المناطق الزراعية والمناطق المحاذية لها ثم البيئة الرعوية (الصحاري)[2].

وبعد ذلك تأتي الماعز ويوجد منها ثلاثة أنواع: الأول ويعرف بالمرعزي، ويمتاز بشعره الناعم الطويل الذي يغلب عليه اللون الأسود وربما اللونان البني والأبيض. ويُربّى أكثر في المناطق الجبلية.

النوع الثاني: ويمتاز بشعره القصير ذي اللون الأسود.

أما النوع الثالث: صغير الحجم جميل شبيه بالغزلان في حركته وقفزاته حتى في طعم لحمه وطلاوته، وهذا النوع من الماعز يُربّى أيضاً في الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية عمان واليمن وفي الصومال وإريتريا ويربيه البدو مربو الجمال في البيئة الصحراوية الرملية[3] ويستفاد من الأغنام والماعز لحمها وحليبها ومنتجاته (من سمن وجبن) وأصوافها وجلودها وسمادها[4].

---

(١) صحيح البخاري (٣: ١٣٥).

(٢) حميدة: جغرافية الوطن العربي (٣٣٤)، عدة مؤلفين: العراق دراسة إقليمية (١: ١٣٨).

(٣) المطبعي: رحلتي إلى شمال العراق (١٩٧)، حميدة: جغرافية الوطن العربي (٣٣٥).

(٤) العراق: المرجع السابق (١٣٩- ١٤٠)، حميدة: المرجع السابق (٣٣٥).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٢٦).

وتربي الماعز في نفس البيئة التي تُربّى فيها الأغنام لكنه يتحمل العيش في البيئة الجافة والجبلية أكثر من الأغنام[1].

أما الأبقار فتُربّى في إقليم الجزيرة الفراتية، وهي صغيرة الحجم. وتعتبر أهم مصدر للألبان ومنتجاتها (من سمن وجبن) كما تعتبر لحومها أهم مصدر للحوم الحمراء. وتدخل جلودها بعد دباغتها في صناعة دلاء لرفع الماء من الآبار لري الزراعة. وبالإضافة إلى هذا فإنها تخدم العملية الزراعية كحراثة الحرث وجر المياه من الآبار (خاصة الثيران)، ويعتبر سمادها أهم مصدر للسماد الطبيعي للزراعة، وما ينطبق على البقر ينطبق أيضاً على الجاموس، لأنهما من فصيلة واحدة، إلا أن الجاموس أكبر حجماً وأكثر إنتاجاً[2].

وذكر آدم[3] متز أنها جلبت إلى المنطقة من الهند ثم حمل منها أكثر من أربعة آلاف رأس في العهد الأموي إلى حدود الدولة الإسلامية من قبل بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية للتصدي لهجوم السباع المتوحشة على حيوانات أهل البلاد لكون الجاموس أكبر عدو للأسود[4].

وأهم حيوانات النقل هي الإبل والخيل والبغال والحمير. وتأتي تربية الخيول في المرتبة الأولى من حيث اهتمامات أهل إقليم الجزيرة الفراتية بها ولا غرو في ذلك؛ لأن مدنه من مدن الثغور في العالم الإسلامي، فالخيل وسيلة المحارب والمدافع عن أرضه، وهي أيضاً زينة ووجاهة للمرء، ولممارسة هواية الفروسية ولعب الكرة والسباق في الميدان، ويمتلكها علية القوم وأثرياؤهم.

---

(١) العراق دراسة إقليمية (١: ١٣٨- ١٣٩). حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٣٨٧).

(٢) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٢٦).

(٣) متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٢٩١).

(٤) متز: الحضارة الإسلامية في ق ٤هـ، (٢: ٢٩١).

وقد حث الإسلام على تربيتها وركوبها، وينقل عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قوله: «علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل». ويعتبر إقليم الجزيرة الفراتية كما يقول المقدسي: «معدن الخيل العتاق». وكان أهل الموصل يمتلكون أجود أنواع الخيول فيقومون بتصديرها إلى بغداد وبلاد الشام[١].

أما الإبل فإنها تُربّى في براري إقليم الجزيرة الفراتية وأطراف مدنه؛ لذا ارتبطت أساساً بحياة البداوة والتنقل في الصحراء والمناطق الجافة لتحملها وصبرها، حتى سمي الجمل بسفينة الصحراء لتحمل السفر الطويل، وبالإضافة إلى أنها وسيلة للنقل والركوب فهي أيضاً وسيلة للسباق كما في الخيل ونقل المحاربين إلى المناطق البعيدة. وكذلك فإنها تمد الجمال العربية بصفة عامة بالسنام الواحد وبالذكاء المفرط[٢].

وتربى البغال والحمير في المدن والمناطق الزراعية، وبالإضافة إلى أنها وسيلة للنقل[٣] والركوب - بين مدينة وأخرى - فإنها وسيلة يستخدمها المزارع في أغراضه الزراعية من نقل للأتربة، والأسمدة ومواد البناء، ثم لنقل محاصيله الزراعية.

تربية الطيور (الدواجن):

ونعني بها الدجاج والبط والأوز وهي تربى من أجل الاستفادة من بيضها ولحمها، وأكثرها انتشاراً الدجاج الذي يربى على نطاق واسع[٤]. وكذلك كان يربى الحمام الزاجل من أجل حمل الرسائل السريعة ذات الطابع السري

---

(١) متز: المرج السابق (٢٩٣) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٢٦).

(٢) متز: المرجع السابق (٢٩٢)، عدة مؤلفين: العراق دراسة إقليمية (١: ١٤٠).

(٣) حميدة: المرجع السابق ص (٣٣٥).

(٤) عدة مؤلفين: العراق دراسة إقليمية (١: ١٤٦)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٣٨٧).

والعسكري[1]. وقد شاع استخدام الحمام في هذا الغرض زمن الحروب الصليبية على نطاق واسع وفي الحروب التي وقعت في إقليم الجزيرة الفراتية بصفة عامة في عصر الأراتقة والزنكيين والأيوبيين.

صيد الأسماك:

وكان للأسماك شأن كبير في إقليم الجزيرة الفراتية لارتباطها بحياة المزارع؛ وكونها قريبة من بيئته الزراعية حيث إنها وجدت في أنهار دجلة والفرات والخابور وفروعها العديدة في هذا الإقليم، وكانت بأعداد كبيرة وذات أحجام مختلفة، وقد وصف ابن جبير أسماك مدينة رأس العين بقوله: «ويصاد فيها سمك جليل من أطيب ما يكون من السمك»[2].

وكانت حرفة صيد الأسماك في غذائهم منذ القدم، وهي إن لم تكن أكثر من اللحوم فإنها موازية لها[3]. ويفيدنا الشيزري[4] بمعلومات قيمة عن الكيفية التي بواسطتها تصاد الأسماك من تلك الأنهار فذكر ثلاث طرق:

الطريقة الأولى:

بواسطة جرافة لها ثلاث أصابع من الحديد، ولها مقبض خشبي مربوط في نهايته بخيط طويل يمسكه الصياد بيده، وعند الصيد يجلس الصياد على حافة النهر، وعند رؤيته السمك يرميها بالجرافة فيجرفها إليه بواسطة الخيط.

الطريقة الثانية:

وتتم بواسطة عود خشبي في طرفه شوكة من حديد مدببة، وطرفه الآخر مربوط بخيط يمسكه الصياد بيده وعند الصيد ينزل الصياد إلى النهر، وعند مشاهدته سمكة يضربها بتلك الشوكة فإذا اخترقتها طلع من النهر وجذبها إلى

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٢٩٤).

(٢) رحلة ابن جبير (١٧٣).

(٣) العراق: المرجع السابق (١: ١٥١).

(٤) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار (١٨٦- ١٨٧).

الشاطئ ثم يخرج الشوكة من السمكة.

الطريقة الثالثة:

وتتم بأن ينزل الصياد إلى مياه النهر القريبة من الشاطئ فيبحث عن الأسماك بين شجيرات الصفصاف التي تنمو على الشاطئ، وعند رؤيته للسمكة يدخل أصابعه في خياشيمها فيأخذها ويخرج إلى الشاطئ(١).

ومن الواضح أنها طرق بدائية لصيد الأسماك، وتختلف عن الصيد في المياه المالحة (البحار) التي تستخدم فيها السنارات والسفن للصيد في عرض البحر. وربما يتعذر استخدام السفن هنا وذلك لضحالة مياه الأنهار والصخور في بعض الأماكن وشدة انحراف تيار مياه الأنهار وضيق مجراها في أماكن أخرى. وتفضل الأسماك العيش قريباً من شواطئ الأنهار للحصول على غذائها من النباتات والحشائش، وعلى الأسماك والديدان الصغيرة الموجودة هناك.

تربية نحل العسل:

ولما لعسل النحل من قيمة غذائية كبيرة حث الإسلام على الاهتمام به؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

وفي الحديث الشريف: «أن رجلا أتى النبي - ﷺ - فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: اسقه عسلاً، ثم أتى الثانية، فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً، فسقاه فبرئ»(٣).

ولأن إقليم الجزيرة الفراتية كثير الأشجار والبساتين والزهور والورود والمياه المنتشرة هنا وهناك: انتشرت تربية النحل وجني العسل الذي يدر على

---

(١) الشزري: كتاب الاعتبار (١٨٧).

(٢) سورة النحل الآيتان (٦٨، ٦٩).

(٣) صحيح البخاري (٧: ١٥٩).

العاملين في هذه الحرفة مورداً مالياً لا بأس به.

وأشهر مناطق إنتاجه: حران وجزيرة ابن عمر والموصل التي اشتهرت أكثر من غيرها بكثرة إنتاجه وجودته حتى إنه قدرت قيمة ضريبة الخراج عنه «بعشرين ألف رطل وعشرين ألف درهم» في وقت من الأوقات[1].

وكذلك انتشرت عادة صيد الطيور، فإذا كانت ممارستها هواية عند الملوك وكبار المسؤولين فإنها تعتبر عند عامة الناس مصدراً غذائياً ومالياً معقولاً. ومن الطيور البرية التي وجدت بذلك الإقليم الحمام والبط والحباري والدراج[2] وغيرها كثير، على مختلف الأنواع والأحجام.

---

(١) خليل: الإمارات الأرتقية ص (٤٣٦).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٠٥)، (٢٠٨).

(٢) دور الموصل في التراث العربي ص (٢٥٤).

الصناعة والفنون

حث ديننا الإسلامي الحنيف على العمل وبالذات اليدوي منه، وعلى إتقان الصناعة، ومن آيات القرآن الكريم الدالة على العمل في الصناعة قوله (عز وجل) عند ذكره للنبي داود (عليه السلام): ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾(1)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾(2).

وكما أشاد القرآن الكريم بالعمل والصناعة فإن الحديث النبوي الشريف سار على منواله، فقد قال رسول الله - ﷺ -(3) «ما أكل أحد طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود - كان يأكل من عمل يده»، وهذا حث على العمل اليدوي. ويعرف ابن خلدون الصناعة بقوله: «اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ولكونه عملياً فهو جسماني محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل؛ لأن المباراة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة. وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة. ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب، والبسيط: هو الذي يختص بالضروريات، والمركب: هو

(1) سورة الأنبياء آية (80).

(2) سورة الحديد آية (25).

(3) صحيح البخاري (3: 74).

الذي يكون للكماليات. . . ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل. . . ومن تلك الصنائع الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها».

وهذا التعريف قريب لما قال به الشيخ الغزالي[١] وأطلق عليه الأصول التي لا قوام للعالم بدونها، وسبق لنا الإشارة إليه عند حديثنا عن الزراعة فاستبدل ابن خلدون الأصول بالضروريات والمتممة للأصول بالكماليات.

الفنون:

الفنون جمع فن، وفي لسان العرب لابن منظور «الفن: الضرب من الشيء. . . يقال: رعينا فنون النبات وأصبنا فنون الأموال»، ويقول الرازي في مختار الصحاح: «ورجل متفنن» أي ذو فنون». وفي المنجد في اللغة والأعلام: «هو تطبيق الفنان معارفه على ما يتناوله من صور الطبيعة، فيرتفع به إلى مثل أعلى؛ تحقيقاً لفكرة أو عاطفة. الخ»[٢].

والصناعة مهنة قديمة في إقليم الجزيرة الفراتية أمتهنها أهله منذ عهد قديم حيث مارسوا كثيراً من المهن والحرف الصناعية، فكان للصناع أسواق ومحلات خاصة لكل نوع من أنواع الصناعات[٣]. وهناك عوامل ساعدت على قيام الصناعة وعلى نموها وازدهارها، ومن ذلك المواد الخام الأولية المتوفرة على أرض الإقليم كالثروة الزراعية والثروة الحيوانية والثروة المعدنية التي سبق ذكرها[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين (١: ١٢، ١٣).

(٢) انظر هذه المعاجم وغيرها مادة (ف ن ن).

(٣) بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٣٦١).
مجموعة باحثين: دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٧٧).

(٤) غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٠٨- ٢٠٩).

ثم الأيدي العاملة الماهرة التي بدونها لا تقوم صناعة ناجحة، فهناك كثير من البلدان تتوفر فيها المواد الخام الأولية لكن تنقصها اليد العاملة الماهرة فبالإضافة إلى ما بهذا الإقليم من هذه الأيدي أنضاف إليها في أواخر القرن السادس الهجري وبالذات في عام (٥٩٥هـ/١١٩٨م) مجموعة من أصحاب الصناعات والحرف الماهرين المصريين الذين قدموا إلى الموصل فنشروا صنائعهم وفنونهم فيها فكانوا عاملاً مساعداً في تنشيط الصناعة والفنون. وكذلك هاجر إليها بعض الصناع والبنائين من نصارى تكريت فنشروا فنهم كالتزيين بالجبس كصور زخرفية على المباني، والحفر على الخشب، فكانوا رافداً آخر في تقدم ورقي فن البناء وزخرفته[١]. كذلك يعتبر رأس المال - الذي يمول قيام مثل هذه الصناعات - عاملاً مهماً لا يستهان به، وهذا متوفر من قبل الحوافز والتشجيع المادي والمعنوي الذين يقدمهما ملوك وكبار مسؤولي وأغنياء هذا الإقليم[٢]. وقد عبر ابن خلدون[٣] عن ذلك بقوله: «إذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها... وإن الصنائع وإجادتها تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها؛ لأن الدولة هي السوق الأعظم وفيها نفاق كل شيء». وكل هذا لا يتم إذا لم يتوفر المناخ السياسي المستقر، وقد وجد مثل هذا الجو في غالبية الأحوال إلا في فترات سنتحدث عنها فيما بعد.

وهناك صناعات عديدة منها مطاحن ومعاصر للغلال تدار بواسطة تيار الأنهار والقنوات أو بالحيوانات فتنتج دقيقاً وزيوتاً نباتية، وصناعات أخرى حديدية وعطرية وزجاجية وجلدية[٤].

---

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل (٤٠٣)، الموصل في العهد الأتابكي (٤٥) الجميلي «الأتابكة الموصل (٣٠٤- ٣٠٥)».

(٢) الديوه جي الجميلي: المراجع السابق ذكرها ونفس الصفحات.

(٣) المقدمة: (٧١٨، ٧١٩).

(٤) من الصناعات الغذائية: فرز الأرز، زيت الزيتون والجبن والسكر والفواكه المجففة كالزبيب والبندق وغيرهما والمربى واللحم المقدد والفحم النباتي، ثم الصابون =

أهم الصناعات والفنون التي اشتهر بها إقليم الجزيرة الفراتية:

في كثير من الحالات لا نستطيع الفصل بين الصناعة والفنون؛ فهما صنوان يكمل أحدهما الآخر بحيث لا تقوم صناعة بدون فنون زخرفية، خاصة صناعة النسيج والتحف المعدنية والحلي والأواني الفخارية وأولى هذه الصناعات وأهمها النسيج التي تعتبر من أعرق الصناعات في إقليم الجزيرة الفراتية، وذلك لتوافر العوامل السابق ذكرها.

صناعة النسيج (الحياكة):

هي إسداء خيوط الغزل في الطول، وإلحام في العرض، وإحكام بالالتحام الشديد حتى يصير نسيجاً واحداً[(١)] وتنقسم صناعة النسيج إلى أربعة أنواع من المنسوجات، هي: القطنية، والحريرية، والصوفية، والكتانية وتأتي المنسوجات القطنية في المرتبة الأولى في الأهمية من حيث كثرة استعمالها من قبل كافة طبقات المجتمع ولدخولها في كثير من الثياب الصالحة لكافة فصول السنة. ولجودتها التي اشتهرت بها؛ كانت تصنع منها كميات كبيرة من مختلف الأصناف والألوان، منها على سبيل المثال: الشاش[(٢)] الموصلي، وهو نسيج رقيق كان يلبس كعمائم ثمينة في الصين. وفي العصر المغولي صدر إلى الخارج، لذا انتشر هذا الاسم، ولا زال يطلق على هذا النوع من النسيج

= والشموع والقطران والآلات الحديدية والسكاكين والسهام والسلاسل واللجم والموازين والمطارق ومستلزمات الزراعة وغيرها كثير. انظر: دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٧٧). دائرة المعارف الإسلامية، مادة: جزيرة أقور. الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٦٨- ٧٠).
صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص (٤٠٥- ٤٠٦). حضارة العراق (٥: ٢٧٧).

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٧٣٣)، سعاد: كتاب الفنون الإسلامية ص (٦٣- ٦٩).

(٢) تطلق كلمة شاش على تلك اللفائف الخفيفة التي تلف على العمليات والجروح في المستشفيات.
ابن خلدون: المقدمة ص (٧٣٣).

على الآن، كما تحاك منه الثياب الداخلية الرقيقة ومنه الثياب الملونة للرجال والنساء والأطفال[1].

المنسوجات الحريرية:

وهي تصنع من الحرير الخالص أو من الحرير والقطن، واختص بها الملوك والأثرياء؛ وذلك لغلاء ثمنها واشتهرت الموصل بها لجودة صناعتها فاتخذت لها الحواشي المقصبة وطرزت بالخط العربي، وزخرفت بالتوريقات والأغصان النباتية، وذلك بخيوط الذهب والفضة، وعرف عالمياً باسم الموسلين (Mosline) نسبة إلى الموصل، وبالسقلاطون (skerilat) حيث شاع لبسه في أوربا من قبل سادة القوم، وكان لونه غالباً وردياً[2].

المنسوجات الصوفية:

لا تقل صناعة الصوف جودة عن صناعة القطن والحرير، إضافة إلى تنوع استعمالاته من برد وعباءات وشالات رجالية ونسائية وجوارب سميكة مختلفة الأشكال والألوان وثياب شتوية، وأغطية ومفارش وسجادات للصلاة وسجادات وبسط أرضية مختلفة الأحجام والأنواع والألوان، وهي إما من الصوف الخالص أو يخلط معه خيوط من الحرير أو القطن وما يفرش على ظهر الحيوانات من خيل وجمال وغيرها وخيام الشعر التي تصنع من شعر الماعز

---

(١) الديوه جي: المرجع السابق (٤٨- ٥٠) وتاريخ الموصل (٤٠٣- ٤٠٥)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٣٠٤- ٣٠٦)، حضارة العراق (٩: ٢٧٥)، دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٧٨).

(٢) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي (٣١٨)، ديوه جي: تاريخ الموصل (٤٠٥) والموصل في العهد الأتابكي (٤٦- ٤٧)، زغلول: العمارة في دولة الإسلام (٤٣١)، ديوه جي: أعلام الصناع المواصلة (٤٢)، حضارة العراق (٩: ٢٧٤). ديماند: الفنون الإسلامية (٣٦٢، ٣٦٣).
العراق في التاريخ (٤٦٩، ٤٧٠).

وصوف الأغنام ووبر الجمال وتصبغ على شكل خطوط حمراء وبيضاء وسوداء، وتنصبها الجيوش في معسكراتها والبدو كمنازل لهم في الصحراء وغرائد من الشعر لحمل الغلال[١]، وبمدينة ماردين تصنع الثياب المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمرعز[٢].

المنسوجات الكتانية:

وأخيراً تأتي المنسوجات الكتانية التي استخدمت كأقمشة تحاك منها غالباً الثياب النسائية والستائر والأغطية والشراشف.

وعلى العموم تدخل المنسوجات إن كانت كل واحدة منها على حدة أو مخلوطة بأخرى أو مطرزة بخيوط من الفضة والذهب في الثياب الرجالية والنسائية وللأطفال وأثاث المنازل كالستائر والمناديل والطيالس والمخاد والمقاعد وما شاكلها بأحجام مختلفة وألوان متباينة. وتتم عملية النسيج هذه على مراحل تبدأ بعملية الغزل، وتسبق عملية الغزل دق وغسل وتنظيف الصوف والقطن والكتان. وتقوم النساء غالباً بعملية الغزل، ثم يتولى الرجال نسج تلك الخيوط المغزولة، ثم ينقل إلى النقاشين والصباغين لصبغه ورسم الأشكال الهندسية والأغصان والأوراق والزهور والثمار عليه[٣]. وكان اللون الأسود هو الذي تصبغ به الملابس الرسمية في الدولة العباسية؛ لكونه الشعار

---

(١) ديوه جي: تاريخ الموصل (٤٠٦) . و يصنع من الصوف نسيج سميك تعلم حواشيها بنقوش وجامات تسمى (جوجيم) ومفردها (جاجيم) ومثلها من القطن تسمى (إحرامات) ومفردها (إحرام). انظر أيضاً المؤلف: الموصل في العهد الأتابكي (٤٧)، وأعلام الصناع المواصلة ص (٤٨- ٥٠). دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٧٨- ١٧٩).

(٢) رحلة ابن بطوطة ص (١٥٩).

(٣) الديوه جي: أعلام الصناع المواصلة (٤٢- ٤٤). حضارة العراق (٥: ٢٨٢).
دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٧٨- ١٧٩).
بدري محمد: العراق في العصر العباسي الأخير ص (٣٦٦- ٣٦٧).

الرسمي للعباسيين بينما كان اللون الأخضر مفضلاً من قبل العلويين، في حين كانت النساء والأطفال والصوفية وغيرهم من عامة الناس يميلون إلى الألوان والنقوش الزخرفية الزاهية الألوان المختلفة المتمازجة خاصة في الحفلات المسائية، في حين يفضل المغنون والفنانون الملابس ذات اللون الأصفر المصبوغة بالزعفران.

وآخر عملية يمر بها النسيج هي تجزئته إلى قطع، ثم يباع للمشترين من تجار وغيرهم، وينقل كذلك إلى الأسواق الداخلية، وإلى خارج الإقليم لتصدير الفائض منه عن حاجة البلاد[1]. ولمعرفة مدى شيوع مهنة النساجة والحياكة في إقليم الجزيرة نأخذ كمثال ما وجد في مدينة الموصل، حيث كان فيها عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) تسعمائة وثمانية محلات تنتج خمسة وسبعين ألف جومة، فإذا كان معدل ما تنتجه الجومة الواحدة في اليوم خمسة أمتار فإن مجموع ما تنتجه مجتمعة ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألف متر[2].

صناعة التحف المعدنية:

صناعة التحف المعدنية من الصناعات القديمة في إقليم الجزيرة الفراتية، لكنها نشطت بصورة ملحوظة خلال فترة دراستنا هذه أي في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) وذلك لتوفر الشروط السابق ذكرها في قيام الصناعة وأهمها توفر معدن النحاس في منطقة الخابور[3] ولوجود الصناع المهرة فيه ولتشجيع ملوكه لمثل هذه التحف الثمينة بالحرص على اقتنائها.

---

(١) بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٣٦٦- ٣٦٧). حضارة العراق (٥: ٢٨١)، ديوه جي: أعلام الصناع المواصلة (٤٢) وأورد الديوه جي أسماء كثير من النساج.

(٢) ديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٤٨- ٤٩).

(٣) ن.م ص (٥١)، وتاريخ الموصل ص (٤٠٧)، سعاد: كتاب الفنون الإسلامية ص (١٣١). الجميلي: دولة الاتابكة في الموصل ص (٣٠٦).

واشتهرت مدينة الموصل بفضل صناعها[1] الذين أضافوا إلى ما ورثوه عن أسلافهم خبرة جيرانهم ببلاد فارس وأرمينية، ثم ابتكروا فناً جديداً من الزخرفة والنقوش والتكفيت أطلق عليه اسم «مدرسة الموصل» التي صارت قبلة مدارس هذا النوع من الفن.

وقد حرص الملوك والأمراء والأثرياء في المنطقة على اقتناء التحف لتزيين قصورهم وموائد طعامهم وشرابهم بها. وهكذا ظلت الموصل ممسكة بزمام هذه الصناعة طيلة فترة دراستنا حتى اجتاحها التتار بحروبهم المدمرة عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) فهاجر منها أكثر من سلم من الفنانين والصناع المهرة إلى بلاد الشام ومصر واليمن، ونشروا صناعتهم فيها، خاصة مصر التي كانت في منأى عن التتار ولتشجيع المماليك أيضاً[2].

وهناك أربع طرق لإنتاج التحف المعدنية:

١- **طريقة الترصيع**: فيها يُحفر النحاس ويرصع بالفضة، ويُطلَى غير المرصع بالقير، فتظهر عليه النقوش الفضية بوضوح.

٢- **طريقة الضغط**: وفيها تنقش الصور على ظاهر اللوح المعدني، ثم تضغط من الداخل فتظهر على سطح الإناء بارزة.

٣- **الجمع بين الطريقتين**: وفيها ترصع بعض أقسام التحفة المعدنية وتزين بعضها بصورة بارزة.

٤- **التكفيت بالذهب والفضة**: وقد أبدعت فيه مدرسة الموصل أيما إبداع حتى كادت تنفرد به عن غيرها، فصار ما يصنع بها مثالاً يحتذى به من قبل المدارس الأخرى، وكانت تحفها من أجمل التحف التي صنعت في تلك

---

(١) يورد سعيد الديوه جي في كتابه أعلام الصناع المواصلة أعداداً كبيرة من أسماء صناع التحف المعدنية الموصليين ص (٧٩: ١١٧).
نفس المؤلف تاريخ الموصل (٤٠٧). الموصل في العهد الأتابكي ص (٥١ - ٥٢).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٣٠٦- ٣٠٧).

(٢) سعاد: كتاب الفنون الإسلامية ص (٥٦).

الفترة وتحمل أسماء صناعها الموصليين؛ لذا نسب إليهم كل ما صنع من تحف البرونز والنحاس الأصفر المكفت بالذهب والفضة والنحاس الأحمر، وكان الطابع الموصلي يجمع بين الكتابة والصور الحية الناطقة، فكانوا يصورون حياة القصور على تحفهم المعدنية فيبدو فيها الملك وهو يحتسي الخمر، يحف به خدمه ومطربوه ومعهم القيثارات والأعواد والصنوج التي ترقص الفتيات على[1] أنغامها، أو منهمك في ممارسة هواية صيد الحيوانات المتوحشة والطيور البرية أو اللعب بالكرة والصولجان أو يخوض غمار معركة طاحنة مع أعدائه تظهره في صورة القوي المنتصر، كما صورت البروج الفلكية الاثني عشر والشمس والقمر.

وتحف هذه الصور أطر يكتب حولها بكتابات مختلفة بالخط الكوفي المشجر، وتكون داخل أطر مستقلة تفصل بين كل صورتين، أو تكون في شكل شريط يحف بالتحفة المعدنية.

وقد شاع في العصر السلجوقي وبعده رسم الحيوانات والصور الآدمية التي لم تكن موجودة من قبل. وكان يكتب على التحف اسم الصانع وتاريخ صنعه ومكانه ولمن صنعت وإذا كان هذا الصانع مغموراً يكتب اسم أستاذه أو شيخه «معلمه». وتتضمن تلك الكتابات كلمات الدعاء لمن صنعت له بالخير وطول العمر، كما ضمنت بالحكم والأمثال والإطراء والمديح. وكان يتعاون في إخراج هذه التحفة الفنية الرائعة مجموعة من الصناع الماهرين ابتداء من الصفار الذي يقوم بصنع التحفة وصقلها، ثم يتولى الأستاذ نقشها، ثم يقوم الحفار بحفر النقوش أو الصور، ثم يتولى المطعم ملء الحفر بالفضة والذهب لتظهر النقوش والصور والكتابات واضحة جلية.

---

(١) المرجع السابقة على التوالي نفس الصفحات.
ديماند: الفنون الإسلامية ص (١٥٢- ١٥٣).
حضارة العراق (٩: ٢٨٩- ٢٩٠)، سعاد: كتاب الفنون الإسلامية ص (١٣١- ١٣٤).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣١٣- ٣١٤).

ومن أهم تلك التحف التي كانت تصنع: القناديل والشمعدانات والمحابر والمباخر وأدوات المناضد والزهريات وغير ذلك من أدوات الزينة والحلي. وكانت تزين بزخارف نباتية من أوراق وأغصان وزهور وثمار وأشكال هندسية وصور أشخاص وملوك وكتابات بخطوط مختلفة، كما سبق القول. وكان بدر الدين لؤلؤ - الذي حل محل أسياده الأتابكة الزنكيين في الموصل - أكثر الملوك المشجعين لهذه الصناعة، فكان يجزل العطايا لأصحابها، وكان يرسل في كل عام - منذ بداية حكمه إلى أن توفي إلى مشهد الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) قنديلاً كبيراً مطعماً بالذهب[١] والفضة زنته ألف دينار، وشمعداناً مطعماً بالفضة والذهب مكتوبٌ عليه اسمه، حتى بلغت أربعين من كل منهما، أي عدد أعوام حكمه في الموصل (٦١٦- ٦٥٧هـ)[٢].

صناعة الخزف والفخار:

تعتبر صناعة الخزف والفخار من الصناعات القديمة المنتشرة في إقليم الجزيرة الفراتية؛ وذلك لتوفر المادة الخام بكثرة ولتعدد استعمالاتها في شتى الأغراض، منها: لإحضار الماء ولحفظه وتبريده كالجرار والحباب ذات الأحجام والأشكال المختلفة وأقداح وكؤوس الشرب وأواني الطبخ، وحفظ الأطعمة المختلفة الأحجام[٣].

وتمر صناعة الخزف والفخار بمرحلتين: الأولى بعد عجنه بالطينة

---

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٠٨- ٤٠٩).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٥٣- ٥٤).
حضارة العراق (٩: ٢٩٠- ٢٩١).
ديماند: الفنون الإسلامية ص (١٥٣).
سعاد: كتاب الفنون الإسلامية ص (١٣١).
(٢) ديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٠٩).
(٣) نفس المؤلف: الموصل في العهد الأتابكي ص (٦٤).
حضارة العراق (٥: ٢٩١).

الخاصة بها، يقوم صانعها بتشكيل هيكلها العام، وذلك بواسطة الدولاب الدوار، ثم يترك الإناء ليجف، وقبل جفافه تماماً يبدأ بالمرحلة الثانية، وهي مرحلة الزخرفة فيحفر في بدنه الرسوم والزخارف المطلوبة، ثم يحرقه حرقاً أولياً، وبعد ذلك يطليه بطبقة البطانة فيرسب جزء منه في الشقوق الحادثة من الحزّ؛ فتظهر وكأنها لون داكن من دهان البطانة[١].

أما الزخرفة الظاهرة التي تلصق على سطح الإناء فبعد أن يضع الخزاف الإناء، على محمل خشبي يبدأ بإضافة الصلصال أي القطع المراد وضع الزخرفة عليها، وتلصق بالإناء، ثم تبدأ رحلة الزخرفة النهائية بواسطة السكين والمقشط وبعض الآلات البسيطة التي تستخدم في التخريز أو التخريم أو التختيم.

وقد يستخدم الخزاف أظفر إبهامه في بعض أنواع النقوش، وبعد انتهاء زخرفة الإناء يترك ليجف في الظل، ثم يدخل في الفرن ليحرق[٢].

ثم تأتي بعد الزخرفة عملية طلاء الإناء بطبقة من الطلاء الزجاجي الشفاف، وهناك اختلاف واضح بين الخزف المحزوز تحت الدهان، وبين الخزف المحزوز تحت الطلاء الزجاجي الشفاف، فالأخير يتم حز الزخارف في الإناء بعد أن يُطلى بطبقة البطانة التي تتكون من دهان لون معين؛ لأن آلة الحز تزيل دهان البطانة وتصل إلى عجينة الإناء ذات اللون الأحمر الوردي فتبدو الزخارف في هذه الحالة وكأنها مرسومة بلون آخر، وعند إضافة طبقة الطلاء الزجاجي الشفاف تحافظ على اللونين، وهذا يسمى الخزف المحزوز تحت الطلاء، وكان يرسم على الإناء صور آدمية وطيور وحيوانات كالأسود والكباش والحمام وبعض الحيوانات الخرافية كما وجد رسم امرأة على رأسها وصدرها حليّ مختلفة[٣].

---

(١) سعاد: كتاب فنون الإسلام ص (٥١).

(٢) الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣٠٧- ٣٠٨)، حضارة العراق (٩: ٢٢٥).

(٣) سعاد: كتاب الفنون الإسلامية (٥١)، الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٦٤- ٦٥).

حضارة العراق (٩: ٢٢٥).

هذا وقد تعددت أنواع الفخار والخزف من حيث زخرفتها، فهناك الخزف ذو البريق المعدني والمرسوم فوق الدهان إن كان بلون واحدٍ أو بعدة ألوان، وكذلك الخزف ذو الزخارف المحفورة والمنقوشة.

ويعتبر ما أنتجه الخزفيون الموصليون - خلال فترة دراستنا وقبل الغزو التتري لها - في غاية الدقة والإتقان حيث شاع بها الخزف ذو الزخارف البارزة[1]، كما تعتبر مدينة الرقة الفراتية مركزاً مهماً لصناعة الخزف خلال فترة دراستنا؛ إذ وجدت بها أنواع عديدة مختلفة ذات البريق المعدني والزخارف المرسومة إن كانت أواني فخارية أو زخرفية وأباريق وسلطانيات وطاسات مختلفة الأحجام ذات الألوان البنية الداكنة، وهي من الألوان النادر استعمالها في المراكز الأخرى، وتزين بزخارف نباتية وكتابات نسخية وكوفية وأحياناً برسوم طيور محورة تحويراً كبيراً[2] بالبريق المعدني على طلاء شفاف مخضر، ويزيد في جماله إضافة اللون الأزرق الزهري إليه ورسوم بعض القطع في غاية الجمال، وتركت زخارفها النباتية والكتابية بيضاء أو دهنت بالبريق المعدني البني اللون وجمعت زخارف الأباريق الكبيرة بين البريق المعدني والزخارف البارزة.

وتعد بعض قطع خزف الرقة - المرسومة باللونين الأسود والأزرق - من روائع الخزف الإسلامي[3].

الصناعات الذهبية والفضية:

أهم صناعة قامت على الذهب والفضة كانت ضرب النقود (السكة)، وكانت تحمل اسم الأتابك إن كان زنكياً أو أرتقياً مع اسم السلطان السلجوقي

---

(١) سعاد: ن (٢٩٩- ٣٠١)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣١١).

(٢) ديماند: الفنون الإسلامي (١٩٥، ١٩٦)، زغلول: العمارة والفنون في دول الإسلام (٤٢٧).

(٣) ديماند: الفنون الإسلامية ص (١٩٧).

والخليفة العباسي المعاصرين له وشعار الإسلام، ولما انتهت السلطنة السلجوقية بقي اسم الخليفة العباسي مع اسم الأتابك إلا إذا خضعت تلك الأتابكية لنفوذ سلطة أقوى منها كما في العهد الأيوبي وغالباً ما كان يضرب في هذه الأتابكيات الدراهم الفضية، كما وجدت على بعض الدراهم صور آدمية. وقد دخل معدنا الذهب والفضة في صياغة الحلي وأدوات الزينة خاصةً النسائية، ونقش بعض المصنوعات والتخاريم الجميلة وكما مر بنا فإنهما دخلا في زخرفة بعض المنسوجات الحريرية والتحف المعدنية (عملية التكفيت بهما) وتطعيم الصناديق الخشبية الفاخرة وبعض المصنوعات الجلدية ومقابض السيوف كما دخل الذهب - بما عرف بماء الذهب - في كتابة بعض الآيات القرآنية الكريمة[1].

كذلك وجدت في قصور الملوك والأثرياء بعض المصنوعات والأدوات والأواني الذهبية والفضية من كؤوس الشراب وأطباق وشمعدانات وثريات مزينة إما بالفضة أو بالذهب وكان أهل الذمة - من نصارى ويهود - أشهر من عمل بالصياغة، وكان ربحهم منها موفوراً[2].

الصناعات الزجاجية وزخرفتها:

كانت هذه الصناعة متقدمة ومنتشرة، ولم تكن مقصورة على المدن الكبيرة، بل كانت موجودة حتى في بعض القرى الصغيرة، وصنعت منها أوانٍ وأدوات لمختلف الأغراض كالقناديل والسرج والأكواب في جميع الأحجام والألوان والقوارير الكبيرة والقناني الصغيرة[3].

وكان أجمل شيء في الصناعات الزجاجية هو زخرفتها بالتذهيب، وتتم

---

(١) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص (٤٠٥). حضارة العراق (٥: ٢٩١).
العراق في التاريخ ص (٤٧٠). الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٦٥).

(٢) بدري محمد: تاريخ العراق في العصر الأخير ص (٣٦٨).

(٣) بدري المرجع السابق: ص (٣٦١)، تاريخ العراق ص (٤٧٠)، حضارة العراق (٥: ٢٩٢)،

هذه العملية بواسطة الريشة لرسم الخطوط الزخرفية الخارجية، ثم تذهب المساحات الكبيرة، وبعد ذلك توضع الآنية الزجاجية في الفرن للمرة الأولى، ثم تحدد الموضوعات الزخرفية الرسم، وكان طلاء المينا نصف الشفاف يتكون من ذائب الرصاص، ثم يلون بالأكاسيد المعدنية التي يتم الحصول عليها كالآتي: اللون الأخضر من أكسيد النحاس، والأحمر من أكسيد الحديد، والأصفر من حامض «الأنتيمون». أما لون المينا الزرقاء- والتي لعبت دوراً مهمًّا في زخرفة التحف الزجاجية فيحصل عليه من سحق حجر اللازورد وخلطه مع مسحوق زجاج نقي لا لون له[1]. وهناك صناعات أخرى عديدة، كالصناعات الخشبية التي تصنع منها الأبواب والنوافذ وأثاث المنازل من مناضد وأسرة ومقاعد وصناديق خشبية فاخرة -لحفظ الملابس - والنقود، والسفن، والقوارب النهرية.

مطاحن الغلال:

وهي عجلات من الخشب والحديد لطحن الغلال[2].

الصناعات الجلدية:

تسبقها عملية الدباغة، وهي إزالة الشعر من الجلود[3].

---

(١) حضارة العراق: (٩: ٣٥٩).

(٢) تصنع مطاحن أو طواحين الغلال من عجلات الخشب والحديد ثم توضع في شلال نهري وتربط بسلاسل حديد موصولة بحجرتي الرحى فيدير التيار المائي أو الهوائي - إذا لم يوجد الماء - العجلة التي بدورانها تدير الرحى. انظر الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٦٨- ٦٩)، حضارة العراق (٥: ٢٨٩) وعن النجارة: انظر مقدمة ابن خلدون ص (٧٣١، ٧٣٢).

(٣) لدباغة الجلود يستخدم قشر الرمان لإزالة الشعر. وانظر عن الصناعات الجلدية: حضارة العراق (٥: ٢٩٤)، بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٣٧١).

ومن الصناعات الجلدية الأحذية والنعال والسيور والأحزمة والحقائب التي تحمل فيها النقود، والقرب التي تحمل فيها المياه في السفر والترحال، وتستخدم أيضاً لتبريد المياه والصغيرة منها يوضع فيها السمن والمواد السائلة كالعسل والزيوت النباتية.

صناعة مواد البناء:

كالطوب الذي صنع من اللبن والتبن أو من الآجر اللبن المحروق والجص والنورة التي صنعت من أحجار كلسية بعد طحنها وإذابتها في الماء.

وقد ازدهرت هذه الصناعة لكثرة الحاجة إليها، وذلك لتواكب الحركة العمرانية التي شهدها الإقليم خلال فترة دراستنا من بناء القصور والمساجد والمدارس حيث تسابق الملوك والأمراء في تخليد ذكراهم بإقامة بعض هذه العمائر أو واحد منها على الأقل، ثم تزين وتزخرف بالرخام وبالقاشاني والفسيفساء، وكانت غالبية عمائر ومباني الموصل ذات قباب لا يستخدم الخشب في تسقيفها[١].

الصناعات القائمة على المنتجات الزراعية:

وأهمها تلك التي تعين الفلاح في عمله، كالحبال والسلال وغيرها لنقل الأتربة والسماد والمحاصيل الزراعية أو كأثاث لمنزله كالحصر أو البسط وغيرها.

ومن هذه الصناعات صناعة السكر، إذ كان يعصر قصب السكر ثم يغلي حتى تجف المياه منه، ثم يوضع في مكان بارد ليجف تماماً ثم يقطع على قطع فيحمل للأسواق أو يطحن ويوضع في أكياس ليسهل نقله[٢].

---

(١) حضارة العراق (٥: ٢٩٢)، معجم العالم الإسلامي ص (١٤٧).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٣٣٣).
بدري محمد: م السابق ص (٣٧٣).

(٢) عن صناعة السكر: انظر الحارثي عبد الله بن ناصر، عمان في عهد بني نبهان =

أما الصابون، فيتم تصنيعه من زيت الزيتون الذي تنتشر أشجاره في مناطق عدة من إقليم الجزيرة الفراتية، وكذلك صنع ماء الورد، وكانت مدينة نصيبين أهم مدينة لصناعته، فكان في غاية الجودة والطيب[1].

الصناعات القائمة على القير والنفط والكبريت:

وقد وجدت حقوله في إقليم الجزيرة الفراتية، خاصة منطقة الموصل وما حولها، وسبق أن تحدثنا عنه عند حديثنا عن الموارد الطبيعية. ويستعمل القير أو النفط للوقود وللدهان، بينما يستخدم الكبريت في عدة صناعات كعامل مساعد[2].

= الأحوال السياسية والأوضاع الاقتصادية دراسة تاريخية، ٢٤٤- ٢٤٥.

(١) رحلة ابن بطوطة ص (١٥٨).
بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٣٧٣).
حضارة العراق (٥: ٢٨٩).

(٢) رحلة ابن جبير ص (١٦٦).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٣٧١).
حضارة العراق نفس المكان.

الفنون

وإذا ركزنا على الجانب الجمالي الحسي في بعض الصناعات، وهو ما يعرف باسم الجانب الفني، نجد أن الفنون وليدة مشاعر الأمم واحتياجاتها ومعتقداتها. وهي تنقسم إلى:

فنون كبرى:

وأبرزها فن العمارة، ويتمثل في المساجد والمدارس والقصور والقلاع وغيرها من المنشآت المعمارية.

وفنون صغرى:

وهي ما يطلق عليها الفنون الجميلة، وتنقسم بدورها إلى قسمين[(١)]:

الأول: ويسمى الفنون التشكيلية (المحسوسة)، ويتمثل في الحفر والنحت والتصوير والتمثيل.

الثاني: ويسمى الفنون الخيالية (غير المحسوسة) كالشعر

---

(١) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢١٦).

يعرف غوستاف الفنون الجميلة بأنها الشيء الجميل الذي يستلذه أكثر أبناء الأمة الواحدة في زمن معين. غوستان: حضارة العرب: (٥٥- ٥٠٦).

زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام ص (٤٠٥- ٤٠٦).

والموسيقى[١]. وستتناول في دراستنا بعضاً من هذه الفنون، وهي الفنون التشكيلية كالحفر والنحت والتصوير.

وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الفنون، عند حديثنا عن صناعة النسيج والتحف المعدنية ومع أن فترة دراستنا هذه قد اعتبرت في بدايتها من العهد السلجوقي وفي نهايتها من العهد المغولي التتري إلا أن فناني القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) لم يبدأوا في علم فنونهم من الصفر؛ لذا يعتبر الفن السلجوقي امتداداً لفن الدولة العباسية المتأثر بالفن الفارسي. ومع أن السلاجقة من الشعوب التركية البدوية رعاة الخيل المحاربين القادمين من أواسط آسيا[٢] إلا أنهم أظهروا ميلاً غريزياً إلى الفنون الحضرية، فأحبوا الفنون الجميلة ورعوا الفنانين وحموا أهل الحرف والصناعات فيها، الأمر الذي أدى إلى أن أصبح عهدهم من أزهى عصور ازدهار الفنون الإسلامية. ففي مجال العمارة بالغوا في استخدام الأواوين في المدارس والمساجد والأضرحة والمنشآت الحربية وبيوت الخاصة والعامة، كما اهتموا بالواجهات الفخمة والبوابات والمآذن العالية والقباب المرتفعة، ولكون السلاجقة من أتباع المذهب السني المتشددين له كان لهم الفضل في نشر المدارس لمناهضة التشيع، كما أقاموا الأضرحة، وذلك لتشجيع الطرق الصوفية وتقريب مشايخها اكتساباً لرضاء الأمة.

وكان للسلاجقة وأتباعهم الذين خلفوهم - كالأراتقة والزنكيين - دور كبير في مجال الفنون الصغرى والحرف كالنحت والحفر في الخشب وغيرها في إقليم الجزيرة الفراتية[٣].

أما العهد التتري الذي امتد من سنة (٦٥٦- ٧٥٠هـ/١٢٥٨- ١٣٤٩م)

---

(١) زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢١٦).
غوستاف: حضارة العرب ص (٥٠٦).

(٢) زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام ص (٤٠٥).

(٣) زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام ص (٤٠٥، ٤٠٦).

أي بعد قضاء التتار على الخلافة العباسية فقد اتصف بالشدة والقسوة وبتدمير معالم الحضارة في المناطق التي اكتسحوها ومن ضمنها بغداد وإقليم الجزيرة الفراتية.

ونظراً لتغير الحكام وأنظمة الحكم الإسلامية تغيرت العادات والتقاليد والطرز الفنية؛ لذا ظهر الفن المغولي التتري المتأثر بالحضارة والثقافة والفن الصيني بصفة خاصة[1]، لأن التتار لما قدموا إلى هذه المناطق أحضروا معهم عمالاً وصناعاً وكتاباً ومترجمين صينيين، لذا ظهر تأثير مدرسة المغول الفنية التصويرية أي رسم وتصوير ذات الروح كالصور الآدمية والحيوانية - وهذا بالطبع يخالف تعاليم الإسلام في ذلك - وكانت الحروب والمعارك موضوع غالبية تلك اللوحات الفنية لتظهر فروسية وشجاعة التتار القادمين من وسط وغرب آسيا[2]. وحرص الفنان في ذلك العهد على أن تشغل الرسوم الآدمية حيزاً كبيراً وكان يرسمها بمقاسات كبيرة بحيث يبدأ القدم من مقدمة الصورة، وينتهي رأسه عند الإطار العلوي. ويتجلى التأثير الصيني المغولي واضحاً في وجوه الأشخاص، وخاصة العين المغولية الواسعة والمنحرفة[3].

الفنون الزخرفية:

كان للبنائين التكريتيين في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) دورٌ بارز في تطوير فن زخرفة الجبس، إذ كانوا يتقنون هذا الفن، وبفضلهم انتشر في إقليم الجزيرة الفراتية حتى صار من عناصر الزخرفة الرئيسية في المباني داخلياً وعلى واجهات الأواوين والدهاليز وحول الأبواب والشبابيك، وفيها تم المزج بين الزخارف العربية الموجودة بسامراء - من

---

(١) سعاد: كتاب الفنون الإسلامية ص (٢٣٥).

(٢) زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام ص (٤٣٤).

(٣) ديماند: الفنون الإسلامية (٤٥)، سعاد: كتاب الفنون الإسلامية ص (١، ٢، ٢، ٢، ٢٣٥، ٢٣٦).

نباتية وهندسية- والزخارف السلجوقية المتمثلة في الرسوم الحيوانية والنباتية[١].

وقد تدخل الفنان ليظهر لوحة فنية رائعة، وخير مثال لها محراب جامع مجاهد الدين قايماز في الموصل، فالزخارف التي على المحراب تتكون من زخارف نباتية تتخللها صور حيوانات وطيور كالأسد والغزال والحمام متداخلة مع غيرها من الزخارف بصورة دقيقة، وهي بارزة في مستوى واحد. كذلك وجد في بعض الكنائس والأديرة تماثيل من الجبس للقديسين الذين بنيت الكنائس تخليداً لذكراهم، وفي دير الجب تمثال من الجبس لماربهنام في داخل الكنيسة، ويقابله على الجدار الثاني تمثال لأخته سارا، وهما من صنع التكريتيين وفي الرواق الشمالي من بقايا قصر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (قره سراي) على ارتفاع أربعة أمتار إفريز داخله دوائر صغيرة، بها تماثيل حصية يظهر فيها التأثير البوذي الصيني المغولي وتمثل جنوداً عليهم أزياء الجنود في العهد الأتابكي تداخلت مع زخارف كتابية وهندسية، كذلك وجد - فوق محراب الجامع النوري بالموصل - قطعة من الجبس عليها زخارف جميلة متداخلة فيها الكتابات والزخارف بصورة دقيقة، وفيها أشكال فنية رائعة. كذلك وجد بمقام السيدة زينب في سنجار زخارف كثيرة متنوعة من الجبس والجصّ، وتم تزيين الجدران بألواح متناظرة فيها كتابات تؤرخ متى تم هذا البناء وتكون الكتابة على شكل شريط يحيط بتلك الجدران[٢].

---

(١) ديوه جي: تاريخ الموصل (٤١٤)، الموصل في العهد الأتابكي ص (٦٠).
حضارة العراق (٩: ٤٠٢).

(٢) زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام (٤٢١ - ٤٢٢).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣٠٨ - ٣٠٩).
ديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٦٠- ٦١). تاريخ الموصل ص (٤١٤- ٤١٥).

زخرفة الآجر:

أما زخرفة الآجر فقد شهدت تطوراً كبيراً خلال فترة دراستنا وخير مثال على ذلك زخارف مئذنة مسجد قطب الدين مودود في سنجار وقد بنيت في عام (٥٥٩هـ/١١٦٣م)، وفي مئذنة الجامع النوري في الموصل المسماة الحدباء الذي بناه نور الدين محمود عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م) فتغطى المئذنة كلها تقريباً بزخارف على شكل أطواق تحيط بها، من قاعدتها إلى أعلاها[١].

وتتم الزخرفة على شكل الأطباق النجمية وهي قطع من الآجر تثبت في واجهات المباني، وهي ذات أشكال سداسية، أو متوازية الأضلاع، أو معينات، أو مثلثات، أو نجوم كما في المئذنتين المذكورتين، ثم ظهر الحفر على الآجر بزخارف نباتية وهندسية على الإطار الخارجي.

وفي الموصل استخدم الآجر المزيج ذو اللون الأزرق الفاتح لتزيين القباب من الخارج، كما في القبتين الخارجيتين لمشهدي الإمامين: يحيى بن القاسم وعون الدين. وكانت ترسم على ألواح الآجر صور حيوانية بارزة، كما في كنيسة دير الجب التي توجد فيها لوحة جميلة تمثل غزلاناً بارزة ملونة باللون الأبيض تحيط بها أرضية زرقاء، وكذلك زينت المنابر والقبب والمحاريب وغيرها. وبشيوع استخدام الرخام - لسهولة الحفر عليه - جعل الصناع يميلون إليه بدلاً من الآجر[٢].

الزخرفة على الرخام (المرمر):

نظراً لتوفر مادة الرخام بكثرة في إقليم الجزيرة الفراتية - وبصفة خاصة في الموصل - صار مادة أساسية في البناء. وشاع استخدامه أكثر من الخشب ومن الآجر؛ وذلك لسهولة قطعه وطواعيته؛ لذا فضله الحفارون، فاستخدموه

---

(١) حضارة العراق (٩: ٤١٠- ٤١١).

(٢) ديماند: الفنون الإسلامية ص (١٠٠- ١٠١)، حضارة العراق (٩: ٤١١- ٤١٣)، ديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي (٦٥-٦٦).

في المحاريب، والأقواس، والمداخل، وكأطر للشبابيك، وغطوا به أعمدة وحيطان منازلهم ومساجدهم، خاصة عند أحواض وأماكن الوضوء.

ويعد شريط المدرسة النورية - التي بناها نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود الأتابكي صاحب الموصل (٥٨٦ - ٦٠٧هـ/ ١١٩٣- ١٢١٠م)- من أندر النماذج الرخامية المزينة بزخارف هندسية.

كذلك طعمت الزخارف الرخامية البيضاء على الأرضية الزرقاء بأسلوب رائع يدهش النظر إليها، بحيث لا يمكنه التفريق بينها وبين الأرضية التي وضعت عليها إلا باختلاف لون الرخام، وهذا الفن شبيهٌ بطريقة الموزاييك الحديثة[(١)].

وأحسن تحفة فنية رخامية من العهد الأتابكي هو محراب الجامع السابق ذكره؛ فزخارفه فاخرة متشابكة حفر ما حولها حيث تفنن الصانع فجعل الزخارف بعضها أكثر عمقاً من التي تليها[(٢)] حتى تصل إلى عمق أربعة سم، فتصير بذلك قطعة فنية رائعة، مما جعل صانعي المحاريب اللاحقين يقلدون صناعته، لكنهاجاءت أقل منه إبداعاً. ومن أمثلة ذلك محراب ابن الحسن ويحيى بن القاسم، ووجد ما يشبه المحراب في كنيسة دير الجب في صدر الأروقة التي أمام الكنيسة[(٣)].

وهناك كتابات كثيرة نقشت على لوحات رخامية، وأهمها تلك التي وجدت في الأجزاء الباقية من قصر بدر الدين لؤلؤ المعروف بـ«قره سراي» أي: دار المملكة - والذي بني عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) على نهر دجلة بمدينة الموصل، وهناك الكثير من النقوش الزخرفية والكتابية بأحرف بارزة فاخرة

---

(١) رحلة ابن جبير ص (١٦٧- ١٦٨)، الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣٠٩).

حضارة العراق ص (٤٢٤)، دور الموصل في التراث العربي ص (١٤٠).

(٢) ديوه جي: المرجع السابق ص (٦٢، ٦٣).

(٣) ديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٦٢، ٦٣).

على الرخام وجدت في الموصل وسنجار وتل عفر وغيرها من الأماكن في إقليم الجزيرة الفراتية[١].

وتكون أرضية الكتابة إما مورقة أو خالية من التوريق، ويجعلون الكتابات حول الأبواب والمحاريب والأروقة والشبابيك، وكانت الكتابات بالخط الكوفي المربع - أو المثلث - مكتوبةً على أرضية غنية بأزهار وأوراق فاخرة، وتنتهي حروفها بتفريعات نباتية مورقة.

ونحتت صور لأسود وحيوانات مفترسة وأفاع وطواويس وحمام وحيوانات خرافية - تكون فوق الأبواب - كما في أبواب الموصل وفي كنائسها يستعيضون صورة عن الحيتين اللتين غالباً ما تكون حول الباب بصورة إنسان يطعن التنين بالرمح[٢]. وهناك لوحات عديدة من الرخام لا نستطيع الإلمام بها، وما ذكرناه أمثلة لنماذج منها.

الزخارف الخشبية:

ولتوفر الأخشاب بكثرة في إقليم الجزيرة الفراتية دخل الخشب كمادة خام في الصناعات الخشبية التي سبق ذكرها، كما دخل في مواد البناء وفي الحفر عليه كأحد فنون الزخرفة الفنية. وقام الفنانون والنجارون بتطعيم المصنوعات الخشبية بأصداف وبأخشاب ذات ألوان مختلفة عن الأخشاب التي صنعت منها، وكانت تظهر على اللوحات الخشبية زخارف غائرة، وبعضها بارزةٌ تحيط بها، ويكون داخلها زخارف دقيقة للغاية، كما في باب مسجد النبي جرجس في الموصل[٣].

ومن التحف الخشبية الرائعة منبر مسجد قلعة العمادية بالموصل، وهو

---

(١) حضارة العراق (٩: ٤٢٤).

(٢) الديوه جي: المرجع السابق ص (٦٣، ٦٤)، تاريخ الموصل ص (٤١١- ٤١٣).

(٣) الديوه جي: المرجعان السابقان ص (٦١)، (٤١٩).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣٠٩).

مصنوع من خشب الأثل، ويتكون من عوارض وقوائم بينها حشوات مستطيلة ومربعة، أو في شكل ربع نجمة سداسية، وتمت زخرفته بأشكال هندسية وتفريعات نباتية تنتهي بمراوح نخيلية كاملة أو أنصاف مراوح إضافة إلى بعض الثمار كالرمان، وهو من صنع علي بن أبي النهى وإبراهيم بن جامع، وعلي بن سلامة الجزريين (نسبة إلى جزيرة ابن عمر)، وذلك في عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)[١].

وهناك العديد من صناديق الأضرحة في المشاهد التي أقامها بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لأسرة آل البيت عليها كتابات بالخط الكوفي المشجر بارزة على أرضية مغطاة بتفريعات نباتية، كما وجدت لوحات خشبية كثيرة عليها زخارف هندسية وأبواب خشبية مغطاة بصفائح نحاسية محلاة بأشرطة حديدية في شكل هندسي جميل، أمر بصنعها بدر الدين لؤلؤ عام (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) لمشهد الإمام ابن الحسن[٢].

زخرفة الكتب:

ويقصد بذلك ما عرف باسم تزويق الكتب، والتزويق لغة: التجميل والتحلية من أجل زيادة جاذبية الشيء لعين الناظر، ويسمى المشتغل بها: المزوق[٣].

وقد بدأ هذا الفن بالرغبة بالعناية بالقرآن الكريم كتاب الله الخالد، حيث تسابق الملوك وحكام الأقاليم ورجال العلم والدين والفن معاً إلى نسخ القرآن الكريم بخط جميل منمق وزخرفة بديعة، فاختاروا لهذا الفن الجليل أمهر الخطاطين وأشهرهم.

---

(١) حضارة العراق (٩: ٣٣٦، ٣٣٨).

(٢) ديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٦٢)، وتاريخ الموصل ص (٤١٩-٤٢٠).

(٣) تزويق الكتب: أي تحسينها وتجميلها. انظر حضارة العراق (٩: ٤٦٩).

وإلى جانب النسخ ارتقت الفنون المتصلة بتنميق المصحف الشريف كفن الزخرفة بالألوان الزاهية البديعة، وفن تزيين الكتب، وفن التذهيب، وفن التجليد، حتى وصلت هذه الفنون خلال فترة دراستنا إلى أرقى درجات تطورها وتقدمها، وساعد على ذلك تعدد أنواع الخطوط، حتى بلغت سبعين نوعاً كانت عاملاً أساسياً في رقي فن[1] الزخرفة الإسلامية؛ وذلك لما امتازت به حروف الخط العربي من الحيوية؛ بفضل ما فيها من المرونة والمطاوعة للمد والرجع والاستدارة والتشابك والتداخل وغيرها من الحركات مما هيأ لها فرص التطور والزخرفة بطرق وأساليب شتى.

وقد كتبت الحروف العربية بمئات الهيئات حتى إن حرف الهاء وحده كتب بتسعمائة شكل مختلف، كما تفرع من الخط المزوي عدة أشكال وهيئات متنوعة، منها: الخط الكوفي البسيط، والكوفي المقور، والكوفي المزهر، والكوفي المجدول، والكوفي المربع. ومن الخط الكوفي المقور استنبطت عدة خطوط متميزة اندثر بعضها وبقي بعضها، ومن ذلك خط النسخ، والثلث والتوقيع، والتعليق، والديواني، والهمايوني، والطغراء، والرقعة[2] وبلغ هذا الخط الكوفي الذروة - كخط زخرفي - خلال فترة دراستنا، حيث انتهت حروفه بزخارف نباتية بديعة، وازدهرت أرضية لوحاته الفنية، فمدت عليها الحروف بوريدات وتفريعات مذهبة. وفي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ظهر خط التعليق الذي تميل حروفه من اليمين إلى اليسار، واتجاهها من أعلى إلى أسفل[3] وقد زخرفت الخطوط على شكل مستطيلات ومربعات ودوائر وأشكال الثمار والحيوانات، وكان الفنان يعطي كل حرف حقه من نسبه

---

(١) حسين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٨٧).
زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام (٤٣١- ٤٣٢).
الفنون الإسلامية ص (٦٤- ٦٥).
عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (١: ٢٩).

(٢) عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (١: ٢٩).

(٣) زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام ص (٤٣١- ٤٣٢).

وانسجامه مع بقية الحروف الأخرى والترتيب في التنسيق؛ لتكون قراءتها واضحة، وغالباً ما تكون بداية الحروف من أسفل لتأخذ القوائم حقها من الطول، وللفظ الجلالة وأسماء الله الحسنى المكانة العليا، تقديساً لها[1].

وقد نشطت زخرفة الكتب وتزويقها في إقليم الجزيرة الفراتية حيث زينت الكتب بمختلف الزخارف النباتية المزهرة والزخارف الهندسية الدقيقة حتى صارت للموصل مدرستها التي عرفت بها في التصوير، وبلغت من الأهمية أن نسب إليها علماء الآثار والفنون بعض الكتب المخطوطة التي لم يذكر عليها اسم ناسخها[2].

وأهم شيء في تزويق الكتابة وتحليتها هو كتابتها بماء الذهب حيث عرف بالتذهيب الذي ارتبط في أول نشأته بنسخ القرآن الكريم، ثم توسع الأمر ليشمل المخطوطات الأخرى، حيث نالت الصفحات الأولى منها عناية المزخرفين والمذهبين، فزخرفت أجزاؤها العليا بعناصر نباتية وهندسية ملونة ومذهبة، وكذلك زخرفت الحواشي وبدايات الفصول والأبواب[3].

كما تفنن المزخرفون في تزويق وجه المخطوطات فقسم إلى ثلاث مساحات: شريطان في الأعلى والأسفل، ودائرة في الوسط، ويكتب عنوان المخطوط في الشريط الأعلى، واسم المؤلف في الدائرة الوسطى، ومن المتبع أن يكمل اسم المؤلف والعنوان في الشريط الأسفل.

وإذا كان المخطوط في خزانة كتب يكتب عليه اسم صاحب الخزانة الذي أهدي إليه الكتاب بعبارات معينة في دوائر وسطية، وتكون هذه الكتابة بالماء الذهبي أو بالألوان، ويحلى الوجه بعناصر زخرفية هندسية ونباتية وبماء الذهب وبالألوان المختلفة، وكذلك حليت صفحات بعض المخطوطات بحلية

(١) ندوة: الفنون الإسلامية ص (٦٤)، (١٢٣).

(٢) ديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤١٦).

(٣) حضارة العراق (٩: ٤٦١- ٤٦٢).

مجموعة من الباحثين، العراق في التاريخ ص (٥١٩).

زخرفية مماثلة، كما زخرفت الصفحات الداخلية من المخطوطة وشملت الحواشي. وفي بعض المخطوطات تخللت الزخارف الفراغات بين السطور دون أن تؤثر على الكتابة[١].

وتعتبر مدرسة إقليم الجزيرة الفراتية - التي عرفت بمدرسة ما بين النهرين - مدرسة الرسوم التوضيحية؛ وذلك لتداخل رسومها مع الكتابة (النص الموضح) وظهورها كجزء منها، وإذا أراد المزوق أن يجمع أكثر من منظر في منمنمة واحدة فإنه يلجأ إلى وضع المناظر إلى جانب بعضها أو صفها بطريقة عمودية، وهي إحدى السمات المميزة في رسوم هذه المدرسة.

وتعطينا هذه المدرسة صورة عن الحياة الاجتماعية، فنعرف من خلال منمنماتها التقاليد والعادات والقيم والملابس والآلات والأدوات المستعملة حينذاك، فنرى فيها احتفالات برؤية هلال العيد، والأعياد، والأعراس، والختان، ومناظر دفن الموتى، ومجالس الطرب والشراب، وتعرفنا حياة الناس اليومية في المسجد والحقل والخان والصحراء. وكذلك صورت وسائل النقل من حيوانات وسفن، والأدوات المستخدمة في تحضير الأدوية وغيرها، فكانت وثائق معبرة عن الحياة اليومية، في البيت والشارع والقصر والصيدلية وأماكن كثيرة لم يعطها المؤرخون اهتمامهم[٢].

وقد حرص الناس - خاصة العلماء والملوك والأثرياء - على تجليد المخطوطات الهامة لصيانتها؛ لذا انتعش فن تجليد الكتب في إقليم الجزيرة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أي: في النصف الثاني من فترة دراستنا، فاستعين بأحسن وأمهر المجلدين لتجليد القرآن الكريم وغيره من المخطوطات الهامة ككتب الحديث الشريف والفقه؛ لحفظها من التلف ولإعطائها لمسات جمالية؛ وذلك بزخرفتها وتزويقها بتشكيلات في غاية

---

(١) حضارة العراق (٩: ٤٦٢- ٤٦٤).

(٢) زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام ص (٤٣٣، ٤٣٤).
حضارة العراق (٩: ٤٧٢، ٤٧٣).

الإتقان والجودة[1]، وطعمت أغلفتها بالذهب والفضة والألوان الزاهية.

ومن النقاشين الذين تفوقوا في التزويق والنقش والرسم وتذهيب الكتابة في إقليم الجزيرة نذكر:

١- أحمد بن نوران بن سنقرين عبد الله الموصلي النقاش(ت ٥٩٦هـ):

الذي وصف بأنه فاق أهل زمانه.

٢- الأمير عز الدين مسعود البرسقي صاحب الموصل[2] (ت ٥٢٠ - ٥٢١هـ):

اشتهر بالنقش والرسم وكان يتخذ علامات سرية بينه وبين نائبه في حلب عبارة عن صورة غزال مع التوقيع.

٣- عمر بن علي بن المبارك الموصلي (عاش في القرن السابع الهجري):

وقام بتزويق نسخة من مقامات الحريري، ورسم فيها إحدى وثلاثين صورة جميلة، ونسخة أخرى بها أربع وثمانون صورة جميلة.

٤- محمد بن أبي طالب البدري:

الذي نسخ كتاب الأغاني في عام (٦١٤هـ) - تأليف أبي الفرج الأصفهاني - لبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

٥- أبو الدر ياقوت بن عبد الله الموصلي أمين الدولة (ت ٦١٨هـ):

اشتهر بجودة الخط والتزويق، حتى إنه في آخر زمانه لم يوجد من يقارنه في حسن الخط، وقصده الناس مع اختلاف بلدانهم، وأخذوا عنه، ونسخ عدة نسخ من قاموس الصحاح للجوهري.

---

(١) حضارة العراق (٩: ٤١٧، ٤١٨).
العراق في التاريخ ص (٥١٩).
ديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي (٦٧).

(٢) ديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤١٦- ٤١٧).

٦- البطريارك ميخائيل الكبير (ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م):

أجاد التزويق بماء الذهب والفضة، ونسخ الإنجيل وزوق جلده بالفضة.

٧- أبو يوسف بهنام بن موسى بن يوسف الموصلي (عاش في القرن السادس الهجري):

من الرسامين المشهورين، نسخ كتاب الحشائش وخواص العقاقير لديسقوريدس، وتحتوي المخطوطة على (٢٤٤ورقة) وزين جلدها برسوم هندسية ونباتية، وتم تزويقها بصور لنباتات وحيوانات وثلاثة طيور وديباجة الإهداء وصورة المؤلف وأخرى لطالب علم ولفلاح يعمل بالقرب من شجرة، وأرخها في (٢٧ صفر سنة ٦٢٦هـ/ ٢٥ من كانون الثاني ٥٤٠ للإسكندر) يوافق (٢٧ ديسمبر ١٢٢٨م).

وهناك مخطوطة جميلة للإنجيل، قام بنسخها الراهب مبارك بن داود البرطلي من إقليم الجزيرة الفراتية، وكانت حروفها مستديرة وزينها بأربع وخمسين صورة ملونة في غاية الحسن والإتقان، وافتتحت فصولها بحروف مذهبة، وأرخها في عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م).

كذلك وجدت نسختان للإنجيل قام بنسخهما وتزويقهما الراهب باخوس الحديدي الطواف (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)[1]، وكذلك وجدت صفحات من كتاب الترياق لجالينوس مؤرخة في عام (٥٩٥هـ/ ١١١٩م)، وهما نسختان جميلتان تنسبان إلى الموصل.

التنظيم والتكتل الحرفي:

بعد أن تطور المجتمع واستعت المدن، ازدادت العناية بالمهن

---

(١) ديوه جي: تاريخ الموصل (٤١٧، ٤١٨).
العراق في التاريخ (٥٢٤).
ديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي (٦٦، ٦٧). وهناك بحث للديوه جي بعنوان: أعلام الصناع المواصلة في هذا الموضوع.

والحرف، مما أدى إلى ظهور مهن وحرف عديدة، وبالتالي زادت رقابة الدولة على الحياة الاقتصادية وعلى مراقبة أهل هذه الحرف، مما أوجد شعوراً بينهم بضرورة تماسكهم وتكتلهم لاسيما في الأزمات السياسية والاقتصادية التي كانت تحدث بين فترة وأخرى، وكان يطلق عليهم «أهل المهن» أو «أهل الصنايع والأصناف».

ومع مرور الزمن قويت رابطة أصحاب الحرف فصار كل صنف منهم يشعر بالارتباط الوثيق بأهل صنعته، حتى صار من أقوالهم المأثورة: «الصناعة نسب»؛ لذا انتشر الانتساب إلى المهنة بجانب الانتساب إلى المدينة أو القبيلة، فاشتقت الألقاب من المهن، كالزجاج: من صناعة الزجاج، والزيات: من عصر الزيوت، وغيرها من الألقاب كالحلاج والثعالبي والفراء والنجار[١].

وقد أسهمت التطورات الداخلية من جانبها في تنظيم الحرف وأكسبتها إطارها العام، وأصبح لكل أهل حرفة رئيس منهم تعينه الحكومة أو يختاره أعضاؤها فتعترف به، ويبرز التنظيم الحرفي من خلال التدرج الحرفي، فيكون عاملاً في البداية، ثم يصبح صانعاً، وينتهي إلى مرحلة الأستاذية، وهو في كل مرحلة من هذه المراحل يمارس عملاً أهم من سابقه، وبالتالي يتقاضى أجراً أكبر منه.

وكان كثير من الصناع والحرفيين يتقاضون أجراً على عملهم من قبل الملوك والسلاطين والأثرياء، وكان من بينهم المهندسون ومخططو المدن وصانعو التحف المعدنية الثمينة. غير أن هناك أيضاً من يعملون لحسابهم الخاص، وهؤلاء الذين ورثوا هذه الحرفة من آبائهم، فهم أكثر إتقاناً لها وأحسن مكاناً وأكثر مورداً من غيرهم[٢]؛ لكونهم يمتلكون وسائل الإنتاج

---

(١) دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٨٠)، المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٢٦). حضارة العراق (٥: ٣٠٠).
بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٣٧٤).

(٢) المرجعان السابقان على التوالي ص (١٧٧)، (٣٠١). المسري: المرجع السابق ص =

وأدوات التصنيع البسيطة ورأس المال وحرية التصرف في عملهم كما يشاؤون بعيداً عن التسلط، ومع هذا كان باستطاعة الحرفيين أن ينعموا بثمار جهدهم ويزيدون دخلهم بمهارتهم وإتقانهم لصناعتهم وزيادة إنتاجهم وحماسهم في العمل.

ومما لا شك فيه أن أجور أهل الصنائع اختلفت تبعاً لنوع الحرفة التي يؤدونها، فحرفة صياغة الذهب والفضة أكبر أجراً ودخلاً من غيرها، وأجور الصناع الماهرين الكبار (الأساتذة) أكبر ممن هم دونهم كما سبق القول(١).

وكان لتعيين الدولة موظفاً خاصاً - يعاونه عدد من الموظفين لمراقبة أهل الحرف - أهمية عظيمة؛ وذلك ليس لمنعهم من غش المبيعات وتدليس الأثمان والبخس والتطفيف في الوزن فحسب، بل تعدتها إلى مراقبة جودة الصناعة ومراقبة الصياغين والحاكة، حتى لا يهربوا بأموال الناس وحاجاتهم.

وكان للحرفيين فيما بينهم تقاليد وأعراف اعترفت بها الدولة واقرتها، وأخذ بها القضاة عند النظر في الدعاوى التي تقدم ضدهم من قبل الآخرين أو فيما بينهم، فيلجأ القضاة إلى استشارة أهل الخبرة منهم للاستعانة برأيهم في البت في الخصومات التي قد تحدث بينهم بين حين وآخر والتي قد تصل إلى التراشق بالتهم وربما إلى الإقتتال.

وعلى الرغم من شراسة وهمجية التتار والأخطار التي نجمت من جراء غزوهم للإقليم: إلا أن التنظيمات الحرفية والمهنية سرعان ما استعادت مسيرتها وإن لم تكن كما كانت من قبل(٢).

= (١٢٧)، المؤرخ العربي: بحث: حرفة صناعة المعادن في العراق ص (٢٦٧، ٢٦٨).

(١) دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٧٧- ١٧٨).
بدري محمد: العراق في العصر العباسي الأخير ص (٢٧٤).

(٢) حضارة العراق (٥: ٣٠١- ٣٠٢).

التجارة

حث الإسلام على ممارسة التجارة، ففي الحديث الشريف قوله ﷺ: «لو عملت أمتي بالتجارة لوسعتهم»، وهذا دليل على اتساع مجالات العمل بالتجارة، وهناك آيات قرآنية كريمة عديدة فيها ذكر للتجارة، بل ثمة أمر رباني في العمل بها وترك الربا، فقال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[1]. وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[2].

هذا بالنسبة للتجارة بصفة عامة، أما بالنسبة للتجارة في إقليم الجزيرة الفراتية بصفة خاصة، فقد تهيأت لها عدة عوامل أدت إلى ازدهارها خلال فترة دراستنا، ومنها:

تمتع الإقليم بموقع متوسط بين العراق وبلاد الشام وبلاد الروم والأقاليم الشرقية من الدولة العباسية، ولوجود نهري دجلة والفرات فيه اللذين ساعدا في نقل السلع التجارية[3] وتنقُّل الناس من خلالهما، وسبق الحديث عنهما.

والذي يهمنا الحديث عنه هنا هو دور نهري دجلة والفرات في حركة

---

(١) سورة البقرة آية (٢٧٥).

(٢) سورة البقرة آية (٢٧٩).

(٣) حضارة العراق: (٥: ٣٠٦).

المواصلات، لكونهما أحد شراينها والنهران يربطان مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية ببلاد الشام وبلاد الروم والأناضول (تركيا الحالية) وببحر فارس (الخليج حالياً) الذي يربطهما بالعالم الخارجي عبر بحر عمان، فبحر العرب، فالمحيط الهندي (بحر الزنج) مروراً بالمدن والقرى العراقية الواقعة على ضفتيهما.

ومن جانبه كان نهر الفرات همزة الوصل ببلاد الشام وسواحلها، وذلك في زاويته الشمالية الغربية التي تعتبر أقرب مسافة تصله بالبحر الأبيض المتوسط، وقد فضل التجار سلوك هذا الطريق المائي عن الطرق البرية؛ وذلك لسهولة النقل فيه خاصة بالنسبة للمسافات الطويلة في الطرق البرية التي يلاقي فيها التجار جهداً كبيراً في تحميل حيوانات النقل وتنزيلها بين مرحلة وأخرى.

وبالإضافة إلى هذا فإن النقل المائي أسرع وسائل النقل؛ ففي أيام الفيضانات تستغرق الرحلة من الموصل إلى بغداد مثلاً من أربعة إلى خمسة أيام، وفي الأوقات العادية تستغرق حوالي خمسة عشر يوماً، وهو أيضاً أقل نفقةً من وسائل النقل البري وغيرها، وأهم شيء أنه أكثر أمناً من الطرق البرية التي تتعرض لمخاطر الطريق من سرقات وغيرها[1].

ووسيلة النقل في هذا الطريق المائي - بالطبع - هي السفن والأكلاك، وقد وجدت سفن تتسع لعشرات المسافرين التجار مع بضائعهم، أما الأكلاك[2] فيتوقف ما تحمله من البضائع والركاب على سعتها وقوة تيار الماء

---

(١) المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٦٠- ١٧١).
حضارة العراق (٥: ٣٢٢- ٣٢٤).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٢٨).

(٢) الأكلاك (جمع) مفردها كلك، وهي تتكون من عشرات القرب تنفخ وتنضد صفوفاً في النهر، ويثبت فوقها ألواح من الخشب وتكون متعاكسة، ويجعل في وسطها عريش يجلس فيه الركاب وتحمل بالسلع التجارية، ويتولى تدبيرها رجلان أو أكثر يوجهانها بواسطة مجاديف إلى وسط النهر ليدفعها تياره انظر الديوه جي: المرجع السابق ص (٤٢٧، ٤٢٨).

في النهر، ففي الربيع - وقت الفيضان - تكون هذه الأكلاك كبيرة وسريعة.

وكان نهر دجلة غاصاً بالسفن والأكلاك التي تنحدر إلى[1] الموصل من جزيرة ابن عمر وما يجاورها من بلاد الروم، وبالإضافة إلى ميناثي الموصل وجزيرة ابن عمر يوجد ميناء ثالث هو بلد على دجلة، وبعد أن تفرغ السفن والأكلاك حمولتها تشحن مرة أخرى ببضائع تنحدر بها إلى بغداد، وعند عودتها تحمل ببضائع من العراق ومن الهند والصين وجنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا.

وقد بلغ عدد السفن التي كانت تتردد على الموصل في عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) مائتين وخمسين سفينة من غير الأكلاك، أما تلك السفن التي تستخدم في الفرات - القادمة من أرمينية والشام فتسمى (القراقير)[2]. ومع هذا فإن هذه الفترة تعتبر فترة ركودٍ تجاري باعتبارها قد جاءت بعد الغزو التتري للمنطقة.

وكان للجسور درو في تنشيط حركة المواصلات، ففي الموصل وحدها جسران: أحدهما أنشأه مروان بن الحكم، والآخر أنشأه مجاهد الدين قايماز في الربض الأسفل، وفيها ثماني عشرة مصطبة على نهر دجلة لتحميل السفن والأكلاك[3].

---

(١) الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٤٢).

(٢) القراقير: هي سفن كبيرة يترواح عرضها من ١٠و ١٦- ٢٠ ذراعاً. انظر: المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٧١)، متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٣٣٤- ٣٣٥).

(٣) المسري: تجارة العراق في العصر العباسي (١٦٠- ١٨٠)، حضارة العراق (٥: ٣٢٢- ٣٢٤).

البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق (٢٣٣)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٢٨).

الموصل في العهد الأتابكي ص (٤١)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ٨٣).

الطرق البرية:

هناك طريقان يربطان إقليم الجزيرة الفراتية ببغداد:

أحدهما: شمالي، وهو يربط بغداد بالموصل.

والثاني: غربي يبدأ من بغداد وينتهي في مدينة الرقة الواقعة على نهر الفرات ومنها إلى بلاد الشام ومصر. وهناك عدة طرق فرعية تربط مدن وقرى الإقليم بعضها ببعض، وتوجد على الطرق البرية عدة قلاع يشرف من بها على حراسة الطريق ليؤمنوا راحة المسافرين، كذلك توجد خانات (فنادق) فيها ما يحتاجه هؤلاء المسافرون.

أما الحيوانات التي يستخدمها هؤلاء المسافرون، فهي: البغال والخيول وتحمل عليها البضائع الثمينة، ويركبها التجار المستعجلون في سفرهم.

ويكثر استخدام البغال في المناطق الجبلية الوعرة المتجهة إلى بلاد فارس وأذربيجان وغيرهما، ويقل استخدام الخيل للنقل؛ وذلك لمكانتها عند العرب، بينما تسير قوافل الإبل في الطرقات الطويلة الصحراوية التي تقل فيها المياه؛ لكون الجمل يتحمل العطش ويصبر على القليل من الطعام لعدة أيام، وكانت قوافل الإبل تسير في أعداد كبيرة من بغداد مروراً بالإقليم إلى بلاد الشام[١].

الكروان:

وهو كالقافلة بالنسبة للجمال، وتكون حيواناته من البغال والحمير ويكون عددها كبيراً ويشرف على سيره وحط رحاله رئيس يستخدمه التجار لنقل بضائعهم، والمسافرون في ترحالهم، والمرفهون منهم يركبون الخيول، أو

---

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل (٤٢٧) المسري: المرجع السابق ص (١٨١- ١٨٤).
حضارة العراق: (٣٢١)، غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢١٨- ٢٢٠).
لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٥٧- ١٥٨).
صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص (٣٩٥- ٣٩٦).

«الكجاوة» التي هي بمثابة الهودج على ظهر الجمال، وهي عبارة عن قفصين مربعي الشكل ضلع الواحد منهما متر واحد تقريباً، ويغلف بالقماش ليقي من بداخله البرد والحر، وفيه فتحات جانبية للتهوية، ويشرف منها المسافرون على المناظر التي يمرون بها[1].

ومن الوسائل المساعدة على انتقال التجار والمسافرين وغيرهم تلك الجسور المقامة على الأنهار والقناطر، والتي توضع على القنوات والجداول المائية لعبورهم من الضفة التي هم فيها إلى الضفة الأخرى من النهر.

ومن العوامل الهامة التي ساعدت على تنشيط حركة التجارة حفر الآبار بين مرحلة وأخرى، وكذلك أنشئت الخانات (الفنادق)، سواء كانت على الطرق الرئيسية أو في داخل المدن؛ لينزل فيها التجار والمسافرون والرحالة، حيث يجدون راحتهم فيها بعد عناء السفر ومشاقه؛ لذا حرص الحكام وغيرهم على بنائها، كذلك انتشرت التجارة لوجود المساحات الكبيرة الواسعة التي تحط فيها القوافل.

وكان مما يخدم التجار ويوفر الراحة لهم وجود الحمامات في المراكز التجارية بالمدن الهامة[2]، كذلك انتشرت الأسواق والمحلات التجارية والقيساريات التي تشبه ما يعرف حالياً بالجمعيات، أو المراكز التجارية.

وكانت مدينة الموصل[3] - حاضرة إقليم الجزيرة الفراتية - خير مثال لتجمع هذه المرافق التجارية فيها، فكان فيها ستة وثلاثون سواقاً، لكل سلعة تجارية أربعة أسواق فأكثر قيسرية خاصة لبيع العطور تسمى قيسرية المسك،

---

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٢٧)، رحلة ابن جبير ص (١٧١).

(٢) غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٣١٨- ٣١٩)، رحلة ابن جبير ص (١٧٠).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٢٠- ٢٢١).
عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٥١).
سيديو: تاريخ العرب العام ص(٤٢٠).

(٣) يوجد في الموصل (٤٨٥١٥) حانوتاً.

بها اثنا عشر محلاً تجارياً، وقيسرية الجامع النوري، وفيها (٦٩٩) مكاناً، وقيسرية مجاهد الدين[١] قايماز الرومي (ت ٥٩٥هـ/١١٩٨م) وكانت من أجمل القيسريات وقد وصفها ابن جبير[٢] بقوله:

«كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديدٍ، وتطيف بها دكاكين وبيوت، وبعضها على بعض، وقد حُلِّي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له، فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها».

وذكر ابن حوقل[٣] أن بالموصل من «الأسواق الاثنان والأربعة والثلاثة... وفي السوق المائة حانوت وزائد والمحال والحمامات والفنادق وهي فرضة لأذربيجان وأرمينية والعراق والشام».

ومما يدل على نشاط الحركة التجارية في الموصل ما يجبى من أسواقها، إذ بلغت قيمة الدمغة عشرة آلاف درهم في اليوم[٤].

ومن الأسواق المشهورة في إقليم الجزيرة الفراتية سوق دنيسر التي يقام فيها سوق الأحد، قال عنها ابن حوقل[٥]: «يجتمع الناس في صحرائها كل يوم أحدٍ للبيع والشراء، يجلب إليها الجهاز من سائر البلدان، وقد استوطنها الناس من كل فج عميق، وكثر بها الارتفاع والضمانات».

وقال عنها ابن خلكان: «إنها رأس الدنيا»؛ لأن التجار يقصدونها من جميع الجهات؛ فهي ملتقى للطرق التجارية.

ولموقعها المتوسط بين بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية حافظت دينسر على استمرارية هذه الحركة التجارية النشطة، فتطورت أكثر عما كانت عليه في

---

(١) الديوه جي: المرجع السابق ص (٤٢٨).
(٢) رحلة ابن جبير ص (١٦٨).
(٣) صورة الأرض ص (١٩٥).
(٤) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٢٨- ٤٢٩).
(٥) صورة الأرض ص (٢٠٢).

عهد ابن حوقل حيث أشاد بها ابن جبير[١] فقال:

«وهي مشحونة بشراً، ولها الأسواق الحفيلة والأرزاق الواسعة، وهي محظر لأهل بلاد الشام، وديار بكر، وآمد، وبلاد الروم التي تتبع الأمير مسعود[٢] وما يليها، ولها مرافق كثيرة تجذب أهل القافلة بها لشهود سوقها؛ لأن بها يوم الخميس، ويوم الجمعة، ويوم السبت، ويوم الأحد سوقٌ حفيلة يجتمع فيها أهل هذه الجهات المجاورة لها والمتصلة بها، وعلى طول الطريق إليها يميناً وشمالاً قرى متصلة وخانات مشيدة. وتسمى السوق التي يجتمع إليها الناس من مختلف الجهات «البازار». وفي كل يوم سوق معلومة.

وتعتبر جزيرة ابن عمر فرضة لهذا الإقليم وقد عبر عنها ابن حوقل[٣] بقوله: «وهي فرضة لأرمينية وبلاد الروم ونواحي ميافارقين وأرزن، وتصل منها إلى الموصل المراكب مشحونة بالتجارة».

كذلك كانت بحران أسواق حافلة منظمة في غاية الترتيب مسقفة بالخشب، حتى يكون مرتادوها في ظل، وتخترقها عدة شوارع، وبني عند ملتقى كل أربع سكك أسواق منها قبة كبيرة مرتفعة مبنية بالجص «وهي كالمفرق لتلك السكك»[٤]. وعلى العموم، كانت الأسواق من أهم أجزاء مدن إقليم الجزيرة، ويحتوي السوق على أروقة ضويلة مغطاة بألواح أو حصر.

وهناك عوامل أخرى ساعدت على تنشيط حركة التجارة كان للدولة

---

(١) وفيات الأعيان ص (٥: ١٤٧)، رحلة ابن جبير ص (١٧١- ١٧٢)، خليل: الإمارات الأرتقية ص (٤٤٧)، ويعلل ابن خلكان اسمها بأنه لفظ أعجمي مركب من «يناسر» أي رأس الدنيا، لأن الفرس وغيرهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه.

(٢) الأمير مسعود: هو عز الدين مسعود بن قطب الدين بن عماد الدين الزنكي، صاحب الموصل (٥٧٦- ٥٨٩هـ/ ١١٨٠-١١٩٣م)، كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي، وفي عهده زار ابن جبير المنطقة.

(٣) كتاب صورة الأرض ص (٢٠٢).

(٤) رحلة ابن جبير ص (١٦٥- ١٧٤)، غوستاف لوبون: حضارة العرب ص (٣٦٥).

(الحكومة) دور كبير فيها، حيث أعفت الأسواق من كثير من الضرائب لكنها مع هذا شددت الرقابة على الأسواق وتابع المسؤولون ارتفاع الأسعار في مناطقهم، واختاروا لتلك المهمة أشخاصاً اتصفوا بالورع والتقوى؛ ليمنعوا الغش والتدليس والتطفيف، ووضع على الأسواق حراس في الليل؛ لمنع السرقات، كذلك أمنت الطرقات وهيئت وسائل النقل اللازمة.

وكان لارتفاع رواتب الموظفين والهبات، والعطاءات والمنح، والمساعدات المالية التي تقدمها الحكومة للعاملين لديها وغيرهم من فئات المجتمع الأخرى: دور كبير في زيادة السيولة النقدية في الأسواق التجارية، وبالتالي إلى ارتفاع مستوى المعيشة وزيادة القدرة الشرائية في البلاد وإلى ازدهار النشاط التجاري فيها[1].

السلع التجارية:

إذا كان كل ما سبق قوله عوامل مساعدة على تنشيط حركة التجارة، فإن السلع التجارية (البضائع) هي أساس قيام التجارة، فما تحتاجه البلاد من مواد غذائية وصناعية يتم استيراده من الخارج من المناطق المجاورة وغيرها، وما فاض عن حاجتها يتم تصديره وكانت أسواق الإقليم مليئة بالبضائع، مزدحمة بالناس.

ويرتبط النشاط التجاري بازدهار وتطور حرفتي الزراعة والصناعة، وما تقدمه السلطة الحاكمة من حماية وتشجيع للصادرات والواردات، وهذه المستلزمات الثلاث كانت على أحسن ما يكون خلال فترة دراستنا[2].

وعن النشاط التجاري (على الرغم من حالة الحرب التي عاشها هذا

---

(١) حضارة العراق ص (٥: ٣١٠- ٣١٤).

(٢) العراق في التاريخ ص (٤٧٠- ٤٧١) غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢١٠- ٢١٣).

خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٤٤٦- ٤٤٨).

بدر محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٣٥٠- ٣٦٠).

الإقليم) عبر ابن جبير[1] بقوله: «ومن عجب ما يحدث به أن نيران تشتعل بين الفئتين: مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم والاتفاق. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، . . . والدنيا لمن غلب».

وقد وصف أسواق الإقليم بأنها حافلة بالبضائع، ومنظمة، وغنية بالبضائع المستوردة وتعج بالتجار الأجانب ومعهم ما ندر من البضائع، لكن هذا الوضع لم يتحقق إلا بعد أن قضي على الخطر الصليبي في إقليم الجزيرة الفراتية بفتح الرها، والقضاء على المراكز الصليبية فيها في عهد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود. ثم تعزز ذلك في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي قدم ابن جبير في عهده (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) حيث توحدت المناطق الثلاث تحت حكمه، وهي: إقليم الجزيرة الفراتية، وبلاد الشام، ومصر. ونشطت بذلك تجارة العبور؛ حيث اجتازت السلع التجارية - من العراق، وفارس، وجنوب وشرق آسيا كالهند وغيرها، وشرق أفريقية - ثم إلى أوروبة، أو عن طريق البر عبر المدن الشامية السابقة، ففلسطين وسيناء، ثم إلى مصر ومنها إلى أوربا[2].

وكانت مدينة الموصل - حاضرة إقليم الجزيرة الفراتية - إحدى المراكز التجارية التي عبر بها طريق الحرير العالمي، والتي اشتهرت بإنتاج التحف الفخارية المزخرفة والمعدنية المطعمة بالمعادن الثمينة، وبالمنسوجات القطنية والحريرية المطرزة بالذهب والفضة المعروفة «بالموسليني»، وكانت تصدر إلى المناطق الأخرى ومنها أوربا[3]. كما كان للموصل دور بارز في

---

(١) رحلة ابن جبير ص (١٦٨- ١٧٢).

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (٣: ٦٠٤- ٦٠٥).

(٣) العراق في التاريخ ص (٤٧٢)، صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص (٣٩٥- ٣٩٦).

تنشيط حركة التجارة الداخلية بينها وبين مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية، وبين هذه المدن والمدن خارج هذا الإقليم.

وأهم السلع الغذائية التي كانت تصدرها مدينة الموصل: الحبوب بأنواعها، والفواكه: كالرمان والتفاح والأترج والعنب. وكانت مشهورة بالعسل والجبن والشحوم، كما صدرت الفحم، والقير، والحديد، والسلاسل، والسكاكين، والأواني، والنشاب، وثياب الصوف، والستائر.

وقد اشتهرت سنجار - وما جاورها - بتصدير اللوز والبندق، والسماق، والفواكه المقددة، والموازين، والرصاص[١]، وصدرت مدينة الرقة الصابون والأقلام وزيت الزيتون، والسمسم. وصدرت حران عسل النحل والقطن والموازين. وصدرت مدن أخرى - كجزيرة ابن عمر وغيرها- الجوز، واللوز، والسمن، والمن، والعسل، والجبن، والبندق والخيل العريقة، والفواكه الطازجة، والمجففة كالزبيب وغيره[٢].

وقد سبق أن تحدثنا عن الموارد الطبيعية لهذا الإقليم، كما تحدثنا عما تشتهر به كل مدينة، وعن المحاصيل الزراعية والصناعات التي قامت في هذا الإقليم.

ومع هذا، فإن هناك مدناً اختصت ببعض الخامات التي لا توجد في غيرها، فماردين خصها الله بمعدن الزجاج الجيد الذي حمل منها إلى سائر بلدان الإقليم، والعراق وبلاد الروم فضلت على سواها بجوهرية فيها، وأما مدينة عرابان الواقعة بوادي الخابور فقد اشتهرت بكثرة أقطانها فصنعت بها

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٨) الموصلي: تاريخ الموصل (١ : ٣٣٦).
ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية (٣٥٠- ٣٥٢)، رحلة ابن جبير ص (١٦٦).

(٢) المقدسي: المرجع السابق ص (١٢٨).
ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ص (٢٠٢- ٢٠٤).
حضارة العراق ص (٥: ٣١٥- ٣١٨).

ثياب القطن التي صدرت إلى بلاد الشام وغيرها. كذلك اشتهر الإقليم بحجارة الرحى التي لا نظير لها، فكان يصدر إلى العراق وتبلغ قيمة حجر الرحى الواحدة بما يزيد عن خمسين ديناراً[١].

وتشتهر مدينة رأس العين بأسماكها الجيدة، وقد وصفها ابن جبير بقوله: «ويصاد فيها سمك جليل من أطيب ما يكون من السمك».

ومن آمد كان يصدر ثياب الصوف والكتان الرومية، ومن حران القبيط وعسل النحل والموازين[٢]، ومن مدينة حاني بديار بكر معدنا الحديد والنحاس، ومن مدينة دارا يصدر المحلب الذي تتطيب به نساء البادية[٣].

النظم التجارية وأساليبها:

أولى هذه التنظيمات، الأسواق التي قسمت إلى: أسواق دائمة توجد طيلة العام، وأسواق موسمية، وهي التي لها موسم محدد كفصل الصيف مثلاً، أو مناسبة الأعياد، أو يوم من أيام الأسبوع: كسوق الأربعاء، وسوق الأحد، وسوق الجمعة، وغيرها يأتي إليها الناس للبيع والشراء.

وهناك أسواق جامعة تباع فيها مختلف البضائع، ولما ظهر نظام تخصص الأسواق كانت هناك أسواق متخصصة كسوق البزازين، وسوق الدقاقين، وسوق الدباغين، وسوق القصابين، وسوق العطارين. وعلى العموم فقد وجد لكل أهل حرفة من الحرف سوق يمارسون فيه حرفتهم، ويتعاطون فيه البيع والشراء.

---

(١) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ص (١٩٤، ٢٠٠- ٢٠١).

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٨).
رحلة ابن جبير ص (١٧٣).

(٣) ياقوت: معجم البلدان (٢: ٢٠٨- ٤١٨).
وعن التجارة بديار بكر انظر خليل: الإمارات الأرتقية ص (٤٥٤- ٤٥٦).
كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص (١٥٧).
المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٩٦- ٢٠٠).

وللمحافظة على الأمن والنظام في هذه الأسواق كان لكل سوق أبواب - وغالبيتها من الحديد - تغلق عند الغروب بعد انتهاء عمليات البيع والشراء[1]، ولكل فئة من البائعين ما يميزهم عن غيرهم، سواء في طراز محلاتهم أو لباسهم، أو طريقة عرضهم للسلع التي يبيعونها.

وكان لنظام التخصص هذا مزاياه الحسنة التي منها: أنه سهل مهمة المحتسب في الإشراف والمراقبة على هذه الأسواق، كما أن من مصلحة التجار وأصحاب الحرف أنفسهم أن يكون لهم سوق واحدة تجمعهم؛ لمناقشة مشاكلهم وقضاياهم، ومن جانب آخر - وهو ما يهم المشترين - أن التاجر الجشع لا يستطيع أن يرفع سعر بضاعته لوجود منافسين له في السوق، فيقل الإحتكار، وتعتدل الأسعار، كما أن باستطاعة المشتري أن ينتقي أجود ما يحتاج إليه من السلع المتشابهة في وقت قصير؛ وذلك لتقارب محلاتها التجارية[2].

أساليب التعامل في الأسواق[3]:

كانت العملة النقدية السائدة في الأسواق: العملة العباسية وهي الدينار الذهبي، والدرهم الفضي - وكانت تضرب هي وأجزاؤها في الأتابكيات الأرتقية والزنكية في إقليم الجزيرة الفراتية باسم الأتابكن ثم السلطان السلجوقي، ثم الخليفة العباسي، وكان سعر الدينار يختلف من وقت لآخر

---

(١) مجموعة: دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٧٠- ١٧٦).
المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٠٥- ١٠٦).
حضارة العراق (٥: ٣٢٥- ٣٢٩).

(٢) مجموعة: دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٧٦- ١٧٨).
حضارة العراق (٥: ٣٢٩).

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ص (٤: ٤١٨).
دراسات: المرجع السابق (٢: ٢٠٧- ٢٠٨).
حضارة العراق (٥: ٣٣٢- ٣٣٣).

حسب الأوضاع الاقتصادية والسياسية، ولنقاوته، فتارة يساوي عشرة دراهم، وأخرى ثلاثة عشر، وثالثة خمسة عشر.

ومن وسائل التعامل المالي، وتسهيل التبادل التجاري وانتقال رؤس الأموال:

١- الحوالة المالية: الصك:

وهو بمثابة «الشيك البنكي» وهو: أمرٌ خطيّ يدفع بموجبه مبلغ من النقود، يذكر فيه اسم صاحبه، ومقدار المبلغ المأمور به - رقماً وكتابة - وموعد الاستيفاء، ويؤرخ ويختم بخاتم الدولة، ويصدق عليه بتوقيع ذلك المسؤول أو علامته السرية.

وتصدر تلك الأوامر إلى بيت المال لصرف الرواتب وأرزاق وأعطيات الجند وغيرهم، والإعانات والمنح ووجوه النفقات الأخرى، وقد تصرف في الأسواق، وقد تعدى الأمر إلى عامة الناس.

وإذا كانت الصكوك توجه إلى الصرافين فإن الصراف يتقاضى درهماً واحداً في كل دينار. وكانت هذه المصاريف تسجل في سجل خاص بديوان بيت المال كجزء من نفقاته.

٢- الحوالة المالية: السفتجة:

وهي شبيهة بالصك لكنها غالباً ما تكون بين تاجر ووكيله إن كان صرافاً أو غيره، فيحرر التاجر - أو أي مسافر - أمراً إلى وكيله ببلد آخر؛ ليدفع له ذلك المبلغ من المال. فحمل ذلك الأمر (السفتجة) أسهل - بالطبع - من حمل النقود المعدنية؛ لثقلها في الحمل من مكان إلى آخر خاصة في المسافات الطويلة، ثم لتجنب السرقات.

وقد شاع استخدام هذه الوسيلة في التعامل التجاري والمالي في غالبية المدن الكبيرة التي يوجد فيها الصرافون، وقد أباح الفقهاء استخدام هذه السفاتج في تعامل الناس على أنها قرض بغير شروط ولا أرباح ربوية، وسبق

التنويه إلى ما يستوفيه الصراف عن صرف تلك الحوالات[1].

وما دمنا قد تطرقنا لبعض معاملات الصراف، فلا بد لنا من ذكر النشاط المصرفي الذي هو بيع الثمن بالثمن - أي: صرف النقود - كاستبدال عملة بعملة أخرى أو فئة بأخرى كاستبدال الدينار بالدرهم أو العكس؛ ولكونهم أصحاب دراية ومعرفة بالنقود حل الصرافون مشاكل الفروق بينها في الأنواع والأوزان والنقاوة - إن كانت خالصة من الذهب كالدينار، أو الدرهم من الفضة.

وكان الصراف يقدم القروض مقابل ربح مقداره دانقٌ ونصف فضة في كل دينار، وقد بلغت حركة الصيارفة في الأسواق غاية ازدهارها في تسليف النقود وتبديل العملات وصرف الصكوك والسفاتج[2].

وإلى جانب التعامل بالنقود في الأسواق وجد أيضاً التعامل بأساليب أخرى للبيع مثل: البيع المطلق -ويقصد به: بيع العين بالثمن، وهو الأكثر شيوعاً من غيره - كذلك وجد البيع بالمقايضة، أي: بيع بضاعة ببضاعة أخرى خاصة في الأرياف والبادية، كما وجد بيع المستدين، أي: شراء سلعة بسعر أعلى من سعرها في السوق على أن يكون دفع القيمة مؤجلاً، والفرق بين سعر السوق وسعر الشراء: هو الفائدة التي يأخذها المقرض[3].

وقد وجد أيضاً بيع السلم - أي: بيع الدين بالعين.

أما الصرف، فهو: بيع الثمن بالثمن - أي: صرف نقود بنقود أخرى.

---

(١) المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٥٤- ١٥٥). حضارة العراق (٥: ٣٣٢- ٣٣٤).

مجموعة: دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ٢٠٩- ٢١٢).

متز: الحضارة الإسلامية (١٢: ٣٢٠- ٣٢١).

(٢) نفس المرجعين على التوالي ص (٣٣٤- ٣٣٥)، ص (١٩٦)، ص (٢٠٢).

(٣) مجموعة: المرجع السابق ص(١٨٦- ١٨٧)، وسمي هؤلاء المقرضون بالبنوك الخاصة، انظر: حضارة العراق ص (٥: ٣٣٠).

أما المرابحة، فهي: البيع بالثمن مع زيادة يتفق عليها الطرفان: البائع والمشتري.

وهناك أيضاً البيع بالنقصان «الوضيعة» أي: بيع سلعة بسعر أقل من القيمة الأصلية أو من سعرها في السوق، وهذا يقابل بيع المستدين، فبدلاً من أن يأخذ دراهم بدراهم يأخذ مثلاً بضاعة بقيمة مائة وعشرين ديناراً ذهباً، ثم يرجع فيبيعها إلى نفس التاجر أو غيره بمائة دينار فقط، فيكون ذلك الفرق هو الفائدة، وهذا يفعله الناس هروباً من الربا. وبضمان نقوده يطلب المقرض من المستقرض رهناً، ويكون الرهن داراً أو أي شيء آخر من ممتلكاته، ويكون الرهن لمدة محددة فإذا لم يفك ذلك الرهن في تلك المدة المحددة يصبح ملكاً للمسترهن (المقرض).

وإذا لم يكن بينهما رهن يطلب البائع ضامناً عن المشتري يكفله لمدة محددة، فإذا عجز عن سداد ما عليه في الموعد يعرض قضيته على القاضي لاسترجاع حقه[١].

وحدات الوزن والكيل:

يقول المقدسي عند حديثه عن أهل إقليم الجزيرة الفراتية: «وأما مكاييلهم فلهم : المد، والمكوك، والقفيز، والكاره. فالمكوك: خمسة عشر رطلاً، والمد: ربعه، والكاره: مائتان وأربعون رطلاً، والقفيز: ربعها، والمكوك ربع القفيز. وأرطالهم بغدادية، وفرقهم بغدادي ستة وثلاثون رطلاً». وهي إحدى أساليب التعامل التجاري في الأسواق وغيرها».

ومن كلام المقدسي يظهر أن مكاييل إقليم الجزيرة الفراتية كانت متنوعة، وأهمها:

- الصاع، ويساوي: ثمانية أرطل بغدادية.

---

(١) مجموعة: دراسات في تاريخ العراق وحضارته (٢: ١٨٧، ٢٠٢، ٢٠٣).
حضارة العراق (٥: ٣٣٠).

- الجريب، ويساوي: كيلجة واحدة والكيلجة تساوي: خمسة عشر رطلاً.

- الكر، وهو مكيال بابلي الأصل.

- القفيز، ويساوي: ٢٤كيلجة، أي حوالي (٤٥كيلو جرام)[١].

- المكوك، ويساوي: صاعاً ونصف الصاع، أو: خمسة عشر رطلاً.

- المد، ومقداره: رطلان، أو: ملء كفي الإنسان المعتدل إذا ملأها ومدّ يده بهما؛ ولذلك سمي مداً، وهو واسع الاستعمال.

- الرطل، ويساوي: (١٢ أوقية)، وهو الرطل البغدادي الشرعي، ويساوي: حوالي (٤٦,٢٥ غراماً).

- القنطار، ويساوي: مائة رطل.

- القيراط، ويساوي: (٢٠,١) من المثقال، ويساوي شرعاً، خمس حبات شعير.

- المن، ويساوي: رطلين.

- الكاره، وتساوي: قفيزين، أو ستة عشر مكوكاً.

- الأوقية، وتساوي: (١٢,١) من الرطل.

- الحبة: وهي قدر وزن حبة الشعير العربية، وبمقتضى الشريعة الإسلامية تساوي الحبة: (١/ ١٠٠) من المثقال.

وحدات قياس الأصوال المستعملة:

كان الذراع هو أهم وحدات قياس الأطوال. والذراع سبعة أنواع:

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٩).
مجموعة: دراسات في تاريخ العراق وحضارته ص (١٨٧).
حضارة العراق ص (٥: ٣٣١).
صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص (٤١٧- ٤٢٩).

أقصرها الذراع القاضمة، وهي التي وضعها القاضي ابن أبي ليلى. ثم الذراع التي استعملها قاضي بغداد أبو يوسف. وأكثرها شيوعاً واستعمالاً في الأسواق هي الذراع السوداء التي كان الناس يتعاملون بها في قياس البر، ومقدارها (٢٤) إصبعاً وهي التي وضعها الخليفة العباسي هارون الرشيد[١].

الرقابة والإشراف على التجارة:

وكما حثّ الإسلام على العمل في التجارة، أوصى أيضاً بالمحافظة على أموال الناس، وعلى الأمانة، وعدم الغش في البيع وعلى العدل في الميزان والكيل، وقد توعد سبحانه من يبخس الناس حقوقهم بالنقص في الميزان بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[٢]، كذلك أمر سبحانه وتعالى أن يكتب الدين بين المتداينين؛ حتى لا تضيع حقوق الدائن فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾[٣].

وفي الحديث الشريف نهى الرسول ﷺ عن الغش في البضاعة فقال: «من غشنا فليس منا»[٤]، لذا وجدت وظيفة المحتسب[٥]؛ ليقوم بهذه المهمة

---

(١) انظر أبا يعلى: الأحكام السلطانية ص (١٥٧- ١٥٨).
صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص (٤١٢- ٤٢٩).

(٢) سورة المطففين الآيات من (١ : ٣).

(٣) سورة البقرة آية (٢٨٢).

(٤) انظر صحيح مسلم: إيمان ص (١٦٤) أبا داود بيوع ص (٥٠)، الترمذي: بيوع ص (٧٢)، ابن ماجة: تجارات ص (٣٦). انظر المعجم المفهرس.

(٥) من الصفات التي يجب أن تتوفر في المحتسب «أن يكون رجلاً، مسلماً بالغاً، عاملاً، قادراً حراً، متصفاً بالورع والتقوى والعلم والمعرفة، مطلعاً على المنكرات =

الخطيرة؛ لما لها من دوره في حياة الناس اليومية المعيشية، وكان يساعده أناس أمناء من أهل تلك الحرف؛ لذا يختار معه رجلاً عارفاً خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشهم وتدليسهم، مشهوراً بالثقة والأمانة والعفة حسب قوله ﷺ: «استعينوا على كل صنعة بصالح من أهلها». يخير هذا المساعد المحتسب بما يجلب إلى السوق من المتاجر والبضائع وعن أسعارها، ويشعره إذا ما وجد فيها غشاً أو نقصاً في المكاييل والموازين.

ولم تقتصر مهمته على ذلك فحسب، بل امتدت إلى مراقبة المعاملات المالية، فمنع الصرافين من أخذ الربا مما جعلهم يخففون من غلوائهم.

ولم يتدخل المحتسب في تحديد الأسعار؛ اقتداءً بسنة رسول الله ﷺ، فقد رفض ﷺ طلب الصحابة منه ذلك، فرد عليهم بقوله: «هو القابض والباسط، وإني لأرجوا الله وليس أحدٌ يطالبني بمظلمة في نفس ولا مال». لكن الإسلام كره الاحتكار ومنعه؛ لذلك كان من واجبات المحتسب منع المحتكرين للطعام - أي: المواد الأساسية التي تشكل الأقوات الأساسية للناس - فمنع بائعي الحبوب والدقاقين من احتكار الغلة.

والاحتكار هو: شراء التاجر البضاعة في وقت رخصها بكميات كبيرة، ثم يخزنها التاجر حتى إذا انعدمت من الأسواق رفع سعرها وتحكم فيه؛ لعدم وجود من ينافسه في السوق، وقد نهى الرسول (ﷺ) عن الاحتكار بقوله: «الجالب مرزوقٌ والمحتكرُ ملعون»[١].

ويحرم الإسلام على التاجر أن يتلقى القافلة التجارية خارج البلد، ليوهم أصحابها بأن بضاعتهم متوفرة بكثرة في السوق؛ فيشتريها منهم بسعر أقلّ من سعرها في السوق، ثم يبيعها بسعر أعلى[٢].

= الظاهرة، محنكاً، فطناً، لا يميل ولا يرتشي، وأن يكون من أهل الاجتهاد العرفي دون الشرعي «انظر حضارة العراق (٥ : ٣٣٨).

(١) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي.

(٢) المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٣٨).

وقد نهى عن ذلك قال رسول الله ﷺ: «لا تلقوا الركبان، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا، ولا يبيع حاضرٌ لبادٍ».

وبيع متلقي الركبان مردود؛ لأن صاحبه عاصٍ آثمٌ إذا كان به عالماً، وهو خداع في البيع، والخداع لا يجوز[1].

كما نهى رسول الله ﷺ عن بيع النجش[2]، وهو أن يزيد المرء في قيمة بيع البضاعة دون أن يكون راغباً فيها، وإنما ليوقع المشتري أو يفيد البائع، خاصة إذا كان بينهما اتفاق، فتراه يزيد الدلال (السمسار) أثناء مناداته عليها.

ومن أنواع البيوع المحرمة في الإسلام بيع المسلم على بيع أخيه، فإذا اشترى رجل بضاعة على شرط الخيار - أي: يشاور عليها من هو أدرى منه مثلاً في سعرها - ولقيَه تاجرٌ آخر فقال له: ردّها وأنا أبيعك خيراً منها بهذا الثمن أو بأقل منه، فإن هذا البيع حرام، ونهى الرسول (ﷺ) عن ذلك بقوله: «لا يبيع الرجل على بيع أخيه».

كذلك نهى الإسلام السماسرة (المنادين) أن يزيدوا ثمن البضاعة من عندهم؛ حتى لا يوهموا المشتري أن هناك من زاد عليها، وكان المنادي أو السمسار يأخذ أجره من البائع.

وكان في الأسواق رقابة على مختلف البضائع المباعة من حيث الجودة، أو من الناحية الصحية والنظافة[3].

أثر التقلبات السياسية في الأوضاع الاقتصادية:

مما لا شك فيه، أن للتقلبات السياسية التي شهدها إقليم الجزيرة الفراتية - خلال فترة دراستنا أثراً واضحاً وخطيراً على الأوضاع الاقتصادية فيه، فكثرة

= وانظر أيضا: حضارة العراق (٥: ٣٣٧- ٣٣٨).

(١) صحيح البخاري (٣: ٩٢- ٩٥).

(٢) المختار الصحاح مادة (نجش).

(٣) المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٣٨- ١٤٣).

القلاقل والحروب وعدم الاستقرار أمورٌ تؤدي إلى عدم اطمئنان نفوس الفلاحين لممارسة الزراعة، والتجار للقيام بعمليات التجارة؛ خوفاً على أموالهم من النهب والسلب، وعلى أرواحهم من الهلاك.

وكان من أهم تلك الأحداث - كما مرّ بنا - الحروب الصليبية، وبالذات قيام إمارة الرها الصليبية وما لها من انعكاسات على الأوضاع الاقتصادية من زراعية وتجارية داخل أراضي هذه الإمارة نفسها، أو على المناطق المحيطة بها إن كان من قبل الجيوش الصليبية(١)، أو من قبل الجيوش الإسلامية التي تحاول القضاء عليها وتحريرها من قبضة الصليبيين أو على طرق التجارة المارة بها. ويورد ابن الأثير عن قطعهم الطرق البرية والبحرية ونهبهم التجارة كثيراً من الأخبار(٢).

كذلك كان لاختلاف الولاة السلاجقة أولاً، ثم تغير الدول من أراتقة وزنكيين ثم أيوبيين، وضعف وعجز من يتولى شؤونه، وكثرة الحروب والحصار على كثير من مدنه بين فترة وأخرى، وفرض الضرائب والإتارات مقابل فكّ ذلك الحصار أو الخضوع والهيمنة لذلك الغازي الجديد - كان لكل ذلك أثر بالغ في انحطاط الناحية الاقتصادية(٣).

كما ساهم أهل الإقليم من أتراك وتركمان في حدوث تلك الإضطرابات، لكثرة الحروب بينهم، كتلك المذبحة التي حدثت في عام (٥٨١هـ/ ١١٨٥م)(٤) واستمرت عدة سنوات، فقطعت الطرق، ونهبت الأموال، وأريقت الدماء، ثم أصلحَ بينهم مجاهد الدين قايماز نائب صاحب الموصل.

---

(١) غوستاف: حضارة العرب ص (٣٣٦).

(٢) حتى أن والد ابن الأثير كان له تجارة في إحدى السفن التي اختطفها الصليبيون، انظر ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٣٣)، ص (١٥٤، ١٥٥).

(٣) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٤٠٣)، ص (٤٣٦- ٤٣٨)، المسرى: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٩١- ١٩٣).

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٥١٩)، بهاء الدين ابن شداد: النوادر السلطانية ص (٧١).

ويؤيد ابن جبير[1] ذلك عند حديثه عن الأكراد الذين وصفهم بأنهم كثيرو الغارات على المنطقة، وأنهم يقطعون السبيل - بقوله: «ونحن على أهبة» وحذر من إغارة الأكراد، الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين إلى مدينة دينصر يقطعون السبيل ويسعون فساداً في الأرض».

ولما ابتلي الشرق الإسلامي بالغزو التتري تعرض إقليم الجزيرة الفراتية منذ عام (٦٢٨- ٧٠٠هـ/ ١٢٣٠- ١٣٠٠م) لكثير من الدمار والتخريب للنشاط الاقتصادي من نشاط زراعي وتجاري.

ومن المدن التي خربوها مدينة حران، حيث نقل من بقي من أهلها على مناطق أخرى (٦٦٠- ٦٧٠هـ/ ١٢٦١- ١٢٧٠م)، وفي ذلك رسالة أرسلها قازان ملك التتار ببغداد إلى الملك الناصر المملوكي في عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م).

ومما تعرض له هذا الإقليم وتجاره ما ذكره ابن الغوطي[2] في حوادث عام (٦٨٤هـ) أنه هاجم مجموعةٌ من عسكر بلاد الشام ديار بكر والموصل وأربل، وقتلوا ونهبوا وأخذوا أموال التجارة من قيسارية الموصل (أي سوقها)، وقتلوا كثيراً من النصارى في إربل، كذلك نهب مجموعةٌ من الأكراد مدينة البوازيج[3] وقتلوا مجموعةً من النصارى ونهبوا الأموال، وهرب وإليها إلى بغداد.

---

(١) رحلة ابن جبير ص (١٧١).

(٢) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص (٢١٢).

(٣) البوازيج: من أعمال الموصل، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان.

الفصل الثالث

النشاط الثقافي والحياة العلمية والدينية

في إقليم الجزيرة الفراتية

خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

(الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)

الفصل الثالث
النشاط الثقافي والحياة العلمية والدينية
في إقليم الجزيرة الفراتية

اهتم أتابكة إقليم الجزيرة الفراتية من زنكيين وأراتقة وأيوبيين وأتباعهم بالحياة الثقافية في أتابكياتهم، فأقاموا المؤسسات العلمية والدينية من مدارس ومساجد ومكتبات وربط، مقتدين بذلك بأسلافهم سلاطين السلاجقة؛ وذلك تقرباً إلى الله ولدعم المذهب السني خاصة، مذهبي أبي حنيفة والشافعي، ووقفوا عليها الأوقاف الكبيرة.

وبذلك تهيأ للمعلمين وطلاب العلم الجو المناسب للإقامة في ديارهم؛ فقدم إليها الكثير من الأطباء والعلماء والفقهاء الذين خصصت لهم الرواتب المجزية المستمرة، كما شغل كثيرٌ من أولئك العلماء والفقهاء مناصب دينية وإدارية وقضائية رفيعة.

وبفضل هذه الرعاية والعناية شهد إقليم الجزيرة الفراتية حركةً علمية نشطة شملت غالبية مدن الإقليم، وامتدت إلى مختلف المجالات العلمية من لغةٍ وأدب وعلوم نقلية وعقلية[1]، وسنحصر حديثنا عنها وفق انتشار كل منها، ووفق علمائها في هذا الإقليم خلال فترة الدراسة فقط.

---

(١) الفقي: بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي ص (٢٤٩).
خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٥٠١- ٥٠٢).
الديوه جي: تاريخ الموصل: نشر المجمع العلمي العراقي (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ص (٣٧٣). =

اللغة والأدب

تنقسم اللغة العربية وآدابها - كما ذكر ابن خلدون في مقدمته - إلى أربعة أقسام، هي: علم اللغة، والنحو، والبيان، والأدب[1].

ومنذ القرن الرابع الهجري وما بعده أصبح لأئمة اللغة منهجهم في تناول مادة بحثهم بطريقة منظمة، وخلال فترة دراستنا وما قبلها وحتى بداية التاريخ الحديث - أي: القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي - كانت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة في العالم الإسلامي، وكان لا بد لمن يعنى بالكتابة والتأليف - من غير العرب - أن يجيد اللغة العربةي تحدثاً وكتابةً[2]. يقول ابن خلدون (المتوفي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)

= الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي، نشر وزارة المعارف العراقية بغداد (١٣٧٨هـ/١٦٥٨م) ص (٩٢).

(١) مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر والمبتدأ والخبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، نشر دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة بيروت (١٩٨٣م) ص (١٥٥).
حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، نشر دار الفكر، بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، (١: ٥٥).
النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م نسخة مصورة (٧: ١-٤).

(٢) مجموعة من الباحثين: حضارة العراق، نشر دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٥ (٧: ٢١٧).
آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، ط٣ القاهرة (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م) (١: ٤١٦- ٤١٧).
غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة الحلبي وشركاه - القاهرة ص (٤٣٩- ٤٤٠).
كلوس كريزر، فارنرديم، وهانس جورج ماير: معجم العالم الإسلامي، ترجمة د/ ج كتورة
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ص (٢٧- ٣٠).

في حق اللغة العربية وعلى ضرورة تعلمها:

«ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة؛ إذ مآخذُ الأحكام الشريعة كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عربٌ، وشرحُ مشكلاتها من لغتهم؛ فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة باللغة العربية لمن أراد علم الشريعة الإسلامية».

وسنقتصر في دراستنا على مكانة إقليم الجزيرة الفراتية في علوم اللغة في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين).

علم النحو:

يأتي علم النحو في مقدمة علوم اللغة العربية، فبدون تطبيق قواعد النحو يختل المعنى ويتعذر فهم العبارة. هذا وقد اقتفى أهل الموصل أثر ابن جنّي[(١)]، واتبعوا طريقته التعليمية أو «مصطلح تعليمه» كما قال ابنُ خلدون[(٢)].

وكان من أشهر علماء النحو في إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا هذه في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) من يلي:

١- ابن المنقى أبو الحسن علي بن خليفة بن علي النحوي الموصلي (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م):

كان إماماً فاضلاً زاهداً ورعاً، وكان يجلس للتعليم في المسجد المعروف بمسجد النبيّ بالموصل، تأدّب عليه أكثر أهل الموصل، صنف كتاب

(١) ابن جني: هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المشهور صاحب التصانيف الكثيرة والمفيدة في النحو (ت٣٩٢هـ) -ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت (٣: ٢٤٦- ٢٤٨).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص (١٠٥٥)، (١٠٥٩) حاجي خليفة: كشف الظنون (١: ٥٥)، جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، نشر دار مكتبة الحياة بيروت (١: ٨٤).

المعونة في النحو، وله شغرٌ حسن، توفي في سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م)[(١)].

٢- ابن الدهان النحوي البغدادي الإمام ناصح الدين أبو محمد سعيد بن المبارك بن علي ابن عبد الله (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م):

قال عنه العماد الكاتب[(٢)]: «بحرٌ لا يفضض، وحبرٌ لا يغمض، سيبويهِ عصره، ووحيد دهره». وكان يقالُ حينئذ: «النحويون أربعة ببغداد: ابن الجواليقي، وابن الشجري، وابن الخشاب، وابن الدهان». وكان أصحابه يتعصبون له، ويفضلونه على غيره، ويقصدونه لتبحره في النحو.

وقد بقي ابن الدهان في خدمة العلم والتدريس خمسين عاماً، ورحل إلى الموصل وأقام بها في ظل وزيرها المشهور بالجواد جمال الدين الأصهباني، واستوطنها حتى توفي فيها (سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م)، وقد صنف عدةَ مصنفات منها:

١- تفسير القرآن الكريم، في أربعة مجلدات.

٢- شرح الإيضاح والتكملة، في حوالي ثلاثة وأربعين مجلداً.

٣- شرح اللمع في العربية لابن جني سماه «الغرة» قال عنه ابن خلكان: «لم أرَ مثله مع كثرة شروح هذا الكتاب».

٤- كتاب العروض.

٥- كتاب الدروس في النحو، وهو شرح المقدمة التي صنفها للمبتدئين مختصرةً؛ للتسهيل عليهم.

---

(١) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م (٢: ١٦٥)، حاجي خليفة: كشف الظنون (٢: ١٧٤٣)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٠٠) والموصل في العهد الأتابكي ص (١٠٦- ١٠٧).

كحالة: عمر رضا: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي بيروت (٧: ٨٧).

(٢) الأصبهاني: خريدة القصر وجريدة أهل العصر، تحقيق محمد بهجة الأثري، نشر وزارة الإعلام العراقية بغداد ١٩٦٩(٣: ١٩).

٦- كتاب الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية، وتتضمن الرسالة سرقات المتنبي.

٧- كتاب تذكرة سماه «زهرَ الرّياض» في سبعة مجلدات.

٨- كتاب الغنية في الضاد والظاء.

٩- العقود في المقصور والمدود.

١٠- الغنية في الأضداد.

١١- تفسير الفاتحة.

١٢- كتاب الأضداد.

١٣- إزالة المراء في الغين والراء.

١٤- كتاب الدروس في العروض.

١٥- كتاب الرياضة في النكت النحوية.

١٦- تفسير سورة الإخلاص.

١٧- الفصول في النحو.

١٨- المختصر في القوافي.

١٩- شرح بيت من شعر الملك الصالح بن رزيك في عشرين كراسة.

٢٠- النكت والإشارات على ألسنة الحيوانات.

٢١- ديوان شعر.

٢٢- ديوان رسائل[١].

---

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر وجريدة أهل العصر (٣: ٢٠، ٢١).

ياقوت الحموي: معجم الأدباء (١١: ٢١٩- ٢٤٢) تحقيق أحمد رفاعي، دار المستشرق بيروت (١٤١٤هـ/١٩٨٣م).

ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٣٨٢).

ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق الجديدة، =

ومع سعة علم ابن الدهان كان سقيم الخط كثير الغلط «وهذا عجيب منه» كأستاذ إمام في علم اللغة[1]، وقد غرقت كتبه في فيضان نهر دجلة الذي تعرضت له بغداد فحملت إليه الكتب إلى الموصل فبخرها بنفسه بثلاثين رطلاً من اللادن؛ ليزيل عنها الرائحة الكريهة، فصعدت تلك الأبخرة إلى رأسه وعينيه فأصيب بالعمى، ومع ذلك فقد استمر في عطائه العلمي، واستفاد منه خلقٌ كثير في الموصل وإقليم الجزيرة الفراتية. يقول ابن خلكان: «ورأيت الخلق يشتغلون في تصانيفه اشتغالاً كثيراً، وله نظمٌ حسن ومن جيد شعره قوله:

بادر إلى العيش والأيام راقدةٌ ... ولا تكن لصروف الدهر تنتظر
فالعمر كالكأس يبدو في أوائله ... صفوٌ وآخرُه في قعره الكدَرُ

وقال أيضاً:

لا تجعل الهزل دأباً فهو منقصة ... والجد تعلو به بين الورى القيمُ
ولا يغرنك من ملك تبسمه ... ما تصخب السحبُ إلا حين تبتسمُ

وقولة أيضاً:

وأخ رخصتُ عليهِ حتى ملني ... والشي مملول إذا ما يرخُصُ
ما في زمانك من يعز وجودُه ... إن رُمتَه إلا صديقٌ مخلصُ[2]

= بيروت بدون تاريخ (٤: ٢٣٣).
السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١: ٥٨٧).
حاجي خليفة: كشف الظنون (٢: ٢٧٢، ٧٥٢، ٩٣٩).
مجموعة من الباحثين: حضارة العراق (٧: ٢٨٣- ٢٨٤).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٤٧١) النهضة المصرية القاهرة، ط الثانية: ١٩٨٢م.
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٠٠).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (١٠٧).

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج- ١١ ص (٢٢٢).
(٢) الأصبهاني لعماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة أهل العصر (٣: ٢٢- ٢٣).

٣- الخطيب أبو عبد الله موفق الدين محمد بن يوسف بن محمد بن القائد البحراني الأربلي الأصل (ت٥٨٥هـ/ ١١٨٩م):

ولد بالبحرين[١] ونشأ بها؛ لأن أباه كان تاجراً كثير السفر إليها، ويجلب اللؤلؤ منها، ثم رحل موفق الدين إلى أربل وطنه الأصلي، فصار إماماً في علم اللغة العربية، مبرعاً في أنواع الشعر، وكان أعلمَ معاصريه بالعروض والقوافي، وأحذقهم بنقد الشعر، وأعرفهم بجيده ورديئه، فقد جمع فنون الأدب من نظم ونثر ونحو وعروض ونقد[٢].

كذلك اشتغل موفق الدين بالفلسفة والمنطق (علم الأوائل)، فحلّ إقليدس وجزءاً من المجسطي[٣] ثم عدل عنهما، وانكب على دراسة علم النحو يعلم نفسه بنفسه بدون أستاذ، وبلغ فيه الغاية من الإلمام، وجرَت بينه وبين عمر بن الشحنة مناظرةٌ، فظهر على ابن الشحنة الذي قال له: أنت صحفي[٤]، مما جعله يأخذ عن مكي بن ريان، فقرأ عليه أصولَ ابن السراج وكثيراً من

= الحموي: المرجع السابق (١١: ٢٢٣).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٣٨٣- ٣٨٤).
السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١: ٥٨٧).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٤٧١).

(١) البحرين: قديماً هي المنطقة الواقعة على ساحل الخليج بين عمان والبصرة وقصبتها هجر، وأما حالياً فهي مملكة البحرين، انظر الحموي: معجم البلدان (ج٢).

(٢) اليافعي: مرآة الجنان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (ط٢: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، (ج٣: ٤٣١)، السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (ج-١: ٢٨٦). كحالة: معجم المؤلفين (ج-١٢: ١٣٧).

(٣) إقليدس: ثلاث عشرة مقالة لإقليدس اليوناني تعتبر أساس دراسة مبادئ علم الهندسة.
المجسطي: مرجع فلكي هام كان له أثره الواضح في تقدم علم الفلك عند العرب وفي أوروبة في القرون الوسطى، الموسوعة العربية الميسرة.

(٤) الصحفي: من أخذ العلم من غير أستاذ: المعجم الوسيط.

كُتُب سيبويه، وذلك لكي ينتمي إلى أستاذ كعادتهم.

وكان العلامة مكي بن ريان مع غزارة علمه في النحو كثيراً ما يراجعه في المسائل المفُضِلة والمواضيع الصعبة في النحو، ويرجع إليه لأجوبة ما يرد عليه من أسئلة.

واستمر موفق الدين في دراسة كتب النحو حتى صار أستاذاً فيه. وكان خلال وجوده في بغداد يأخذ عن شيوخها علمَ النحو بعدما عيره ابنُ الشحنة بعدم تتلمذه على إمام معروف، لكنه لم يجد من يرضيه فأنفق ما كان قد حمله من أموال لتعلم النحو على تعلم الضرب بالعود، حتى أتقنه في مدّة قصيرة، فصار ملماً بالأغاني ومختلف ألحانها.

ومن تصانيف موفق الدين: ديوان شعر جيد، واختصر العمدة لابن رشيق في صناعة الشعر، والمفضليات، لكنه لم يكملها، وله رسائل حسنة، وكان قد رحل إلى دمشق وخدم السلطان صلاح الدين الأيوبي ومدحه بقصيدة طويلة[١].

٤- أبو الحرم صائن الدين الإمام مكي بن ريان بن شبة بن صالح الماكسيني (ت ٦٠٣هـ/١٢٠٧م) النحوي الضرير[٢]:

كان عالماً لغوياً، نحوياً أديباً، فاضلاً، والغالب عليه علم النحو والقراءات. خرج من وطنه ماكسين إلى الموصل، فقرأ على أبي بكر يحيى بن سعدون القطبي وغيره، ثم رحل إلى بغداد وأخذ من شيوخها أئمة اللغة والأدب مثل ابن الأنباري وابن الدهان وابن الخشاب.

ثم عاد مكي بن ريان إلى الموصل وتصدر بها للتدريس، وكان صبوراً

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان (ج٣: ص ٤٣١).
السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (ج-١: ٢٨٦- ٢٨٧).
كحالة: معجم المؤلفين (ج-١٢: ١٣٧)، حضارة العراق (ج-٧: ص ٢٨٤).
ابن خلكان: وفيات الأعيان ص (٥: ٩).

(٢) ماكسين: بليدة بالجزيرة الفراتية على نهر الخابور، ابن خلكان: (٥: ٢٨٠).

على تلاميذه يجلس لهم إلى صلاة العشاء الأخيرة، وكان كل واحد منهم يقرأ بحرف من حروف القرآن الكريم المعروفة، وهو يسمع إليهم كلهم ويرد على استفساراتهم.

وقد انتفع بعلمه كثير من طلاب العلم منهم: الشيخ علم الدين السخاوي وتخرج عليه بدمشق حيث قرأ عليه هناك، وأبو البركات ابن المستوفي صاحب تاريخ أربل. ولم يقم مكي بن ريان بتأليف أي كتاب؛ فقد كان متفرغاً لمهنة التدريس دون غيرها، حيث أعطاها كل وقته، ورحل إلى دمشق وحلب، واستفاد منه كثيرون.

وتوفي رحمه الله في سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٧م) بالموصل الحدباء[١].

٥- حجة الدين عيسى بن المعلي بن سلمة الرقي[٢] النحوي اللغوي (المتوفي سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م):

انفرد بذكره السيوطي[٣] مع أنه كان أستاذاً مؤدباً بمدينة الرقة بالجزيرة الفراتية، وكانت له فضائل كثيرة، وصنف المعونة في النحو وشرحها، ومن مصنفاته الأخرى:

تبيين الغموض في العروض، وله كتاب في اللغة العربية في مجلدين، وديوان شعر. توفي في سنة (٦٠٥هـ/١٢٠٨م).

٦- ابن الأرملة النحوي، أبو الثناء وأبو المجد محمود بن الحسن بن علي بن الحسن: (٦٠٦هـ/١٢٠٩م):

---

(١) الحموي: معجم الأدباء (١٩ : ١٧٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥/١٧٨ : ٢٧٩).

ابن كثير: البداية والنهاية (١١ : ٤٦).

(٢) صحح نسبته إسماعيل باشا البغدادي من الرافقي إلى الرقي، نسبة إلى مدينة الرقة الفراتية انظر مرجع كشف الظنون لحاجي خليفة (٥: ٨٠٩) وذكر أنه ورد عند ياقوت الحموي.

(٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (٢ : ٢٣٩).

انفرد أيضاً بذكره السيوطي[1]. أخذ علم النحو عن ابن المنقي علي بن خليفة وابن الدهان السابق ذكرهما، وكان يدرس في الجامع بأربل القرآن الكريم والنحو، عرفَ عنه تعصبُه لبني أمَية، وكان متكلفاً في أشعاره.

اختصر ابن الأرملة المجمل لابن فارس، فلما سلمه إلى ناسخ لينسخه له أخَذَ يملي عليه أوامره، فعلم بذلك العلامة مكي بن ريان فتعجب من أسلوبه وطلب المختصر المذكور. فلما اطلع عليه رآه اختصاراً مخلاً فأمر برميه، فلما علم بذلك ابنُ الأرملة طلب من الناسخ تمزيقه. توفي ابن الأرملة في سنة (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)[2].

٧- ابن الدهان أبو زكريا يحيى بن سعيد بن المبارك بن علي بن عبد الله النحوي بن النحوي (ت ٦١٦هـ/ ١٢١٩م):

بعد وفاة والده اعتنى به العلامة النحوي مكي بن ريان؛ إكراماً لوالده، فأخذ النحو عنه وتخرج على يديه، فصار نحوياً، صوفياً، أديباً، شاعراً، ذكياً، كان أحدَ نحاة عصره وأدبائه المشاهير.

وقد اجتمع به ياقوت الحموي وروى شيئاً من شعره[3] حيث قال:

وعهدي بالصبا زمناً وقدي حكى ألف ابن مقلة في انتصاب
وصرت الآن منحنياً كأني أفتش في التراب على شبابي

٨ - أبو محمد أحمد بن حميد بن محمود الدنيسري النحوي (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م):

---

(١) نفس المرجع ص (٢٧٦- ٢٧٧). أبو شامة: الذيل على الروضتين تحقيق الكوثري والحسيني، دار الجيل بيروت ط الثانية ١٩٧٤ص (٥٨- ٥٩).

(٢) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (٢: ٢٧٧).

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (ج-٢٠: ١٥- ١٦).

ابن خلكان: وفيات الأعيان (ج-٢ ص ٣٨٥)، السيوطي: بغية الوعاة (ج-٢: ٣٣٤).

الزركلي: الأعلام (ج-٨: ١٤٨).

من أهل مدينة دنيسر، رحل إلى بغداد لطلب العلم، وأخذ عن شيوخها مثل ابن الجوزي وغيره، وكان عالماً بالفقه، فاضلاً، ذا معرفة جيدة بالنحو واسعَ المعرفة. وقد رحل من بغداد إلى مدينة ميافارقين بديار بكر، وتوفي بها سنة (٦٣٢هـ)[١].

٩- ابن الخباز الشيخ شمس الدين أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي الأربلي الموصلي النحوي الضرير، المتوفي (٦٣٧هـ/١٢٣٩م):

وهو أستاذ بارع، كان علامةَ زمانهِ في النحو واللغة والفقه والعروض والفرائض، وكان كثيرَ النوادر والملحِ، وتفقه عليه كثيرون، وشعره جيد.

ولابن الخباز المصنفات الكثيرة المفيدة في النحو وغيره منها: النهاية في النحو، وشرح ألفية ابن معط وسماها الغرة المخفية في شرح الألفية[٢].

١٠- أبو العباسي ضياء الدين صالح بن إبراهيم بن أحمد النحوي المقري الفارقي (ت ٦٦٥هـ-١٢٦٦م):

ولد بمدية ميافارقين في سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م)، وقد تصدر لتدريس الإقراء وتعليم النحو، وكان فاضلاً خيراً، وتوفي بالقاهرة، ولم يُذكر متى رحل إليها[٣].

١١- مجد الدين عبد الرحيم بن أبي بكر الجزري الفقية النحوي الصوفي (ت ٦٩٨هـ/١٢٩٨م):

كان من كبار النحاة، له حلقة تدريس في النحو وغيره، وكان فيه عشرةُ

---

(١) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (ح ١ ص ٥٤٦).
حضارة العراق (ح-٧: ٢٨٧).

(٢) اليافعي: مرآة الجنان (٤ : ١٠١)، وابن كثير البداية والنهاية (١٣: ١٥٧). السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١: ٣٠٤). الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٠٠)، والموصل في العهد الأتابكي ص (١٠٧). حضارة العراق (٧: ٢٨٤).

(٣) السيوطي: المرجع السابق (٢ : ٨).

حسنة وانطباعٌ جيد[1].

علم اللغة:

قال ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد[2]:

قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة[3]: «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم».

وقال ابن سيرين[4]: «العلم أكثر من أن يحاط به؛ فخذوا من كل شيء أحسنه» وقال عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما): كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسعُ جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل».

يتضح لنا من كلام ابن قتيبة وابن سيرين أن من أراد أن يكون عالماً فعليه أن يتعمق في علم من العلوم، بل في فرعٍ من ذلك العلم؛ لكي يلم به ويعلم كل صغيرة وكبيرة فيه، حتى يجيده إجادةً تامة، وهو ما يعرف حالياً بالتخصص الدراسي.

ولكن بالإطلاع على المعلومات التي جمعناها عن أشهر العلماء وأهم مؤلفاتهم في إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا هذه في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) وما قبلها، وحتى بداية العصر الحديث - لا يوجد هناك أي وجه للمقارنة بينها وبين ما هو قائم حالياً من تخصص في علم من العلوم.

ومن خلال دراستنا هذه ومن خلال تناولي لأشهر علماء النحو، وجدت

---

(١) السيوطي: نفس المرجع (٢: ٩١).

(٢) (ح-٢: ٢٠٨).

(٣) الدينوري النحوي اللغوي، صاحب كتاب «المعارف» و «أدب الكاتب» (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م). انظر ابن خلكان (٣: ٤٢-٤٤).

(٤) هو محمد بن سيرين البصري: إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي، له كتاب «تعبير الرؤيا» هو مطبوع (ت١١٠هـ/ ٧٢٩م). الزركلي: الأعلام (٦: ١٥٤).

أن عالم النحو هو في نفس الوقت عالمٌ ليس فقط في مجال اللغة والأدب، بل أيضاً في علوم أخرى، كالتفسير والحديث والقراءات وعلوم الفقه، وقد تعدّاها إلى العلوم العقلية من فلسفة ومنطق ورياضيات وهندسة وفلك.

هذا وقد تطور علم اللغة العربية خلال فترة دراستنا هذه تطوراً ملحوظاً؛ وذلك بارتقاء علم النحو وتنظيم المعاجم[1] وغيرهما من علوم هذه اللغة الخالدة، لغة القرآن الكريم التي كانت في السابق مختلطة ثم استقل كل فرع منها عن الآخر، كالنحو، والصرف، واللغة، والمعاني، والبيان، والاشتقاق، والعروض، والقوافي، والبلاغة وغيرها[2].

ومن أشهر من ساهم في هذا التطور من علماء إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا من يلي:

١- سابق الدين أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي (ت ٥٦٧هـ/ ١١٧١م):

كان أحدَ الأئمة في القراءات، وعلوم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والنحو، واللغة العربية، وغير ذلك من العلوم.

ولد يحيى بن سعدون القرطبي بمدينة قرطبة الأندلسية عام (٤٨٦هـ) ثم خرج منها في عنفوان شبابه؛ طلباً للعمل إضافةً لما درس في بلاده، فكانت الديار المصرية أولى محطاته في المشرق العربي، وأخذ من شيوخ القاهرة والإسكندرية، ثم رحل إلى بغداد سنة (٥١٧هـ) وتتلمذ على عدد من شيوخها، ثم خرج منها إلى دمشق وأقام بها مدة درس فيها القرآن الكريم والنحو، ثم

---

(١) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام (٤ : ٤٧٤).

(٢) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٨٩) دار مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ، سعيد عاشور وعوض خليفات: عمان والحضارة الإسلامية جامعة السلطان قابوس ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

كلوس وفارنرهانس: معجم العالم الإسلامي، ترجمة ج كتورة ط١ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ص (٦٧٥).

رحل إلى أصبهان وبقي مدة، ثم عاد إلى الموصل حيث استقر بها واتخذها وطناً له وأصبح شيخها المشهور.

كان الشيخ القرطبي متواضعاً، حسن الخلق، ثقة، صدوقاً، لذا كثر طلابه ومريدوه، وفي الموصل أخذ العلمَ عنه أكثر شيوخها منهم القاضي المشهور ابن شداد بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، وكثيرون غيره(١).

٢- شميم الحلي أبو الحسن علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م):

هو النحوي اللغوي الشاعر، والحلي: نسبة إلى الحلة المزيدية في العراق، رحل منها إلى بغداد لطلب العلم فدرس فنون الأدب على شيوخها خاصة على ابن الخشاب. كان ذا حمق وتيهٍ وعجب بنفسه ودعاوٍ كثيرة تكسيه بغرور فضائله، وذلك حسبما وصفه الذهبي(٢).

ثم ترك بغداد ورحل إلى الشام وديار بكر، وهناك مدح ملوكها وأعيانها، ونال جوائزهم الثمينة. وخلال وجوده في مدينة آمد التقى به ياقوت(٣) الحموي في عام (٥٤٤هـ) ورأى أهلها معجبين به، ومن عجبه بتصانيفه ما دار من حوار بينه وبين ياقوت الحموي الذي طلب منه تعليمه علوم الأدب. وكان الحلي بذيء اللسان، كثير السب والشتائم في الناس، وخاصة أهل العلم الذين

---

(١) انظر الحموي: معجم الأدباء (٢٠: ١٤، ١٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٣٧٦).

أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين، القسم الأول تحقيق البيومي دمشق ٩١- ١٩٩٢ ص (٣٢٢). تاريخ ابن الفرات: تحقيق الشماع، بغداد، بدون تاريخ (١: ٢٠٦- ٢٠٨).

السيوطي: بغية الوعاة (ج-٢: ص٣٣٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٦: ١٧١- ١٧٢).

ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: بدون تاريخ (٤: ٢٢٥).

(٢) العبر في خبر من عبر (ج-٣: ١٣٢). أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (٥٢).

(٣) معجم الأدباء (ج-١٣: ٥٠- ٧٠).

سبقوه قادحاً في أعراضهم، ولا يذكر لأحد فضلاً ولا معروفاً، غير ملتزم بأمور الدين، قاطعاً الصلوات المفروضة، معارضاً للقرآن الكريم، وكان في شعره تعسفٌ[1]، وكان لا يهتم بمن يزوره ولا يقوم له مهما علت منزلته ولشميم الحلي عدة مصنفات منها[2]:

١- كتاب الحماسة، جمع فيه نظمه. ورتبه على عشرة أبواب مضاهياً به كتاب «الحماسة» لأبي تمام الطائي.

٢- كتاب «الخطب» منافساً به خطب ابن نباته.

٣- كتاب «الخمريات» ضاهي به خمريات أبي نواس.

٤- كتاب «أنيس الجليس في التجنيس» يمدح فيه السلطان صلاح الدين الأيوبي.

واستقر المقام بشميم الحلي بمدينة الموصل حيث اتخذها موطناً له، وتوفي بها بعد عمر طويل عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م)[3].

٣- ابن الأثير الجزري[4] مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م):

رحل مع والده وأسرته إلى الموصل، وكان أحدَ الإخوة الثلاثة الذين اشتهروا بالعمل، وسنتحدث عن كل واحد منهم في تخصصه، وإن لم يكن هناك تخصص محدد كما سبق القول، ومع هذا اختص مجد الدين بعلم الحديث الشريف. تلقى مجد الدين تعليمه أولاً بمدينة الموصل من أدب

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٣٣٩- ٣٤٠).

(٢) تاريخ ابن الفرات (٥: ٣٤- ٤٠) تحقيق حسن محمد الشماع، نشر جامعة بغداد (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (١٣: ٥٣، ٥٦). الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ١٣٢).
الديوه جي: تاريخ الموصل (ص ٣٨٩).

(٤) الجزري: نسبة لجزيرة ابن عمر في إقليم الجزيرة الفراتية.

وحديث وغيرهما على يد شيوخها، ثم رحل إلى مدينة بغداد كعادة طلبة العلم في تلك الفترة وأخذ عن شيوخها، وبعد تحصيله للعلوم عاد إلى الموصل وقربه ملوكها الأتابكة الزنكيون، وقلدوه مناصب إدارية رفيعة، منها: الخزانة لسيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي (٥٦٥ - ٥٧٦هـ/ ١١٦٩- ١١٨٠م) الذي ولاه بعد ذلك ديوان جزيرة ابن عمر وأعمالها، ثم عاد إلى الموصل، فناب في الديوان عن الوزير جلال الدين أبي الحسن علي بن جمال الدين الأصبهاني.

ثم عمل مع مجاهد الدين قايماز بن عبد الله نائب المملكة في الموصل حيث صار كاتباً للإنشاء في درجة وظيفية عالية. فلما سجن النائب المذكور قربه إليه الملك الأتابك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود (٥٧٦ - ٥٨٩هـ/ ١١٨٠- ١١٩٣م)، فتولى ديوان رسائله إلى أن توفي عز الدين مسعود.

ثم عمل عند ابنه الأتابك نور الدين أرسلان شاه (٥٨٩ - ٦٠٧هـ/ ١١٩٣- ١٢١٠م) فحظي عنده بمنزلة رفيعة حتى صار أخص وأقرب رجال دولته عنده لا يقدم لعمل إلا بمشورته، حتى أصيب في أيامه الأخيرة بمرضٍ عضال كف يديه ورجليه عن الحركة، فصار الأتابك نور الدين يزوره في منزله ليستشيره، أو يرسل إليه مملوكه بدر الدين لؤلؤ[1] الذي صار فيما بعد وصياً ومدبراً للأتابكية الزنكية. ثم غدا هو نفسه صاحب الموصل وملكها.

وقيل: بل رفض الوزارة عندما عرضها عليه نور الدين أرسلان شاه وذلك لكبر سنه واشتغاله بالعلم، وهما أمران لا يجتمعان معاً[2].

---

(١) الحموي: معجم الأدباء (١٧ : ٧٣)، وتاريخ ابن الفرات(٥: ١٠٠- ١٠١).
أبو شامة: الذيل على الروضتين (٦٨)، وابن خلكان: وفيات الأعيان (٤ : ١٤١-١٤٣).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية (٦ : ١٩٨).
الموصلي: تاريخ الموصل، الطبعة السلفية القاهرة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م) (٢: ٩٧).

(٢) تاريخ ابن الفرات: (٥: ١٠١)، وابن كثير: البداية والنهاية (١٣ : ٥٤).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ١٤٣).

وخلال مرضه العضال هذا تفرغ مجد الدين أبو السعادات للعلم والتصنيف. قال عنه أخوه عز الدين[1]: «إنه كان عالماً في عدة علوم مبرزاً فيها، منها: الفقه، والأصول، والنحو، والحديث، واللغة». والذي يهمنا هنا هو مؤلفاته الأدبية من لغة ونحو وغيرها، وهي:

١- كتاب البديع في النحو، قرابة أربعين كراسة، ويقال: إنه كان بديعاً كاسمه سلك فيه أسلوباً غريباً وبوبه تبويباً عجيباً.

٢- كتاب تهذيب فصول ابن الدهان في النحو.

٣- كتاب الباهر في الفروق في النحو أيضاً.

٤- كتاب الشافي في شرح مسند الإمام الشافعي، أبدع في تصنيفه فذكر أحكامه واهتم بلغته ونحوه ومعانيه، وهو في مائة كراسة.

٥- كتاب ديوان رسائله.

٦- كتاب البنين والبنات والآباء والأمهات والأذواء والذوات، في مجلد واحد.

٧- كتاب الإنصاف بين الثعلبي وصاحب الكشاف.

٨- كتاب المختار في مناقب الأخيار، في اربعة مجلدات[2].

وهناك كتابان آخران، هما: كتاب لطيف في صنعة الكتابة، وآخر بعنوان كتاب المرصع، وفيه فوائد تاريخية ولغوية[3]. وكانت وفاة مجد الدين ابن

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢ : ٢٨٨). وانظر أيضاً أبا الفداء: المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة بدون تاريخ (٣: ١١٢، ١١٣).

(٢) الحموي: معجم الأدباء (١٧ : ٧٦، ٧٧). وتاريخ ابن الفرات (٥: ١٠٣).
السيوطي: بغية الوعاة (٢: ٢٧٥).
حاجي خليفة: كشف الظنون (١: ١٨٢، ٢٣٦، ٢٥٦).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ١٤١).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦: ١٩٨).
الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ٩٨).

الأثير بمدينة الموصل سنة (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م).

٤- أمين الدين أبو الدر ياقوت بن عبد الله الموصلي الكاتب[١] (٦١٨هـ/ ١٢٢١م): المعروف بالملكي نسبة إلى السلطان أبي الفتح ملكشاه بن سلجوق بن محمد بن ملشكاه؛ وربما سمي بذلك لأنه كان مولاه.

قدم ياقوت الموصل واستوطنها، وتتلمذ على يد شيخ النحويين بها سعيد بن الدهان، فقرأ عليه مؤلفاته وديوان المتنبي والمقامات الحريرية، وكان ذا فضل كبير وذكاء وقاد.

وكان ذا علم وأدب لكنه برز بصفة خاصة في كتابة الخط، وكان لا يدانيه أحد في حسن خطه، حتى صار الوحيد في زمانه الذي يجيد طريقة ابن البواب في النسخ[٢]؛ لذا انتشر خطه في الآفاق وأصبح أستاذ الخط وإمامه، فقصده طلبة العلم في ذلك، وكان مغرماً بنسخ كتاب الصحاح للجوهري، فنسخ كل نسخة منه في مجلد واحد، بيعت الواحدة منها بمائة دينار.

وكان مشهوراً، وقد أثنى عليه الكتاب والشعراء نظماً ونثراً، فقد مدحه نديب الدين الحسين بن علي الواسطي في قصيدة طويلة مع أنه لم يكن رآه بل سمع عنه؛ وذلك لانتشار صيته بحسن الحظ وجودته، وقد كبر سنه وتغير خطه في آخر أيامه[٣].

---

(١) سماه الكتبي ياقوت المستعصمي، نسبة إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله.
الكتبي: فوات الوفيات. تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت بدون تاريخ (٤: ٢٦٣) ويبدو أنه خلط بينه وبين ياقوت الرومي الشاعر.

(٢) ابن البوّاب: هو علي بن هلال الخطاط المشهور، عاش في القرن الخامس الهجري.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٤٠٥).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٦: ١١٩- ١٢٢). اليافعي: مرآة الجنان (٤: ٤٢، ٤٣).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٥: ٢٨٣).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٩٦).

٥- ابن الأثير الجزري ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الكاتب الشهير (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م).

ولد بجزيرة ابن عمر، ثم انتقل مع والده وأسرته إلى مدينة الموصل عام (٥٧٦هـ) وبها تلقى تعليمه خاصة العلوم الدينية والأدبية، فحفظ القرآن الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة. وقد ركز على علوم اللغة العربية وآدابها من نحو وبيان وغيرهما، وحفظ كثيراً من دواوين الشعر العربي، خاصة شعر الطائيين مثل ديوان أبي تمام حبيب بن أوس، وديوان أبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري، وديوان أبي الطيب المتنبي أحمد بن الحسين.

تقرب ضياء الدين إلى الملوك والسلاطين، وكان في مقدمتهم السلطان صلاح الدين الأيوبي، ثم لازم ابنه الملك الأفضل الذي جعله وزيراً له بعد أن استقل بدمشق، وعندما أخذت دمشق من «الأفضل» وخرج منها. وكان ضياء الدين قد أساء السيرة في دمشق - كما يبدو - فغضب عليه أهلها وهموا بقتله، فأخرجه الحاجب منها في صندوق مغلق ولحق بالأفضل الذي اصطحبه معه إلى القاهرة. وعندما ملك الملك العادل مصر وخرج الأفضل منها خرج ضياء الدين منها مستخفياً كما خرج من قبل من دمشق؛ خوفاً من أن يقتل. وهكذا ظل ضياء الدين مترددا بين أمراء وملوك البيت الأيوبي في بلاد الشام التي لم يلق فيها من قبل أهلها رضى فرجع إلى مدينة الموصل واستقر بها وذلك في سنة (٦١٨هـ) وعمل عند ملكها ناصر الدين محمود بن القاهر وأتابكه مدبر دولته آنذاك بدر الدين لؤلؤ. وكانت وفاته ببغداد في مهمة هناك حيث كان مبعوثاً إلى الخليفة[١].

---

(١) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٣٨٩- ٣٩١).

ابن الفوطي البغدادي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث، بيروت (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص (٧٢). أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (١٦٩). الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٢٣٢)، حضارة العراق (٧: ٣٢٦). =

وكانت بينه وبين أخيه المؤرخ عز الدين مقاطعة كبيرة[1]، وربما يعود ذلك؛ لانهماكه في حب المناصب، وتقربه إلى الملوك، وعدم استقامة سيرته؛ لأنه كان ظالماً.

وظهر هذا من غضب الناس عليه في مدينتي دمشق وحلب وغيرهما.

ومع هذا، فإنه في الجانب الثاني من حياته - وهو الكتابة والتأليف - بلغ الشأوَ الكبير، حيث انتهت إليه - كما ذكر الذهبي - رئاسة الإنشاء والترسل، كما اشتهر أيضاً بالبلاغة والنقد، فصنف عدة مؤلفات. يأتي في مقدمتها كتابه القيم: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، في مجلدين يتضمن علوم البلاغة وأساليب البيان، وانتشر خارج إقليم الجزيرة الفراتية. وفي بغداد تصدى للرد عليه الفقيه الأديب ابن أبي الحديد أبو حامد عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد المدائني، فقد جمع مؤاخذاته عليه في كتاب سماه «الفلك الدائر على المثل السائر» لكن أخاه موفق الدين أبا المعالي أحمد قاسم بن هبة الله كتب إلى أخيه المذكور معترضاً على تأليفه هذا الكتاب فقال: المثل السائر يا سيدي صنفت فيه الفلك الدائر، لكن هذا فلك دائر تصير فيه المثل السائر.

٢- كتاب «الوشي المرقوم في حل المنظوم» ومع صغر حجمه إلا أنه في غاية الجودة.

٣- «المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء» ويعتبر فريداً في موضوعه.

٤- وقد جمع مجلداً كبيراً لمختارات من شعر أبي تمام والبحتري وديك

= اليافعي: مرآة الجنان (٤: ٩٧، ٩٨)، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٣٥٢).

السيوطي: بغية الوعاة (٢: ٣١٥).

اليونيني: موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي في القاهرة الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م (١: ٦٤-٧٠).

(١) الذهبي: العبر في خبر من عبر (ح-٣: ص٢٣٢).

الجن[1] والمتنبي.

٥- ديوان كبير من عدة مجلدات ضمنه رسائله.

٦- الجامع الكبير في علم البيان.

٧- البرهان في علم البيان.

٨- ديوان آخر في مجلد واحد سماه «المختار» وله رسالة طويلة يصف فيها مصر ونهر النيل الخالد.

ومع هذه المكانة في فن الكتابة والإنشاء إلا أنه لم يكن بذلك المستوى الرفيع في نظم الشعر. هذا وكانت بين ضياء الدين وبين القاضي الفاضل المتوفي سنة (٥٩٦هـ) رسائل متبادلة فيها أخذ ورد بينهما في مواضيع مختلفة من الكتابات الإنشائية. وكان القاضي الفاضل أشهر وزراء صلاح الدين الأيوبي، المتوفي عام (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م)[2].

٦- ابن المستوفي شرف الدين أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الأربلي (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م):

وزير أربل وقاضيها ومؤرخها، ولد بمدينة أربل عام (٥٦٤هـ) ونشأ بها

---

(١) ديك الجن: عبد السلام بن رغبان الكلبي الحمصي (ت٢٣٥هـ/ ٨٥٠م).
كحالة: معجم المؤلفين (٥: ٢٢٤).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٩١- ٩٥) الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ٩٩، ١٠٠).
أبو شامة: الذيل على الروضتين (١٦٩) والذهبي: المرجع السابق ص (٢٣٢).
اليافعي: مرآة الجنان (٤: ٩٨- ٩٩)، والسيوطي: بغية الوعاة (٢: ٣١٥).
ندوة دور الموصل في التراث العربي، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد (١٩٩٠م) ص (٢٤٣- ٢٤٧). القاضي الفاضل: هو الأسعد محيي الدين عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية القاهرة (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١)(٨: ١)، والمنجد في اللغة والأعلام.

وتلقى تعليمه فيها، فقرأ القرآن الكريم والأدب على أستاذي النحو واللغة العربية: محمد بن يوسف البحراني، ومكي بن ريان، وغيرهما من الشيوخ.

وكان جيد الحفظ، وصار إماماً في علم الحديث الشريف وأسماء رجاله. وكان حاذقاً ماهراً في فنون الأدب من نحو ولغة وعروض وقواف وعلم البيان، وأشعار العرب وأخبارهم ووقائعهم وأيامهم المشهورة، وأمثالهم. وقد تميز في علم الديوان وحسابه وضبط قوانينه؛ لذا أوكل إليه ديوان الإستيفاء، وكان جليل القدر، كثير التواضع، كريماً؛ فقد كان منزله مأوى للأفاضل من الناس، خاصة الأدباء منهم الذين كانوا يفدون إلى أربل فيحلون ضيوفاً عليه، فيكرمهم ويجزل لهم الهدايا والمنح. وقد تولى مناصب إدارية رفيعة في اتابكية أربل، فقد شغل أولاً منصب مستوفي الديوان، وهو منصب يلي منصب الوزارة في هذه الأتابكية، ثم رقي في عام (٦٢٩هـ) حسب ما ذكر ابن خلكان، وكانت سيرته حسنة، وكان مشكوراً عليه من قبل الناس.

ومع ما اتصف به من كرم وحسن خلق وعدالة في منصبه، إلا أنه تعرض لمحاولة قتل من قبل شخص هجم عليه وهو خارج من مسجد مجاور لمنزله في ليلة من الليالي المدهمة[(١)]، وهذا ينطبق عليه قول القائل: ليس يخلو المرء من ضد، ولو حاول العزلة في رأس الجبل، فصد ضربة ذلك الشخص بيده، وجرح عضده جرحاً عميقاً، فأحضر في الحال المزين، وخاطها ومرخها ولفها باللفائف[(٢)]. وقد كتب إلى الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ١٤٧، ١٤٩).
الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٢٣١).
اليافعي: مرآة الجنان (٤: ٩٥- ٩٧).
السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (٢: ٢٧٢).

(٢) المزين: الحلاق الذي يحلق الشعر وكان يقوم بمهمة الطبيب الجراح في تلك الأيام خاصة، لمعالجة الجروح الطارئة.
القمط: قمط الشيء أي: شده برباط. انظر المعجم الوسيط.
التمريخ: يقال مرخ الجلد، أي: دهنه بقوة، أي: أثره واضح من شدة التدهين. =

يخبره بذلك في أبيات تعتبر من أجود نظمه، وكان ذلك في عام (٦١٨هـ). وعلى كل فقد بقي ابن المستوفي في منصبه هذا إلى أن توفي مظفر الدين عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، وأخذ الخليفة العباسي المستنصر بالله مدينة أربل حسب وصية مظفر الدين بذلك؛ لأنه ليس له وريثٌ، وبذلك خرج ابن المستوفي من الوزارة وجلس في منزله، وخدمه الناس إلى أن استولى التتار على مدينة إربل سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م) ووضعوا في أهلها القتل والسلب والنهب، وكان ابن المستوفي في جملة من اعتصم في القلعة وسلم من أذاهم وشرهم.

ولما رحل التتار عنها، رحل ابن المستوفي إلى الموصل واستقر بها ولقي من صاحبها الأمير بدر الدين لؤلؤ كل تقدير واحترام، وأجري له راتب يصل على منزله. وكانت عنده كثير من الكتب النفيسة. وبقي على ذلك الحال إلى أن توفاة الله بها عام (٦٣٧هـ)[١].

ولم يكن منصب المستوفي غريباً عليه، إذ كان أبوه وعمه - صفى الدين أبو الحسن علي بن المبارك وهو الذي نقل نصيحة الملوك تأليف أبي حامد الغزالي من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية التي كتبها أساساً باللغة الفارسية[٢] - قد شغلا هذا المنصب.

وقد قام شرف الدين ابن المستوفي بتصنيف عدة مؤلفات، منها:

١- تاريخ إربل الذي سماه «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل» وسنتحدث عنه عند تناولنا لعلم التاريخ.

٢- كتاب النظام في شرح المتنبي وأبي تمام، في عشرة مجلدات.

٣- كتاب إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصل، في مجلدين، وقد

= انظر نفس المرجع.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ١٤٩- ١٥١).
اليافعي: مرآة الجنان (٤: ٩٧). ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، نشر دار الفكر، بيروت (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص (١٧١). السيوطي: بغية الوعاة (٢: ٢٧٢).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ١٥١). واليافعي: مرآة الجنان (٤: ٩٧).

تناول فيه الأبيات التي استشهد بها الزمخشري[١] في المفصل.

٤- كتاب سر الصنعة.

٥- كتاب أبي قماش[٢]، جمع فيه الكثير من الأدب والنوادر وغيرها.

وقد أجاز لأبي نصر القاضي عماد الدين[٣] بن الشيرازي. وذكر ابن خلكان أنه سمع من ابن المستوفي كثيراً فقال: «وسمعت بقراءته على المشايخ الواردين على إربل شيئاً كثيراً لأنه كان يعتمد القراءة بنفسه[٤]».

٧- رشيد الدين أبو حفص عمر بن إسماعيل بن مسعود بن سعد بن سعيد الربيعي الفارقي (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م):

الأدبي الشافعي، ولد عام (٥٩٨هـ)، ولم تذكر المصادر مكان ولادته. ومن اسمه يتضح أنه ينتسب إلى مدينة ميافارقين إحدى مدن إقليم الجزيرة الفراتية التي سبق الحديث عنها. سمع من الفخر بن تيمية، وعبد العزيز بن باقا، وابن الزبيدي، وجماعة غيرهم من العلماء. كان أديباً بارعاً منشئاً بليغاً، وشاعراً مفلقاً ولغوياً محققاً، انتهت إليه رئاسة الأدب، وكانت له يد طولى في التفسير والبيان والبديع واللغة، برع في البلاغة والنظم والنثر، وقد أفتى وناظر غيره من العلماء وكان حلو المحاضرة.

---

(١) الزمخشري: محمود بن عمر بن محمد الخورزمي (ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م).
كحالة: معجم المؤلفين (١٢: ١٨٦).
خيير الدين والزركلي: الأعلام: (٧: ١٧٨).

(٢) وقد ذكر اليافعي أن اسمه «أبا حماش». انظر: مرآة الجنان ص (٩٦).
حاجي خليفة: كشف الظنون (١: ٥).

(٣) الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها (٥: ٤٨).

(٤) ابن خلكان: المرجع السابق (١٤٧). الذهبي: العبر (٣: ٢٣١).
اليافعي: المرجع السابق ص (٩٦).
السيوطي: بغية الوعاة (٢: ٢٧٢).
ابن الفوطي: الحوادث الجامعة (٧١).

ومع أنه أديب إلا أن له مشاركاتٍ في علوم أخرى كالأصول والطب، وله مقدمتان في النحو: كبرى وصغرى. وقد امتهن مهنة التدريس فدرس بدمشق بالمدرسة الناصرية مدةً، ثم انقطع بالمدرسة الظاهرية حتى وفاته حيث خنق بها في بيته، وأخذ ماله في العام المذكور سابقاً، وقد استفاد منه كثير من طلاب العلم، وله شعر جيد وألغاز يصوغها شعراً[(١)].

٨- الوزير الكاتب فخر الدين إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الشيباني الأسعردي (ت ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م):

أصله من قرية من قرى مدينة اسعرد[(٢)]، عمل في الوظائف الإدارية فعمل في بداية حياته العملية كاتباً على عرصة الغلال من قمح وغيره بمدينة آمد، ونائباً عن ناظر ديوان البيوت بها، ولما استولى الملك الكامل بن العادل الأيوبي ملك مصر على مدينة آمد وكان القاضي بهاء الدين زهير صاحب ديوان الملك الكامل قد أعجب بخط ابن لقمان وعباراته، فاصطحبه معه إلى مصر[(٣)].

وقد ناب عنه بديوان الإنشاء إلى عهد الملك الصالح بن الكامل الأيوبي، ثم استقل بعد ذلك بديوان الإنشاء، وشغل منصب الوزارة عدة مرات. وعند عزله عن الوزارة أخذ دواته على ديوان الإنشاء وعاد كاتباً فيه كما

---

(١) الذهبي: العبر في خبر من غبر (٣: ٣٧٠)، الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها (٣: ١٢٩- ١٣١).

اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٤: ٢٠٨- ٢٠٩).

السيوطي: بغية الوعاة (٢: ٢١٦).

(٢) أسعرد: مدينة بالقرب من مدينة ميافارقين شرقي دجلة بالجزيرة الفراتية، - أبو الفداء: تقويم البلدان ص (٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) تاريخ ابن الفرات: (٧: ١٨٦)، ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤م (١: ١٣٦- ١٣٧).

كان سابقاً، ومن كثرة توليه الوزارة وعزله عنها كان يقول: «جاءت فما كثرت، وراحت فما اثرت».

كان يحدث عن ابن رواح، وقد أثنى عليه بالعلم والفضل، وله نظم حسن ونثر وترسل، توفي بمصر عام (٦٩٣هـ)[1].

(١) تاريخ ابن الفرات: (٧: ١٨٦).
ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (١: ١٣٧- ١٣٨).

علم الأدب

الفنون البلاغية، حتى صار الأدب من نظم ونثر فناً جميلاً من جملة الفنون الجميلة في تلك الفترة[1].

أما عن الشعر فقد امتاز الشعر في هذا العصر بالرقة والعمق والتفنن في المعاني، كما امتاز بالنقد الدقيق، هذا ويلاحظ انتشار موجة المديح في الشعر الجزري، مع ازدياد روح التنافس بين الشعراء والكتاب الذين كان من أهم أغراضهم أن يحظوا بالتقرب من الملوك والسلاطين وكبار أعيان أتابكياتهم؛ رغبة في استمرار عطاياهم وكرمهم، فقالوا فيهم قصائد المديح؛ تخليداً لهم ومشيدين بأعمالهم[2].

وقد نظمت قصائد المديح في مناسباتٍ مختلفة، منها مناسبات الأفراح، كالأعراس، أو مولد مولود جديد، أو بمناسبة ختان ولد من أولادهم، أو انتصار في معركة من المعارك، خاصة وقد شهدت المنطقة العليا من إقليم

---

(١) حسنين، عبد النعيم: إيران والعراق في العصر السلجوقي، دور الكتب الإسلامية والمصري واللبناني ط الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص (١٨٨، ١٩١، ١٩٢).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي المكتبة الأهلية بغداد ١٣٥٨هـ/١٩٦٥م (٢٨١).

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٤٧٨).
متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ص (٤٦٠).

الجزيرة الفراتية صراعاً مريراً بين المسلمين والصليبين، كما ساهم ملوكها وأهلها في الحروب التي كانت تقع في بلاد الشام والأراضي المقدسة بفلسطين، وربما نظموا الشعر مواساةً لهم فيما ألم بهم من مكروه، كوفاة قريب لهم، أو يدعون لهم بالسلامة والعافية إذا ما مرضوا أو أصيبوا بحادث طارئ.

ولم يشذ إقليم الجزيرة الفراتية عن هذه القاعدة؛ فأهله عرب، وثقافتهم عربية إسلامية، ولذا نجد كثيراً من ملوكه وأعيانه إن لم ينظموا الشعر فإنهم كانوا يتذوقونه. ويذكر أن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي كان يقرض الشعر، ومن ذلك قوله - وهو راجع من حج بيت الله الحرام -[1].

لك الحمد يا مولايَ كم لك مِنّة ... عليّ وفضلٍ لا يحيط به شكري

نزلتُ بهذا المسجد الغِرِّ قافلاً ... من الغزو موفورَ النصيب من الأجر

هذا وسنقصر حديثنا على أعلام أولئك الشعراء والأدباء الذين ولدوا في هذا الإقليم، وعاشوا فيه وتفاعلوا مع أحداثه، وأولئك الذين ولدوا فيه وأجبرتهم الظروف - بصورة أو بأخرى - للرحيل عنه، سواء كانت تلك الظروف شخصيةً وأسرية، أو سياسية وأمنية كما حدث من هجرة بعض العلماء والشعراء والأدباء بعد غزو التتار لهذا الإقليم.

وكما سبق وأن نوهنا من قبل، فإن غالبية العلماء من فقهاء وغيرهم قد قرضوا الشعر، وأهم أعلام شعراء الجزيرة في تلك الفترة، هم:

١- ابن مسهر الموصلي مهذب الدين أبو الحسن علي بن أبي الوفاء سعد بن أبي الحسن علي (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م):

ولد بمدينة آمد إحدى مدن إقليم الجزيرة الفراتية المشهورة، وكان شاعراً رقيق النظم بارعاً، مدح الخلفاء والملوك والأمراء، وله ديوان شعر كبير في مجلدين.

---

(١) الديوه جي، سعيد: تاريخ الموصل ص (٣٧٣- ٣٧٤).

واشتهر بسرقة الشعر، فإذا ما أعجبه معنى أو بيت شعر لشاعر، نظم قصيدة على منواله، توفي فس سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م)[١].

٢- الخطيب الحصكفي أبو الفضل معين الدين يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد (ت٥٥٣هـ/١١٥٨م):

ولد بقرية طنزة - إحدى قرى جزيرة ابن عمر بديار بكر - لكنه نسب إلى مدينة حصن كيفا التي نشأ بها، ثم رحل إلى مدينة بغداد، فأخذ عن شيوخها الأدب والفقه على المذهب الشافعي، وأجاد فيه، لكنه برع في النظم والنثر وإنشاء الخطب.

وبعد أن تلقى تعليمه ترك الحصكفي بغداد فرحل إلى مدينة ميافارقين فاستوطنها وتولى بها الخطابة والإفتاء، وتلقى كثيرٌ من طلبة العلم العلمَ على يديه، وقد استفاد من علمه كثيرٌ من الناس[٢].

وتعتبر سيرة الحياة الخطيب الحصكفي مثالاً حياً لحياة كثيرٍ من العلماء وطلاب العلم من أبناء إقليم الجزيرة الفراتية، فتجد الواحد منهم يولد بمدينة من مدن هذا الإقليم وينشأ في أخرى ويتلقى تعليمه الأولي في ثالثة، ثم يرحل ليكمل دراسته المتعمقة - أو بما يُعرف اليوم بالدراسات العليا الجامعية وما

(١) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٣٩١- ٣٩٥).
اليافعي: مرآة الجنان (٣: ٢٧٨).
الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١٠٣).
حاجي خليفة: كشف الظنون (٢: ٧٦٨).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م (١٨: ١٢٨).
ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٢٣٩).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ١٣٨).
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مطبعة دار الآفاق الجديدة (٤: ١٦٩).

فوقها - بالمدرسة النظامية، ثم المستنصرية بمدينة بغداد.

وبعد إكمال دراسته هذه يعود إلى المدينة التي استقرت فيها أسرته. وخير مثال على ذلك بنو الأثير الجزريون الذين رحلوا مع أسرتهم من جزيرة ابن عمر إلى الموصل، ثم رحلوا إلى بغداد، وعادوا بعدها إلى الموصل، ومنهم من أقام في بغداد بصفة دائمة، وهذا ما كان يحدث قبل قيام النهضة العلمية والعمرانية في إقليم الجزيرة الفراتية في عهد الأتابكيات ومن العلماء والأدباء من كان يرحل إلى مدينة أخرى - كما فعل شاعرنا - ليعمل، وقد يعجبه المقام بها فيستوطنها حتى يتوفى بها، وقد يرحل إلى مدينة أخرى ليقضي بها المدة الباقية له من عمره في هذه المدينة، وقد يرحل إلى خارج إقليم الجزيرة الفراتية؛ ليعمل بها ويعيش في كنف ملوكها، خاصة الشعراء الذين يحظون بمكانة مرموقة عندهم، وكان هذا بعد الغزو المغولي لإقليم الجزيرة الفراتية.

وكان لشاعرنا الخطيب الحصكفي ديوان شعر وديوان رسائل، وعندما كان ببغداد قرأ قطعاً من مقاماته وشعره على أبي زكريا التبريزي أحد علماء اللغة والأدب ببغداد، فكتب على كتابه: «قرأ عليّ ما يدخل الأذن بلا إذن».

ومع أنه كان شافعي المذهب إلا أنه كان مغالياً في حب آل البيت، ونظم فيهم - وفي الأئمة الاثني عشر - قصيدته الطويلة المشهورة في المديح[1].

---

(١) منها قوله:

وسائلٍ عن حب أهل البيت هل ... أقرإ علانا به أم أجحد.
هيهات ممزوجٌ بلحمي ودمي ... حبهم وهو الهدى والرشد

ويضيف قوله في الأئمة الاثني عشر:

فإنهم أئمتي وسادتي ... وإن لحاني معشر وفندوا
هم حجج الله على عباده ... وهم إليه منهجٌ ومقصد
ولهم أقمت بكل أرض مشهدا ... لا بل لهم في كل قلب مشهد

وحتى لا يقال: إنه شيعي المذهب يحب آل البيت ويبغض غيرهم، فنّد ذلك بقوله: =

وقال ابن تغري بردي[1] عن بيتين من شعره: إنها عبرت عما - يجيش بخاطره، وكان دائماً يعبر عن معناهما نثراً قبل أن يطلع عليهما.

وقبل أن ننتهي من حديثنا عن هذا الفقيه الأديب الشاعر البليغ ننقل ما نقله العلامة ابن خلكان[2] من قول العماد الأصبهاني الكاتب المشهور فيه: «كان علامة الزمان في علمه، ومعري العصر في نثره ونظمه، له الترصيعُ البديع، والتجنيس النفيس، والتطبيق والتحقيق، واللفظ الجزل الرقيق، والمعنى السهل العميق والتقسيم المستقيم». وقد توفي الخطيب الحصكفي بمدينة ميافارقين في التاريخ المذكور سابقاً[3].

وللخطيب كثير من الشعر في مختلف المناسبات في الحكمة، والأمثال، والوعظ، وعدم الخضوع للذل والفقر، وعدم البطر والتكبر بالثروة والمنصب، وله في الحب والغزل وفي التأبين والعزاء. . . . الخ[4].

= ولست أهواكم ببغض غيركم　　إني إذا أشقى بكم لا اسعدُ
والشافعي مذهبي مذهبه　　لأنه في قوله مؤيدُ

انظر عنه: ياقوت الحموي، معجم الأدباء (٢٠: ١٨، ١٩)، ومعجم البلدان (٤: ٤٤).

ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (١٨: ١٢٨- ١٣١).

(١) البيتان المشار إليهما:

والله لو كانت الدنيا بأجمعها　　تبقى علينا ويأتي رزقها رغداً
ما كان من حق حر أن يذل لها　　فكيف وهي متاع يضمحل غدا

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٥: ٣٢٨- ٣٢٩).

(٢) وفيات الأعيان (٦: ٢٠٥- ٢٠٦).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (١١: ٢٣٩).

(٤) انظر ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (١٨: ١٣٣).

ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ٢٣٩، ٢٤٠).

٣- ابن الدهان الموصلي الحمصي المهذب أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن علي (٥٨١هـ/ ١١٨٥م):

نسب إلى مدينة الموصل أولاً؛ لأنه من أهلها، فقد ولد ونشأ وعاش فيها، ثم أجبرته الظروف على الرحيل عنها حيث استقر في نهاية المطاف بمدينة حمص، كما توفي بها أيضاً لذا نسب إليها ثانياً كان ابن الدهان المهذب عالماً فقيهاً بالمذهب الشافعي، أديباً نحوياً، اشتهر بالشعر أكثر من غيره من الفنون، له ديوان شعر صغير امتاز بالجودة(١).

ولما ضاقت بابن الدهان المهذب سبل العيش في وطنه الموصل رحل إلى القاهرة قاصداً الصالح ابن رزيك وزير مصر في عهد الخليفتين الفاطميين الفائز والعاضد (٥٤٩ - ٥٥٦هـ/ ١١٥٤- ١١٦٠)(٢). فمدحه بقصيدته الكافية الغراء الطويلة(٣)، ولم يستطع ابن الدهان اصطحاب زوجته معه إلى القاهرة فأوكل أمر ميعشتها إلى الشريف ضياء الدين زيد بن محمد الحسيني نقيب العلويين بالموصل، ولم يقصر الشريف فأقام بواجبه فتكفل بكل ما احتاجت إليه من مؤن المعيشة خلال سفر زوجها(٤).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٥٢٢)، الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٨١، ٨٢).

اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣: ٤٢٢).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٥٢٦- ٥٢٨) و (٣: ٥٧).

(٣) التي استهلها بقوله:

«أما كفاك تلاف في تلافيكا   ولست تنقم إلا من محبيكا

وأضاف قوله:

وفيهم تغضب إن قال الوشاه سلا   وأنت تعلم أني لست أسلوكا

لا نلت وصلك إن كان الذي زعموا   ولا شفى ظمأي جود ابن رزيكا

انظر بن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٥٢٦- ٥٢٨) و (٣: ٥٧).

(٤) وقد كتب للشريف نقيب العلويين بالموصل بذلك شعراً:

مالت وقد رأت الأجمال محدجة   والبين قد جمع المشكو والشاكي

ولما رجع من القاهرة رحل المهذب إلى بلاد الشام، واتخذ من مدينة حمص موطناً له وعمل بمهنة التدريس بها. ولما قدم السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى مدينة حمص خرج المهذب للسلام عليه، وقدمه العماد الكاتب إليه بأنه الشاعر الذي مدح ابن رزيك[١]. توفي ابن المهذب بمدينة حمص عام (٥٨١هـ).

٤- ابن منعة العدل أبو القاسم الأربلي جبريل بن محمد بن منعة بن مالك(٥٨٩هـ/ ١١٩٣م):

ولد ونشأ بمدينة أربل، ذو فضل ودين، يميل إلى التشيع، منعزل عن مخالطة الناس، كان شاعراً مجيداً، ومن شعره في الفخر بأسرته[٢].

حلفت بمجد الأكرمين من الورى ... أولي الفضل من أولاد منعة والفخر
يمين كسوب الحمد في كل موطن ... وحلفه صب بالعلا صادق بر
لئن لم تكفوا عن أذاكم وتخمدوا ... خمود القطا للخوف من سطوة الصقر
ليغشاكم بالشاردات مع الضحى ... مقال كأطراف الردينية السمر

وقال شعراً[٣] في مدح مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الزيني أتابك أبناء زين الدين علي كوجك صاحب أربل، الذي صار فيما بعد نائب الملك في الموصل، بل كان المتنفذ فيها، صاحب الخيرات والصدقات والأوقاف

= من لي إذا غبت في ذا المحل قلت لها ... الله وابن عبيد الله مولاك
لا تجزعي بانحباس الغيث عنك فقد ... سألت نوة الثريا جود مغناك

(١) انظر بن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٥٧- ٥٩).
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤: ٢٧٠).

(٢) انظر: ابن المستوفي، تاريخ إربل، تحقيق سامي الصفار، طبعة دار الرشيد، بغداد ١٩٨٠م، (١: ٧٤: ٧٥).

(٣) منها قوله:
ملك له كف لها خلق الحيا ... يغشى السهول مع الحزون بقطره
وبسيفه الماضي الغرار ورمحه ... فتكا على ناب الهزبر وظفره

الكثيرة من مساجد ومدارس وربط ولم ينسَ وطنه إربل فخصها ببعض أبياته الشعرية[1]. وتوفي بمدينة إربل[2].

٥- العلم الشاتاني أبو علي علم الدين الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م):

نسب إلى قرية شاتان، وهي إحدى قرى ديار بكر التي ولد بها ونشأ، ثم رحل إلى مدينة بغداد فتلقى على يد شيوخها الفقه الشافعي وعلم الحديث الشريف.

كان مقرباً من الوزير أبي المظفر بن هبيرة[3]، واستوطن مدينة الموصل، وكان يتردد بينها وبين مدينة بغداد وغيرها من المدن حاملاً الرسائل من ملكها إلى الخليفة العباسي وملوك المناطق وردهم عليه. وكان أديباً شاعراً برز بالعلم. فقد ذكر ياقوت الحموي[4] أنه في عام (٥٣١هـ) عقد له بدمشق مجلس وعظٍ، ولم يعْطِ تفصيلاً لذلك، لكنه قال: «وقيل: إنه تغير في آخر عمره بعد أن سمع عليه»، وربما أنه تغير في اعتقاده ولذلك عقد له مجلس الوعظ. وأشعاره حسنة جيدة وفي قصيدة له مدح بها صلاح الدين الأيوبي مشيداً بانتصاراته وأعلامه الصفراء الخفاقة[5]. ولقد اختلف ياقوت

---

(١) ومنها قوله:

يا ربعَ أربل أنت نعم الدارُ ... دم عامراً تنمو بك الأعمارُ

فلقد أنارَ بك الربيعُ وفوضت ... منك الربوع بزهرها الأمطار

(٢) انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ٨٢)، ابن المستوفي: تاريخ إربل (١: ٧٦، ٧٨، ٨٠).

(٣) الوزير ابن هبيرة: هو عون الدين يحيى بن هبيرة بن محمد الشيباني، تولى الوزارة للخليفتين العباسيين، المقتضي لأمر الله، والمستنجد بالله (٥٤٤- ٥٦٠هـ).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٦: ٢٣٠- ٢٤٣).

(٤) معجم البلدان: (٣: ٣٠٤) وابن خلكان: المرجع السابق (٢: ١١٣، ١١٤).

(٥) فيها قوله:

الحموي[1] مع الآخرين في اسم العلم الشاتاني، فذكر أن اسمه الحسن بن علي بن سعيد، وتاريخ مولده كان عام (٥١٣هـ) وتاريخ وفاته كان عام (٥٧٩هـ)، بينما قال أبو شامة وابن خلكان واليافعي: إنه ولد عام (٥١٠هـ) وتوفي بالموصل عام (٥٩٩هـ)[2].

٦- أبو خفض عمر بن شماس بن هبة الله الخزرجي الموصلي (ت ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م):

ولد بمدينة الموصل عام (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) تلقى دراسته الأولى في كتابها، ثم درس الحديث النبوي الشريف على يد الشيخ الحسين بن نصر بن محمد[3]، وكذلك كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.

عمل كاتباً للشروط بالأجر في الموصل، وصنف عدة كتب منها: «كتاب الحماسة» وقصيدة طويلة ضمنها تاريخ البشرية ابتداء من سيدنا آدم «عليه السلام» إلى عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥م)، وله مجموعة أخرى من القصائد الشعرية، منها قصيدة وصف فيها نبات النيلوفر الذي كان ينمو ببركة الماء الموجودة خارج مدينة إربل[4].

= أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا ... فَسِرْ وافتح الدنيا فأنت بها أحرى

وأضاف:

يمينك فيها اليمنُ واليسر في اليسرى ... فبشرى لمن يرجو الندى بهما بشرى

(١) معجم البلدان (٣: ٣٠٤).

(٢) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجبل بيروت (١: ٢٧١).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ١١٣- ١١٤).

(٣) المعروف بابن خميس الكعبي الموصلي، الملقب تاج الإسلام مجد الدين الفقيه الشافعي المتوفي (٥٥٢هـ) ستتحدث عنه في الفقه والتاريخ. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ١٣٩).

(٤) منها قوله:

ونيلوفر مثل النجوم ببركة ... كلون السماء وهي من خضرة عذب

ومن شعره تلك القصيدة التي مدح بها الأتابك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل (٥٧٦ - ٥٨٩هـ/ ١١٨٠- ١١٩٣م)[١]، كما قال أبياتاً من الشعر، تلبية لأمر أبي منصور قايماز بن عبد الله مجاهد الدين نائب الملك في الموصل[٢].

وكانت قصيدته التاريخية التي تطرق فيها إلى تاريخ البشرية - وقد سبق ذكرها - والتي ذكر فيها الرسل والملوك إلى عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله ومدح فيها أبا المظفر مسعود بن مودود السابق ذكره[٣].

وله أبيات يدعو فيها للتسامح والعفو مشبهاً ذلك العمل بالأرض التي تتحمل الكثير من الأذى من قبل ساكنيها[٤]. وقد صنف ابن شماس «كتاب التنبيهات على التشبيهات» وأشار في مقدمته إلى كتابه الكبير» نفائس الأنفاس

= يميل مع الشمس المنيرة مثلما ... تميل عيون العاشقين مع الحب
فإن هي غابت نكس الرأس وحشة ... لها دَنِقٌ يصبو انكساراً على الصب

والنيلوفر: نبات مائي جميل ينمو في المستنقعات والبحيرات، ويبدو أنه شبيه في تفاعله مع أشعة الشمس بعباد الشمس. انظر: المنجد في اللغة والأعلام (١ : ٢٧).

(١) ومنها قوله:
إني حضرت خدمة الأتابك ... الملك العادل خير مالك
مسعود عز الدين والدنيا معا ... أعلى الأنام محتداً وأرفعا

(٢) ومنها قوله:
فصغت نظماً هذه الأرجوزة ... غير معماة ولا ملغوزة
بل لفظها مصور في الذهن ... يدخل في الأذن بغير إذن
فإنه يخل بالمقصود ... من غرض الكتاب والجهود

(٣) التي اختتمها بقوله:
حررتها في النصف من شعبان ... عام ثلاث جئن في زمان
بعد ثمانين وخمس مية ... للهجرة العظمى المحمدية

(٤) وفيها جاء قوله:
كن في احتمالك للأذى ... أرضاً تُهدُّ وتصبرُ
طوراً تداس وتارة ... بشبا المعاول تحفر

لعمر بن شماس».

ونختم حديثنا عن أبي حفص بذكر أحد أعماله الخيرية وهو بناؤه مسجداً بالموصل عام (٥٩٧هـ) وقد عبر عن ذلك العمل بشعره[١].

٧- البهاء السنجاري أبو السعادات أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور السلمي (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م):

ولد بمدينة سنجار عام (٥٣٣هـ/١١٣٨م)، وهو فقيه شافعي تكلم في الخلاف، لكن غلب عليه قول الشعر، فصار أحد المجيدين المشهورين به، رحل إلى مدينة الموصل وفي سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) خرج منها وطاف بالبلدان قاصداً ملوكها وأعيانها فمدحهم ونال جوائزهم.

كان جريئاً، ثقة ذكياً، لطيف المعاملة، خفيف الروح، مزيحاً، امتازت أشعاره بالجودة والقبول الحسن من قبل الناس، له ديوان شعر في مجلد كبير، ومن جيد شعره ما قاله في مدح القاضي كمال الدين الشهروزي، وهي قصيدة طويلة[٢]. ومن شعره المأثور قوله:

إذا حققت من خل ودادا ... فزره ولا تخف منه ملالا
وكن كالشمس تطلع كل يوم ... ولاتك في زيارته هلالا

وبعد جولاته العديدة هذه عاد إلى بلده سنجار وتوفي بها في التاريخ المذكور[٣].

---

(١) اعتمدت في معلوماتي عن هذا الشاعر على ابن المستوفي في كتابه تاريخ إربل (١ : ٦٣- ٧٠)، لأني لم أجد عنه أي معلومات في المراجع المتوفرة لدي.

(٢) ومنها قوله:

يهواك ما خطر السلو بباله ... ولأنت أعلم في الغرام بحاله
ومتى وشى واشٍ إليك بأنه ... يسلو هواك فذاك من عذّاله

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان (٣) مادة سنجار. ابن خلكان وفيات: الأعيان (١ : ٢١٤- ٢١٧).

ابن كثير: البداية والنهاية (١٣ : ١١٠)، الموصلي: تاريخ الموصل (٢ : ١١٠- ١١١).

٨- ابن الأردخل الموصلي المهذب محمد بن أبي الحسن بن يمن بن علي الأنصاري (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م):

ولد بمدينة الموصل عام (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) ونشأ وتلقى تعليمه بها، وقد عرف بالأردخل وهي كلمة آرامية تعني المهندس الجيد في فن البناء. وهو شاعر مشهور جيد الشعر، اتخذه ناصر الدين محمود الزنكي بن الملك القاهر صاحب الموصل (٦١٥ - ٦٣١هـ/١٢١٨- ١٢٣٣م) نديماً له، ثم رحل إلى مدينة ميافارقين، وهناك صار نديماً لملكها الأشرف مظفر الدين أبي الفتح موسى بن العادل الأيوبي (٥٩٨ - ٦٢٦هـ/ ١٢٠١- ١٢٢٨م) فمدح الملكين المذكورين وغيرهما من الأعيان. وله أبيات شعرية في الحكم والأمثال والوعظ(١)، واستقر المقام بابن الأردخل بمدينة ميافارقين حتى توفي بها سنة (٦٢٨هـ)(٢).

٩- صلاح الأربلي أبو العباس أحمد بن عبد السيد بن شعبان بن محمد (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م):

ولد في عام (٥٧٢هـ/ ١١٢٦م) بمدينة أربل، ونشأ ودرس بها الفقه واللغة والأدب. كان من أعيانها وينتمي إلى بيت كبير من بيوتاتها، ثم صار حاجباً عند الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل، الذي غضب

---

(١) ومنها قوله:

أفي كل يوم لي من الدهر صاحب ... جديد ولي حاد إلى بلد يحدو

أروح وأغدو للغنى غير مدرك ... ويدركه من لا يروح ولا يغدو

وقوله في الفخر:

أقول وقد قالوا نراك مقطبا ... إذا ما ادعى دين الهوى غير أهله

يحق لدود القز يقتل نفسه ... إذا جاء بيت العنكبوت بمثله

(٢) عن ابن الأردخل انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٣٣٦) و(٧: ٤١، ٤٢). الكتبي: فوات الوفيات (٣: ٣٢٤- ٣٢٦). الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١٠١).

عليه بعد ذلك واعتقله مدة من الزمن، ثم أطلق سراحه، فخرج إلى بلاد الشام عام (٦٠٣هـ) مع الملك القاهر بهاء الدين أيوب بن العادل الأيوبي، ثم دخل في خدمة الملك المغيث بن العادل الذي كان يعرفه من قبل وحسنت أحواله عنده.

وبعد وفاة الملك المغيث رحل شاعرنا إلى الديار المصرية، وهناك التحق بخدمة الملك الكامل بن العادل الأيوبي الذي أكرمه أيما إكرام، فعظمت منزلته عنده حتى صار من أخصّ المقربين إليه، وقد بلغ من المكانة عنده ما لم يبلغها غيره حتى إنه اصطفاه لخلواته وسفراته وجعله أميراً عنده[١].

إذن فلا غروَ في أن يحتل أبو العباس الأربلي تلك المكانة المرموقة عنده وعند غيره من الملوك، فقد كان ذا فضيلة تامة ومشاركات في السياسة والإدارة بسبب خبرته الطويلة التي اكتسبها من قبل في أربل وغيرها.

وإضافة إلى تحصيله العلمي فقد نال قسطاً وافراً من العلم، فكان يحفظ «الخلاصة» في الفقه للإمام أبي حامد الغزالي الشافعي، وله نظم جيد في الشعر، وبهما تقدم أيضاً عند الملوك.

ولكن مع تلك المكانة القريبة جداً من الملك الكامل، فقد تغير عليه لخبرٍ بلغه بأنه مال إلى أخيه الملك المعظم بن العادل. وكان بين الملكين الأخوين خلافات استغلها الواشون ضد أبي العباس الإربلي. وكان الملك الكامل في تلك الأثناء في مواجهة الصليبيين عند المنصورة في عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) فأمر باعتقاله فوراً وترحيله إلى مدينة القاهرة حيث سجن في قلعتها وأمر بالتضييق عليه.

وبقي الصلاح الأربلي في تلك الحال إلى سنة (٦٢٣هـ) حيث نظم شعراً[٢] أملاه على أحد الحراس فغنّاه أمام الملك الكامل، فاستحسنه وسأله

---

(١) ابن خلكان: المرجع السابق (١ : ١٨٤).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦ : ٢٨٦).

(٢) وفيه قوله:

عن قائله، فأخبره بأنه للصلاح الأربلي، فأمر في الفور بالإفراج عنه. فلما خرج من سجنه عادت مكانته عنده إلى أحسن من سابق عهدها، بل أكثر من ذلك[1].

وكانت العلاقة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الفائز سابق الدين إبراهيم بن العادل - ليست كما يرام، فطلب الأخير من الصلاح الأربلي ان يصلح ذاتَ بينهما ويخاطب الملك الكامل في ذلك، فاستجاب الصلاح لهذا الطلب فكتب إلى الملك الكامل يناشده العفو والصلح مع أخيه[2].

وعند وصول إمبراطور الغرب فردريك الثاني[3] إلى ساحل بلاد الشام (فلسطين) في عام (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) بعث الكامل إليه الصلاح الأربلي للتفاوض معه من أجل الصلح والسلام مقابل تسليمه مدينة القدس الشريف.

وبعد أن تم ذلك الصلح وتحالف الطرفان على عدم النكوث فيه، كتب الصلاح إلى الملك الكامل يخبره بذلك الإتفاق[4].

وللأربلي شعر جيد في الحكم والأمثال[5].

= اصنع ما شئت أنت أنت المحبوبُ ... ماليَ ذنبٌ بلى كما قلت ذنوب
هل تسمح بالوصال في ليلتنا ... تجلو صدأ القلب وتعفو وأتوب

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦: ٢٨٦).

(٢) وكان مما كتبه قوله:

وشروط صاحب مصر أن يكون كما ... قد كان يوسف في الحسنى لإخوته
أسؤا، فقابلهم بالعفو، وافتقروا ... فبرهم، وتولاهم برحمته

(٣) حكم فردريك الثاني (١١٩٧- ١٢٥٠).

(٤) قوله:

زعم الزعيم الأنبرور بأنه ... سلم يدوم لنا على أقواله
شرب اليمين فإن تعرض ناكثاً ... فلنأكلن لذاك لحم شماله

(٥) قوله:

وإذا رأيت بنيك فاعلم أنهم ... قطعوا إليك مسافة الآجال
وصل البنون إلى محل أبيهم ... وتجهز الآباء للترحال

ولما توجه الملك الكامل إلى بلاد الشام لغزو بلاد الروم وكان الصلاح الأربلي معه في هذه الحملة -مرض بالقرب من مدينة السويداء[١]، فحمل إلى مدينة الرها للعلاج والراحة، فمات قبل وصوله إليها ودفن خارجها، ثم نقل ولده رفاته إلى القاهرة عام (٦٣٧هـ)[٢]

١٠- الحاجري الأربلي أبو يحيى حسام الدين عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين طاشتكين (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م):

وعرف بالحاجري نسبة إلى بلدة الحاجر بالحجاز؛ وذلك لكثرة ما ذكرها في شعره[٣]، وهو جندي من أبناء الأجناد.

ومن اسمه يتضح لنا أنه من العنصر التركي، بينما قال عنه القس سليمان صائغ الموصلي[٤]: إنه «أرمني الجنس، إربلي المولد والمنشأ» ويبدو أنه كذلك؛ حيث كان الجيش السلجوقي ومن بعده الجيش الأتابكي يتكون من المماليك الذين يجلبون من مناطق مختلفة فيدربون ويربون تربية إسلامية ويسمون بأسماء تركية.

وللحاجري ديوان شعر جيد المعاني، وتغلب على أشعاره الرقة، وقد جمع الفنون الثلاثة: الشعر، والدوبيت، والمواليا، وقد أجاد فيها مجتمعة مع أنه قلّ من يجيدها مجتمعة؛ فإن من يبدع في واحد منها يقصر في الفنين الآخرين.

= عن الصلاح الإربلي، انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان (١: ١٨٥، ١٨٦).

(١) السويداء: إحدى مدن إقليم الجزيرة الفراتية الواقعة في الأراضي السورية حالياً. انظر المنجد في اللغة والأعلام.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١: ١٨٦- ١٨٧).

(٣) قوله:

لولاك ما ذكرت نجداً بفمي   من أين أنا وحاجر، من أينا

بينما قال ابن خلكان: إنها بلدة في الحجاز.

انظر: وفيات الأعيان (٣: ٥٠٤، ٥٠٥).

(٤) تاريخ الموصل: (٢: ١٠٦- ١٠٧).

وكانت للحاجري أيضاً مساهمات جديدة في فن رابع، وهو فن «كان وكان»[1] وذكر ابن خلكان أن الحاجري عند خروجه من بلده (مدينة أربل) عام (٦٢٦هـ) كان مسجوناً ثم أفرج عنه، وخدم مع مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل، وحظي بمكانة كبيرة عنده، وصار واحداً من الصوفية فلبس لباسهم. وبعد وفاة مظفر الدين خرج من أربل، ثم عاد إليها بعد أن صارت أربل تابعةً للخليفة العباسي المستنصر بالله، وكان نائبه عليها الأمير شمس الدين أبو الفضائل باتكين، ولم يمكث طويلاً حيث قتله رجلٌ مجهول في سنة (٦٣٢هـ)[2].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٥٠١).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦: ٢٩٠).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ١٤٤).
حاجي خليفة: كشف الظنون (٢: ٨٠٤).
الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ٨٢).
والفنون الشعبية السائدة في إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا هي:
أ - المواليا: شعر باللغة العامية ابتدعه أهل مدينة واسط بالعراق، ثم تغنى به العبيد والغلمان، وكانوا يقولون في نهاية كل صوت: «يا مواليا» لذا عرف بالمواليا.
ب - الكان وكان:
كان ينظمه البغداديون باللغة العامية بأسلوب قصصي خرافي، ثم طور فيما بعد بوزن واحد وقافية واحدة، والشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني، وتكون قافيته مردوفة قبل حرف الواو بأحد حروف العلة، وقد تغنى بهذا الشعر ملاحو السفن في نهر دجلة.
ج - القوما:
نظمه البغداديون باللغة العامية في عدة أنواع، منها: الخمري، والزهري، والعقاب، وأحسنها ما كان من أربعة أقفال: ثلاثية متساوية في الوزن والقافية، والرابع أطول منها وزناً وهو مهمل بغير قافية، وكانوا يتغنون به عند قيامهم للسحور في شهر رمضان المبارك بقولهم: «قوما للسحر قوما»
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٥٠١- ٥٠٤).
الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١٠٧).

وقد جمع الحسيني عمر بن محمد بن عمر الدمشقي ديوان الحاجري المتضمن (الشعر والدوبيت والمواليا وكان وكان) ونسقه في سبعة أبواب وقد طبع في القاهرة سنة (١٣٠٥هـ)[١]. وللحاجري أيضاً «مسارح الغزلان الحاجرية»[٢].

١١- الزجال الموصلي صاحب الموشحات، شهاب الدين أحمد بن الحسن بن علي (ت٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م):

هو الأديب الشاعر البارع في النظم والنثر الذي انقسم الشعراء في الحكم على شعره إلى قسمين: فمنهم من عارض قوافيه واقفاً ضده، ومنهم من أقر شعره. ومن الفريق الأخير صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الأديب المترجم (ت٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م) مؤلف كتاب الوافي بالوفيات.

ومن موشحات الزجال الموصلي تلك الموشحة المشهورة التي عارض بها موشحةَ القاضي الفاضل عبد الرحيم (سبق التعريف به) وله موشحات أخرى غيرها كثيرة[٣].

---

(١) وسماه بلبل الغرام الكاشف عن الانسجام. حاجي خليفة: كشف الظنون (٢: ٧٨٣).

(٢) الموصلي: نفس المرجع السابق (٢: ١٠٧).

(٣) منها قوله:

بدر لصبح الجبين قد سترا   بليل شعر ما نظر له ستر أسود
إن قلت: بدر، فالبدر ينخسف
أو قلت: شمس، فالشمس تنكسف
أو قلت: غصن، فالغصن ينقصف

انظر في ترجمته: الكتبي: فوات الوفيات (٣: ٣٣٧- ٣٣٩).

ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (١: ٢٦٦- ٢٧٧).

١٢- ابن الحلاوي أبو العباس شرف الدين أحمد بن محمد بن أبي الوفاء بن الخطاب بن محمد بن الهزبر الربعي الموصلي (-٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م):

وأصله من مدينة الموصل، وولد بمدينة دمشق عام (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م) ونشأ بها، ثم عاد إلى مدينة الموصل، موطن آبائه، مدح الخلفاء والملوك والأعيان، وكان من ضمنهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل حكم من سنة (٦٣١- ٦٥٧هـ/ ١٢٣٣ - ١٢٥٩م)، وكان ينشده في المواسم والأعياد المدائح التي كان يقرضها فيه فقط.

ووصف شعر ابن الحلاوي بالجزالة والرقة وجودة المعاني، لكنه - مع الأسف - اشتهر بالتغزل في الغلمان كغالبية شعراء عصره، وأورد المترجمون له كثيراً من تلك القصائد الغزلية[١].

١٣- ابن الصفار المارديني جلال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ابن محمد النميري (٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م):

ولد بمدينة ماردين في عام (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) ونشأ بها، وعمل كاتباً للإنشاء للملك الأرتقي بن إيلغازي بن أرتق صاحب أتابكية ماردين (٥٩٥ - ٦٣٦هـ/ ١١٩٨ - ١٢٣٨م)، ثم عزله عن ديوان الإنشاء وعينه مشرفاً لديوان

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٢٣٧).
الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٢٧٨).
اليونيني: ذيل مرآة الزمان (١: ٩٦- ١٠٤).
الكتبي: فوات الوفيات (١: ١٤٣- ١٤٨).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧: ٦٠).
ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، نشر جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية (١: ٨٤).
الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ٩٣- ٩٤). استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ص (١٥٣).

مدينة دنيسر[1].

وقد بقي في هذه الوظيفة ثمانية عشر عاماً حتى وافته المنية في السنة المذكورة بمدينة دنيسر.

وكان ابن الصفار شاعراً مجيداً، صنف كتاباً يحتوي على آداب كثيرة سماه «أنس الملوك» يحتوي شعره على المعاني الغريبة والألفاظ العجيبة، وأكثره يميل إلى البديع والرقة، وكان أغلبه في الخمريات والغزل خاصة التغزل في الغلمان[2].

---

(١) دنيسر: مدينة وسوق مشهورة بإقليم الجزيرة الفراتية قرب مدينة ماردين، وتبعد عنها بمسافة فرسخين. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان مادة (دنيسر).

(٢) منها قوله:

بروحي ريمٌ قد رمتني جفونه ... بأسهم لحظٍ كان برجاسها القلب وأضاف

ففي خده نارٌ وفي الثغر جنة ... وفي لفظه سلم وفي لحظه حرب

برجس (البرجاس): هدف ينصب على رمح، أو سارية.

انظر: مختار الصحاح للرازي، المنجد في اللغة والأعلام وقيل: إنه نوع من السرج المحشوة توضع على ظهور الدواب المقرونة المقودة بارسنتها، والأول أكثر ملائمة للسياق الشعري والمعنى.

ومن قوله في الدوبيت:

لا تحسب ما خيل للآماقي ... في وجنتيه ورداً على الإطلاق

لكن شعاع الكأس لما مزجت ... ألقت شفقاً على خدود الساقي

وقوله:

ويوم قِرّ برد أنفاسه ... يمزق الأوجه من قرصها

يوم تود الشمس من برده ... لو جرت النار إلى قرصها

اليونيني: ذيل مرآة الزمان (١ : ٤١٢- ٤٢٦)، والكتبي: فوات الوفيات (٣: ١١٩ - ١٢٣).

ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي (١ : ٤٨٩).

حاجي خليفة: كشف الظنون (١ : ١٩٩).

١٤- زين الدين أبو محمد عبد الرازق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف (٦٦١هـ/ ١٢٦٢م):

ولد بمدينة رأس عين في عام (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، ولذلك نسب إليها، كان شيخ الجزيرة الفراتية في زمانه وكان محدثاً ومفسراً، كما اشتهر بالأدب والشعر فتقرب بهما إلى الملوك والأعيان؛ وذلك بقرضه المديح فيهم. وحاز المكانة الرفيعة عند الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وعند الملك السعيد الأرتقي صاحب ماردين (٦٣٧ - ٦٥٨هـ/ ١٢٣٩- ١٢٦٠م) وغيرهما من الملوك.

ووصف شعر زين الدين بالجودة[(١)]، وتوفي بمدينة سنجار سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٢م)، ويبدو أن مدينة سنجار كانت في هذه الفترة تابعة لصاحب ماردين[(٢)].

١٥- الشهاب التلعفري أبو المكارم شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود الشيباني (٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م):

نسب إلى مدينة تل يعفر[(٣)] بالجزيرة الفراتية التي ولد بها، ثم رحل بعد

---

(١) ومن شعره قوله:

يا من يرينا كل وقت وجهه — بشراً ويبدي كفه معروفا
أصبحت في الدنيا سرياً بعدما — أمسيت فيها بالتقى معروفا

وقوله:

نعب الغراب فدلنا بنعيبه — أن الحبيب دنا أوان مغيبه

(٢) انظر: اليونيني: ذيل مرآة الجنان (١: ٥٤٥- ٥٤٩)، الذهبي: العبر (٣: ٣٠٢). ابن كثير: البداية والنهاية (١٣- ٣٤١)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧: ٢١١). العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق د: محمد محمد أمين، القاهرة ط ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧(١: ٣٦٧).

(٣) تل يعفر: اسم قلعة وريف بين مدينتي سنجار والموصل - الحموي: معجم البلدان (٢: ٣٩).

ذلك إلى مدينة الموصل، وهناك تتلمذ على شيوخها خاصة على الشيخ أبي الحرم الموصلي. وبرع في الأدب عامة والشعر خاصة، فقد اعترف له شعراء وأدباء عصره بتقدمه عليهم في هذا الفن. وكان حفاظة للشعر، عارفاً بايام العرب وأخبارهم خبيراً بأخبار الفرس وبمحاسن آثارهم.

وقد توفي الشهاب التلعفري سنة (٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) بمدينة نصيبين إحدى مدن إقليم الجزيرة الفراتية الكبيرة[١].

١٦- عرش الدين أبو بكر بن محمد بن إبراهيم الأربلي (ت٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م):

كان خيراً صالحاً حسن العقيدة أديباً مشهوراً، ذا ثقافة واسعة ومعرفة تامة باللغة العربية وقواعدها، ذا مقدرة فائقة في حل المترجم وعمل الألغاز وحلها.

وكان عرش الدين ناظماً للشعر، ومن نظمه الذي عرف به وذاع صيته وشهرته تلك الألفية التي نظمها في الألغاز المخفية. وتتكون هذه الألفية من ألف لغز في ألف اسم. وكان هذا النوع من الشعر قد شاع النظم فيه من قبل الشعراء والأدباء في هذا العصر، وقد شجعهم الملوك عليه من أجل المنافسة

---

(١) عن الشهاب التلعفري انظر:

ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧: ٤٠- ٤٥)، الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٣٣).

الكتبي: فوات الوفيات (٤: ٦٢٠- ٧١)، اليونيني: ذيل مرآة الزمان (٣: ٢١٨- ٢٢٨).

العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (٢: ١٦٩، ١٧٠).

تاريخ ابن الفرات (٧: ٧٦- ٧٩). ابن كثير: البداية والنهاية (١٣ : ٢٧٢).

ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي (٧١٤، ٧١٥).

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٧: ٢٥٥- ٢٥٦).

الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١٢٢- ١٢٣).

بين أولئك الشعراء، ومن باب التسلية لأولئك الملوك، ولعرش الدين أشعار أخرى كثيرة جيدة(١).

وقبل أن ننهي حديثنا عن الأدب والشعر في إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا هذه لا بد من التنويه بأن الشعر كان له أثره الكبير على حياة الناس وسلوكهم، خاصة الملوك الذين قيل جل الشعر فيهم، ويذكر أن عماد الدين زنكي مؤسس حكم البيت الزنكي كان يميل إلى ظلم الرعية ولما سمع أبياتاً من الشعر غير من سلوكه وطبق حكم العدالة في حقوق الناس. وكذلك يبدو أن مدينتي الموصل وأربل كان لهما نصيب الأسد في مجال الشعر.

وقد اتصف الشعر بصفة عامة في فترة دراستنا بالمبالغة في المديح، خاصةً ما قيل منه في الملوك والأمراء والوزراء وأصحاب السلطة المتنفذين، كذلك شاع في الشعر استخدامُ الألغاز وحلها.

وأخيراً، فإنه يلاحظ أن الشعر في إقليم الجزيرة الفراتية في تلك الحقبة الزمنية اتصف في غالبيته بالخلاعة والمجون والغزل، خاصة التغزل في الغلمان ووصف الخمر (الخمريات في الشعر).

ومع كل هذا لم تخل الساحة الأدبية من اتجاه يدعو إلى الفضيلة والتقيد بالمثل العليا ونبذ العادات المستهجنة.

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان (٤: ٧٩- ٨٥).
العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (٢: ٢٥٩).

علم الموسيقى والألحان والغناء والطرب

وضعه الأولون ضمن العلوم العقلية كابن خلدون[1] في مقدمته والفارابي[2] الفيلسوف الإسلامي الشهير، ووضعه حسن إبراهيم حسن[3] من ضمن النشاط الإجتماعي، بينما وضعه جورجي زيدان[4] ضمن الفنون الجميلة لكنها ضمن فنون الخيال مثلها مثل الشعر، في حين وضع سعيد الديوه جي[5] موسيقيّي ومطربي وملحني الموصل ضمن المفسرين والمقرئين ومن جانبنا نميل إلى ما قال به جورجي زيدان، فالغناء والطرب جزءٌ مكمل للأدب والشعر، أما الآلات الموسيقية فما هي إلا آلات إيقاعية تخدم هذين الفنين؛ لذا فضلنا أن نلحق الموسيقيين والمطربين والملحنين بالشعراء؛ لأنهم يستقون فنهم منهم.

وعلم الموسيقى هو: معرفة نسب الإيقاع والنغم بعضها من بعض، وتقديرها بالعدد، وأحوالها، وكيفية تأليف الألحان، وإيجاد الآلات الموسيقية.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٨٩٠).

(٢) مخترع آلة القانون ومركبها هذا التركيب الذي لا تزال عليه حتى الآن. انظر: جورجي زيدان: التمدن الإسلامي (٣: ٢١٨).

(٣) تاريخ الإسلام (٤: ٦٣١- ٦٣٢).

(٤) جورجي زيدان: المرجع السابق (٣: ٢١٦- ٢١٨).

(٥) تاريخ الموصل (٣٩٣).

وموضوعه: الصوت الذي يؤثر في النفس باعتبار نظامه في طبقته وزمانه[1]. ومن الذين اشتهروا في الموسيقى والألحان من أبناء إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا:

١- البرطلي منتخب الدين عمر بن المظفر المخزومي (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)[2]:

ولد ونشأ بقرية برطلي، ثم انتقل إلى مدينة الموصل واستوطنها، وتوفي بها في سنة (٦٥٠هـ). كان ماهراً في الأدب والشعر منه بصفة خاصة، ثم مارس فن الموسيقى والطرب واشتهر به[3].

٢- عبد الرحمن بن المعلم الموصلي الأديب (ت٦٦٠هـ/ ١٢٦١م):

شاعر له نظم جيد، وكان يتغنى بشعره في الأسواق بصوت شجي، وهو مطرب له أقوال في أصحاب «أرباب الطريق والتصوف»، وكانت عبارته حلوة رقيقة. ومن غنائه قوله: أيها الظبي الغريري: كن من البلوى مجيري، واطف نيران زفيري: بوصال غير زور[4].

٣- ابن الدهان الموصلي أبو عبد الله الحسن بن الحسن (ت٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م):

اشتهر في الأدب والشعر والموسيقى، وكان فريد عصره في فن الطرب

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٨٩٠). وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (٦: ٦٣١، ٦٣٢) ص (٢١٧). سويلم، أحمد: عظماء أغفلهم التاريخ: الدار المصرية اللبنانية (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

(٢) نسبة إلى قرية برطلي: تقع شرقي نهر دجلة بالموصل. الحموي: معجم البلدان (١: ٣٨٥).

(٣) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٩٣).

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان (١: ٥٠٦- ٥١٠). والديوه جي: المرجع السابق ص (٣٩٣).

في مدينة الموصل، تغنى بشعره المغنون، وله مؤلفات في الموسيقى، توفي عام (٦٨٧هـ)[١].

٤- السنجاري الحسن بن أحمد بن علي الموسيقي الكاتب (ت بعده ٦٢٥هـ/ بعد ١٢٢٨م):

ولد ونشأ بمدينة سنجار، ولذلك نسب إليها، ثم رحل إلى مدينة بغداد، وفيها اتقن الفن والغناء واشتهر به، صنف كتباً في الموسيقى والفن والغناء، منها:

١- كتاب «كمال أدب الغناء»[٢]: تحدث فيه عن أدب الغناء، ويعتبر من الكتب النادرة في الموسيقى، كما نقل فيه أقوال وآراء من سبقوه من كتب مفقودة حالياً لها قيمتها التاريخية. ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثة وأربعين باباً شملت الموسيقى والغناء، ويقسم علمَ الموسيقى إلى قسمين: نظري وعملي.

ويشيد الكتاب بالموسيقى ومالها من تأثير على النفس البشرية، فقد تبعث فيها الرغبة والسرور والإنشراح، وقد تحيلها إلى العنف والسخط، أو إلى الصمت والسكون، أو إلى الحركة والنشاط، أو إلى الفرح، أو الحزن، أو الخوف، أو الأمن... إلى آخره تلك المشاعر الإنسانية التي تتأثر بنغمات الموسيقى.

٢- كتاب «المقنع في النغم والإيقاع» الذي يكره في كتابه الأول[٣].

---

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٩٣).

(٢) كتاب تم طبعه، حققه زكريا يوسف، ونشره في مجلة المورد الصادرة ببغداد.

(٣) سويلم، أحمد: عظماء أغفلهم التاريخ ص (١٨، ١٩)، الزركلي، خير الدين، الأعلام (٢: ١٨١).

فن خيال الظل[*]
المعروف حالياً بفن المسرح والتمثيل

هو فن من الألعاب المسرحية المحببة لدى الجمهور، يمثل فيها أشخاصٌ يقدمون عرضاً من خلف شاشة بيضاء مضاءةٍ بحيث لا يُرَى خلالها إلا الأشخاص اللاعبون.

ويعتبر محمد بن دانيال الطبيب الكحال هو واضع أصول هذا الفن، وهو شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الحراني الموصلي.

ولد ابن دانيال في مدينة الموصل في سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ونشأ بها، ثم رحل إلى مصر بعد نكبة الموصل على يد التتار عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦٠م).

كان ابن دانيال أديباً نظم الشعر الجميل، وله نثرٌ عذب، اشتهر بقول النكت والنوادر، وألف كتاب «طيف الخيال» أو «خيال الظل»، وهو عبارة عن رواية هزلية تمثيلية، ولو لم يضمنها مجوناً وخلاعة وألفاظاً بذيئة لكانت فريدة في بابها، وتعتبر أقدم بل أولى المسرحيات العربية، وضعها في مصر، وقد امتازت بمستوى عالٍ. وتوفي ابن دانيال بالقاهرة عام (٧١٠هـ/ ١٣١٠م).

ولابن دانيال أيضاً أرجوزة شعرية بعنوان «عقود النظام فيمن وَلِيَ مصر من الحكام»، وديوان شعر[1].

(*) الخيال: الصورة التي لا حقيقة لها، والوهم: ظل كل شيء. وجمع خيال: أخيلة.
انظر: وجدي: دائرة معارف القرن العشرين.

(١) عن ابن دانيال وفن خيال الظل انظر:

الأدباء الآراميون[1]:

المرجع الوحيد الذي استفدنا منه عن أدباء هذه اللغة هو القس سليمان صائغ الموصلي، الذي اهتم بالشعراء والأدباء الآراميين المسيحيين، ومن هؤلاء الأدباء خلال فترة دراستنا:

١- الشاعر جيورجيس ورد الأربلي (عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي):

كان فكها مائلاً إلى اللهو والطرب، وُصِف شعره بالبلاغة، لكن يؤخذ عليه استعماله كثيراً من الكلمات اليونانية فيه، ويعلق الصائغ بقوله: وهذا خطأ كان فاشياً بين كتبةِ تلك العصور، كما أننا نجد اللغة الآرامية غنيةٌ عن اللغات الغربية بفصاحتها وكثرة مرادفاتها وغنى معاجمها اللغوية».

ولـ«ورد» ديوان شعر كبير متنوع الأغراض، خصص بعض قصائده لحصار التتار لأربل، وبعضها الآخر ضمنها حوادث تاريخية خطيرة، كما خصص قسماً كبيراً من قصائده في مديح السيدة مريم العذراء، فأجاد فيه وفاق

= كحالة: معجم المؤلفين (٩: ٢٩٥).

عاشور: المجتمع المصري.

الزركلي: الأعلام (٦: ١٢٠).

دور الموصل في التراث العربي ص (١٨٨).

كريزر وديم وماير: معجم العالم الإسلامي ص (٢٧٩).

الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١٢١، ١٢٢).

الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٨٨).

(١) اللغة الآرامية: هي إحدى اللغات السامية الشمالية الغربية كانت لغة التخاطب والإدارة في البلاط الفارسي الأخميني، كما استخدمتها شعوب غير آرمية كعرب الأنباط حيث استعانوا بها في لغتهم المكتوبة؛ لذا دخلت بعض مفرداتها إلى اللغة العربية، ولعبت السريانية - إحدى فروعها الشرقية- دوراً كبيراً في ترجمة العلوم اليونانية والهلليستينية إلى العربية.

غيره في هذا الميدان، وكان تاريخ نظمه لهذه القصائد ما بين أعوام (٦٢١، ٦٢٦، ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥، ١٢٢٨، ١٢٢٤م).

٢- الشاعر الشهير خاميس القرداحي[١] الإربلي: (عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي):

كان من بيت عريق في الشرف والعلم اشتهر منه أوراهام القرداحي المدرس في مدرسة نصيبين الشهيرة القديمة، لذا لا غروَ في ان يحذو خاميس حذو آبائه وأجداده، فنبغ في آداب اللغة الآرامية وبصفة خاصة[٢] في الشعر حيث اتصف شعره بالحسن والعذوبة والسهولة والحلاوة والجزالة؛ حتى اعتبره الكثيرون أشهر من عبد يسوع الصوباري صاحب ديوان «فردوس عدن» الذي نحا فيه منحى الشعر العربي في التوشيح وأشكال البديع اللفظي.

ولخاميس القرداحي ديوانٌ رائع جمع فيه شوارد اللغة الآرامية. وكغيره من المصنفات في هذه الفترة لا يخلو من الكلمات اليونانية، وضمن شعره موضوعاتٍ متعددة في الدين والنفس والتوبة والتقويات، وهي على منوال الشعر الصوفي والهجاء حيث كان يهجو مواطنيه الأرابلة، وله أشعار في الإخوانيات والخمريات والغزل والرثاء. ويقال: إن له أيضاً رسالةً صغيرة في صناعة إنشاء المكاتيب[٣].

٣- يوحنا الموصلي (ت٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م):

أحد رهبان دير مار ميخائيل بالقرب من الموصل، كان شاعراً ظريفاً جمع بين حسن السبك وجودة المعنى، وله أشعار رائعة في الأخلاق والتقوى والألغاز، جمعت في ديوان سمي «حسن السلوك».

---

(١) القرداحي: كلمة آرامية تعني: الحداد.

(٢) عن هذين الشاعرين انظر: الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١١١، ١١٢).

(٣) الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١١٢).

٤- جبرائيل الموصلي (ت٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م):

كان عالماً وشاعراً مجيداً، وكغيره من أدباء وشعراء عصره الآراميين أدخل في شعره كلماتٍ يونانية، حيث كان يجيد اللغة اليونانية إجادة تامةً وقد عكف على مطالعة مؤلفات الفلاسفة اليونانيين فنبغ في الفلسفة اليونانية، وكان فيها فريدَ عصره إلا أنه غلب عليه نظمُ الشعر فأجاد فيه.

ولجبرائيل الموصلي قصيدةٌ طويلة ضمنها خلقَ العالم، وظهور المسيح (عليه السلام)، وتبشير الحواريين، وقصص الآباء، وكبار العلماء الذين اشتهروا في النصرانية[١].

(١) نفس المرجع ص (١٢٨، ١٢٩).

العلوم النقلية والعقلية

يقول ابن خلدون[1]: «إن أي دولة استقرت فيها الأوضاعُ كثر عمرانُها، وازدهرت حضارتُها، وزخرت فيها بحار العلم، وتفنن أهلها في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون».

وينطبق هذا القول على إقليم الجزيرة الفراتية في فترة دراستنا، فبعد أن استقرت الأوضاع السياسية تحت حكم الأتابكيات الزنكية والأرتقية قامت نهضة كبيرة شملت النواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فأنشأ الحكام المدارس، وبنوا المساجد والربط، واستقدموا إلى تلك المدارس العلماء؛ ليقوموا بالتدريس فيها في مختلف العلوم.

وهناك تقسيماتٌ عديدة للعلوم، فقد قسمها أبو حامد الغزالي[2] إلى علوم شرعية، وأخرى غير شرعية. لكننا نميل إلى الأخذ بتقسيم ابن خلدون الذي قال في مقدمته: «إن العلوم التي يخوض فيها البشرُ ويتداولونها تحصيلاً وتعليماً صنفان: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنفٌ نقليٌ يؤخذ عمن وضعه». وهكذا قسم ابن خلدون العلوم إلى عقلية ونقلية.

---

(١) مقدمة ابن خلدون في كتابه العبر المعروف اختصاراً بتاريخ ابن خلدون ص (٧٧٧، ٧٧٨).

(٢) إحياء علوم الدين، نشر دار الحديث (١ : ١٦).

العلوم النقلية:

هي تلك العلوم التي تستند إلى الخبر المستقى من الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع بمسائلها من الأصول؛ لأن الجزئياتِ الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعها، فتحتاج إلى أن تلحق بأي وجه من وجوه القياس[1].

وعلى هذا الأساس تقسم العلوم النقلية إلى علوم شرعية، مثل: علوم القرآن الكريم، وعلوم الحديث النبوي الشريف، والفقه... الخ وعلوم غير شرعية: كعلم التاريخ، وعلم الجغرافية، وأخرى مساعدة -بل هي التي تقوم عليها العلوم- كعلوم اللغة والأدب، وقد سبق الحديث عنها من قبل.

العلوم الشرعية:

هذه العلوم كانت لها الصدارة في إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)، وقال عنها أبو حامد الغزالي[2]: إن منها ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف، ومنها ما يتعلق بالمعنى كالتفسير في ضوء النقل وما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والنص والظاهر. ويذكر بعض الباحثين[3] أن علوم القرآن الكريم تفرعت حتى وصلت إلى أحد عشر فرعاً، وهذه الفروع هي:

١- نزول القرآن الكريم، وجمعه، وتدوينه.

٢- علم العدد، أي: معرفة عدد آيات القرآن الكريم، وكلماته، وحروفه.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٧٧٩- ٧٨٠).

(٢) إحياء علوم الدين (١: ١٧).

(٣) مجموعة من الباحثين: حضارة العراق دار الحرية بغداد ١٩٨٥م (٧: ٧). مقدمة ابن خلدون ص (٧٨٤).

٣- علم نقط المصاحف.

٤- علم رسم المصاحف وهجاء المصاحف، أو الشكل: الضمة، والكسرة، والفتحة، والسكون.

٥- علم القراءات.

٦- علم التجويد[١].

٧- علم الوقف والابتداء.

٨- علم متشابه القرآن الكريم.

٩- علم التفسير.

١٠- علم أسباب النزول.

١١- علم الناسخ والمنسوخ.

ويعنينا من هذه الفروع فرعان هامان، هما: علم القراءات - الذي يرى البعض أنه يحتوي على غالبية الفروع السابق ذكرها - وعلم التفسير.

القراءات والتفسير:

تعددت قراءات القرآن الكريم؛ نتيجةً لاختلاف اللهجات العربية وكيفية أداء الحروف، مما ترتب عليه ظهورُ علم قائم بذاته هو علم القراءات[٢].

---

(١) علم التجويد: التجويد هو: تحسين تلاوة القرآن الكريم بواسطة مخارج الحروف، وصفاتها، وترتيل النظم المبين من حيث الوصل، والوقف، والمد، والقصر، والإدغام، فالتفخيم، والترقيق، والتشديد، والتخفيف، والقلب، والتسهيل، إلى غير ذلك. إذن علم التجويد فرع من القراءات. وأول من صنف فيه موسى بن عبد الله بن يحيى الخاقاني البغدادي المقرئ (ت ٣٢٥هـ). انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون (١: ٣٥٣- ٣٥٤).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص (٧٨٢، ٧٨٣).

جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة بيروت (٣: ٦٨- ٧٠).

حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: هامش ٤٤٠، ٤٤١). =

ومن أشهر علماء علمي القراءات والتفسير في إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا:

١- أبو الكرم فتيان بن ميتاح بن حمد بن سليمان السلمي الحراني الضرير المقرئ الفقيه الحنبلي (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م).

ولد بمدينة حران عام (٥١٣هـ) رحل إلى بغداد وتفقه بها على شيوخها في المذهب الحنبلي، مثل أبي البركات عبد الوهاب الأنماطي وأبي زيد الحموي وغيرهما، ثم رجع إلى بلده فدرس بها وأفتى.

كان مجيداً ملماً بعلم القراءات والمعاني، فَهِمَ الأحكام والوقوف والحلال والحرام. له مصنف في علم التجويد، توفي بحران، وقد ذكر ابن العماد الحنبلي أنه توفي عام (٥٦٦هـ)[1].

٢- ابن عبدوس الحراني الفقيه الحنبلي أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد (ت٥٥٩هـ/ ١١٦٣م).

ولد بمدينة حران عام (٥١١هـ) رحل إلى بغداد وتتلمذ على شيوخها خاصة على يد الشيخ الحافظ أبي الفضل بن ناصر، فأجاد في علم الفقه والتفسير والوعظ، ثم عاد إلى بلده، وكانت له مجالس وعظٍ سار فيها على طريقة ابن الجوزي الحنبلي في بغداد، وكان إمام جامع حران. وأما تلاميذه فكان أهمهم قرينه أبو الفتح نصر الله بن عبد العزيز، والشيخ فخر الدين ابن تيمية المشهور، وأخذ عنه علم الحديث أبو المحاسن عمر بن علي القرشي الدمشقي لما قدم حران سنة (٥٥٣هـ).

وقد اشتهر ابن عبدوس بعلم التفسير حيث صنف فيه كتاباً كبيراً، وله

= متز آدم: الحضارة الإسلامية في ق ٤هـ، (١: ٣٤٢- ٣٤٤).

(١) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (١: ٣١٥).
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤: ٢١٧).

كتاب المهذب في المذهب. وتوفي بحران، ورثاه فخر الدين ابن تيمية بقصيدةٍ مؤثرة، وكان وقت ذاك شاباً في العشرين من عمره[1].

٣- الإمام أبو بكر يحيى بن سعدون الأزدي القرطبي المقري: (ت٥٦٧هـ/ ١١٧١م):

كان إماماً تصدر في اللغة والقراءات، سبق الحديث عنه في علم اللغة والأدب فلينظر هناك.

٤- ابن شبه الماكسيني الموصلي العلامة صائن الدين أبو الحرم مكي بن ريان: (ت٦٠٣هـ:١٢٠٧م).

أمام اللغة والنحو والقراءات، سبق الحديث عنه في علماء النحو فلينظر.

٥- ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني: (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م):

سبق الحديث عنه ضمن علماء اللغة والأدب، وما يخصنا هنا هو كتابه الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف، في أربعة مجلدات، وهو تفسير القرآن الكريم أخذه من تفسير الثعلبي والزمخشري[2].

٦- الفخر بن تيمية أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد الحراني الفقيه الحنبلي المفسر المشهور (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م):

ولد بحران عام (٥٤٢هـ) درس القرآن الكريم على والده، والعلوم الأخرى على أبي الكرم فتيان بن مياح وأبي الحسن ابن عبدوس وغيرهما منذ صغره ثم رحل إلى بغداد وأخذ العلم عن شيوخها وتفوق في علوم الفقه والتفسير.

---

(١) ابن رجب نفس المرجع (١: ٢٤١- ٢٤٣).

(٢) اليافعي: مرآة الجنان (٤: ١٢)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٩٢).

ولما عاد الفخر بن تيمية إلى بلده اشتغل بالتدريس والوعظ والتصنيف وكان يلقي دروس التفسير صباح كل يوم بجامع حران، وكان إمام هذا الجامع وخطيبه، واستمر على ذلك ابتداءً من عام (٥٨٨-٦١٠هـ)، ثم قام بالتدريس في المدرسة النورية بحران إضافةً إلى المدرسة التي أنشأها بنفسه.

ومن أهم مؤلفات الفخر بن تيمية التفسير الكبير في عدة مجلدات، وثلاثة كتب في فقه المذهب الحنبلي مقلداً بها البسيط والوسيط والوجيز للإمام أبي حامد الغزالي، أكبرها «تخليص المطلب في تلخيص المذهب» وأوسطها «ترغيب القاصد في تقريب المقاصد»، وأصغرها «بلغة الساغب وبغية الراغب». وله ديوان في خطب الجمعة، وهو كتاب مشهور[١]، وكتاب «الموضح في الفرائض» وله مصنفات في الوعظ[٢].

وقد أخذ العلم عنه كثيرون يأتي في مقدمتهم: ابنه عبد الغني خطيب حران، وابن عمه الشيخ ابن تيمية مجد الدين عبد السلام، وغيرهم كثيرون صاروا علماء وأئمة مثل سبط ابن الجوزي وغيره[٣].

٧- قاضي حران الحراز الأصم أبو بكر عبد الله بن نصر بن محمد المقرئ الفقيه الحنبلي: (٦٢٤هـ/١٢٢٦):

قاضي مدينة حران ومقرؤها، ولد بها ثم رحل إلى بغداد وتفقه بها،

---

(١) سماه «تحفة الخطباء من البرية في الخطب المنبرية» اتبع في طريقة ابن نباته.
انظر: ابن المستوفي: تاريخ إربل (١: ٩٦).

(٢) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ١٥١- ١٥٣).
الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ١٨٩) ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ١٠٩).
ذكر ابن خلكان أنه ينسب إلى ابن جده، حيث رأى جده (هذا) في منامه (وهو بتيماء بتبوك أنه رزق بنت فسماها تيمية، نسبة إلى تيماء المذكورة: وفيات الأعيان (٤: ٣٨٦- ٣٨٨).

(٣) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ١٥٧).
أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (١٤٦).

وسمع الحديث الشريف من شهدة وابن شاتيل وطبقتهما، ثم رحل إلى مدينة واسط، وقرأ القرآن الكريم بالروايات على أبي بكرالباقلاني وأبي طالب وغيرهما.

ومن مصنفات الحراز الحراني في القراءات «التذكير في قراءة السبعة» و «مفردات في قراءة الأئمة»، واقرأ القرآن الكريم حتى وفاته بحران[1].

٨- الرسعني عز الدين أبو محمد عبد الرازق بن رزق الله: (٦٦١هـ/ ١٢٦٢م):

العلامة المحدث المفسر المقرئ شيخ ديار بكر والجزيرة، قائل الطائية النونية[2]، سبق الحديث عنه ضمن الشعراء المجيدين المقربين من الحكام.

٩- شعلة الموصلي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الفقيه الحنبلي المقرئ: (٦٥٦هـ/١٢٥٨م):

ولد عام (٦٢٣هـ) قرأ القرآن الكريم على أبي الحسن علي بن العزيز الأربلي وغيره وتفقه على يده، صار مقرئاً محققاً ذا ذكاء مفرط، وفهم ثاقب، ملماً بعلوم اللغة العربية وآدابها، وشعره جيد.

نظم في الفقه والتاريخ وغيره، فقد نظم كتاب «الشمعة في القراءات السبعة»، وصنف عدة كتب كان أكثرها في القراءات، منها شرح الشاطبية «سماه كنز المعاني في شرح حرز الأماني»، ونظم «اختلاف عدد الآي برموز الجُمَّل»، وكتاب «الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، ونظم عقود ابن جني

---

(١) ابن رجب المرجع السابق (٢: ١٧١- ١٧٢).
الذهبي: العبر (٣: ١٩٣).
الجزري، محمد بن علي: غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م (١: ٤٦٢)، الجزري المرجع السابق (١: ٣٨٤).

(٢) الجزري: المرجع السابق (٢: ٨٠- ٨١)، الذهبي: العبر (٣: ٢٨٣).
ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ٢٥٦).

في اللغة العربية سماه «المنقود» وله نظم في العبادات وله كتاب فضائل الأئمة الأربعة. توفي شاباً عن ثلاث وثلاثين سنة بمدينة الموصل[1].

١٠- ابن تيمية الحراني الفقيه الحنبلي: مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله الخضر بن علي: (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م):

سبق الحديث عنه ضمن الفقهاء، كان عالماً، اتقن علم التفسير والقراءات، وله أرجوزة في القراءات[2].

رحل إلى الموصل بعد عام (٦٠٠هـ) وبها قرأ على العز محمد بن عبد الكريم صاحب يحيى بن سعدون القرطبي، وأخذ منه علم التجويد. وكان الحراني مجوداً، حاذقاً، ألف في الأحكام والعروض، وشرح مقصورة ابن دريد، كما صنف في الفرائض.

ودرس على أبي البركات بمدينة سنجار، ثم رحل على جزيرة ابن عمر فدرس بها علم القراءات، فقرأ عليه علي بن أحمد بن موسى الجزري، وقد صنف كتاباً في الأحكام وآخر في العروضن وثالثاً في الخطب، وله منظومتان في الفرائض والمسائل، وفي النحو له شرح الدرية والملحمة، وحدث عنه بالحروف من كتاب التجريد أجازة أبو بكر المقصائي الجزري[3].

---

(١) ابن رجب: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ٢٥٦، ٢٥٨).
الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (٢: ٨١).
ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي (٢: ٥٨٦).

(٢) الجزري: المرجع السابق (١: ٣٨٥- ٣٨٦).

(٣) الخرفي: نسبة إلى قرية خرفة إحدى قرى نصيبين. انظر الجزري: المرجع السابق (١: ٩٩)، السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١: ٣٥٥).

١٢- ابن رفيعا الجزري الحنبلي أبو محمد ضياء الدين عبد الله بن إبراهيم بن محمود الضرير شيخ القراء بالموصل: (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م):

من نسبته يتضح أنه من جزيرة ابن عمر، رحل إلى مدينة الموصل واستوطنها وبها قرأ بالروايات السبع على ابن مفلح البغدادي نزيل الموصل أيضاً، فقد كانت الموصل قبل غزوها من قبل التتار كعبة لطلبة العلم وشيوخه، وأخذ الحروف عن أبي عمر بن الحاجب وأبي عبد الله الفاسي[١] وغيرهما.

صنف ابن رفيعا عدة كتب في القراءات وغيرها[٢]، ونظم قصيدته المعروفة بلامية شيخ القراء بالموصل في الفرائض، وقد أخذ عنه علم القراءات ابن خروف محمد بن علي الموصلي الحنبلي وجعفر بن مكي، وأجاز لأبي الجيش علي بن عبد الصمد أكثر من مرة وإبراهيم بن محمد الجعبري[٣]. توفي بالموصل (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م).

١٣- أبو العباس الكواشي أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع الشافعي الشيباني الإمام الموصلي المقرئ (٦٨٠هـ/ ١٢٨٢م):

ولد بقرية كواشة من قرى الموصل عام (٥٩١هـ) قرأ أولاً على والده في الموصل، ثم رحل إلى دمشق فتتلمذ على السخاوي، وسمع تفسيره والقراءات منه ابن خروف الموصلي محمد بن علي وأبو بكر المقصاني اللذين أصبحا فيما بعد شيخا القراء.

---

(١) الفاسي: نسبة إلى مدينة فاس بالمغرب العربي، ويبدو أنه هو الآخر من الذين قدموا إلى الموصل من أجل العلم طلباً وتدريساً.

(٢) الجزري: نفس المرجع (١: ٤٠٣). ابن رجب: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ٢٩٨).

(٣) الجعبري: نسبة إلى قلعة جعبر الواقعة على نهر الفرات بين مدينتي بالسي والرقة قرب صفين.

الحموي: معجم البلدان (٢: ١٤٢). ابن رجب: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ٢٩٨)، والجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (١: ٤٠٣).

وقد تفوق الكواشي في القراءات والتفسير أكثر من غيرهما من العلوم، وله التفسير الكبير والصغير، ويعدان من أحسن التفاسير، وكان وفاته بالموصل[(١)].

واعتمد على تفسير جلال الدين المحلي، والسيوطي، وابن كثير في تفاسيرهم، وسمى تفسيره الكبير التبصرة والصغير التلخيص. وقد تتلمذ على يديه ابن خروف الموصلي بمدينة الموصل، وسنشير إلى ذلك عند حديثنا عن ابن خروف.

١٤- ابن خروف الوراق الموصلي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي القاسم ابن أبي العشرين: (٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م):

هو الفقيه الحنبلي المقرئ المحدث النحوي، ولد بمدينة الموصل عام (٦٤٠هـ) وقرأ بها القرآن الكريم في صغره، ثم رحل إلى مدينة بغداد في سنة (٦٦٠هـ) فدرس بها الحديث وقرأ القراءات بالروايات السبع والعشر على ابن أبي الجيشن عبد الصمد وغيره، ثم رجع إلى الموصل وقرأ على الموفق الكواشي وعبد الله بن إبراهيم السابق ذكرهما وغيرهما. وصار إماماً للقراءة بالموصل فقرأ عليه عبد الرحمن بن أحمد وكثيرون غيره.

وفي عام (٧١٧هـ) ذهب ابن خروف إلى دمشق فتولى بها مشيخة الإقراء وحدث بها، فقد روى التجويد لابن الفحام والذهبي والمحب أبي بكر شيخ الجزري الذي حدث عنه والبرزالي وأبي حيان وعبد الكريم الحلبي من علماء بلاد الشام، ثم رجع إلى بلده الموصل حيث توفي بها في التاريخ المذكور سابقاً[(٢)].

---

(١) الجزري: المرجع السابق (١: ١٥١)، والذهبي: العبر (٣: ٣٤٣) واليافعي: مرآة الجنان (٤: ١٩٢)
ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (١: ٢٧٧، ٢٧٨).
السيوطي: طبقات اللغويين والنجاة (١: ٣٥٥)، حاجي خليفة، كشف الظنون (١: ٣٣٩)
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٧: ٣٤٨- ٣٤٩).

(٢) الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء (٢: ٢٠٦).
ابن رجب: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ٣٨١).

علم الحديث الشريف:

الحديث النبوي الشريف هو: كلام النبي - ﷺ - وفعله وتقريره الذي نقل بالإسناد عنه بواسطة الصحابة، ثم التابعين، وتابعي التابعين، ثم السلف إلى أن تم تدوينه.

وعلوم الحديث كثيرة ومتنوعة، لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه، والأحاديث على درجات فمنها الصحيح، والحسن، والضعيف والمعول وغيرها[1].

هذا بالنسبة نفسها ثم توجه علم الحديث إلى دراسة رجال الحديث ومعرفة أحوالهم كما ذكر أبو حامد الغزالي[2]: «فالعلم بالرجال، وأسمائهم، وأنسابهم، وأسماء الصحابة، وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواة، والعلم بأحوالهم، ليُميَّز الضعيف من القوي، والعلم بأعمارهم؛ ليميز المرسل من السند، وكذلك ما يتعلق به».

ومن أشهر علماء الحديث في إقليم الجزيرة الفراتية في القرنين السادس والسابع الهجريين:

١- الجزري الموصلي أبو الفضل محمد بن محمد بن عطاف (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م):

نسب إلى جزيرة ابن عمر التي ولد بها عام (٤٦٤هـ)، كان فقيهاً، محدثاً، مكثراً في الحديث، روى عنه السمعاني صاحب الأنساب كثيراً[3].

٢- ابن الأثير الجزري مجد الدين أبو السعادات المبارك محمد بن محمد الشيباني (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م):

أحد الإخوة أبناء الأثير الثلاثة اختص من بينهم بعلم الحديث النبوي

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٧٨٩- ٧٩٥).

(٢) إحياء علوم الدين (١: ١٧).

(٣) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب (١ : ٢٧٧).

الشريف، وقد سبق الحديث عن مشوار حياته العلمية، وعن مؤلفاته الأدبية وغيرها ضمن علماء اللغة العربية وآدابها وعلم التفسير.

وسنحصر حديثنا عنه هنا عن مساهماته في هذا العلم الشريف، فقد كتب فيه وفي شيوخه وصحيحه وسقيمه وفقهه، ومن كتبه فيه:

* جامع الأصول في أحاديث الرسول، عمله على حروف المعجم، وهو في عشرة مجلدات، جمع فيه بين الصحاح الستة: البخاري ومسلم والموطأ وسنن أبي داود والنسائي والترمذي وذلك لتهذيب كتاب التجريد لرزين.

* النهاية في غريب الحديث، يتكون من أربعة مجلدات، تحدث فيه عن معاني الأحاديث، وأحكامها، ووصف رجالها. قيل فيه: إنه لم يصنف مثله.

* شرح مسند الإمام الشافعي[1].

٣- الفهمي الرهاوي الحافظ عبد القادر بن عبد الله بن عبد الرحمن الحراني الحنبلي (٦١٢هـ/ ١٢١٥م):

و«الفهمي» نسبة إلى بني فهم الحرانيين الموصليين. ولد بمدينة الرها

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (١٧ : ٧٦)، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (٦٨).
تاريخ ابن الفرات (٥: ١٠٠ - ١٠٣).
أبو الفداء المختصر في أخبار البشر مكتبة المتنبي القاهرة (٣: ١١٢).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٥٤) و(٢: ٣٥) - حضارة العراق (٧: ١٣٢ و١٤٣، ١٤٤).
مالك (ت١٧٩هـ)، البخاري (ت٢٥٦هـ)، مسلم (ت٢٦١هـ).
أبو داود (ت٢٧٥هـ)، الترمذي (ت٢٧٩هـ)، النسائي (ت٣٠٣هـ).
كتاب التجريد لرزين بن معاوية.
العبدي السرقسطي الأندلسي نزيل مكة (ت٥٣٥هـ).
ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (٢٤٣، ٢٤٤).

عام (٥٣٦) لذا نسب أكثر إليها، ثم نشأ بمدينة الموصل كان مولى لرجل من بني فهم الحرانيين، وأعتقه وحبب إليه علم الحديث، رحل الفهمي في طلب العلم خاصة علم الحديث في مختلف مدن الجزيرة الفراتية، وبلاد الشام، والقاهرة، والإسكندرية التي سمع بها من الحافظ أبي طاهر السلفي.

وفي العراق سمع الفهمي من ابن الخشاب وكثيرين غيره، كما رحل إلى أصبهان، وهمذان، وإلى خراسان حيث تنقل في أهم مدنها مثل: نيسابور ومرو وهراة، فسمع من شيوخها، ثم رجع منها إلى مدينة واسط وسمع بها أيضاً، وأخيراً عاد إلى الموصل وأقام بها مدة يحدث بدار الحديث المظفرية ثم بمدينة حران. وتوفي بها في التاريخ المذكور. وكانت رحلاته هذه مشياً على الأقدام وكانت تحمل كتبه مع القاصدين.

وقد صنف في الحديث «الأربعون البلدانية» المتبانية الإسناد والبلاد التي لم يسبقه إليها أحد، وكتاب «المادح والممدوح». وقد حدث ولم يخلف سوى كتبه التي ألفها، أو تلك التي اقتناها، وبقيت وقفاً في المسجد الذي كان يقيم فيه بحران، وقد حدث بالموصل وأربل وحران، وسمع منه كثير من الأئمة مثل: أبي عمرو بن الصلاح، وابن نقطة، وعبد العزيز بن الصيقل الحراني، وعبد الله بن حمدان[1].

٤- العدوي النصيبي أبو عبد الرحيم عسكر بن عبد الرحيم بن عسكر بن أسامة (٦٣٦هـ/١٢٣٨م):

اشتهرت أسرته بالتدريس والعلم خاصة علم الحديث ومشيخته في مدينة

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان (٣: ١٠٦)، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (٩٠).
الذهبي: العبر (٣: ١٥٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٦٩).
واليافعي: مرآة الجنان (٤: ٢٣).
تاريخ ابن الفرات (٥: ١٨٢، ١٨٣)، ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ٨٢، ٨٣).

نصيبين إحدى مدن إقليم الجزيرة الفراتية الكبرى، رحل النصيبي لطلب العلم وبالذات علم الحديث الشريف، فسمعه من عبد العزيز بن منينا وسليمان الموصلي وطبقتهما، وله مجاميع حسنه في الحديث الشريف[1].

علم الفقه:

هو علم بأحكام التكاليف الشرعية العملية كالعبادات والمعاملات والعادات ونحوها، وقد عرف ابن خلدون علم الفقه بقوله: «هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجب والندب والكراهة والإباحة».

وهو المستنبط من كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ وما نص عليه المشرع ﷺ من الأدلة.

هذا وللفقه فروعٌ كثيرة لا يمكننا الخوض فيها مجتمعة[2]، ويعتبر علم أصول الفقه أهمها جميعاً، وأجلها قدراً، وأكثرها فائدة، فهو النظر في الأدلة الشرعية التي تؤخذ منها الأحكام والتكاليف[3].

---

(١) الذهبي: العبر (٣: ٢٢٨).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص (٧٩٨)، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٢: ٧٧-٨٠).

حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام (٤: ٤٤٩، ٤٥٠).

وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (٦: ٦٢١).

(٣) مقدمة ابن خلدون : ص (٨٠٣).

حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق (٤: ٤٥٠).

الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٨٤و ٣٩٠، ٣٩١)، حضارة العراق (٧: ١٩١)، وأصوله الشرعية هي: كتاب الله (القرآن الكريم)، والسنة النبوية المبينة له، ثم إجماع الصحابة، ثم الاستدلال من القرآن والسنة من قبل الصحابة والسلف، ثم القياس حيث تقاس الأشباه بالأشباه.

مقدمة ابن خلدون ص (٨١٢).

معجم العالم الإسلامي مترجم ص (٤٨٤- ٤٨٧).

وقد ساد خلال فترة دراستنا في إقليم الجزيرة الفراتية فقه ثلاثة مذاهب إسلامية، يأتي في مقدمتها فقه المذهب الشافعي، خاصةً في مدينتي الموصل وأربل وما حولهما، بينما يأتي فقه المذهب الحنبلي في المرتبة الثانية، ويغلب وجوده بصفة خاصة في مدينتي حران والرها، وهذا واضح من نسبة علماء الفقه الحنبلي إليهما.

أما فقه المذهب الحنفي فيأتي في المرتبة الثالثة والأخيرة، ربما يعود ذلك إلى أن أهل البلاد الأصليين لم يكونوا على هذا المذهب، وإنما نشره السلاجقة وخلفاؤهم الأتابكة من زنكيين وأراتقة في إقليم الجزيرة الفراتية؛ لذا نجد نسبة علماء الفقه الحنفي ضئيلة بالمقارنة بفقهاء المذهبين السابقين، وليس لهم باع طويل في تصنيف الكتب، وانحسر نشاطهم في تدريس فقه المذهب الحنفي في المدارس التي أنشأها الملوك الأتابكة من زنكيين وأراتقة.

ولما كان باب الاجتهاد قد أغلق فإن علماء الفقه خلال هذه الفترة وبالذات خلال فترة دراستنا هذه لم يأتوا بجديد في علم الفقه، وإنما حرصوا على شرح وتلخيص مؤلفاتٍ من سبقوهم من كبار الفقهاء أمثال أبي حامد الغزالي وغيره، ومن أشهر هؤلاء العلماء:

١ - ابن خميس الكعبي تاج الإسلام مجد الدين أبو عبد الله الحسين بن نصر بن محمد الموصلي الجهني الفقيه الشافعي (٥٥٢هـ/١١٥٧م)[١]:

أخذ الفقه عن شيوخ بغداد مثل أبي حامد الغزالي وغيره، وولي قضاء مدينة رحبة مالك بن طوق، ثم رجع إلى بلاده الموصل واستقر بها حيث تفرغ للتأليف فصنف كتباً كثيرة منها «مناقب الأبرار»، و«مناسك الحج»، و«أخبار

(١) الكعبي: نسبة إلى قبيلة كعب العربية، وجهينة متفرعة من قبيلة قضاعة العربية. وهي أيضاً قرية بالموصل.

المنامات عند اليافعي المقامات[1].

٢- ابن البزري أبو القاسم زين الدين جمال الإسلام عمر بن محمد بن أحمد بن عكرمة الجزري (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)[2]:

من أنباء جزيرة ابن عمر تفقه بها على شيخها أبي الغنائم محمد بن الفرج بن منصور السلمي الفارقي، ثم رحل إلى بغداد وتتلمذ على شيوخها: الكيا الهراسي وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وأخوه، والشيخ الشاشي صاحب كتاب المستظهري، ثم عاد إلى بلاده ودرس بها وقصده طلاب العلم من المناطق الأخرى.

وكان ابن البزري أحفظ أهل زمانه للمذهب الشافعي وتلاميذه كثيرون انتفعوا بعلمه خاصة على الفقه الشافعي. وكان يعتبر إمام جزيرة ابن عمر وفقيهها، وكانت تأتيه الفتاوى الفقهية من العراق وخراسان وغيرهما، وقد اختصر كتاب المهذب تأليف الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، شرح فيه إشكالاته وغريب ألفاظه وأسماء رجاله، وسماه «الأسامي والعلل من كتاب المهذب»[3].

---

(١) انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ١٣٩- ١٤٠).
واليافعي: مرآة الجنان (٣: ٣٠٢- ٣٠٣).

(٢) البزري: نسبة إلى عمل البزر أو بيعه، وهو الدهن المستخرج من حب الكتان، ويستخدم للوقود في هذه المنطقة.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٤٤٤- ٤٤٥).
الذهبي: العبر (٣: ٣٣).
اليافعي: مرآة الجنان (٣: ٣٤٤)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٣٢١).
ياقوت الحموي: معجم البلدان (٢: ١٣٨).
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب (٤: ١٨٩).

٣- أبو العباس الخضر بن نصر بن نصر بن عقيل بن نصر الأربلي الفقيه الشافعي (٥٦٧هـ/ ١١٧١م):

من أهل مدينة أربل، تلقى تعليمه بمدينة بغداد على عدد من شيوخها منهم الكيا الهراسي وابن الشاشي، ثم عاد إلى بلده، وفي سنة (٥٣٣هـ) بني له الأمير أبو منصور سرفتكين بن عبد الله الزيني نائب صاحب أربل مدرسة القلعة، فكان أول من درس بأربل وبقي يدرس فيها مدة طويلة. وتتلمذ علي أبي العباس في مدرسة القلعة كثير من طلبة العلم، وكان ممن تخرج على يديه الفقيه ضياء الدين أبو عمرو عثمان بن عيسى بن درباس الهذباني (شارح المهذب)، وابن أخيه عز الدين أبو القاسم نصر بن عقيل الذي حل محله في التدريس في هذه المدرسة، والمدرسة التي بناها أبو العباس نفسه ليدفن فيها.

وكان بناء المدارس خاصة في مدينتي الموصل وأربل عادة متبعة من قبل ملوكهما ووزرائهما وكبار الأعيان بهما، ليتم دفنهم فيها بعد موتهم، وهذا ما سنراه عند حديثنا عن إنشاء المدارس.

وقد وردت نفس المعلومات عند اليافعي، وأضاف إليها: أن له مصنفاتٍ كثيرة في التفسير والفقه، وكتاباً يحتوي على ست وعشرين خطبة للنبي (ﷺ)، وغير ذلك، لكن نسب ذلك إلى ابنه[1]. وبسبب الوشاة الحاقدين والحساد سخط عليه مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل فأخرجه منها، فكتب له من بغداد أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي الشاعر يشاركه مشاعره ويخفف عنه[2]،

---

(١) الذي سماه نصر بن خضر المتوفى (٦١٩هـ). إذا كان يقصد ابن أخيه المذكور: مرآة الجنان (٤ : ٤٥- ٤٦)، وكذلك ذكره حاجي خليفة بأن له خطبة الوداع المنسوبة إلى النبي (ﷺ)، كشف الظنون (٢ : ٧١٥).

(٢) ومما قاله:

أيا ابن عقيل لا تخف سطوة العدى ... وإن أظهرت ما أضمرت من عنادها
وأقصتك يوما عن بلادك فتية ... رأت فيك فضلاً لم يكن في بلادها
كذا عادة الغربان تكره أن ترى ... بياض البزاة الشهب بين سوادها

فرحل إلى الموصل، لكنه رجع إلى أربل وتوفي بها في التاريخ المذكور[1].

٤- أبو الفضل تقي الدين حامد بن محمود بن حامد بن محمد الحراني الفقيه الحنبلي (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م):

ولد بحران عام (٥١٣هـ) ورحل إلى مدينة بغداد لطلب العلم ففاق فيه، وبرع في الفقه وناظر بها، ثم عاد إلى بلاده ودرس بها وأفتى، فصار شيخ حران في زمانه. وبنى له نور الدين محمود زنكي المدرسة النورية بحران وتولى التدريس بها، واشترط عند قبوله التدريس بها أن يترك محمود زنكي المظالم والضمانات وتوريث ذوي الأرحام - مع أن المشهور عن نور الدين محمود زنكي العدالة - فوافق نور الدين على طلبه ذاك. هذا، وقد تتلمذ على يديه من أصبح لهم فيما بعد صيتٌ كبيرٌ مثل: الخطيب فخر الدين ابن تيمية، وأبو الفتح نصر الله بن عبدوس وغيرهما كثيرٌ كما سمع عنه الحديث طلبة من خارج مدينة حران، أما عن مؤلفاته فله ديوان خطبٍ جيد، وتوفي بحران في سنة (٥٧٠هـ)[2].

٥- أبو المحاسن محمد بن عبد الباقي بن هبة الله المجمعي الموصلي الفقيه الحنبلي (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م):

رحل إلى بغداد وتفقه بها على القاضي أبي يعلى محمد بن الفراء، وصنف كتاباً في طبقات الحنابلة، وآخر في شرح غريب ألفاظ الخرقي. وقد حدث خلافٌ بينه وبين عمر الملا المقدم من قبل نور الدين محمود وأهل الموصل لزهده - وقد أوكل إليه نور الدين بناء مسجده النوري في الموصل - فضرب عمر الملا الفقيه الحنبلي حتى غشي عليه وتوفي بعد ذلك بأيام قليلة،

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٢٣٧- ٢٣٨).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ٢٨٧).

(٢) ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الحنبلي، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، دار المعرفة بيروت بدون تاريخ (١: ٣٣٢- ٣٣٤).

فحمل ذلك ابن رجب إلى أن يصف عمر الملا بالميل إلى المبتدعة[1].

٦- رضي الدين الأربلي أبو الفضل يونس بن محمد بن منعة الفقيه الشافعي (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م):

ولد بمدينة أربل، ثم رحل إلى الموصل فتفقه بها على شيخها ابن خميس الكعبي السابق ذكره، ثم رحل إلى بغداد فأخذ العلم عن ابن الرزاز أبي منصور سعيد بن محمد مدرس النظامية، ثم رجع إلى الموصل واستوطنها، ولقي ترحيباً من قبل الأمير زين الدين علي بن بكتكين والد مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل، وفوض إليه التدريس بمسجده وجعله ناظراً لأوقافه. وكان يدرس ويفتي ويناظر، فقصده طلاب العلم، وبقي على تلك الحالة حتى وفاته بالموصل في التاريخ المذكور. وكانت أسرته أهل علم، خرج منهم عددٌ من العلماء، أخذ عنهم العلم أبناء الموصل وغيرها من مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية والعراق[2].

٧- ابن أبي عصرون قاضي القضاة شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله التميمي الشافعي الحديثي الموصلي (٥٨٥هـ/ ١١٨٩م):

أحد الأعلام المشهورين، تفقه أولاً بمدينة الموصل، ثم رحل إلى بغداد ودرس على شيوخها، ثم رحل إلى مدينة واسط ودرس الفقه على شيوخها، ثم عاد إلى الموصل بعلوم جمة، ودرس بها وأفتى، وسكن مدينة سنجار، ثم رحل إلى مدينة حلب، وهكذا ظل يتنقل في منصب القضاء بمدن بلاد الشام، وآخرها كان بدمشق حيث توفي بها سنة (٥٨٥هـ).

---

(١) نفس المرجع السابق ص (٣٣٥).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٥٣- ٥٧) و(٧: ٢٥٤- ٢٥٥) وعبر الذهبي (٣: ٧٨، ٧٩).

وقد ألف ابن أبي عصرون عدة كتب في المذهب الشافعي أهمها: «صفوة المذهب من نهاية المطلب» في سبعة مجلدات، و«الانتصار» في أربعة مجلدات، و«المرشد» في مجلدين، و«الذريعة في معرفة الشريعة»، و«التيسير في الخلاف» أربعة أجزاء. وكان قد عميَ في آخر حياته فألف كتاباً في جواز قضاء الأعمى، وهذا يخالف ما عليه المذهب الشافعي، وقد بقي المذكور في منصب القضاء حتى وفاته(١).

٨- عماد الدين أبو حامد محمد بن يونس بن منعة الفقيه الشافعي الموصلي (٦٠٨هـ/ ١٢١١م).

ولد بمدينة أربل عام (٥٣٥هـ) درس على أبيه في الموصل، ثم أكمل تعليمه ببغداد بالمدرسة النظامية على السديد محمد السلماسي وغيره. ثم رجع إلى الموصل ودرس بها في عدة مدارس: النورية، والعزية، والزينبية، والبقشية، والعلائية وسيأتي ذكر هذه المدارس في الحديث عن إنشاء المدارس.

كان عماد الدين إمام المذهب الشافعي في الموصل، ومن ثم قصده الفقهاء من شتى البلاد، وتخرج على يده كثيرٌ من طلبة العلم الذين صاروا فيما بعد مدرسين مشهورين. وقد ألف عدة كتب منها كتاب «المحيط في الجمع بين المهذب والوسيط»، وشرح كتاب الوجيز للغزالي، ومع مكانته وشهرته إلا أن مصنفاته لم تكن بذلك المستوى الرفيع.

وقد قربه نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل فعينه قاضياً على الموصل، وكان يرسله في عدة مهام إلى الخليفة العباسي في بغداد وإلى غيرها

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٤٢)، ابن خلكان (٣: ٥٣- ٥٧).
عبر الذهبي (٣: ٩٠).
اليافعي: مرآة الجنان (٣: ٤٣)، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب (٤: ٢٨٣).
حاجي خليفة: كشف الظنون (١: ١٧٤).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦: ١٠٩، ١١٠).

في مهام الدولة والمناظرة، ثم اتخذه مستشاراً له، وصنف له عماد الدين كتاباً في الجدل والعقيدة والخلاف مما جعله يؤثر عليه، فغير مذهبه الحنفيّ إلى المذهب الشافعي؛ فكان الوحيد من البيت الزنكي كله شافعيّ المذهب وزاد تقرباً من ابنه الملك القاهر مسعود بعد موت أبيه.

ومع ما وصف به عماد الدين من ورع[1] إلا أن هناك من يقول غير ذلك، حيث ينقلون قول قضيب البان له «لم لا تغسل اللقمة التي تأكلها لتستنظف قلبك وباطنك» ففهم قوله لكنه لم يرد، توفي بالموصل سنة (٦٠٨هـ).

٩- شرف الدين أبو المظفر محمد بن علوان بن مهاجر الفقيه الشافعي الموصلي (٦٥١هـ/١٢١٨م):

ولد بالموصل عام (٥٤٢هـ) ورحل إلى بغداد في سنة (٥٦٠هـ) وتتلمذ على شيوخ المدرسة النظامية ببغداد ثم صار معيداً بها. وبعد ذلك رجع إلى الموصل وصار مدرساً في عدة مدارس بها، منها المدرسة التي بناها والده، ثم في المدرسة البدرية التي أنشأها بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

وكان شرف الدين يتفقد أحوال طلبة العلم ويعتني بهم، وكانت له اليد الطولى في الفتوى والتدريس، وقد روى القليل من الحديث الشريف عن المتأخرين وصنف تعليقاً في الخلاف[2].

١٠- شرف الدين بن منعة أبو الفضل أحمد بن كمال الدين موسى بن رضى الدين يونس بن محمد الفقيه الشافعي الإربلي الموصلي (٦٦٢هـ/ ١٢٢٥م).

ولد بمدينة الموصل عام (٥٧٥هـ) وتلقى تعليمه على يد والده بها، ولم

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ٢٥٣- ٢٥٥) عبر الذهبي (٣: ١٤٩).
اليافعي: مرآة الجنان (٤: ١٦، ١٧).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٦٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (٨٠).

يخرج لطلب العلم كغيره، ورغم ذلك حصل من العلم الكثير مع أنه لم يتفرغ له؛ حيث بقي في بلده مشتغلاً - بالإضافة إلى العلم - بأمور الحياة الأخرى؛ لأنه من المعلوم أن من خرج لأجل العلم لا يشغله شاغل غيره[١].

وهو من أسرة مشهورة بالعلم بمدينة إربل، وقد سار على طريقة والده في التنوع في العلوم، ورحل إلى إربل وتولى التدريس بمدرسة الملك المظفر صاحب إربل بعد وفاة والد ابن خلكان في عام (٦١٠هـ)، وقد تلقى ابن خلكان المترجم التعليم عليه وهو صغير حيث يقول: «وما سمعت أحداً يلقي الدروس مثله»، ويضيف: «ما أذكره إلا وتصغر الدنيا في عيني». ثم رجع إلى الموصل سنة (٦١٧هـ) وتولى التدريس بالمدرسة القاهرية حيث فوض إليه أمرها. وكان شرف الدين بن منعة إماماً كبيراً ومن مصنفاته شرح كتاب «التنبيه» في الفقه وأجاد شرحه، واختصر كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي في مختصر كبير وآخر صغير[٢]، وكان يلقي بعض دروسه من كتاب إحياء علوم الدين، ويعطي الطلبة أيضاً نصوصاً منه للحفظ.

وكان شرف الدين كثير الحفظ، واسع الثقافة، وعلق ابن كثير على مدح ابن خلكان لشرح كمال الدين لكتاب التنبيه في الفقه، فذكر بأنه ليس بتلك الجودة التي ذكرها كما في الشروحات الأخرى، خاصة شرح الفقيه ابن الرفعة فهو جدير بالمديح؛ لما تضمنه من فوائد جمة، وقد توفي في الموصل في التاريخ المذكور[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢ : ٣٥٣)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣ : ٨٢).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١ : ١٠٨، ١٠٩) الصفدي: كتاب الوافي بالوفيات (٤ : ٩٨، ٩٩).

الذهبي: العبر (٣: ١٨٦) واليافعي: مرآة الجنان (٤: ٥٠، ٥١).

ابن كثير: البداية والنهاية (١٣ : ١١١، ١١٢).

(٣) اليافعي: مرآة الجنان (٤ : ٥٢).

١١- أبو الربيع كمال الدين سليمان بن عمر بن المشبك الفقيه الأصولي الحنبلي الحراني (توفي بعد ٦٢٠هـ):

كان ملماً بعلم الأصول والخلاف وغير ذلك، وقد صنف عدة مؤلفات في المذهب الحنبلي والخلاف والعبادات، وله مختصر الهداية، «والوفاق والخلاف بين الأئمة الأربعة»، كما أن له كتاب «الراجح في أصول الفقه» «واعتقاد أهل حران» «ونقي الآفات عن آيات الصفات»، وصرف الإلتباس عن بدعة قراءة الأخماس». ويبدو أنه في علم القرآن، وله غير ذلك[١] وكانت وفاته بحران.

١٢- ابن أبي الفهم ناصح الدين أبو الفرج عبد القادر بن عبد القاهر بن عبد المنعم الحراني الفقيه الحنبلي (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م):

ولد بحران عام (٥٦٤هـ) ودرس بها حيث أخذ العلم عن أبي الفتح بن عبدوس وغيره، كما سمع ببغداد ودمشق، وسمع منه بحران المنذري وأبو عبد الله بن حمدان الذي قال عنه: «إنه قليل الكلام فيما لا يعنيه، كثير الديانة والتحرز فيما يعنيه، شريف النفس، معروف بالفتوى في المذهب الحنبلي». وكان ناصح الدين منسكاً وسطاً جيداً، وله كتاب المذهب المنضد في مذهب أحمد، لكنه فقد، وقد طلب للقضاء فرفض[٢].

وقد بنيت لناصح الدين مدرسة بني العطار التي عمل فيها في آخر عمره بالتدريس، ولما نهبت مدينة حران في أواخر عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) عذب وأخذ منه كل ما يملك، وتوفي بعد ذلك في أول عام (٦٣٤هـ). ولم يذكر ابن رجب الذي أمدنا بهذه المعلومة على يد من كان ذلك النهب؟، ويبدو أنه من قبل التتار الذين قاموا بغزو إقليم الجزيرة الفراتية في هذه الفترة.

---

(١) ابن رجب: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ١٧٨).

(٢) نفس المرجع السابق (٢: ٢٠٢، ٢٠٣).

١٣- ابن تيمية الحراني سيف الدين أبو محمد عبد الغني محمد بن القاسم الفقيه الحنبلي (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)[١]:

ولد بمدينة حران في سنة (٥٨١هـ/ ١١٨٥م) وتتلمذ على والده وغيره من شيوخها، ثم رحل إلى مدينة بغداد ودرس الفقه الحنبلي على شيوخها، ثم رجع إلى حران وقام مقام أبيه بعد وفاته، فكان يخطب ويعظ ويدرس.

ومن مصنفات سيف الدين ابن تيمية كتاب «الزائد على تفسير الوالد» وكتاب «إهداء القرب إلى ساكني الترب»، وقد أجاز للقاضي أبي الفضل سليمان بن حمزة المقدسي، وتوفي بمدينة حران[٢].

١٤- ابن الحنفي شهاب الدين أحمد بن أبي الكرم بن هبة الله الفقيه الحنفي (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م):

كان أحد فقهاء المذهب الحنفي بالموصل، تولى مهنة التدريس ومشيخة الرباط فيها وكان مبعوثاً لبدر الدين صاحب الموصل إلى الخليفة العباسي ببغداد وإلى الملوك والأمراء الآخرين[٣].

١٥- ابن تيمية الحراني مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن الخضر الفقيه الحنبلي (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤):

ولد بمدينة حران ودرس على يد شيوخها، وفي مقدمتهم عمه الخطيب فخر الدين ابن تيمية، ثم رحل إلى بغداد وهو صغير السن برفقة ابن عمه، وبقي بها مدة ستة أعوام درس فيها على شيوخها، ثم رحل إلى بلاده وأخذ العلم مرة ثانية من عمه الخطيب، ثم رحل مرة ثانية إلى بغداد، فأتقن علوم اللغة العربية، والحساب، والجبر، والمقابلة (لعله علم التقابل في الرياضيات)

---

(١) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ٢٠٣).

(٢) ابن رجب: المرجع السابق (٢: ٢٢٢)، الذهبي: العبر (٣: ٢٣٥).

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (١: ٢٢٧، ٢٢٨).

وعلم الفرائض، على العلامة أبي البقاء العكبري الذي قرأ عليه كتاب الفخري في الجبر والمقابلة.

ومع دراسته هذه في العلوم العقلية فأنه كان ضليعاً في علوم الفقه حتى قيل: «ألين الفقه للشيخ المجد كما ألين لداود الحديد».

تولى مهنة التدريس في المدرسة النورية بحران، وقد حدث في عدة مناطق كالحجاز والعراق وبلاد الشام بالإضافة إلى بلاده.

ومن مؤلفاته «أطراف أحاديث التفسير» و«الأحكام الكبرى»(١) في عدة مجلدات والمنتقى في أحاديث الأحكام» وهو الكتاب المشهور الذي اقتبسه من كتاب «الأحكام الكبرى» «والمحرر» وهو في الفقه، و«منتهى الغاية في شرح الهداية»، وقد أتم منه أربعة مجلدات كبار إلى موضوع الحج، وظل الباقي مسودة لم تُبَيَّضْ، وله مجلد واحد في أصول الفقه، وله مسودة في اللغة العربية أخذ العلم عنه ابنه شهاب الدين عبد الحليم، وابن تميم صاحب «المختصر» وغيرهما، وقد سمع منه الكثيرون وأجاز لتقي الدين بن حمزة الحاكم، ولزينب بنت الكمال(٢) ولأحمد بن علي الجزري. وتوفي في بلده حران في التاريخ المذكور(٣).

---

(١) الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٢٦٩).
الجزري، محمد بن علي: غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) (١:٣٨٥، ٣٨٦).
ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (٢: ٣٤٩- ٣٥٢).
الكتبي: فوات الوفيات (٢: ٣٢٣- ٣٢٤).

(٢) هي أم أحمد زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحراني، الشيخة المعمرة العابدة وقد أخذ عنها طلاب كثيرون. انظر: العبر الذهبي (٣/ ٣٦٦).
ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي (١/ ٤١٢، ٤١٣).

(٣) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٢٥٢، ٢٥٣)، اليافعي: مرآة الجنان (٤/ ١٢٨).

١٦- ابن منعة الموصلي الفقيه الشافعي أبو القاسم تاج الدين عبد الرحيم بن محمد بن محمد ابن يونس (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م):

ولد بالموصل في سنة (٥٩٨هـ) وهو من بيت علم وفقه وتدريس ورياسة وصنف عدة كتب، منها: «التعجيز في اختصار الوجيز»، وكتاب الوجيز من تأليف الإمام أبي حامد الغزالي، وهو مختصر جيد في المذهب الشافعي. وقد اختصر ابن منعة أيضاً «المحصول في أصول الفقه» واختصر طريقة ركن الدين الطاووس في الخلاف.

ولما استولى التتار على مدينةالموصل رحل منها ابن منعة إلى مدينة بغداد وتوفي بها في التاريخ المذكور، ورثاه عدد من الشعراء، ومنهم ابن الكوفي شمس الدين محمد الواعظ[1].

---

(١) ومن ذلك قوله:

ألا يا غريب الدار إني كلما ذكرتك زادت نار وجدي تضرما
وإني على الأحزان إلا تجلدا ويأبى عليّ الحزن إلا تضرما

انظر: اليونيني: ذيل مرآة الزمان (٣/ ١٤- ١٦).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/ ٣٦٥).
العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (١/ ١٠٨).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤/ ٢٥٥).

علم التاريخ

يتضمن علم التاريخ ذكر الوقائع وأوقاتها وأسبابها[١] قال عنه ابن خلدون في مقدمته: «إنه فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا». وقد شهد هذا العلم نشاطاً كبيراً في إقليم الجزيرة في فترة دراستنا، فظهر عدد كبير من المؤرخين الذين تفخر بهم الحضارة الإسلامية، ومن هؤلاء العلماء:

١- ابن خميس الكعبي الحسين بن نصر بن محمد الموصلي ت: (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)

«وقد سبق الحديث عنه مع الفقهاء، والذي يهمنا هنا هو كتابه التاريخي «طبقات الأولياء» أو «مناقب الأبرار في محاسن الأخيار». ومن اسم الكتاب يتضح أنه ألفه لذكر الأولياء. وقد اقتبس منه ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات كتابه «المختار في مناقب الأخيار»، وكتاب آخر «أخبار المنامات»[٢].

---

(١) الرازي: مختار الصحاح والمنجد في اللغة والأعلام.

(٢) مقدمة ابن خلدون (١٢، ١٣)، ابن الأثير في مقدمة كتابه الكامل في التاريخ. =

٢- ابن الأزرق الفارقي أحمد بن يوسف بن علي (المتوفي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري)[١].

ينتمي ابن الأزرق إلى أسرة ذات مكانة مرموقة، فقد تولى جده الرئيس علي بن الأزرق منصب النظارة عند محمد بن جهير[٢].

وولد ابن الأزرق بمدينة ميافارقين في سنة (٥١٠هـ/١١١٦م)[٣]. ونشأ بها وتلقى بها أولى خطواته التعليمية كقراءة القرآن الكريم والكتابة، ثم رحل إلى مدينة بغداد، فدرسَ بها - على يد شيوخها - الفقه والفرائض واللغة والنحو والحديث الشريف وتفسير القرآن الكريم، لكنه شغف بعلم التاريخ أكثر من غيره من العلوم فاجتهد في طلبه، وقرأ الكثير من المصنفات التاريخية[٤].

وكتاب ابن الأزرق الفارقي المسمى «تاريخ ميافارقين وآمد» الذي اختصره المحقق باسم «تاريخ الفارقي» ونشر منه القسم الخاص بالدولة

= الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١٠٤)، حاجي خليفة: كشف الظنون (١: ٣٠). الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٩٧).

(١) ورد اسم ابن الأزرق لمؤلف آخر: هو أبو الفضل عبد الله بن محمد بن عبد الوارث الفارقي المتوفي في سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) مصنف «تاريخ ميافارقين» انظر حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١: ٣٠٧)، كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين (٦: ١٣٠).

(٢) محمد بن جهير: هو أبو نصر محمد بن جهير، الذي استولى على ديار بكر من بني مروان الأكراد عام ٤٧٨هـ، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ١٤٣: ١٤٤) و(١٨٢- ١٨٣).

(٣) ابن الأزرق الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق د. بدوي عبد اللطيف عوض دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤م، ص (٢٨٤).

(٤) المرجع السابق: مقدمة المحقق ص (٣١- ٣٤).
كحالة: معجم المؤلفين (٢: ٢١٢).
الزركلي: الأعلام (١: ٢٧٣).

المروانية، والكتاب ليس خاصاً بتاريخ مدينة ميافارقين فحسب، بل هو موسوعة ثقافية عامة للعصور السابقة وللعصر الذي عاش فيه، وهو القرن السادس الهجري.

وقد اشتمل الكتاب على سير الخلفاء والأمراء والوزراء والسلاطين والعلماء، وتحدث عن سياسة الأفراد والأقوام، وعن نزاع بعض الطوائف الدينية وعن خصائص كثير من البلدان الجغرافية وأحوال تلك الأمم والشعوب وعاداتها وعلومها.

وتحدث عن تاريخ الدول والإمارت التي قامت في بلاد الشام والعراق والجزيرة الفراتية وأرمينية وبلاد فارس وعن الدول التي قامت فيها مثل السلاجقة والأتابكة والزنكيين والمروانيين والأراتقة، وعلاقة هذه الدول مع بعضها في السلم والحروب، والعلاقات بينها وبين الخلافة العباسية، وبينها وبين جيرانها مثل الدول البيزنطية والفاطمية فضلاً عن الأندلس ودول شمال المغرب. ولم يهمل المؤلف مدينة مارديني التي يحمل الكتاب اسمها فتحدث عن تاريخها في أيام الفرس والرومان، ثم عن فتح الملسمين لها في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على يد عياض بن غنم، وهكذا استمر في سرد تاريخها ذاكراً معالمها الحضارية من مبان وعمارة كالميادين والجوامع والمدارس ومن توفي بها من الأعيان والحكام والعلماء في كل عهد حتى سنة (٥٧٢هـ).

ولما كان قد تولى مناصب إدارية في عدة مناطق - خاصة في مدينته - فإن كتابه هذا يعتبر وثيقة تاريخية دون فيها خبراته، وكذلك فإنه قد دون بعض المعلومات التي استقاها ممن سبقه من المؤرخين مثل فتوح البلدان للبلاذري، خاصة عند حديثه عن معركة القادسية الشهيرة بين المسلمين والفرس، في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[١].

وكذلك استفاد ابن الأزرق الفارقي في كتاب «التشعيث» وهو كتاب عثر

---

(١) مقدمة محقق تاريخ الفارقي (١- ٤، ١٢- ١٣).

عليه في البيعة الملكية بمدينة ميافارقين، فترجمه من اللغة السريانية إلى اللغة العربية، ومن «تاريخ بغداد» لابن أبي طاهر طيفور الذي أخذ منه كثيراً من المعلومات عن البيت النبوي وعن الأمويين. . . الخ.

وهذا الكتاب مفقود، ما عدا الجزء السادس منه الخاص بخلافة المأمون، كما أخذ عن كثير من المؤرخين مثل ابن قتيبة والمسعودي والصولي وأخذ من كتاب الأغاني للأصفهاني ومن كتب التفسير وغيرها.

وكان ابن الأزرق مقلا في اقتباساته، فهو يعتمد على المعنى العام للنص الذي يأخذه. هذا بالنسبة للنصف الأول من كتابه، بينما اعتمد النصف الثاني منه خاصة عند حديثه عن العصر الذي عاش فيه وهذا هو المهم لدينا فقد اعتمد فيه على مذكراته ومشاهداته وسماعه شخصياً من أشخاص شاركوا في تلك الأحداث أو لديه من خلال رحلاته التي قام بها.

أما الذين أخذوا عنه من المؤرخين وأصحاب المعاجم فهم:

١- ابن الأثير في كتابيه (الكامل في التاريخ) و (التاريخ الباهر) عن الدولة الأتابكية في الموصل.

٢- ابن خلكان في معجمه (وفيات الأعيان)، وياقوت الحموي في كتابيه (معجم الأدباء) و(معجم البلدان)، وسبط ابن الجوزي في كتابه (مرآة الزمان) والعيني في كتابه (تاريخ العيني)، وابن شداد الحلبي في كتابه (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة)، وغيرهم كثيرون.

هذا وقد صنف ابن الأزرق كتابه هذا حباً في تسجيل الحوادث التاريخية وتدويناً لمشاهداته وسماعه فلم يكن إذاً مدفوعاً إليه من قبل ملك أو وزير ولا تلبية لرغبة صديق[1].

---

(١) انظر: الدراسة التي قام بها المحقق د. بدوي عبد اللطيف عوض عن كتاب تاريخ الفارقي.

٣- الصدر أبو الثناء الحراني حماد بن هبة الله التاجر السفار (٥٨٩هـ/ ١٢٠١م).

ولد بمدينة حران عام (٥١١هـ ١١١٧م)، ثم رحل إلى بغداد ودرس على شيوخها، ثم رحل إلى مدينة هراة وإلى مصر وأخذ العلم عن شيوخهما، ثم عاد إلى بلده حران وتوفي بها. وصنف كتاباً في تاريخ حران، ونظم الشعر وأجاد فيه(١).

٤- ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م):

سبق الحديث عنه في علوم اللغة والأدب والحديث الشريف، والذي يعنينا هنا مصنفاته في علم التاريخ، وهما كتابان: أحدهما «كتاب البنين والبنات والآباء والأمهات والأذواء والذوات» وهو في مجلد واحد خصصه للمحدثين. والثاني كتاب «المختار في مناقب الأخيار» الذي اقتبسه من كتاب ابن خميس الكعبي السابق ذكره ويتكون الكتاب من أربعة مجلدات(٢).

٥- ابن الأثير الجزري عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م):

ولد بجزيرة ابن عمر عام (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) ونشأ بها، وفي عام (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م) رحل مع والده وأخويه مجد الدين وكافة أفراد أسرتهم إلى

---

(١) منه قوله:

تنقل المرء في الآفاق يكسبه — محاسناً لم يكن منها ببلدته.

أما ترى البيدق الشطرنج أكسبه — حسن التنقل حسنا فوق زينته.

انظر في ترجمته: الذهبي العبر (٣: ١٢٢)، اليافعي: مرآة الجنان (٣: ٤٩٥).

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (١٧ : ٧٧) تاريخ ابن الفرات (٥: ١٠٣).

حاجي خليفة: كشف الظنون (١ : ٢٥٦)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٩٧).

الموصل؛ لالتحاق والدهم بخدمة أسرة البيت الزنكي، فاستوطنوها، وفي الموصل نهل عز الدين من العلوم المختلفة من شيوخ العلم بها، وفي مقدمة هؤلاء العلماء: أبو الفضل عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي خطيب الموصل (ت٦٢٢هـ)، وأبو الحرم مكي بن ريان (ت٦٠٣هـ).

ثم رحل إلى بغداد وتلقى بها على يد شيوخها - خاصة الشيخين أبي القاسم يعيش ابن صدقة الفقيه الشافعي (ت٥٩٣هـ) وأبي أحمد عبد الوهاب بن علي الصوفي وغيرهما علوماً كثيرة، كما رحل إلى بلاد الشام وإلى مدينة القدس الشريف وسمع من شيوخهما مختلف العلوم، ثم عاد إلى الموصل، وتفرغ للتدريس والتصنيف، وكان منزله منتدى لطلاب العلم وشيوخه من أهل الموصل ومن الواردين إليها[1].

كان عز الدين ابن الأثير إماما في علم الحديث وما يتعلق به وعلامة أستاذاً في علم التاريخ، واعترف له بذلك المؤرخون المعاصرون له واللاحقون. وكان خبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم، صنف في التاريخ كتابه المشهور «الكامل في التاريخ» ابتدأه من أول الزمان إلى آخر عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)، ويعتبر هذا الكتاب من أحسن كتب التواريخ وأوفاها إلى العام المذكور، وقد أكمل فيه كتاب تاريخ الطبري عام (٣٠٣هـ) وتوسع فيه عن البويهيين وعن الفترة التي عاشها وبالذات عن الغزو المغولي (التتار) لبلاد فارس.

وله كتاب «اللباب في تهذيب الأنساب» اختصر فيه كتاب (الأنساب) لأبي سعيد عبد الكريم السمعاني من ثمانية مجلدات إلى ثلاثة مجلدات.

وقد استدرك عليه في عدة مواضيع، وصحح بعض الأخطاء الواردة فيه،

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٣٤٨).

ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ١٣١، ٢٥٨، ٤٤٨).

مقدمة محقق كتاب ابن الأثير التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل عبد القادر طليمات. دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المتنبي بغداد ص (٧- ١٢).

واختصاره هو الأكثر انتشاراً بين الناس من الأصل.

وله كتاب «أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة» خصصه عن صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، ويتكون الكتاب من ستة مجلدات كبار، وقد وصف ابن خلكان ابن الأثير عندما التقى به في مدينة حلب عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) بقوله: فاجتمعت به فوجدته رجلاً مكملاً في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع. وكان يتردد عليه طيلة وجوده في مدينة حلب، ثم رحل ابن الأثير إلى مدينة دمشق في سنة (٦٢٧هـ)، وعاد منها في العام التالي إلى مدينة حلب، واستمر ابن خلكان يتردد عليه أيضاً إلى أن رجع ابن الأثير إلى الموصل عام (٦٢٨هـ)، وذكر أنه استفاد منه علماً كثيراً في التاريخ(١).

هذا وسنتحدث عن كتابيه «الكامل في التاريخ» و«التاريخ الباهر» في الدولة الأتابكية في الموصل بشيء من التفصيل لكونهما يمدان موضوع دراستنا هذه بأكثر المعلومات وأدقها.

ومن مصنفاته هذه يتضح لنا حب عز الدين بن الأثير لعلم التاريخ وتخصصه فيه، لذا صنف في العديد من فروع التاريخ، ففي التاريخ العام، صنف «الكامل في التاريخ»، وفي التراجم صنف كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، وفي الأنساب صنف «اللباب في تهذيب الأنساب».

أما التاريخ الخاص فصنف فيه كتاب «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل «الذي خصصه لتاريخ البيت الزنكي في الموصل.

وإذا ما أردنا الحديث عن كل كتاب منهما فنقول:

إن كتاب «اللباب في تهذيب الأنساب» قد اختصره من كتاب «الأنساب» لمؤلفه محمد بن منصور بن محمد السمعاني المروزي (ت٥١٠هـ)(٢)، وقام

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٣٤٨- ٣٤٩).

أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (٣: ١٥٤)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٥٥٣- ٥٥٥). ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (٢٤٤- ٢٤٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٥٢٤). =

بتهذيبه، حيث أوضح في مقدمته الأسباب التي دعته إلى ذلك، وأهمها أن السمعاني «قد أطال واستقصى حتى خرج من حد الأنساب وصار بالتواريخ أشبه، ومع ذلك ففيه أوهام»، فقام باختصار الكتاب والتنبيه على ما فيه من غلط وسهو.

وأما كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، فقد ضمنه تراجم الصحابة» (رضوان الله عليهم جميعاً) ذكر فيه سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة، واستدرك فيه على من تقدمه مصححاً أخطاءهم.

على أن أهم كتابين للإمام عز الدين ابن الأثير بالنسبة لموضوعنا هما كتاباه: «الكامل في التاريخ»، و«التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل».

كتاب «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل»:

صنفه ابن الأثير تلبية لرغبة الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن زنكي بن مودود الأتابكي الزنكي (٦٠٧ - ٦١٥هـ) كدليل شكر وعرفان لملوك الدولة الزنكية الأتابكية، وقد عبر عن ذلك بقوله: (ولم نزل نقابل قديم إنعامهم وحديثه بإخلاص الدعاء وصدق العبودية والولاء)[١].

وقد سرد فيه سيرة ملوك البيت الزنكي مبتدئاً بسيرة قسيم الدولة أقسنقر بن عبد الله والد عماد الدين زنكي مؤسس مُلْك البيت الزنكي، فذكر صلته بالسلاطين السلاحقة وتوليته حلب، ثم مشاركته في صراعهم على السلطة إلى أن انتهى الأمر بقتله على يد تاج الدولة السلجوقي تتش عام (٤٨٧هـ) صاحب دمشق.

= اليافعي: مرآة الجنان (٤: ٧٠).

(١) مقدمة محقق كتاب (التاريخ الباهر) ابن الأثير ص (١٣، ١٤).

دحلان: الفتوحات الإسلامية. نشر مؤسسة الحلبي القاهرة (١٣٨٧هـ/١٩٦٨) ص (٥٣- ٥٤).

مقدمة ابن الأثير نفسه في كتابه ص (١، ٢).

حاجي خليفة: كشف الظنون (١: ٨٢).

ثم توسع ابن الأثير في سرد سيرة الأتابك عماد الدين زنكي مؤسس الأتابكية الزنكية منذ مقتل والده وهو ابن عشر سنين، ونشأته وترقيه في المناصب الإدارية حتى توليه أتابكية الموصل والجزيرة الفراتية وبعض مدن بلاد الشام وإنجازاته التي حققها، وعلاقته بجيرانه إلى أن قتل أثناء حصاره لقلعة جعبر سنة (٥٤١هـ).

وهكذا استمر ابن الأثير في سرد سيرة كل واحد من ملوك هذا البيت إلى أن وصل إلى سيرة والد الملك القاهر مسعود نور الدين أرسلان شاه فتحدث عن أعمالهم وعلاقاتهم بالملوك الآخرين ومساهماتهم في الجهاد ضد الصليبيين سواء كان في إقليم الجزيرة الفراتية ومدينة الرها أو ما حولها أو في بلاد الشام، كذلك تحدث عن نظام الجيش وفرقه وأساليب القتال وعن نظام الإقطاع في هذه الأتابكية وأوضاعها الإدارية.

مصادره التي أخذ منها مادته العلمية:

كان والده هو مصدره الأول الذي يحدثه كثيراً عن البيت الزنكي وعن أحوال البلاد قبل تولي عماد الدين زنكي مقاليد الأمور فيها، وكيف غدت بعد ذلك. ومن هذه المصادر معايشته هو نفسه للأحداث، ويضاف إلى ذلك ما سمعه بنفسه من تلك الشخصيات التي شارك بعضها في صنع تلك الأحداث، وهذا شيء مهم جداً[(١)].

وقد رجع ابن الأثير إلى بعض المصادر التاريخية المهمة مثل: (تاريخ دمشق) لابن عساكر، و(أخبار حلب) لابن النديم، وبعض مصنفات العماد الكاتب الأصبهاني.

وقد أفادنا كتاب (التاريخ الباهر) هذا كثيراً في جمع مادة بحثنا؛ حيث أمدنا بمعلومات غزيرة عن البيت الزنكي خصوصاً ودوره على مسرح الأحداث.

---

(١) مقدمة ابن الأثير في كتابه التاريخ الباهر.

هذا ويأخذ عليه بعض الباحثين أنه لم يدون الصراع الذي دار بين الملوك الزنكيين وبين صلاح الدين الأيوبي وخلفائه من بعده، خاصة وأن النصر كان من نصيب الأيوبيين الذين أخضعوا البيت الزنكي لنفوذهم. وأنه قد اختصر بعض الحوادث خاصة تلك التي تمس البيت الزنكي. وهذا الأسلوب اتبعه كذلك في كتابه «الكامل في التاريخ».

والواقع أن ولاءه للبيت الزنكي جعله لا يستطيع أن يأتي بما يسيء إلى البيت الزنكي، خاصة ان الكتاب أساساً صنفه تلبية لرغبة أحد الملوك الزنكيين.

وقد أخذوا عليه أيضاً اختلاف تواريخ بعض الأحداث عما ورد في كتابه الكامل في التاريخ(١).

كتاب الكامل في التاريخ:

وضح ابن الأثير في مقدمته تلك الأسباب التي دعته إلى تصنيف هذا الكتاب، بقوله:

«لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثراً للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها، فلما تأملتها رأيتها متباينة في تحصيل الغرض. فمن مطول قد استقصى الطرق والروايات، ومختصر قد أخل بكثير من الحوادث، والشرقي منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب، والغربي قد أهمل أحوال الشرق فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخاً متصلاً إلى وقته يحتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب عديدة مع ما فيها من الإخلال، فلما رأيت الأمر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا»(٢).

---

(١) مقدمة محقق الكتاب في الدراسة التحليلية التي أعدها للكتاب.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (٤: ٥٤٤، ٥٥٥).

(٢) وصل فيه إلى عام (٦٢٨هـ/ ١١٣٣م) أي قبل وفاته بسنتين حيث توفي عام (٦٣٠هـ/ ١١٣٥م).

وهكذا يعرب ابن الأثير عن تواضعه، ويحتاط لما قد يكون في كتابه من نقص، موضحاً أن من هو بالموصل لا بد أن يشذ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ومع هذا فإن كتابه يبقى نبراساً احتذت به المصادر التاريخية الأخرى اللاحقة له بل واستقت منه جل معلوماتها.

مصادره التي أخذ منها مادته التاريخية:

كان أولها تاريخ الطبري؛ إذ يقول: «فقصدت أهم الروايات فنقلتها، وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها»، وبعد أن أتم نقله أضاف إليه ما جمعه من المصادر التاريخية الأخرى، التي وثق بصدق وأمانة مؤلفيها، يقول: «على أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه»[1].

وقد سجل تاريخه هذا بالسنوات، أي وفقاً لنظام الحوليات، فيذكر الحوادث المهمة منها، أما الحوادث الصغيرة والعابرة ووفيات بعض الشخصيات الهامة كالعلماء والقادة والأعيان: فيأتي بها في نهاية كل سنة.

وفي آخر مقدمته هذه أشار إلى أنه قام بعمله الجليل هذا تلبية لأمر الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وما تبعها. وعن عنوان الكتاب قال:

«وقد سميته اسماً يناسب معناه وهو (الكامل في التاريخ). مع أنه عندما يحيل إليه في كتابه «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل» يسميه (المستقصي في التاريخ).

ولم ينس عز الدين ابن الأثير في نهاية مقدمته لهذا الكتاب أن يشيد بأهمية علم التاريخ ودراسته للإنسان دنيا وأخرى. وينتقد أولئك الذين يقللون من أهميته ومن متابعة دراسته، وقد وصفهم بقوله: «وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره، لكن من رزقه الله طبعاً سليماً، وهداه صراطاً مستقيماً

---

(١) مقدمة ابن الأثير نفسه للكتاب المذكور.

علم أن فوائدها كثيرة ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة عزيزة»[1].

والواقع أن كتاب (الكامل في التاريخ) أهم مصادر هذه الدراسة لكونه أهم وأشمل وأدق مصدر تاريخي معاصر للفترة التي ندرسها ولكون مؤلفه من أبناء هذا الإقليم ومعايشاً للأحداث، بل كان هو وأسرته من المتفاعلين المؤثرين في مجريات السياسة والأحداث في جزء هام من إقليم الجزيرة الفراتية.

٦- ابن شداد[2] الموصلي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الأسدي (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م):

ولد بمدينة الموصل في سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م)، وحفظ بها القرآن الكريم، ثم درس على الشيخ يحيى بن سعدون القرطبي - أحد عشر عاماً - علوم القراءات والتفسير والحديث الشريف، وقد أجاز له رواية ما سمعه منه. ثم أخذ عن الشيرجي عبد الله بن الخضر بن الحسين المشهور بعلمي الحديث والفقه. وفي عام ٥٦٦هـ أجاز له رواية ما سمعه عنه مثل بعض تفسير الثعلبي.

وكان قد درس على يديه بالمدرسة الأتابكية القديمة بالموصل، وسمع من خطيب الموصل عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي (ت٥٧٨هـ) بالموصل كما سمع عن القاضي فخر الدين أبي الرضا سعيد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري[3] الحديث الشريف وأجاز له روايته.

---

(١) مقدمة الكتاب لابن الأثير المؤلف ص (٥- ٦).
مقدمة محقق كتاب التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل.

(٢) ابن شداد نسبة إلى جده لأمه، لأنه نشأ عند أخواله بعد وفاة والده وهو صغير السن.

(٣) الشهرزوري: نسبة إلى مدينة (شهرزور) اسم فارسي، وتعني بلدة زور التي رحل منها جدهم القاسم بن المظفر بن علي إلى مدينة الموصل فصار من أولاده، وأحفاده علماء نجباء نالوا المراتب العالية عند الملوك فتحكموا في أمور الدولة وقضوا ونفقت أسواقهم.
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤ : ٦٨- ٧٠).

وكذلك أخذ عن الحافظ الأشيري الصنهاجي عبد الله بن محمد (ت٥٦١هـ) الذي أجاز له جميع ما يرويه عنه وذلك في سنة ٥٥٩هـ). وفي نفس العام أجاز له الحافظ محمد بن علي الجياني ما يرويه عنه وكان قد قرأ عليه كتب الحديث الشريف، ثم انتقل إلى مدينة بغداد، والتحق هناك بالمدرسة النظامية التي كانت محط رحال طلبة العلم من مناطق مختلفة، ثم صار معيداً بها في سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) وبقي في وظيفته هذه نحو أربعة أعوام، ثم رجع إلى بلاده الموصل. وفي عام (٥٦٩هـ) تولى التدريس بمدرسة القاضي كمال الدين محمد الشهرزوري واستفاد منه مجموعة كبيرة من طلاب العلم[(١)].

وقد علت مكانته عند ملك الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي (٥٧٦ - ٥٨٩هـ، ١١٨٠- ١١٩٣م)، فكان عنده بمثابة سفير متجول يحمل رسائله المهمة إلى الخليفة العباسي ببغداد وإلى السلطان صلاح الدين الأيوبي والملوك المجاورين.

ومن خلال مهماته هذه والتقائه بصلاح الدين تعرف عليه صلاح الدين عن قرب فضمه إلى خدمته وقربه منه؛ وذلك منذ عام (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) وصار من خاصة مستشاريه لذا كان تصنيفه كتابه التاريخي (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) الذي عرف اختصاراً بـ(سيرة صلاح الدين).

وهذا الكتاب من أهم الكتب التي تناولت سيرة صلاح الدين الأيوبي لكونه قريباً منه كل القرب، وليس فقط كمعاصر أو شاهد عيان له، فسجل أدق المعلومات عنه وعن تحركاته وحروبه مع أمراء الشام والجزيرة الفراتية وجهاده ضد الصليبيين وعن سياسته تجاه الأصدقاء والأعداء.

ولابن شداد الموصلي مؤلفات أخرى أغلبها في الحديث والفقه منها:

١- دلائل الأحكام في الحديث الشريف.

٢- ملجأ الحكام عند التباس الأحكام في الأقضية، وهو مجلدان.

---

(١) ابن شداد الموصلي: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق أ. د. جمال الدين الشيال ط (١٩٦٤م) ص (٧، ٦٥، ٨٥).

٣- دروس في الحديث.

٤- كتاب العصا (يعني بها عصا سيدنا موسى عليه السلام).

٥- أسماء الرجال التي وردت في كتاب المهذب للشيرازي.

٦- فضائل الجهاد، الذي صنفه خصيصاً لصلاح الدين الأيوبي.

واستقر بهاء الدين ابن شداد المؤرخ الموصلي بمدينة حلب وقضى بها معظم مدة حياته بالنشاط العلمي والسياسي، وقربه من صلاح الدين الأيوبي أعطاه ثقلاً أكبر.

وكان من تلاميذه من صار له شأن مثل ابن خلكان وأبي شامة صاحب الروضتين والذيل عليها، وابن واصل مصنف كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)[1]. وتوفي بها في التاريخ المذكور.

٧- ابن المستوفي الإربلي شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م).

سبق الحديث عنه في علم اللغة والأدب ونشاطه فيه، والذي يهمنا هنا هو نشاطه في علم التاريخ حيث ألف فيه كتابه «تاريخ إربل» المسمى (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل) قال ياقوت الحموي[2] عن ابن المستوفي: فإنه متحقق بالأدب محب لأهله، مفضل عليهم، وله دين واتصال بالسلطان وخلة شبيهة بالوزارة، وقد سمع الحديث الكثير ممن قدم عليهم إربل وألف كتباً.

---

(١) ابن شداد الموصلي: النوادر السلطانية، دراسة المحقق (٤- ١٠).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧: ٨٤- ١٠٠)، أبو شامة: الذيل على الروضتين.
ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال (٨٩- ٩١).
سيديو: (تاريخ العرب العام) ترجمة عادل زعيتر، نشر عيسى الحلبي وشركاه القاهرة (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ص (٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) معجم البلدان (١: ١٣٨).

أما عن كتابه المذكور فقد تحدث في غالبيته عمن ورد مدينة إربل والتقى به وسمع منه ما لديه من حديث شريف، والأكثر الشعر والأدب، كما تطرق إلى ذكر من برز في العلم والأدب من أهل إربل، وأولئك الذين احتلوا مناصب مهمة فيها.

وقد ذكر محقق الكتاب في دراسته التي أعدها عن الكتاب أنه كان مسودة لم يتم تبييضها من قبل المؤلف. ويبدو أن الظروف لم تسمح لابن المستوفي؛ لأن يقوم بترتيب ما جمعه من المادة العلمية، وربما يعود ذلك إلى القلاقل والاضطرابات السياسية التي تعرضت لها مدينة إربل بسبب غزو التتار لها مما اضطره إلى الهجرة إلى الموصل، ثم لتقدم السن به، فقام من جاء بعده من النساخ بنسخ المسودة كما هي بدون تنسيق ولا ترتيب.

وقد أورد المحقق عدة نقاط على الكتاب، منها:

١- عدم تناسق المعلومات مع بعضها البعض.

٢- عدم انسجام بعض المعلومات مع ظروف تأليف الكتاب[١].

٣- نقص بعض العبارات.

٤- عدم ترتيب التراجم على نسق معين على أساس حروف الهجاء أو تواريخ وفياتهم، وبعضها كان مكرراً.

هذا وقد نقل عنه ابن خلكان (ت٦٨١هـ) في (وفيات الأعيان) وابن الشعار (ت٦٥٤هـ) في (عقود الجمان).

ومن خلال استفادتنا من كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان تبين لنا أن بعض التراجم التي ذكر ابن خلكان أنه أخذها عن ابن المستوفي غير موجودة في الكتاب المطبوع والذي يتكون من مجلد واحد، بينما ذكر ابن خلكان أنه يتكون من أربعة مجلدات «جمع لأربل تاريخاً في أربعة مجلدات وقد أحلت

---

(١) الدراسة التي قام بها سامي بن السيد خماس الصقار محقق الكتاب ص (٢١- ٢٣). الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١٠٧، ١٠٨).

عليه في هذا الكتاب مواضيع عدة»[1]. وهذا يدلنا على أن هناك نقصاً كبيراً عما كان عليه الكتاب في الأصل، ومن جانبنا فإننا قد استفدنا كثيراً من المعلومات في تراجم بعض الأدباء والشعراء من هذا الكتاب.

٨- ابن الشعار الكمال أبو البركات المبارك بن أحمد بن حمدان المؤرخ الموصلي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م):

ولد بمدينة الموصل في عام (٥٩٥هـ/١١٩٨م) ودرس بها، وبرع في الأدب والتاريخ، وكان حافظاً للشعر والتاريخ وأسماء الشعراء وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ووفياتهم؛ لذا اهتم بذلك فألف كتابه (عقود الجمان في شعراء الزمان) وهو تكملة لكتاب محمد بن عمران المرزباني في اثني عشر مجلداً[2]، وفي عام (٦٢٥هـ) قام بزيارة إربل والتقى خلال زيارته لها بابن المستوفي الذي أمدنا عنه بهذه المعلومة وأنه كان شعاراً يعمل آلة الجمان وغيرها وربما كتب «الشعار والمرحل»، وتوفي بمدينة حلب في التاريخ المذكور.

٩- ابن باطيش أبو المجد إسماعيل بن هبة الله بن سعيد الموصلي الشافعي (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م):

ولد بمدينة الموصل في عام (٥٧٥هـ/١١٧٩م) ونشأ بها في رعاية والده الذي كان من عدول الموصل، فتلقى تعلمه الأول على يده ونشأ نشأة علمية فكان يصحبه معه إلى حلقات الدرس ومجالس العلماء، فدرس على شيوخها

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ١٤٧)، اليافعي: مرآة الجنان (٤: ٩٦).
حاجي خليفة: كشف الظنون (١: ٢٨١).

(٢) ابن المستوفي: تاريخ إربل (١: ٣٨٤).
اليونيني: ذيل مرآة الزمان (١: ٣٣).
الذهبي: العبر (٣: ٢٧٤).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٩٨).

الفقه الشافعي ثم علم الحديث الشريف، ثم رحل في طلب العلم، فكانت بغداد أولى محطاته، فدرس بمدرستها النظامية على يد شيوخها.

وبعد ذلك رحل إلى دمشق وحلب وحران، وأخذ عن شيوخها، وقد أخذ العلم فيها عن أكثر من أربعين عالماً، حتى بلغ درجة من العلم واسعة، أهلته لأن يقوم بمهنتي الإفتاء والتدريس، فقام بالتدريس في المدرستين البدرية والفخرية بالموصل ثم المدرسة النورية بحلب، وصنف عدة كتب[١].

والذي يهمنا هنا كتابه (التمييز والفصل بين المتفق في الخط والنقط والشكل) الذي ترجم فيه لأعيان الصحابة (رضوان الله عليهم) والتابعين والفقهاء والمحدثين والقضاة والسلاطين والأمراء والقراء والأدباء والشعراء والزهاد والصوفية والعدول والأطباء والتجار وأصحاب الحرف والصناعات وغيرهم، مبتدئاً بالقرن الأول الهجري حتى زمانه. وكان ترتيبه ترتيباً معجمياً، فينسب الشخص إلى القبيلة أو الجد أو البلد أو الصنعة أو المذهب[٢].

- قَيَّدَ الأنساب التي تناولها بالحروف حيث يميز بين مشتبه الأنساب في مثل «العَقِيلي» و«العُقَيْلي» فقال في الأولى: بفتح العين وكسر القاف وسكون الياء التي تحتها نقطتان ثم لام ثم ياء النسب، بينما قال في الثانية: بضم العين وفتح القاف والباقي كالذي قبله ووضع كلاً منهما في باب مستقل عن الأخرى

---

(١) ومنها: أربعون حديثا عن أربعين فقيها من الصحابة، أقصى الأمل في علم الجدل، شرح ألفاظ المهذب لأبي إسحاق الشيرازي، عدة السالكين شرح النسبية للشيرازي، طبقات أصحاب الشافعي مزيل الارتياب من مشتبه الأنساب، فضل الصيام وما ورد في الحث على صومه من الشهور والأيام، مشتبه النسبة، مزيل الشبهات في إثبات الكرامات، المصباح في الأحاديث الصحاح، النخبة من مشتبه النسبة، نهاية الأرب في تهذيب عجالة النسب، نهاية المرام في إيضاح أركان الإسلام، نهاية الوسائل في معرفة الأوائل، وأخيراً الكتاب الذي نتحدث عنه.

(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر (٣: ٢٧٥).
ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (٣٠٧- ٣٢٢).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٣٩٨)، الموصل في العهد الأتابكي ص (١٠٣).

حتى لا يقع تصحيف.

- توسع في تراجمه عما كان عند السمعاني، ثم زاد عليه في تراجم بعد عصر ابن السمعاني.

- عرف كثيراً من الأماكن وحدد مواقعها، ومنها ما لا يوجد في معاجم البلدان المعروفة.

- ذكر كثيراً من أيام العرب قبل الإسلام والوقائع والأحداث التاريخية الإسلامية.

- توسع في تراجم معاصريه من شيوخه وزملائه في الدراسة، وأولئك الذين ارتبط بهم بعلاقة وثيقة، فقد أورد عنهم معلومات قيمة لا توجد في التراجم الأخرى.

- لم يتعرض لأحد ممن ترجم لهم بالجرح والطعن إلا ما كان مذكوراً في المصادر التي نقل عنها، وقد أورد في أثناء كتابه كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والأشعار العربية مما يدل على سعة معلوماته الثقافية الدينية والأدبية.

ومن كتبه التي صنفها اتضح أنه بالإضافة إلى الفقه والحديث الشريف اختص بالأنساب رحل ابن باطيش إلى مدينة حلب ودرس في المدرسة النورية بها إلى أن توفاه الله بها في التاريخ المذكور[(١)].

١٠- ابن خلكان قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن أبي بكر الإربلي الشافعي (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).

ولد ابن خلكان في مدينة إربل في سنة (٦٠٨هـ/١٢٠٩م) ونشأ بها وتلقى بها على يد شيوخها علم القرآن الكريم، وصحيح البخاري، ثم تفقه في الموصل على العلامة كمال الدين موسى بن يونس، وعلى القاضي بهاء الدين

(١) الذهبي: العبر (٣: ٢٧٥)، حاجي خليفة: كشف الظنون (١: ٣٠٧).
ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (٣٠٧ - ٣٢٢).

أبي المحاسن يوسف بن رافع المعروف بابن شداد في حلب حيث كان قد رحل إلى بلاد الشام وأقام بها وبدمشق مدة عشر سنوات.

وفي عام (٦٣٣هـ) رحل إلى مصر واستوطنها، وكان علامة في الأدب والشعر وأيام الناس، عالماً فقيهاً بالمذهب الشافعي، وتولى منصب قاضي القضاة في الديار المصرية وبلاد الشام، وله نظم جيد في الشعر والدوبيت.

والذي يهمنا هنا - ونحن نتحدث عن علم التاريخ - كتابه المشهور (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) الذي يعتبر الأول من نوعه في التراجم. وقد طبع الكتاب في سبعة مجلدات كبار، وقال في مقدمته عن سبب تأليفه له:

«هذا مختصرٌ في التاريخ، دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم ومواليدهم، ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء، بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ذكرته وأتيت من أحواله، وأثبت وفاته ومولده إن قدرت عليه.

وقد بدأ تأليف هذا الكتاب في القاهرة سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) وانتهى منه في سنة (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م)[١].

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (١: ١٩، ٢١).
مقدمة المؤلف ومقدمة المحقق (٥: ٣١٧).
الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٣٤٧).
الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها (١: ١٠- ١١٨).
اليونيني: ذيل مرآة الزمان (٤: ١٤٩- ١٦٥).
الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١٢٤، ١٢٥).
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (٤: ٥٦٤).
اليافعي: مرآة الجنان (٤: ١٩٣- ١٩٧)، وله نقد لما جاء في مقدمة ابن خلكان على أنه لم يتقيد بذلك.

علم «الجغرافية» أو تقويم البلدان

إنقسم العلماء حول وضع علم الجغرافية، فمنهم من وضعه ضمن العلوم النقلية لكونه مادة أدبية ومنهم من وضعه ضمن العلوم العقلية[١] لكونه يعتمد على التجارب والرسومات والآلات العلمية.

ومن جانبنا فإننا قد نحينا المنحى الأول، فوضعناه ضمن العلوم النقلية؛ وذلك لارتباطه الوثيق بعلم التاريخ[٢]، ثم إنه خلال فترة دراستنا تركزت الكتابة والتأليف فيه على الرحلات وتقويم البلدان، وذلك من خلال وصف ما تم مشاهدته على الطبيعة من معالم تلك البلدان.

وأهم الأسباب التي دعت إلى نشوء هذا العلم حاجة الناس إلى معرفة الطرق والبلاد والمسافات بينها، إما بهدف التجارة أو لأجل الفتوحات لمناطق أخرى بقصد التوسع.

وقد حظي علم الجغرافية - في ظل الحضارة الإسلامية باهتمام كبير؛ وذلك تحت تأثير ثلاثة عوامل، وهي:

أولها: الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة وهو فرض على كل مسلم قادر أيا كان موقعه في المعمورة، فلا بد من أن يأتي إلى مكة المكرمة

---

(١) توجيهات الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور وحسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (٤: ٥٨٣).

(٢) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ١٠٦، ١٠٧).

وقد استدعت رحلة الحج معرفة الطرق والمسافات بين مرحلة وأخرى[١].

وثانيها: الرحلة في طلب العلم، فقد قام طلبة العلم بالسفر والترحال فكانت البداية لأخذ اللغة العربية من مظانها من أبناء البادية العربية بعد أن ازداد اللحن والعجمة التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها».

وأصبح مضرب الأمثال في ذلك[٢]، ومن المناطق التي زارها.

* الهند وبلاد فارس، وبعض مناطق الجزيرة العربية، والعراق وبلاد الشام، والديار المصرية، حيث قام في عام (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) بزيارة مدينة الإسكندرية. كما زار بلاد الروم، وزار مدينة القسطنطينية، وزار جزر بحر الروم، وكان أهمها حينذاك جزيرة صقلية[٣]، ومما كتبه عن زياراته قوله:

«سلكت القفار، وطفت الديار، وركبت البحار، ورأيت الآثار وسافرت البلاد وعاشرت العباد»[٤].

صنف الهروي السائح عدة كتب ضمنها وصفاً لزياراته ورحلاته منها:

١- كتابه المشهور (الإشارات في معرفة الزيارات) صنفه لرسول بن النافذ وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي لتوطيد العلاقة بينه وبين البلاط العباسي وذلك عند مرور الرسول المذكور بمدينة دمشق، وكان الهروي السائح مقيماً بها آنذاك. وقد أشار إلى

---

(١) جورجي زيدان: المرجع السابق (٣: ١٠٥، ١٠٦).

(٢) من قول أحد الشعراء:

قد طبق الأرض من سهل إلى جبل　　　كأنه خط ذاك السائح الهروي

ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٣٤٦، ٣٤٧).

(٣) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني والمصري بيروت سنة (١٩٦٢) ص (١٦٣).

الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ٩٥).

حضارة العراق (٨: ٢٣٧).

(٤) عن نظمه ونثره انظر ابن المستوفي: تاريخ إربل (١: ١٥٢، ١٥٣).

ذلك في مقدمته بقوله «أما بعد، فإنه سألني بعض الإخوان أن أذكر له ما زرته من الزيارات وما شاهدته من العجائب والأبنية والعمارات، وما رأيته من الأصنام والآثار والطلسمات في الربع المسكون، والقطر المعمور، وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الإيجاز».

بين سكان المدن والحواضر الإسلامية لكثرة نزوح الموالي والعناصر غير العربية فيها.

ثم كانت الرحلة لطلب الأحاديث النبوية الشريفة وجمعها، وقد استلزم ذلك السفر إلى أماكن أخرى بعيدة عن موطن ذلك الطالب أو العالم، وهذا بدوره تطلب معرفة السبل الموصلة إلى حفاظ الحديث.

وثالثها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وقد تباينت كيفية الفتح باختلاف البلاد، فمنها ما فتحت صلحاً أو عنوة بالقوة المسلحة، أو أماناً. واستدعى ذلك الحكم في قسمة الفيئ وأخذ الجزية أو الخراج وتوزيع الإقطاعات مما أوجب على الفقهاء والأمراء في الأقاليم معرفة شيء من جغرافية كل بلد لتحديد ذلك[١].

وهكذا اهتم الرحالة العرب المسلمون بالرحلات البرية والبحرية مما جعلهم يحوزون قصب السبق فيها؛ إذ قاموا من خلال هذه الرحلات بتصحيح كثير من المفاهيم التي توصل إليها من سبقوهم من علماء الجغرافية والرحلات، ودونوا ما توصلوا إليه في عدة كتب شملت مجالات الرحلات الجغرافية أو الوصفية أو الإقليمية الفلكية ورسموا الخرائط، ووضعوا ما يعرف باسم تقويم البلدان أي: «المعاجم الجغرافية»[٢].

ومن الذين ساهموا في علم الجغرافية والرحلات من أبناء إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا في القرنين السادس والسابع الهجريين، (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد):

(١) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ١٠٦، ١٠٧).
(٢) حضارة العراق (٨: ١٩٢).

١- الهروي[1] السائح أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي (ت٦١١هـ/ ١٢١٤م):

ولد بمدينة الموصل في عام (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) وقام بعدة رحلات، ومن كثرة رحلاته لقب بالسائح، وقال عنه ابن خلكان: «طاف البلاد، وأكثر من الزيارات وكاد يطبق الأرض بالدوران؛ فإنه لم يترك برًّا ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن وقد ذكر فيه الأماكن الدينية التي كانت الهدف الأساسي من التأليف، ومن خلالها تطرق إلى معلومات تاريخية وغيرها من الملاحظات العامة.

٢- كتاب (الخطب المنبرية)

٣- كتاب (منازل الأرض ذات الطول والعرض).

٤- كتاب (الآثار والعجائب والأصنام).

٥- كتاب (التذكرة الهروية في الحيل الحربية) ضمنه فنون الحرب والسياسة وواجبات الملوك وأولياء أمور الدولة من وزراء وقادة ومسؤولين على مختلف مستوياتهم في ذلك العصر.

وقد استقر الهروي السائح بمدينة حلب في ظل رعاية الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي الذي أنشأ له مدرسة بظاهر مدينة حلب، وتولى التدريس فيها حتى وفاته بها سنة (٦١١هـ)[2].

٢- نور الدين علي بن عثمان الموصلي (عاش في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي):

له كتاب رحلة نور الدين التي قام بها من مدينة الموصل إلى مدينة

(١) نسبة إلى مدينة هراة، وهي مدينة بخراسان، وأصله منها.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٣٤٦- ٣٤٨).
زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب ص (١٦٣، ١٦٦).
الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ٩٥). حضارة العراق (٨: ٢٣٧).

قراقور، ودار خاقان المغول في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[1].

٣- عز الدين سعد بن منظور بن أبي سعد بن هبة الله الكموني الإسرائيلي الموصلي (ت٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م):

صنف عدة كتب، منها: كتاب في البلدان ألفه على طريقة ياقوت الحموي في معجم البلدان[2].

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٩٩).

(٢) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٩٩). مقدمة ابن خلدون ص (٩٣٦، ٩٣٧).

العلوم العقلية

هي تلك العلوم التي استنبطها الإنسان بعقله، ثم طورها بالجانب العملي التجريبي والتطبيقي، فهي تدخل حسب تقسيمات أبي حامد الغزالي[1] تحت اسم (العلوم المحمودة) التي ترتبط بها مصالح أمور الدنيا والناس كالطب والحساب وغيرهما.

وقد سماها ابن خلدون[2] بالعلوم الطبيعية، وقال عنها:

«إنها غير مختصة بملة، بل يجب النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها، وتسمى علوم الفلسفة والحكمة».

والذي يهمنا منها تلك العلوم التي حظيت بالإهتمام خلال فترة بحثنا في القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) في إقليم الجزيرة الفراتية. ويتضح هذا من خلال حديثنا عن أشهر العلماء الذين نبغوا في هذه العلوم مثل الأطباء الذين مارسوا مهنة الطب أو المهندسين المعماريين أو المخترعين لآلات ميكانيكية دون الخوض في مقدمات وتطور تلك العلوم كل علم على حدة؛ حيث لا يتسع المجال للحديث عنها في بحثنا.

وأهم تلك العلوم التي انتعشت في إقليم الجزيرة الفراتية في فترة

(١) إحياء علوم الدين (١ : ١٦).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص (٨٨٨، ٨٨٩).

البحث، هي: الطب، الكيمياء، والرياضيات، والفلك، والحكمة، والفلسفة[1].

علم الرياضيات[2]:

يُعتبر علم الرياضيات رأسَ العلوم العقلية، فمنه تتفرع أهم فروع هذه العلوم، وإن لم تكن تتفرع منه، فإنها على الأقل تشترك معه في كثير من معادلاتها ورموزها. وقد عرفه ابن خلدون بقوله: «إنه العلم الناظر في المقادير، ويشتمل على أربعة علوم، وهي: الهندسة، والأرتماطيقي، والموسيقى، والهيئة».

علم الهندسة:

هو ذلك العلم الذي بواسطته تعرف أحوال المقادير المنفصلة من حيث كونها معدودة أو متصلة، وهي إما ذات بعدٍ واحد هو الخط، أو ذات بعدين، وهو السطح، أو ذات أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي، وتعرف تلك المقادير إما من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض، واستخراج ما يحتاج إلى استخراجه بالبراهين اليقينية وقيل: «ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينقيه من الأوضار والأدران».

هذا، ويعتبر من أهم لواحق علم الهندسة الزاوية والنقطة والشكل، ومنه تتفرع علوم أخرى عديدة.

ومن أهم فروع الهندسة علم المساحة والذي يستخدم لمسح أرض الخراج وفي قسمة الأراضي بين الورثة.

---

(١) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٨٤، ١٨٥).
حاجي خليفة: كشف الظنون (٢: ٩٣٩)، غوستاف لوبون: حضارة العرب (٤٥٥ - ٤٨٧). جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢١٣)، (٥: ٥٦٣).

(٢) اختصره د. حسن إبراهيم علي علم العدد وبالذات على الأرقام العربية والهندية والصفر الخ.

علم الإرتماطيقي أي علم العدد[1].

وهو نوعان:

أولهما: الأعداد في ذاتها كالزوجية والفردية ونحوها.

وثانيها: الأعداد عند إضافة بعضها إلى بعض كالتساوي والتفاضل والتناسب والتباين ونحوها. ويتفرع من علم العدد ستة فروع هي:

١- الحساب المفتوح.

هو علم الأعداد بالضم والتفريق، فالضم هو الجمع والضرب. أما التفريق فهو الطرح والقسمة، أي العمليات الحسابية من جمعٍ وطرحٍ وتناسب. وتظهر أهمية ذلك العلم في المعاملات وحفظ الأموال وقضاء الديون وقسمة التركات والميراث وغيرها، وهو العلم الذي عبر عنه أبو حامد الغزالي بأنه «علم ضروري لا غنى للناس عنه وتحتاج إليه العلوم الأخرى كالعلوم الفلكية وعلم المساحة والطب، بل تحتاج إليه أغلبُ العلوم»[2].

٢- حساب التخت والميل.

٣- حساب الخطأين.

٤- حساب الدور والوصايا، وهو ما يتعلق بقسمة الميراث.

٥- علم حساب الدرهم والدينار، ويقصد به استخراج المجهولات

---

(١) سماه حاجي خليفة علم الحساب مع أن علم الحساب جزء من علم العدد وليس كله. انظر كشف الظنون (٢: ٩٣٩)، (٤: ٥٣٠، ٥٣١).

(٢) عن علم الرياضيات انظر: الغزالي: إحياء علوم الدين (١: ١٦).
مقدمة ابن خلدون ص (٨٨٩ - ٨٩٠) و (٨٩٦ - ٨٩٨)، (٩٠١ - ٩٠٣).
جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٢: ٢١٤، ٢١٥).
وجدي: دائرة معارف القرن العشرين مادة علم الهندسة وعلم العدد.
أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، العلوم العقلية. نشر دار الفكر العربي ١٤١١هـ/ ١٩٩١م القاهرة ص (٤٩، ٥٠).

العددية التي تزيد عدتها على المعادلات الجبرية[1].

٦- علم الجبر والمقابلة:

وهو علمٌ يستخرج به العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبةٌ تقتضي ذلك[2].

ويعزى نشأة علم الجبر إلى العلماء العرب المسلمين، فهم الذين أدخلوا المماس إلى علم المثلثات، وأقاموا الجيوب مقام الأوتار وطبقوه على الهندسة وحلوا المعادلات المكعبة وتعمقوا في دراسة المخروطات وحولوا علم المثلثات الكرية بردهم حل مثلثات الأضلاع إلى بضع نظريات أساسية تكون قاعدة. وكان لإدخال المماس إلى المثلثات أهمية عظيمة[3].

٣- علم الهيئة (الفلك والنجوم):

هو علم يهتم بتعيين الأشكال الفكلية، وحصر أوضاعها ومقاديرها والأبعاد الفاصلة بينها وحركات الأفلاك والكواكب ومقاديرها.

وموضوعه: الأجسام المذكورة من حيث كمياتها وحركاتها اللازمة لها[4].

ومنذ العصر العباسي الثاني اهتم العلماء وبعض الفقهاء بعلم الكواكب والنجوم؛ وذلك لأن الخلفاء والسلاطين والأمراء أعطوا جل اهتمامهم للتنجيم حتى كادوا لا يقدمون على عمل حتى في حروبهم مع أعدائهم إلا بعد الرجوع إلى أخذ رأي المنجمين في معرفة ساعة النصر. وكانت الجيوش لا تتحرك إلى

---

(١) وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (٦: ٦٣٠، ٦٣١).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص (٨٩٨).

(٣) غوستاف: حضارة العرب ص (٤٥٥).
العراق في التاريخ، بغداد (١٩٨٣م) ص (٤٨٠).
مقدمة ابن خلدون ٩٠٥ ودائرة معارف القرن العشرين (٦: ٦٢٨- ٦٣٠).

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٥٢٤-٥٢٥).

ميادين القتال إلا في الوقت الذي يحدده المنجمون لها. وغالبية الفقهاء يفتون - حسب تعاليم الشريعة الإسلامية - بتحريم التنجيم[(١)].

وعلى المنجم أن يلم بفروع علم الرياضيات التي ذكرناها، وهي: الهندسة، وعلم العدد (الحساب)، والهيئة، والأحكام، وأن تتوفر فيه شروط مثل طيبة النفس وحسن الخلق. وينقسم هذا العلم بدوره إلى علم الزيجات وعلم التقاويم[(٢)].

علم الكيمياء:

كان العرب يسمونه علم السيمياء، وهو ذلك العلم الذي يبحث في خواص المعادن وإدخال تغييرات في خواصها بواسطة محاليل كيماوية مختلفة، وأن الفلزات كلها مشتركة في النوعية. وأما الإختلاف الظاهر بينها، فإنما هي أمور عرضية يجوز انتقالها؛ لأن الإستحالة في الطبيعة غير منكرة. وبهذه الطريقة استطاعوا الحصول على معادن جديدة كما في الذهب والفضة.

وعلم الكيمياء من أهم العلوم العقلية التي تعتمد على التجربة والتطبيق العملي[(٣)].

علم الطبيعة «الفيزياء»:

ويسمى أيضاً علم «المناظر» أو البصريات: ويدرس المبصرات في كميتها وكيفيتها من حيث قربها وبعدها عن الناظر واختلاف أشكالها وأوضاعها وما يقع بين الناظر والمبصرات وعلل ذلك.

---

(١) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٢: ٢٠٨).

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٥٢٤ - ٥٢٥).

(٣) مقدمة ابن خلدون ص (٩٧٦).

أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية العلوم العقلية ص (٤٨١ - ٤٨٢).

غوستاف: حضارة العرب ص (٤٧٤ - ٤٧٦).

وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (٦: ٦٢٦).

وبواسطة هذا العلم أمكن معرفة مساحة الأجرام البعيدة كما أمكن معرفة جميع الظواهر الطبيعية كالمد والجزر في البحر، والزلازل والبراكين في الأرض، وفي الجو الضغط الجوي والرياح والأعاصير وغيرها كالسحاب والمطر والبرق والرعد والصواعق.

علم المرايا المحرقة:

هو أحد فروع علم المناظر (البصريات) الذي يفيد في أحوال الخطوط الشعاعية المنعطفة والمنعكسة ومواقعها وزواياها ومراجعها وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس أشعة الشمس عنها ونصبها ومحاذاتها. وتستخدم عند حصار القلاع والمدن[١].

علم الميكانيكا، أو علم الموازين والأثقال «علم الحيل»:

وهو علم يبحث في معرفة الأجسام المستقرة وما يتعلق منها بمراكز الأثقال والعتلات والأوزان النوعية للسوائل والمعادن والأحجار.

وبواسطة هذا العلم تم التعرف على مركز ثقل الجسم المحمول، وهذا يفيدنا في معرفة الأجسام الكبيرة الثقيلة بما هو دونها لتوسط المسافة كما في القرسطون.

هذا وقد استفاد العلماء المسلمون من هذا العلم في صناعاتهم الميكانيكية بكل مهارة ودقة، فصنعوا الساعات الدقاقة والساعات المائية التي كانت تقذف في كل ساعة زمنية كرة في إناء معدني تدور حول محور تظهر فيه

---

(١) غوستاف: حضارة العرب (٤٧٤ - ٤٧٦)، العراق في التاريخ ص (٤٨١ - ٤٨٢).
وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (٦: ٦٢٦).
مقدمة ابن خلدون ص (٩١٦).
أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، العلوم العقلية ص (١٠٣، ١٠٤).

النجوم ورسومات حيوانية كتلك الساعة التي صنعها العالم الجزري[1].

علم الفلسفة:

هو العلم الذي يقوم على دراسة المبادئ الأولى للوجود والفكر دراسة موضوعية تنشد الحق وتهتدي بمنطق العقل. وتشمل دراسة الفلسفة المنطق والطبيعيات والإلّهيات والأخلاق. ومن الفلسفة تفرعت العلوم الأخرى أو هي الأساس لها.

هذا، وتعتبر فترة دراستنا فترة اكتمال ونضج للفلسفة الإسلامية[2]، فقد امتاز الفلاسفة المسلمون بإيمانهم بضرورة التقدم الفكري والعلمي.

وقد ظهر في إقليم الجزيرة الفراتية عدد من العلماء في كل علم من العلوم العقلية، وذلك في الفترة التي حددناها لبحثنا، ونظراً لعدم وجود التخصص العلمي - كما هو في عصرنا الحاضر - فإننا سنتحدث عن علماء هذه الفترة بصورة عامة:

١- ابن تيمية أبو محمد عبد الحليم بن محمد بن أبي القاسم (ت٦٠٣هـ/١٢٠٦م):

من أسرة ابن تيمية المشهورة بالعلم، خاصة علم الفقه والتفسير، ولد بمدينة حران عام (٥٧٣هـ/١١٧٧م) ونشأ بها ودرس على شيوخها، ثم رحل

---

(١) غوستاف: حضارة العرب ص (٤٧٣).
العراق في التاريخ ص (٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢).
وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (٦: ٦٢٦).
أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، العلوم العقلية ص (١٠٣، ١١٠).

(٢) التي تمتد من أوائل القرن الثالث حتى أواخر القرن السادس الهجري/ التاسع إلى الثاني عشر. د. سعيد عاشور وعوض خليفات: عمان الحضارة الإسلامية ص(١٨٠).

إلى بغداد وأخذ العلم على شيوخها، وكان في مقدمتهم ابن الجوزي، وأقام ببغداد مدة طويلة درس فيها علوماً كثيرة كالفقه والحديث الشريف والخلاف، وتفوّق في العلوم العقلية كالهندسة والحساب والفلسفة، وأتقنها كلها، وصنف كتاب (الذخيرة) وتطرق فيه إلى دقائق الوصايا وعويص المسائل الدورية ونحوها.

توفي بمدينة حران في التاريخ المذكور[١]؟.

٢- بديع الزمان الجزري أبو العز إسماعيل بن الرزاز (عاش في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد):

كان يعرف برئيس الأعمال، وكان رائداً من رواد صنع الأجهزة والآلات الدقيقة خلال فترة دراستنا، وقد صنف عدة مؤلفات في علم الحيل والميكانيكا، ولكن يبقى كتاب (الهيئة والأشكال) الذي سماه (كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع لصناعة الحيل) المعروف بكتاب (الحيل الميكانيكية) أو (الحيل الهندسية) من أحسن المؤلفات الإسلامية، بل وأشهرها في علم الحيل الميكانيكية، ويقع في ثلاثة مجلدات كبيرة ضمنه أفكاره واختراعاته وتجاربه وتجارب من سبقه من علماء المسلمين[٢].

وقد ألف هذا الكتاب لناصر الدين محمود بن محمد بن قزل أرسلان الأرتقي صاحب ديار بكر (٥٩٧ - ٦١٩هـ/ ١٢٠٠- ١٢٢٢م) عندما كان في

---

(١) ابن رجب: كتاب الذيل طبقات الحنابلة (٢: ٣٩).

(٢) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٥٦٣).

أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، العلوم العقلية ص (١١١).

سويلم: عظماء أغفلهم التاريخ ص (٧٤، ٧٥).

يذكر أحمد عبد الرازق أنه توجد منه بمتحف الكويت الوطني مؤرخة في (رمضان ٧١٥هـ/ ديسمبر ١٣١٥م).

خدمته، فأتمه في سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م) وذكر في مقدمته أنه قرأ ودرس عمن سبقوه ومن عاصروه خصوصاً أولئك الذين نبغوا في صناعة الآلات المائية المتحركة.

وبعد أن استوعب ما عندهم انتقل إلى مرحلة التأليف، ويحتوي الكتاب على رسوم ملونة يصل عددها إلى خمسين شكلاً تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية[١]، وقد قسمها إلى ستة أصناف:

١- لعمل الساعات المستوية «البناكم».

٢- لعمل أواني مجالس الشراب.

٣- لأباريق وطسوت الفصد والوضوء والفورات.

٤- لآلات الزمر الدائم.

٥- لآلات رفع المياه من آبار غير عميقة.

٦- للصور والأشكال المتنوعة.

ومن أمثلة أواني الشراب ذاتية الحركة رسم ل- «الشراب في أعلى الخزانة التي متى ملئت فإنه يقطر إلى الكفة فتمتلئ في مدة ثمن ساعة ويفرغ ما فيها إلى حوض الكفة فينصب دفعة واحدة إلى قدح زجاج في كف الجارية فيثقل القدح ويرفع عطفة القضيب من السفود فتجري الجارية وتدفع المصراع الأيسر بيدها اليسرى وفيها المنديل فينفتح المصراع الأيمن ولا يماس القدح، وتقف الجارية بحالها فيأخذ الملك القدح من يدها ويشرب ما فيه، وإن شاء

---

(١) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٥٦٣).
استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ص (١٥٧).
الصيرفي: تاريخ دول الإسلام (٢: ١٣٧). سويلم: عظماء أغفلهم التاريخ ص (٧٥).
أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (العلوم العقلية) ص (١١١، ١١٢).
ريماند: الفنون الإسلامية ص (٤٤).

مسح فاه بالمنديل، ثم يضع القدح في يدها ويحطها إلى أسفل ويدفع الجارية برفق إلى أن يمنعها مانع ويرفع يدها إلى أعلى». وهذا شبيه بما يعرف حالياً بالإنسان الآلي.

وفيه رسمٌ لساعة منبهة، وهي عبارة عن «زورق لطيف يعلم منه مضي ساعة مستوية، عليه ملاح واقف يستند على مجداف ملصق بأرض الزورق، ويمسك باليد الأخرى منها صفارة يضع طرفها في فيه، والملاح يرتدي قميصاً من النحاس قصير الذيل، وله رجلان ملتصقتان بذيل القميص وقدماه مثبتتان داخل الزورق، ورأسه مجوف خفيف يكسوه غطاء مزود ببعض الثقوب الدقيقة وفي رقبته أنبوب قصير في طرفه بندقة الصفير.

أما الأكمام وياقة العنق فمسدودة سداً محكماً، على حين يشغل ثقب تثبيت الملاح والمجداف في أرضية الزورق خرزة ذات خرم ضيق بشكل يسمح بمرور قدر من الماء يكفي لملء الزورق في غضون ساعة، يغرق الزورق بعدها، وأثناء دخول الماء إلى الزورق من خلال ثقب الخرزة يصل بعد ساعة إلى ذيل قميص الملاح دافعاً الهواء إلى أعلى. ونظراً لعدم وجود أي منفذ للهواء الموجود في تجويف القميص فإنه يندفع عند غوص الزورق في عنق رأس الملاح إلى ندقة الصفير فيصفر صفيراً يستيقظ به النائم»(١).

ولم يكن بديع الزمان الجزري مجرد مصنف لهذا الكتاب بل يمكن اعتباره مخترعاً لتلك الآلات الميكانيكية التي صنفها بنفسه. كذلك يمكن اعتبار كتابه هذا وغيره من الكتب التي شرح فيها كيفية صنع تلك الآلات بما يعرف حالياً ببراءة الإختراع.

ومن الآلات التي قام بصنعها بنفسه:

- إبريق لصب الماء، صنعه للملك الصالح الذي كره أن يصب عليه أحد

(١) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (العلوم العقلية) ص (١١٤- ١١٦).

من الخدم الماء أثناء وضوئه. وكان إبريقاً كبير الشكل لطيف الصنعة وله بلبلة مرتفعة إلى فوق ومعطوفة إلى أسفل وطرفها مصوب يقارب موازاة الأفق، يوضع الإبريق على كرسي وتحته طست وعند أخذ الماء منه يصفر طائر على غطاء الإبريق هُنَيَّةً ما، ثم يتبدئ الماء ويجري من بلبلته فيتوضأ. وهذه هي فكرة الأواني المستطرقة.

- ساعة مائية يسير عقربها إلى الوقت، وذكر تفاصيلها وأجزاءها وخزان الماء اللازم لها وطريقة تثبيتها، وذكر أبعاد الدائرة التي يفيض فيها الماء إلى غير ذلك من التفاصيل الدقيقة المبنية على فكرة سريان الزمن بمعدل ثاتب[١].

٣- ابن منعة أبو عمران كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك العقيلي الموصلي (ت٦٣٩هـ/ ١٢٤١م):

ولد بمدينة الموصل في عام (٥٥١هـ/ ١١٥٦م) وبها تلقى تعليمه الأساس حيث درس الفقه الشافعي على والده، والنحو على أبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي ثم رحل إلى بغداد ودرس بمدرستها النظامية على المعيد بها السريد السلماس والمدرس رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف بن محمد القزوني (ت٥٩٠هـ).

بينما درس الخلاف والأصول والأدب على الكمال أبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري ثم اتجه إلى دراسة العلوم العقلية، فدرسها على يد شرف الدين المظفر بن محمد بن المظفر الطوسي الفارابي صاحب الاضطراب الخطي المعروف بالعصا، فبلغ فيها الغاية من الدراية والإتقان وقد ساعده على ذلك ذكاؤه المفرط، فلا غرو في أن يصير علامة زمانه موسوعياً، حيث اتقن -

---

(١) سويلم: عظماء أغفلهم التاريخ ص (٧٦).

يقول مؤلف الكتاب: «ترجمت أعمال الجزري إلى العديد من اللغات، نظراً لأهميتها. واتخذها العلماء الأوربيون أساسا دقيقا لصناعة الأجهزة والآلات المعقدة التي تفخر بها التكنلوجيا الحديثة في شتى المجالات».

حسبما قيل - أربعة وعشرين علماً من العلوم النقلية والعقلية والأديان وعلوم اللغة والأدب وشملت العلوم الشرعية من أصول الفقه وأصول الدين والخلاف والطب والفلسفة والمنطق والحكمة، وتفرد في علوم الرياضيات بكافة فروعها كالهندسة حيث حل إقليدس والمجسطي والهيئة والمخروطات والمتوسطات وعلم الحساب وفروعه وعلم الجبر والمقابلة والأرتماطيقي وطريق الخطأين والموسيقى والمساحة.

وكان متضلعاً في علوم اللغة والأدب والشعر والتفسير والحديث والتواريخ وأخبار العرب وأشعارهم ثم رجع إلى الموصل مبتدئاً حياته العملية فدرس وناظر وأفتى.

وبعد وفاة والده تولى التدريس مكانه بالمدرسة الزينية نسبة إلى زين الدين علي كوجك صاحب أربل التي عرفت فيما بعد باسمه المدرسة الكمالية - لطول المدة التي قضاها في التدريس فيها.

ولما توفي أخوه عماد الدين محمد درس مكانه بالمدرسة العلائية.

ولما فتحت المدرسة القاهرية تولى التدريس فيها أيضاً إضافةً إلى المدرسة البدرية التي بناها بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٢٠هـ، لكنه ظل يلقي دروسه بالمدرسة الكمالية حتى وفاته في سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)[١].

---

(١) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٣١- ٣١٤).

ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء نشر دار الثقافة بيروت. (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م)، (٢: ٣٣٧).

الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٢٣٦).

أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء) نشر مكتبة المتنبي القاهرة ص (١٧٠). القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٦٣).

اليافعي: مرآة الجنان (٤: ١٠١- ١٠٣).

ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص (٧٨).

وانظر أيضاً: الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٢١- ٢٢٢)، (٢: ١٠٦).

عدد من الباحثين: ندوة دور الموصل في التراث العربي نشر مركز إحياء التراث =

واشتهر بغزارة علمه وانتشر صيته بين الناس، وصار أشهر علماء زمانه في المنطقة فتوافد عليه طلبة العلم من داخل الموصل ومن خارجها مسلمين ونصارى ويهود، وكان أهل الكتاب «يقرؤون عليه التوراة والإنجيل، ويشرح لهم هذين الكتابين شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله».

وكان من أشهر تلاميذه أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة في الحكمة والمنطق (التعليقة في الخلاف) وتقي الدين أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح الفقيه الشافعي الذي نصحه بترك دراسة علم المنطق معللاً ذاك بأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، فتركه.

ومنهم أيضاً علم الدين قيصر بن عبد الغني بن مسافر الحنفي المصري، المعروف بـ«تعاسيف» (ت٦٤٩هـ) بدمشق، وكان إماماً في علوم الرياضيات الذي قال: «لما اتقنت علوم الرياضة بالديار المصرية ودمشق تاقت نفسي إلى الاجتماع بالشيخ كمال الدين؛ لما كنت أسمعه من تفرده بهذه العلوم».

فأخذ عنه علم الموسيقى وغيره من العلوم، وقرأ عليه خلال ستة أشهر أربعين كتاباً ونَوَّه على مكانته عنده بقوله: «وكنت عارفاً بهذا الفن، لكن كان غرضي الانتساب في القراءة إليه، وكان إذا لم أعرف المسألة أوضحها لي، وما كنت أجد من يقوم مقامه في ذلك».

ولنبوغه واشتهاره بهذه العلوم أرسلت إليه المسائل العويصة لحلها فقد أرسل فردريك الثاني إمبراطور الغرب رسولاً معه مجموعة من المسائل لحلها[1].

= العلمي بغداد ١٩٩٠م ص (١٨٦) و(٢٢٨ - ٢٣٠).

(١) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٣١٢- ٣١٨).
ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٢: ٣٣٨- ٣٤٠).
الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٢٣٧)، أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر (٣: ١٧٠)، اليافعي: مرآة الجنان (٤: ١٠٢ - ١٠٣) وهو معارض على تعليم كمال الدين النصارى واليهود كتابي التوراة والإنجيل وذلك لكونهما منسوخين بالقرآن الكريم ومبدلة من قبلهم. =

وكان أهل الشام قد أجابوا على الأسئلة الطبية والفلسفية، لكنهم عجزوا عن المسائل الهندسية، فأرسلت إلى الموصل ليجيب عليها المفضل بن عمر الأبهري أستاذ القزويني[1] «وكان عديم النظير في علم الهندسة فأشكل الجواب عليه»، فعرضها على كمال الدين بن يونس فأجاب عليها.

أما عن مصنفاته فهي:

١- كتاب كشف المشكلات وإيضاح المفصلات في تفسير القرآن الكريم.

٢- كتاب في الأصول.

٣- كتاب عيون المنطق.

٤- كتاب لغز في الحكمة.

٥- كتاب الأسرار السلطانية في النجوم.

٦- كتاب مفردات القانون لابن سينا.

٧- شرح كتاب التنبيه في الفقه في مجلدين.

٨- كتاب شرح الأعمال الهندسية، رسالة في البرهان ربما أنها تلك الرسالة التي أرسلها للإمبراطور فردريك الثاني جواباً على أسئلته التي بعث بها[2].

ومن إعجاب ابن خلكان به أن سمى ابنه البكر باسمه - موسى - وكان تاريخ ولادته بالقاهرة في شهر صفر سنة (٦٥١هـ) مصادفة بعد مائة عام من تاريخ ولادة كمال الدين بن يونس الذي ولد بالموصل عام (٥٥١هـ) في الشهر

= الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٨١)، دور الموصل في التراث العربي ص (٢٣٩ - ٢٣٠).

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٦٣)، ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (١٨٦).

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٢: ٣٤٠).
ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (١٨٦، ٢٣١).

والسنة[١].

توفي كمال الدين موسى بمدينة الموصل في سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م).

٤- تعاسيف علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن مسافر (ت٦٤٩هـ/ ١٢٥١م).

كان أستاذاً إماماً في علوم الرياضيات وخاصة علم الهندسة، بل كان أشهر علماء الهندسة لذا عرف بالمهندس. وقام بعمل كرة شمس الكرة السماوية[٢].

توفي بالموصل عام (٦٤٩هـ)[٣].

٥- الفيلسوف العز الضرير الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الغنوي (٦٦٠هـ/ ١٢٦٦م):

ولد بقرية أفشا من أعمال مدينة نصيبين في سنة (٥٨٦هـ/ ١١٩٠م). ثم رحل إلى مدينة إربل، وأقام بها مدة طويلة، فعرف بها، ودرس علوم اللغةوالأدب من نحو وبلاغة وعروض، ونظم الشعر، كما درس الفقه والخلاف والأصولين والعلوم العقلية كالمنطق والطبيعيات والإلهيات واتقنها كلها إتقاناً جيداً، لكنه تعمق أكثر في العلوم العقلية خاصة الفلسفية منها فعرف بالفيلسوف. ووصف العز الضرير بأنه ذو ذكاء خارق فلا غرو في أن يبرع في عدة علوم.

ومع شهرته العلمية هذه فإنه اشتهر أيضاً بالزندقة وفساد العقيدة وعدم اكترائه بأوامر الدين فلم «يكن يصلي ولا يفعل شيئا من الفرائض، ومع ذلك كان وافر الحرمة عند كثير من الناس».

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٥: ٣١٧).

(٢) موجودة حالياً بمتحف نابولي بإيطاليا.

(٣) الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣٢).

كان العز الضرير قد رحل من مدينة إربل إلى مدينة الموصل وأقام بها مدة. ثم رحل إلى بلاد الشام واستقر بمدينة دمشق وكان يدرس للناس - على مختلف مذاهبهم وأديانهم من مسلمين ويهود وسامريين في منزله - تلك العلوم العقلية السابق ذكرها.

وكان جيد المحاضرة طيب العشرة مرحاً مع جلسائه، وكان جيد النظم للشعر[1]، وكان شبيهاً بأبي العلاء المعري، وكان الملك الناصر الأيوبي صاحب دمشق وحلب (٢٤- ٦٢٦هـ/ ٢٧ -١٢٢٨م) يبعث إليه ما ينظمه من الشعر فيصلحه له ويكرمه على ذلك وخصص له راتباً جيداً إضافة إلى ما يهديه له من وقت لآخر، وكانت شفاعته عنده مقبولة[2].

وكانت وفاته بمدينة دمشق عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦٦م)[3].

---

(١) ومن جيد نظمه في المواعظ قوله:

كمل حقيقتك التي لم تكمل	والجسم ضعه في الحضيض الأسفل
أتكمل الفاني وتترك باقيا	هملا وأنت بأمره لم تحفل
الجسم للنفس النفيسة آلة	ما لم تحصلها به لم تحصل
لا يعقب التقصير غير ندامة	ما دام يمكنك الخلاص فافعلِ
من يستطع بلوغ أعلى منزل	ما باله يرضى بأدنى منزلِ

(٢) انظر: اليونيني (١: ٥٠١- ٥٠٤)، (٢: ١٦٥- ١٧٠). أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢١٦، الذهبي: العبر في خبر من عبر (٣: ٢٩٨).
الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها (١: ٣٦٢- ٣٦٥).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٢٣٥).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٧: ٢٠٧).
السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١: ٥١٨، ٥١٩).

(٣) انظر ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٢٣٥).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٧: ٢٠٧).
الدليل الشافي على المنهل الصافي (١: ٢٦٨).
السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١: ٥١٨، ٥١٩).

٦- ابن معين، أبو حفص ضياء الدين عمر بن بدر بن سعيد بن محمد الوراني الكردي الموصلي (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م):

ولد بالموصل عام (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م) ونشأ بها، ثم رحل إلى مدينة دمشق وتوفي بها، وله عدة مؤلفات أغلبها في الحديث الشريف. والذي يهمنا هنا هو كتابه الهام في علم استنباط المعادن والمياه والذي أسماه «استنباط المعين في العلل والتاريخ لابن معين» حسب قول حاجي خليفة[1].

٧- العنتري أبو المؤيد محمد بن المجلى الصائغ الجزري[2] (عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).

قال عنه ابن أبي أصيبعة: كان طبيباً مشهوراً، وعالماً مذكوراً، حسن المعالجة فهو بالإضافة إلى كونه طبيباً حاذقاً فهو أيضاً فيلسوفٌ متميز في الأدب خاصة في نظم الحكم شعراً، نظم الشعر في مواضيع عديدة ومناسبات مختلفة، وفي النثر له أقوال في الحكمة كثيرة، وله عدة مؤلفات، منها:

---

(١) علم الفراسة: هو علم تعرف به أخلاق الإنسان من النظر إلى شكل أعضائه، أو هو الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن. وهو علم قديم.
انظر دائرة معارف القرن العشرين مادة علم - الفراسة.
كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون (١ : ٨٠).
كحالة: معجم المؤلفين (٧: ٢٧٨).
الزركلي: الأعلام (٥: ٤٢).
وفي مكان آخر يعرف حاجي خليفة علم الريافة بقوله: إنه علم استنباط الماء من الأرض بواسطة بعض العلامات الدالة على وجوده فيعرف بعده وقربه بشم التراب أو النباتات فيه أو بحركة حيوان وجد فيه فلا بد لصاحبه من حس كامل وتخيل شامل وهو من فروع علم الفراسة من جهة معرفة الماء والهندسة من جهة الحفر وإخراجه.
كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون (٢: ٩٣٩).

(٢) العنتري: نسبة إلى عنترة بن شداد العبسي، لأنه كان يكتب قصص وأشعار عنترة بن شداد فاشتهر بذلك كما نسب إلى جزيرة ابن عمر فعرف بالجزري.

- كتاب النور المجتنى من روض الندما، وتذكار الفضلاء الحكما، ونزهة الحياة الدنيا. وقد رتبه على فصول السنة، جمع فيه قصائد شعرية وأقوالاً في الحكمة مفيدة.

- كتاب الجمانة في العلم الطبيعي والإلهي.

- كتاب الأقرا باذين[1] وهو كتاب كبير في علم الصيدلة تحدث فيه عن الأدوية المركبة وكان كتاباً جيداً في مضمونه.

- رسالة الشعري اليمانية إلى الشعري الشامية وقد وجهها إلى عرفة النحوي بدمشق رداً على رسالته إليه.

- رسالة حركة العالم، وألفها ينهئ بها حجة الدين مروان عندما عينه الأتابك عماد الدين زنكي وزيراً له.

- رسالة الفرق ما بين الدهر والزمان والكفر والإيمان.

- رسالة العشق الإلهي والطبيعي.

ويتضح لنا مما سبق أن غالبية مؤلفاته كانت في العلوم العقلية[2].

---

(١) وقوله في الطب:

واجعل طعاملك كل يوم مرة ... واحذر طعاما قبل هضم طعام
لا تحقر المرض اليسير فإنه ... كالنار يصبح وهي ذات ضرام
لا تشربن بعقب أكل عاجلاً ... أو تأكلن بعقب شرب طعام
إياك تلزم أكل شيء واحد ... فتقود طبعك للأذى بزمام

وكتاب أقرا باذين: هو كتاب يتناول علم الصيدلة من قانون الصيدلة، وتركيب الأدوية بنسب دقيقة. انظر: دائرة معارف القرن العشرين مادة: أقرا باذين. دور الموصل في التراث العربي ص (١٩٨).

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٢: ٣١٤ - ٣٢٤).

٨- فخر الدين المارديني أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر الأنصاري (ت٥٩٤هـ/ ١١٩٧م):

ولد بمدينة ماردين، وأصله من مدينة القدس. ولما تولى نجم الدين إيلغازي بن أرتق أمور مدينة القدس - مع أخيه سكمان - بعد وفاة والدهما أرتق بن أكسب سنة (٤٨٤هـ/ ١١٩١م)[١] نقل جده عبد الرحمن إلى مدينة ماردين، فاستوطنها هو وأولاده.

وكان أبوه قاضي ماردين وجده قاضي دنيسر، درس فخر الدين الماريدني العلوم العقلية على الشيخ ابن الصلاح نجم الدين أبي الفتوح أحمد بن السري الذي كان قد استدعاه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق من مدينة همذان ليقوم بتدريس تلك العلوم.

وكان جيد المعرفة بها خبيراً بدقائقها وأسرارها. وقد صنف عدة تصانيف في الحكمة ودرس العلوم الطبية على أمين الدولة ابن التلميذ[٢]، وباحثه في كتاب القانون لابن سينا واجتهد في تحريره وتصحيحه معه، بينما درس ابن التلميذ على فخر الدين الماريدني علم المنطق خاصة كتاب (المختصر الأوسط للجرجاني) عن ابن سينا ثم أقام فخر الدين الماريدني سنين عديدة في خدمة نجم الدين إيلغازي بن أرتق (٥٠٢ - ٥٦١هـ/١١٠٨ - ١١٢٢م).

وكان له مجلس عام للتدريس، وكان قد درس على يديه بهذه المدينة مدة طويلة سديد الدين محمود بن عمر المعروف بابن رقيقة علم الطب وكان

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (٤: ٤٨٠، ٤٨١).
الصيرفي: تاريخ دول الإسلام (٢: ١٣٤، ١٣٥).
استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ص (١٥٦- ١٥٨).

(٢) هو أبو الحسن هبة الله أبو العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ أوحد زمانه في الطب، توفي مسيحياً عام (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، وكان عمره تسعين سنة.
عن ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٢: ٢٦٨، ٢٧٦).

مرافقاً له في حلهِ وترحاله، فقد رحل معه إلى مدينة دمشق عام (٥٨٧ - ٥٨٩هـ/ ١١٩١ - ١١٩٣م).

ومن الذين درسوا عليه الطب - خلال وجوده بدمشق - الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي خاصة كتابَ (القانون) لابن سينا، ولما أراد العودة إلى بلده ماردين طلب مهذب الدين منه الإقامة بدمشق ليكمل عليه كتاب القانون مقابل ثلاثمائة درهم شهرياً فرفض قائلاً(١): «العلم لا يباع أصلاً بل من كان معي فإنني أين كنت».

وقد بلغ المارديني الغاية في الطب حتى إن الملوك كانوا يستدعونه من النواحي والأقطار الأخرى للعمل في بلاطهم(٢). وعند مقابلته للملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي بمدينة حلب أقنعه بالبقاء في خدمته فمكث عامين أغدق عليه كثيراً من الأموال وأكرم وفادته، ثم رجع إلى ماردين.

توفي فخر الدين المارديني بمدينة آمد عام (٥٩٤هـ/ ١١٩٧م) وكان قد أوقف جميع كتبه للمشهد الذي أوقفه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي الأرتقي(٣).

(٥٦١ - ٥٤٧هـ/ ١١٢٢- ١١٥٢م) وكانت من أجود الكتب، وهي النسخ التي كان قد قرأ أكثرها على شيوخه وحررها، واعتنى بها أيما عناية في تصحيحها ورونقتها.

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٢: ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٤١٧).

(٣) كان حسان الدين تمرتاش نفسه فيلسوفاً يميل إلى العلوم العقلية، ومشجعاً لدراستها وعلمائها، ويقربهم إليه، أوقف كثيراً من الكتب في المشهد الذي بناه بمدينة ماردين.
ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٢: ٣٢٨).
استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ص (١٥٨).
الصيرفي: تاريخ دول الإسلام (٢: ١٤٠).
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (٤: ٨٢).

شرح فخر الدين المارديني قصيدة الشيخ الرئيس ابن سينا شرحاً جيداً والتي تبدأ بـ«هبطت إليك من المحل الأرفع»[1].

٩- أبو الحسن علي بن أبي عبد الله الموصلي الضرير (ت٦٠٧هـ/ ١٢١٠م):

وكان يمارس مهنة الطب في مدينة الموصل.

١٠- كمال الدين محمد بن الحسن الموصلي عاش (في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي):

كان طبيباً بارعاً في العلاج صنف كتاب (كنز الطبيب).

١١- ابن هبل الخلاطي أبو الحسن مهذب الدين علي بن أحمد بن علي بن عبد المنعم البغدادي الموصلي (ت٦١٠هـ/ ١٢١٣م):

ولد ببغداد في سنة (٥١٥هـ/ ١١٢١م) ونشأ بها ودرس بها بمدرستها النظامية المشهورة علوم اللغة والأدب خاصةً علم النحو على يد علامة النحو ابن الخشاب عبد الله ابن أحمد (ت٥٦١هـ/ ١١٧١م)[2]. وكذلك درس علوم الفقه على يد الشيخ أبي القاسم إسماعيل بن أحمد بن السمرقندي.

أما في العلوم الطبية فكان أستاذه أوحد الزمان أبو البركات هبة الله علي بن ملكا والذي توفي نحو (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)[3].

وكان من الأذكياء الموصوفين بالذكاء المفرط لذا أجاد هذه العلوم كلها، وروى الحديث النبوي الشريف، ولكنه برع أكثر في العلوم الطبية فصار

(١) ابن أبي أصيبعة: ن. م. م.
دور الموصل في التراث العربي ص (١٩٨).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ١٠٢- ١٠٤).

(٣) ابن خلكان: ن. م. (٦ : ٧٤). والزركلي: الأعلام (٨: ٧٤).

طبيباً مشهوراً، فكان أشهر معاصريه في الطب.

رحل إلى مدينة الموصل واستوطنها، وذهب إلى مدينة خلاط وحظي بمكانة مرموقة عند صاحبها شاه أرمن - حكم (٥٢٢ - ٥٨١هـ/ ١١٢٨ - ١١٨٥م)[١] - وأنعم عليه بأموال جزيلة أرسلها كلها إلى الموصل. ثم رحل إلى مدينة ماردين، وأقام بها مدة عند المتنفذين على الحكم فيها: النقش النظام وخادمه لؤلؤ، وبعد قتلهما على يد الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن إيلغازي الأرتقي الذي تخلص من تسلطهما عليه، وذلك في عام (٦٠١هـ) حكم من سنة (٥٩٧ - ٦٣٧هـ/ ١٢٠٠ - ١٢٣٩م)[٢].

وربما لعلاقته معهما، تم ضرب الطبيب مهذب الدين بن هبل مما أدى إلى إصابة عينيه فعمي، وعاد إلى الموصل.

ومع هذا فقد استمر في ممارسة الطب وعلاج الناس والتدريس حتى وفاته بها سنة (٦١٠هـ) في شهر المحرم، وذكر ابن العبري أنه توفي سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م).

أخذ عنه العلم كثير من الطلبة من بينهم ولده شمس الدين أبو العباس أحمد الذي صار طبيباً مثله[٣]، صنف إبراهيم الأب كتباً جيدة في الطب، منها:

١- كتاب «الطب الجمالي»، ألفه للوزير الموصلي جمال الدين محمد الجواد (ت٥٥٩هـ/ ١١٦٣م).

---

(١) الصيرفي: تاريخ دول الإسلام (٢: ١٤٤).

(٢) الصيرفي: ن. م. (٢: ١٤١).

(٣) عن ابن هبل انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٢: ٣٣٤، ٣٣٧).

ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٣٠٢)، الذهبي: العبر في تاريخ من عبر (٣: ١٥٣).

ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات (٥: ١٤٣).

ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (١٧٣).

ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص (٤٢٠).

٢- كتاب «النار المجوسية أسبابها وعلاماتها وعلاجها».

٣- كتاب «المختار في الطب» صنفه قبل أن يسافر إلى أرمينية من «بلاد الروم» في عام (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) بمدينة الموصل.

ويعتبر هذا الكتاب من أهم كتبه، بل هو أهم مرجع طبي خلال (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي).

ويحتوي الكتاب على أربعة أجزاء، جمع فيه ما احتوته الكتب الطبية العربية وغيرها السابقة له، ولكنه امتاز عنها بحسن التبويب والإيجاز غير المخلّ، وقد ساعده على ذلك إجادته لعدة لغات غير العربية كاليونانية والسريانية والأرمينية والفارسية.

ولم يكتف بما نقله عمن سبقه وما شاهده وسمعه عن معاصريه - كأستاذه أبي البركات هبة بن ملكا وقد ذكر ذلك - بل كان له رأيه الخاص في علاج بعض الأمراض من خلال ممارسته العملية، وقد يتفق معهم وقد يختلف. وكان يعتبر المرض حالة طبيعية ناتجة من داخل البدن[١] نتيجة لاختلاط الإنسان بغيره، أو من الظروف البيئية المحيطة به كالطبيعة والمناخ والسكن، أو نتيجة لضربة. وقد تكون الأمراض ناشئة عن حالة نفسية يتعرض لها الإنسان[٢].

١٢- ابن حسنون الطبيب الرهاوي (ت٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م):

طبيب نصراني من مدينة الرها كان موفقاً في مهنته علماً وعملاً مشكوراً عليه لحسن معالجته، لذا اشتهر بين الناس. ورحل إلى مدينة خلاط ببلاد الروم وخدم في مملكة قلج أرسلان خاصة عند أحد أعيانها، ثم رجع إلى بلدته الرها.

ولما علم أن أمور حلب قد آلت إلى الخادم - وكان يعرفه عندما كان في

(١) ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (١٨٣، ١٨٤، ٢٠٤- ٢٠٧).
(٢) ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (٢٠٧).

دار سيده اختيار حسن ببلاد الروم - فقدم إليه لكنه لم يهتم به، فعاتبه أحد خواصه عن تصرفه تجاهه، فاعترف قائلاً: «أنا مقصر في حقه لأجل النصرانية».

ولما عزم العودة إلى بلاده أصيب بحمى شديدة سببت له إسهالاً شديداً، ثم تضخم الكبد، وأدى ذلك إلى وفاته[١].

١٣- الكباري أبو الحسن كمال الدين علي بن أبي الفتح يحيى الطبيب الموصلي (ت٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م):

كان من أشهر أطباء عصره في الموصل، ولغزارة علمه كان مرجعاً للعلماء والطلبة في تخصصه. ورحل إلى مدينة حلب وتوفي بها عن عمر ناهز المائة عام[٢].

١٤- أبو حليقة أبو الوحش بن أبي الخير بن داود بن أبي المنى الحكيم الرشيد (ت٦٧٠هـ/ ١٢٧١م)[٣]:

ولد بمدينة جعبر عام (٥٩١هـ/ ١١٩٤م) ثم رحل إلى مدينة الرها بإقليم الجزيرة الفراتية، ونشأ بها، ودرس الطب على عمه أبي سعيد بدمشق وبمصر، وعلى مهذب الدين الدحوار عبد الرحيم بن علي.

وفضلاً عن أنه كان أوحد زمانه في الطب كان له حظ وافر في الأدب، ثم عمل في خدمة ملوك بني أيوب كالكامل محمد بن العادل حاكم مصر

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (٤٤٢، ٤٤٣).

(٢) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٩٦).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (١٠٤).
الجميلي، رشيد: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣٢٥).
ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (١٨٣، ١٩٨).

(٣) لقب أبو حليقة بذلك لحلقة كانت في أذنه.

(٦١٥ - ٦٣٥هـ/١٢١٨ - ١٢٣٧م) وابنه الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل حاكم دمشق (٦٣٥ - ٦٣٧هـ/١٢٣٧ - ١٢٣٩م) ثم ابنه تورنشاه (ت٦٤٨هـ) ثم الظاهر بيبرس من المماليك الذي حكم مصر (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/١٢٥٩-١٢٧٧م).

ومن شهرته وتوفقه في الطب - ومن طول مدة علاجه للملك الكامل - كان يعرف نبضه من وراء ستار، وكان ذات يوم يقوم بالكشف على مرضاه، فأخرج الكامل يده من وراء ستار - دون أن يعلم أبو حليقة بذلك - فعرف أن ذلك نبض الملك الكامل، فقال: «هذا نبض مولانا السلطان، وهو - بحمد الله - صحيح». فعجب من خبرته ومعرفته تلك[١].

ولما انعدم دواء الدرياق الفاروق[٢] قام بنفسه بعمل دواء الدرياق الذي توجد مركباته «في كل مكان» تقربا منه لوجه الله تعالى، وكان مفعوله سريعاً في العلاج، فاستخدمه في علاج المفلوجين، وفي علاج الأعصاب وفي إزالة البلغم، وفي تسكين مرض (الفالج) القولنج[٣]. وخلال انشغال «أبو حليقة الرشيد» بعمل دوائه هذا أصيب السلطان الكامل بألم حادّ في أسنانه، وأحضر إليه الطبيب أسعد الدين عبد العزيز بن أبي الحسن المعروف بالأسعد

---

(١) الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها (٤: ٢٤٨).
ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٣: ٢٠٤، ٢٠٥).
عن ملوك بني أيوب انظر: استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام شجرة سلسلة الأيوبيين.

(٢) الدرياق: هو الترياق، معجون أسود اللون، حلو الطعم، مركب من عدة جواهر مسكنة، وفيه جزء من مائة جزء من الأفيون وشيء من النبيذ، وهو دواء لآلام المعدة، وإن دهن به الجسم من الظاهر سكن الألم وحلل الأورام. انظر دائرة معارف القرن العشرين.

(٣) القولنج الفالج: مرض يصيب الإنسان وهو مرض الشلل.
الكتبي: فوات الوفيات (٤:٢٤٨-٢٥٠).
ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٣: ٢٠٨، ٢١٩، ٢٢٠).

(ت٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) لعلاجه فلم يفلح علاجه، فطلب الرشيد - وكان قد انتهى من عمل درياقه - فأعطاه منه وأمره بأن يتسوك به، ولما استعمله الكامل عوفي في الحال وخرجت ورقة السلطان فيها إشادة بعلاجه وبسرعة مفعول درياقه «يا حكيم، استعملته وزال الألم لوقته» فأهدى له خلعاً وذهباً.

وفي القاهرة مرّ الرشيد على مفلوج ملقى على جنبه على الأرض، فأعطاه شربة من درياقه، ثم صعد إلى القلعة وعند عودته منها وجد المفلوج قد قام وأخذ يعدو في ركابه يدعو له.

واستخدم درياقه هذا في علاج من به حصاة المثانة فكان يفتتها في ساعته، ومن خبرته الطبية حتى في الطب النفسي حيث قدمت إليه للعلاج امرأة ومعها ابنها وكان أصفر ناحل الجسم، فلما قاس نبضه قال لغلامه: هات الفرجية، فتغير نبض الصبي في يده في الحال، فقال لأمه: ابنك هذا عاشق واحدة اسمها فرجية. فأقرت الأم بذلك.

ومن مصنفات أبي حليقة الرشيد:

- كتاب «المختار في ألف عقار»، وله مقالة في حتمية الموت وأن الإنسان تحلله الحرارة التي في داخله وحرارة الهواء، واستشهد لذلك بقوله:

وأحـــداهـــمـــا قـــاتـــلـــي فـكـيـف إذا اسـتـجـمـعـنـا.

وله مقالة في المحافظة على الصحة، ومقالة أخرى في أن الملاذّ الروحانية ألذ من الملاذّ الجسمانية. توفي أبو حليقة الرشيد عام (٦٧٠هـ)[١].

١٥- عماد الدين الدنسري محمد بن عباس بن أحمد بن عبيد صالح الربعي الحكيم البارع (ت٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م).

ولد بمدينة دنيسر[٢] سنة (٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م) وكان أبوه خطيب دنيسر،

---

(١) الكتبي: فوات الوفيات (٤: ٢٥٠).
ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٣: ٢٠٨ - ٢١٦).

(٢) دنيسر: سوق تجاري مهم على ملتقى عدة طرق بإقليم الجزيرة الفراتية.

سمع الحديث بمصر ودرس الأدب والشعر فيها على البهاء زهير مدة وتخرج عليه، وتفقه على المذهب الشافعي، لكنه برع أكثر في الطب واشتهر فيه، وصنف فيه عدة مقالات منها «المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة»، ونظم أرجوزة في الدرياق والفاروق، كما نظم مقدمة المعرفة لبقراط وغيره وله أرجوزة كديوان شعر.

استوطن عماد الدين - أخيراً - بلاد الشام حيث عمل في القلعة في الدولة الناصرية[١] بدمشق، والتقى به ابن أبي أصيبعة بدمشق سنة (٦٦٧هـ) ثم عمل بالبيمارستان الكبير النوري بدمشق، وتوفي بها في سنة (٦٨٦هـ)[٢].

١٦- ابن دانيال الحراني الموصلي شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي (ت٧١٠هـ/ ١٣١٠م):

سبق الحديث عنه في الأدب، ويهمنا هنا مهنته كطبيب كحالٍ يعالج مرضَ العيون (الرمد) في الديار المصرية، وبذلك اشتهر بها فعرف بالكحال، واستوطنها وتوفي بها في التاريخ المذكور أعلاه[٣].

= انظر: الحموي معجم البلدان (٢: ٤٧٨).

(١) الدولة الناصرية: نسبة إلى الملك الناصر داود بن عيسى بن العادل الأيوبي.
انظر: استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام، شجرة سلسلة الأيوبيين.

(٢) الكتبي: فوات الوفيات (٣: ٣٩٢ - ٣٩٤).
ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٣: ٤٣٧ - ٤٤٣).
الذهبي العبر في خبر من عبر (٣: ٣٦٣).

(٣) كحالة: معجم المؤلفين (٩: ٢٩٥).
الزركلي: الأعلام (٦: ١٢٠).
ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (١٨٨).
كريزر وآخران: معجم العالم الإسلامي ص (٢٧٩).

١٧- ابن الأكفاني رضي الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

ولد ونشأ في مدينة سنجار، كان من علماء الرياضيات والفلسفة، وبرع أكثر في الطب حتى صار يضرب به المثل في تشخيصه للمرض وعلاجه للمرضى، كذلك فاق غيره في معرفة الجواهر والعقاقير الطبية، حتى كاد لا يدخل شيءٌ منها إلى البيمارستان إلا عرض عليه، ثم رحل إلى القاهرة واستوطنها وزاول فيها الطب، وتوفي فيها بمرض الطاعون عام (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).

وقد صنف ابن الأكفاني كثيراً من الكتب الطبية منها:

١- «روضة الألباء في اختصار الأطباء» اختصر فيه الأنباء لابن أبي أصيبعة.

٢- كشف الرين في أمراض العين.

٣- نخب الذخائر في أحوال الجواهر.

٤- النظر والتحقيق في تقليب الرقيق.

٥- نهاية القصد في صناعة الفصد.

٦- اللباب في الحساب.

٧- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد.

٨- كتاب «غنية اللبيب عند غيبة الطبيب»، وهو أشهر كتبه[١].

٩- الدر النظيم في أحوال العلوم والتعليم.

وقبل أن ننهي حديثنا عن علم الطب في إقليم الجزيرة الفراتية يجدر بنا أن نشير إلى ذكر البيمارستان (المستشفيات) التي أقيمت في هذا الإقليم، لكونها ليست فقط مكاناً للعلاج، بل كانت أيضاً معاهداً للتعليم يتلقى فيها

---

(١) كحالة، رضا عمر: معجم المؤلفين (٨: ٢٠٠، ٢٠١).
الزركلي: الأعلام (٥: ٢٩٩).

الطلبة على أيدي أساتذتهم العلوم الطبية العملية التطبيقية.

ومن هذه البيمارستان التي تحتوي على القاعات المجهزة بالكتب والآلات الطبية نكتفي بالإشارة إلى اثنين:

١- البيمارستان المجاهدي:

أنشأه مجاهد الدين قايماز الرومي (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) في الموصل على نهر دجلة وذلك[١] في حدود عام (٥٧٢هـ/١١٧٦م) بجانب مدرسته ومسجده اللذين أقامهما، وأوقف على الجميع أوقافاً كثيرة، ووصف ابن جبير هذا البيمارستان عند زيارته للموصل عام (٥٨٠هـ/١١٨٤م) بأنه بيمارستان ضخم واسع.

٢- البيمارستان الجمالي:

نسبة إلى الوزير الموصلي جمال الدين الأصفهاني المعروف بالجواد (٥٥٩هـ/١١٦٣م) وشيده في مدينة الموصل على نهر دجلة، وولي الإشراف على وقفه أبو علي الحسن بن سعيد بن عبد الله المعروف بعلم الدين الشاتاني (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م)[٢].

وهناك بيمارستانات أخرى بمدينة إربل أقامها زين الدين علي كوجك وابنه زين الدين يوسف، وأهمها تلك التي أقامها ابنه مظفر الدين الذي تطورت إربل على يديه تطوراً كبيراً في شتى المجالات، وكذلك التي أقامها الملوك الأراتقة بديار بكر.

---

(١) ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (١٨٨، ١٨٩).

(٢) ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (١٩٨).

المدارس

كانت المساجد والجوامع منذ فجر الإسلام مقراً لتلقي العلوم الدينية والأدبية والتاريخية وغيرها. ومنذ (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) ظهرت دور لتلقي العلم عرفت باسم المدارس، ولعبت دوراً مهماً في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية في مشرق العالم الإسلامي. هذا مع بقاء المساجد تؤدي رسالتها في تنشيط الحركة الثقافية إلى جانب وظيفتها الأساسية في العبادة.

وكانت مدرسة نيسابور التي أنشأها أبو بكر بن فورك المتوفى (٤٠٦هـ/ ١٠٥١م) أقدم هذه المدارس، تليها المدرسة البيهقية التي أقامها أبو بكر البيهقي[١]، وهناك مدارس أخرى أنشئت في العهد السلجوقي ببلاد فارس خاصة بمدينة نيسابور لدراسة المذهب السني على فقه مذهب أبي حنيفة النعمان.

وذكر الأستاذ حسين أمين أن هناك أيضاً مدارس مماثلة أنشئت لتعليم المذهب الشيعي، إن لم تكن أقدم من المدرسة النظامية ببغداد فهي على الأقل معاصرةٌ لها، ومنها مدرسة النجف التي بدأت حركة التعليم فيها سنة (٤٤٨،

---

(١) أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، نسبة إلى قرى بيهق ببلاد فارس، وهو عالم وفقيه شافعي ولد عام (٣٨٤هـ) وتوفي عام (٤٥٨هـ).

انظر بن خلكان: وفيات الأعيان (١: ٧٥، ٧٦).

٤٤٩هـ/١٠٥٦، ١٠٥٧م) أقامها أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، واهتم بتدريس فقه المذهب الجعفري فيها.

على أن الازدهار الحقيقي لحركة إنشاء المدارس يرتبط باسم الوزير السلجوقي نظام الملك المتوفي عام (٤٨٥هـ/١٠٩٢م)، وهو الذي بنى المدرسة النظامية ببغداد (٤٥٩هـ/١٠٦٦م) ونسبت إليه، وعلى منوالها أمر ببناء مدرسة في كل مدينة ببلاد فارس وإقليم خراسان والعراق وإقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، وهي البلاد الخاضعة لحكم السلاجقة.

وقد عرفت تلك المدارس بالمدارس النظامية، وامتازت عن سواها بطرازها المعماري الخاص من حيث التخطيط وتخصيص مساكن للطلاب والمدرسين بنواحي نيسابور[١].

وكان هدف نظام الملك من ذلك الوقوف في وجه المذهب الشيعي وبالذات أفكار المذهب الإسماعيلي المتطرفة، ففي هذه المدارس كان التدريس يتم على المذاهب السنية الأربعة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، ويأتي في مقدمتها المذهب الشافعي، بهدف إعداد فئات من المثقفين المشبعين بفكرة الدولة السلجوقية ومبادئ المذهب الشافعي؛ لتعيينهم بالوظائف الرسمية كقضاة وكتاب ووعاظ وأئمة مساجد وخطباء

---

(١) عن الموضوع انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٢٠٤- ٢٠٨).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢١٨ - ٢٢٥).
العراق في التاريخ ص (٥٠٤، ٥٠٥).
زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام ص (٤١٢).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣١٣، ٣١٤).
عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٧).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٤٣، ٣٤٤).
والموصل في العهد الأتابكي ص (١٣٣، ١٣٤).
مجلة الفيصل العدد (١٨٠)، (١٤١٢هـ). جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢٢٠).

ومدرسين وغيرها من الوظائف[1].

وعلى هذا الطريق سار أتابكة إقليم الجزيرة الفراتية من أراتقة وزنكيين، فحرصوا على نشر العلم والثقافة، وأغدقوا الأموال على العلماء والأدباء الذين قدموا إليهم، لترغيبهم في التدريس وتأليف الكتب، وبنوا المدارس، ودوراً للقرآن الكريم، وأخرى للحديث الشريف، وأربطة ومساجد، واستدعوا العلماء من البلاد الأخرى؛ ليقوموا بالتدريس فيها وأجروا لهم الرواتب والهبات؛ فتوافد إليهم العلماء.

وكان للبيت الزنكي الدور البارز في ذلك، واستن بسنتهم رجالات دولتهم حتى حرص كل أتابك منهم على أن ينشئ مدرسة تخلد ذكراه وتكون مثوى له يدفن فيه بعد موته. وقد بلغ عدد المدارس في الموصل وحدها ثماني وعشرين مدرسة، وثماني عشر داراً للحديث، وسبعة وعشرين رباطاً للصوفية، إضافة إلى الكتاتيب والمساجد والجوامع التي كان يجري التدريس فيها[2].

أما عن أهم المدارس التي تم إنشاؤها في إقليم الجزيرة خلال فترة دراستنا فهي:

أولاً - مدارس مدينة الموصل:

حظيت مدينة الموصل بالجم الوافر من هذه المدارس، ويكفينا دليلاً على ذلك المقارنة بين ما ذكره ابن جبير[3] الذي زارها في عام (٥٨٠هـ) بأن عدد مدارسها بلغت نحو الست أو أكثر، وبين ما ذكره سعيد الديوه جي[4] نقلاً

---

(١) زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام ص (٤١٢).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٢٥).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٩٧).

(٢) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٤٣) نقلاً عن سبط ابن الجوزي.
أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (١١٨، ١١٩).

(٣) رحلة ابن جبير ص (١٦٨).

(٤) تاريخ الموصل ص (٣٤٣).

عن سبط ابن الجوزي المتوفي عام (٦٥٤هـ) بأن بها ثماني وعشرين مدرسة، وثماني عشرة داراً للحديث، إذ نجد فرقاً كبيراً بين العددين خلال الأربعة والسبعين عاماً، مع ما تعرض له البيت الزنكي صاحب هذه الإنجازات العظيمة من انقسامات وصراع على السلطة، وحروب من قبل الآخرين خاصةً الأيوبيين الذين خاضوا معهم حروباً شرسة من أجل إخضاعهم لسلطتهم.

١- المدرسة الأتابكية العتيقة:

أنشأها سيف الدين غازي الأول ابن عماد الدين زنكي (٥٤١ - ٥٤٤هـ/ ١١٤٦ -١١٤٩م) قبل سنة (٥٤٢هـ) وكان من أحسن المدارس وأوسعها، أوقفها مناصفةً على الفقهاء الحنفية والشافعية، ودفن بها بعد وفاته.

ومن أشهر أساتذتها ابن الشيرجي عبد الله بن الخضر بن الحسين الموصلي (ت٥٧٤هـ/ ١١٧٨م)، والإمام شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون التميمي الحديثي ثم الموصلي فالدمشقي (ت٥٨٥هـ/ ١١٨٩م)، والشيخ ظهير الدين عبد السلام بن محمود الفارسي الذي قدم إلى الموصل في عهد صاحبها نور الدين أرسلان شاه الأول (٥٨٩ - ٦٠٧هـ/ ١١٩٣ - ١٢١٠م) ولقي قبولاً كبيراً لديه، ففوض إليه تدريس الفقهين الحنفي والشافعي.

وكان الشيخ ظهير الدين قد رحل إلى مصر وسمع بالإسكندرية، وأجاز لزكي الدين المنذري بدمشق عام (٥٩٥هـ) جميع ما يثبت عند المنذري من مسموعاته ومجازاته ومناولاته في مختلف العلوم، بعد التحري واستيعاب الشرائط المعتبرة، وكان مشهوراً في الخلاف والأصول والكلام، وله مؤلفات في ذلك لم يبق منها إلا القليلُ، ودرس بمدرسة الأتابكية العتيقة مدة. وكان محترماً مقدراً، ثم رحل إلى حلب على أمل العودة إلى الموصل لكنه توفي بها عام (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)[١].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٩٣). الكامل في التاريخ (١١: ١٣٨- ١٣٩). =

٢- المدرسة الكمالية:

كانت مسجداً فحوله بانيه زين الدين علي كوجك بن بكتكين - صاحب إربل المتوفي (٥٦٣هـ/١١٦٧م) والد مظفر الدين كوكبوري - إلى مدرسة، وفوّض بالتدريس فيها رضى الدين يونس بن محمد بن منعة[1] الذي عاش في الفترة ما بين سنتي (٥٠٨ - ٥٧٦هـ/ ١١١٤ - ١١٨٠م)، وكان يدرس بها ويفتي ويناظر، وقصده طلبة العلم للأخذ عنه.

وبعد وفاة رضى الدين درس بالمدرسة الكمالية كمال الدين موسى الذي عاش بين سنتي (٥٥١-٦٣٩هـ/ ١١٥٦ - ١٢٤١م) والذي نسبت المدرسة إليه لطول الفترة التي بقي يدرس بها مختلف العلوم، وأخذت شهرتها منه حتى فاقت غيرها من المدارس، وكانوا إذا قالوا: المدرسة - فقط من غير إضافة - يعنونها.

= أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١: ٦٥).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧: ٨٥).
النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب (٢٧: ١٥١).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ٢٢٧).
اليافعي: مرآة الجنان (٣: ٤٠٥ - ٤٠٦).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٨٣).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٢١).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣١٥، ٣١٦). الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٤٤، ٣٤٥). الموصل في العهد الأتابكي ص (١٣٥). حضارة العراق: (٨: ١٣٠).

(١) بنو منعة: ينسبون إلى قبيلة بني عقيل التغلبية العربية من مدينة إربل، شافعية المذهب، رحلوا إلى مدينة الموصل فنبغوا فيها، وانتفع بهم أهل تلك البلاد وغيرهم، وكانوا مقصودين من بلاد العراق والعجم وغيرها. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان (٧: ٢٥٤، ٢٥٥).

وذكر سعيد الديوه جي أن بناءها ما زال قائماً إلى الآن وتشرف على نهر دجلة، وتعرف بمدرسة ابن يونس، لكنها حولت حالياً إلى مسجد[١].

٣- المدرسة الزينية:

بناها أيضاً زين الدين علي كوجك المذكور، فنسبت إليه، تولى التدريس فيها عماد الدين بن يونس أخو كمال (٥٣٥ - ٦٠٨هـ/ ١١٤٠ - ١٢١١م)، وكان معيداً عنده الحسن بن عثمان بن علي الجزري الفقيه الشافعي نزيل الموصل (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، ودرس عماد الدين المذكور في خمس مدارس هي: الزينية، والنورية، والعزية، والعلائية، والبقشية[٢].

٤- مدرسة الجامع النوري:

أنشأها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بجامعه المعروف بالجامع النوري بعد الانتهاء من بناء جامعه عام (٥٦٨هـ/ ١١٢٢م)، وأوكل التدريس فيها إلى عماد الدين أبي بكر التوقاني الفقيه الشافعي، وكتب له منشوراً بذلك، وهو تلميذ محمد بن يحيى تلميذ أبي حامد الغزالي، وأوقف لها وللجامع قريةً من قرى الموصل[٣].

---

(١) ابن خلكان: المرجع السابق (٥: ٣١١- ٣١٨).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٨٣).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٤٥). والموصل في العهد الأتابكي ص (١٣٥ - ١٣٧).
حضارة العراق: (٨: ١٣٢، ١٣٣).

(٢) الديوه جي: المرجعان السابقان ص (٣٤٥، ٣٤٦)، (١٣٧، ١٣٨).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي الصفحة السابقة.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٧٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ٢٦٣).
اليافعي: مرآة الجنان (٣: ٣٨٦، ٣٨٧).
الديوه جي: المرجعان السابقان ص (٣٤٧)، (١٣٨، ١٣٩).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣١٦).
ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (٣٥٧ - ٣٦٣).

٥- المدرسة الكمالية القضوية:

أنشأها أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري الشيباني (٤٩٢-٥٧٢هـ/١٠٩٨-١١٧٦م)، وكان أبو الفضل من أشهر علماء الدولة الأتابكية، تولى القضاء ثم الوزارة لنور الدين محمود، وكان أديباً شاعراً كاتباً خبيراً بتدبير الملك، عظيم الرياسة مسموع الكلمة عند الملوك والخليفة العباسي، وأوقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق والمدينة المنورة.

وأوقف على هذه المدرسة أوقافاً جليلة؛ للنفقة على أساتذتها وطلاب العلم بها، وتولى التدريس بها ابنه قاضي القضاة محمد بن كمال الدين الشهرزوري (٥١٠ - ٥٨٦هـ/ ١١١٦ - ١١٩٠م) الذي درس أيضاً بالمدرسة النظامية، كما درس بها ولده الآخر جلال الدين عبد الرحمن المتوفى في حياة والده - شاباً - سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م).

وممن درس بها أيضاً أبو العباس أحمد بن نصر بن الحسين الأنباري (ت٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) والذي درس أيضاً بمدرستي النظامية والأتابكية العتيقة، وكذلك ابن شداد بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع الأسدي (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م). وكان منشؤها على الفقه الشافعي[١].

٦- المدرسة المهاجرية[٢]:

أنشأها علوان بن مهاجر بن علي بن مهاجر فوق دار الحديث المهاجرية التي بنيت عام (٥٢٢هـ/ ١١٥٧م)، وكان إنشاؤها بعدها بفترة، وتولى التدريس بها ابنه محمد الذي عاش في الفترة من (٥٤٢ - ٦١٥هـ/ ١١٤٧ - ١٢١٨م)،

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم (١٨ : ٢٣٣).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٨٣).
حضارة العراق (٨، ١٣٣).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٤٨).
الموصل في العهد الأتابكي ص (١٣٩، ١٤٠).

(٢) بنو مهاجر: إحدى الأسر العلمية المشهورة بالموصل.

ودرس بها ولدا محمدٍ: عماد الدين أحمد ومحيي الدين عبد الكريم.

ودرس بها أيضاً كمال الدين موسى بن يونس بن منعة العقيلي العالم الرياضي الفيلسوف، وكان قد نزل فيها عبد اللطيف البغدادي في سنة (٥٨٥هـ) واشتغل بها سنة كاملة، وهي أيضاً من مدارس الشافعية[١].

٧- المدرسة المجاهدية:

أنشأها مجاهد الدين أبو منصور قيماز بن عبد الله الزيني سنة (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) بالقرب من جامعه المجاهدي، وجعلها وقفاً على الشافعية[٢].

٨- المدرسة العزية:

أنشأها عز الدين مسعود الأول بن قطب الدين مودود صاحب الموصل (٥٧٦-٥٨٩هـ/ ١١٨٠-١١٩٣م) وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية والحنفية. وكان موقعها مقابلاً لباب دار المملكة داخل الموصل في الجهة الغربية منها، وكانت واسعة حسنة جميلة البنيان، وقرر فيها للفقهاء ما لم يكن بمدرسة أخرى

---

(١) الديوه جي: المرجعان السابقان ص (٣٥٠)، (١٥٠، ١٥١).
عبد اللطيف البغدادي: المعروف بابن اللباد الشافعي النحوي اللغوي الطبيب الفيلسوف المتكلم صاحب المؤلفات المختلفة العديدة.
انظر الكتبي: فوات الوفيات (٢: ٣٨٥ - ٣٨٨).
ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (٣: ٣٤٤).
حضارة العراق (٨: ١٣١، ١٣٢).

(٢) كان مجاهد الدين قيماز من خيرة رجال الدولة الأتابكية يحب الخير والعلم، فأنشأ المدارس والمساجد والربط، فبنى في الموصل مارستاناً وجسراً ورباطاً وداراً للأيتام.
ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٧٧- ١٩٤).
حسين أمين: المرجع السابق ص (٣٨٥).
حضارة العراق (٨: ١٣٣).
الديوه جي: المرجعان السابقان ص (١٤٦، ١٤٧، ٣٤٩، ٣٥٠).

«من الفواكه والحلوى، والدعوات في المواسم والأعياد، والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك. وقرر في وقفها من الصدقات كل أسبوع، وفي الأيام الشريفة والأيام المباركة شيئاً كثيراً.

وممن درس فيها عماد الدين أبو حامد محمد بن يونس بن منعة العقيلي الشافعي (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) (٦٣١ - ٦٥٧هـ/ ١٢٣٣ - ١٢٥٨م) إلى مقام للإمام عبد الرحمن من آل البيت النبوي[١].

٩- مدرسة أم الملك الصالح:

أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، التي تزوجها عز الدين مسعود بعد وفاة زوجها، وكان عمه، ونقلها إلى الموصل سنة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) وأتم بناء هذه المدرسة بعد هذا التاريخ[٢].

١٠- المدرسة النورية:

أنشأها الملك العادل، أبو الحارث نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود الأول (٥٨٩-٦٠٧هـ/ ١١٩٣ - ١٢١٠م).

وأوقفها للشافعية فقط. ويبدو أنه كان أول أتابكي يوقف مدرسة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ١٠١)، التاريخ الباهر ص (١٨٦ - ١٨٩).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٧)، النويري: نهاية الأرب (٢٧: ١٨٧).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٤٦)، الموصل في العهد الأتابكي ص (١٥٠، ١٥١).
ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ص (٣٤٢).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٢١)، أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٨٥).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٣١٦، ٣١٧).

(٢) حضارة العراق (٨: ١٣٥)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٥٠).
الموصل في العهد الأتابكي ص (١٥١).

للشافعية وحدهم دون الحنفية. ثم حولها بدر الدين لؤلؤ إلى مقام للإمام محسن(١).

١١- المدرسة البقشية أو النفيسية:

وقد أنشئت هذه المدرسة قبل عام (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) ولا يعرف من أنشأها، وممن درس فيها أبو حامد عماد الدين بن يونسن ثم حولها بدر الدين لؤلؤ إلى مقام للسيدة نفيسة، وتعرف (بالست نفيسة)(٢).

١٢- المدرسة العلائية(٣):

أنشئت قبل عام (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) وأيضاً لا يعرف من أنشأها، وتولى التدريس فيها أبو حامد عماد الدين بن يونس، وبعده أخوه كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس(٤).

١٣- المدرسة القاهرية:

أنشأها الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن عز الدين

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ١٩٤)، والتاريخ الباهر ص (١٩٨ - ٢٠١).
النويري: المرجع السابق (٢٧: ١٨٧).
أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢: ٢٢٧).
ابن كثير: المرجع السابق (١٣: ٦١)، أمين: المرجع السابق ص (٣٨٥).
الموصلي: المرجع السابق (١: ٢٢١)، ناجي: المرجع السابق ص (٣٤٣).
الديوه جي: المرجعان السابقان ص (٣٤٦)، (١٤٢، ١٤٣).
حضارة العراق (٨: ١٣٦)، الجميلي: المرجع السابق ص (٣١٧).

(٢) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٥١)، حضارة العراق ص (٨: ١٣٦).

(٣) ربما تكون نسبة إلى علاء الدين خرمشاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، وهو من الزنكيين، لكنه لم يكن ملكاً من ملوكهم.

(٤) الديوه جي: المرجع السابق ص (٣٥١)، حضارة العراق (٨: ١٣٦).

مسعود الأول (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) قبل وفاته، ودفن بها، ومن الذين درسوا فيها العلامة الكبير كمال الدين بن يونس العقيلي، الذي درس بها الفقه واللغة والأدب والتاريخ والمنطق والرياضيات.

وفي عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) تولى التدريس بها ابنه شرف الدين أحمد (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥م) ثم درس بها الإمام ابن بنت الرضي يونس بن منعة محمد بن علي، الذي تفقه على خاليه عماد الدين وكمال الدين بن يونس حتى وفاته (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)[١].

١٤- المدرسة البدرية:

أنشأها بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله صاحب الموصل (ت٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) وأنشأها قبل عام (٦١٥هـ)، حيث بناها على أنقاض مسجدٍ بقلعة الموصل، كان قد شيده الحسين بن سعيد بن حمدان بن حمدون التغلبي في عهد الدولة الحمدانية بالموصل وحلب في أوائل القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي).

ومن الذين تولوا التدريس فيها: محمد بن علوان بن مهاجر الموصلي (٥٤٢ - ٦١٥هـ)، وكمال الدين بن يونس سنة (٦٢٠هـ).

وكان كل من أثير الدين المفضل بن عمر بن المفضل الأبهري صاحب التصانيف المشهورة (ت٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م) وعماد الدين إسماعيل بن هبة الله باطيش (ت٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) معيدين فيها، كما كان الأخير خازناً لكتبها[٢].

---

(١) الديوه جي: المرجع السابق ص (٣٤٩).
حضارة العراق (٨: ١٣٨)، ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (٣٥٧ - ٣٦٣).

(٢) ابن الغوطي: الحوادث الجامعة ص (١٦٢).
الديوه جي: المرجعان السابقان ص (٣٤٩، ٣٥٠)، (١٤٧).
ناجي: المرجع السابق ص (٣٤٣).
حضارة العراق (٨: ١٣٦).
ندوة دور الموصل: نفس الصفحات.

١٥- المدرسة الصارمية (أو مدرسة ابن بلدجي)[١]:

أنشأها شهاب الدين أبو الثناء محمود بن مودود بن محمود بن بلدجي الموصلي الحنفي (٥٣٤-٦٢٣هـ/١١٤٨ - ١٢٢٦م)، وهي المدرسة الوحيدة التي درس فيها المذهب الحنفي فقط، بخلاف المدارس الأخرى التي إما يدرس فيها المذهبان الحنفي والشافعي - وهي المدارس التي أنشأها الملوك الزنكيون - وإما تلك المدارس التي أنشأها أهل البلاد وهم شافعية المذهب فيدرس بها المذهب الشافعي.

وخلف شهاب الدين بعد وفاته في التدريس بالمدرسة ابنه عماد الدين أبو القاسم عبد الرحمن (٥٩٧ - ٦٤١هـ/ ١٢٠٠ - ١٢٤٣م)[٢].

١٦- المدرسة اليوسفية:

وهي كسابقتها خصصت لتدريس فقه المذهب الحنفي فقط، وكانت تقع على نهر دجلة، ويحتمل أن يكون قد أنشأها أبو الفتح نصر الله بن علي بن نصر الله الموصلي الحنفي (٥٨٧-٦٥٤هـ/ ١١٩١ - ١٢٥٦م)[٣] وكان مدرساً بها.

كذلك كانت للنصارى في الموصل مدارس، فقد أنشأ سبر يشوع بن المسيحي البطريرك في أواسط القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) مدارس على نمط المدارس الإسلامية السائدة، حيث قام بتحمل نفقات الأساتذة والطلبة وتوفير السكن والطعام لهم[٤].

---

(١) بنو بلدجي: نسبة إلى جدهم بلدجي، من كبار أمراء الدولة السلجوقية.
انظر الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٥١)، (٣٨٤).

(٢) الديوه جي: نفس المرجع ص (٣٥١). ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ١١٦).
حضارة العراق: (٨: ١٣٨).

(٣) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٤٨).
حضارة العراق (٨: ١٣٩).

(٤) القس سليمان صائغ الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٢٢).

ثانياً - مدارس إربل:

برزت إربل كمدينة لها ثقلها السياسي والاجتماعي والاقتصادي وكذلك الثقافي في منتصف القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)؛ وذلك بفضل زين علي كوجك[1] صاحبها (ت٥٦٣هـ)، ثم بفضل ابنه صاحبها الملك المعظم مظفر الدين أبي سعيد كوكبوري بن علي بن بكتكين بن محمد (٥٨٦ - ٦٣٠هـ/ ١١٩٠ - ١٢٣٢م)، فقد كانت قبله - كما وصفها مؤرخها الشهير أبو البركات ابن المستوفي الإربلي المتوفى (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) - مشهورة بالخمول وعدم التطور المتمثل في عنوان كتابه تاريخ إربل: «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل».

وكان سبب تلك النهضة العلمية أنه «لما بنيت دار الحديث لم يكن بإربل من يسمع بها، فمرت على ذلك مدة». ويذكر ابن المستوفي أنه استشير في ذلك فأوصى «بإحضار مشايخ من بغداد عندهم حديث يسمع عليهم».

واستدعى أبا حفص عمر بن محمد بن المعمر المعروف بابن طبرزد البغدادي (٥١٦-٦٠٧هـ/ ١١٢٢ - ١٢١٠م) لمساعدته في إقراء وإسماع مسند أحمد، وأرسل لهما نفقة تامة قبل قدومهما إليه، فوصلا في عام (٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م) ونزلا بدار الحديث، وأقاما عدة أشهر سمع عليهما خلقٌ كثير[2].

وبهذه الخطوة نمت النهضة العلمية في إربل وتطورت؛ فتوالى إنشاء المعاهد والمدارس العلمية فيها، ومن أهمها:

---

(١) عند ابن خلكان «كجك» بدون حرف الواو، عاش زين أكثر من مائة عام، بينما عاش ابنه مظفر الدين إحدى وثمانين سنة من (٥٤٩- ٦٣٠هـ).
انظر وفيات الأعيان (٤: ١١٣ - ١٢١).

(٢) ابن المستوفي: (تاريخ إربل) القسم الأول ص (١٥٩، ١٦٢، ١٦٣).
مقدمة محقق وفيات الأعيان لابن خلكان.
حضارة العراق (٨: ١٣٩).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٢٤٢، ٢٤٣).

١- مدرسة القلعة:

وكانت أولى المدارس التي تم إنشاؤها بإربل وأنشأها الأمير أبو منصور سرفتكين الزيني نائب صاحب إربل زين الدين علي كوجك عام (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م)، وفوّض بالتدريس فيها أبا العباس الخضر بن نصر بن عقيل الإربلي الشافعي (٤٧٨ - ٥٦٨هـ/ ١٠٨٥ - ١١٧١م)، وكان أول من درس بإربل، واستمر يدرس بها فترة طويلة، درس خلالها على يديه طلبة كثيرون، وممن تخرج عليه الشيخ الفقيه الإمام أبو عمرو عثمان بن عيس الهذباني الماراني شارح المهذب (ت٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م).

كما تخرج على يد أبي العباس ابن أخيه نصر بن عقيل، وكان فاضلاً، وخلفه بعد وفاته في التدريس بها، ثم سخط عليه الملك المعظم صاحب إربل فأخرجه منها، فانتقل إلى الموصل[(١)].

٢- المدرسة العقيلية:

أنشأها الفقيه أبو العباس الخضر بن نصر بن عقيل الإربلي الشافعي المدرس في مدرسة القلعة السابق ذكرها، بناها في الربض قبل سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)، وتولى بنفسه التدريس بها، ثم خلفه ابن أخيه عز الدين أبو القاسم نصر بن عقيل بن نصر المولود بإربل عام (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م).

وقد رحل نصر بن عقيل إلى بغداد لتلقي العلم، وأقام بالمدرسة النظامية بها مدة وسمع من شيوخها، ثم رجع إلى إربل وتولى التدريس بها بعد وفاة عمه، كما تولى الإفتاء. ثم حدث خلاف بينه وبين صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري فرحل إلى الموصل عام (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) وبها توفي عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م). وكذلك درس بالمدرسة العقيلية علم الدين أبو البركات محمد بن عبد السلام بن محمد بن الخطيب السنجاري، ورد إربل سنة (٦٠٥هـ)، وتوفي

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان (٤: ٤٦).
حضارة العراق: (٨: ١٣٩).

بها بعد عام (٦٠٥هـ)، وكذلك القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله المهاني[١] (٥٤٧ - ٦٧٢هـ/ ١١٥٢-١٢٢٩م) الذي درس أيضاً بمدرسة القلعة السابقة[٢].

٣- المدرسة المجاهدية:

أنشأها مجاهد الدين أبو منصور قايماز بن عبد الله الزيني (ت٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)، الذي كان مملوكاً لزين الدين علي والد مظفر الدين صاحب إربل، وقدمه في دولته حتى صار صاحب الأمر فيها، وقد أنشأ مجاهد الدين المدرسة قبل انتقاله إلى الموصل في عام (٥٧١هـ/ ١١٧٥م).

ومن الذين تولوا التدريس بها الفقيه الشافعي نجم الدين أبو حفص عمر ابن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الإربلي (ت٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) عم شمس الدين ابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان»، وبقي يدرس بها حتى وفاته، ثم درس بها نجم الدين أبو حفص أبو الفوارس المشرف بن عبد اللطيف بن عبد البر القزويني، الذي نصب أيضاً شيخاً لدار الحديث المفظرية[٣].

وكان أول من أقام بها، وحضر خطبته عند فتحها الملك المعظم أبو سعيد كوكبوري صاحب إربل، وعلماء إربل وأعيانها، وكان أبو الفوارس عالماً بأصول الفقه والمذهب الشافعي[٤].

---

(١) نسبة إلى ماهان ويقصد بها: الدينور ونهاوند، أو هي مدينة بكرمان، وكلاهما ببلاد فارس. انظر الحموي: معجم البلدان (٥ : ٤٨).

(٢) ابن المستوفي: تاريخ إربل القسم الأول ص (١٢١)، (١٥٨، ١٥٩).
حضارة العراق (٨: ١٤٠، ١٤١).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٧- ٢٣٩).
ندوة دور الموصل في التراث العربي ص (٣٦٠).

(٣) حضارة العراق: (٨: ١٤١، ١٤٢)، ابن المستوفي: تاريخ أربل (٢٨٣، ٢٨٤).
ابن خلكان: المصدر السابق (٤ : ٨٢).

(٤) حضارة العراق (٨: ١٤٢).

٤- المدرسة المظفرية:

أنشأها الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) وذلك قبل عام (٦٠٨هـ/ ١٢١١م)، وبناها للحنفية والشافعية معاً، وكان يتردد عليها وليسمع، وكان يبيت بها.

وممن درس بهذه المدرسة زينب الشعرية[١] شيخة ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان، الذي ذكر أنها كتبت له إجازة بدراسته عندها، وذلك في عام (٦١٠هـ).

ودرس بها أيضاً والد ابن خلكان شهاب الدين محمد بن إبراهيم عاش بين سنة (٥٧٧-٦٦١هـ/ ١١٦١ - ١٢٦٢م)، وشرف الدين أبو الفضل أحمد بن كمال الدين موسى بن يونس بن منعة العقيلي (ت٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م).

٥- المدرسة الفقيرة أو مدرسة الطين:

أنشأها الفقير أبو سعيد كوكبوري صاحب إربل، وأوقفها على مجموعة من الفقهاء الشافعية، وكان ذلك قبل عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)، وقام بالتدريس بها القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي بكر المهاني الذي سبق الحديث عنه[٢].

ثالثاً - مدارس سنجار:

١- مدارس سنجار:

أهم مدارس سنجار هي التي أنشأها عماد الدين زنكي بن مودود (٥٦٦ - ٥٩٤هـ/ ١١٧٠-١١٩٧م) صاحب سنجار، وكان شديد المحبة للعلماء خاصة

---

(١) حضارة العراق (٨: ١٤٣).

ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٣٤٤، ٣٤٥)، (٤: ١١٦)، (٧: ٢٢). وتدعى أيضاً حرة بنت عبد الرحمن بن الحسن بن أحمد المعروف بالشعري (٥٢٤- ٦١٥هـ).

(٢) ابن المستوفي: تاريخ إربل ص (١٥٩).

الحنفية، حتى قيل عنه: إنه كان متعصباً جداً للمذهب الحنفي، فأنشأ لفقهائه مدرسة خاصة بهم.

«وشرط عماد الدين أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية، ويكون البواب والفراش على مذهب أبي حنيفة» وربما جميع مدرسيها وطلابها منهم، وأمر بأن يعد طعام لكل واحد في كل يوم[1]. ويعلق ابن كثير[2] على ذلك بقوله: «وهذا نظر حسن، والفقيه أولى بهذه الحسنة من الفقير؛ لاشتغال الفقيه بتكراره ومطالعته عن الفكر فيما يقتاته». ويعني بذلك توفير جهد الأستاذ وطالب العلم للتفرغ في طلب العلم من بحث وتحصيل ومطالعة للكتب.

٢- المدرسة المجاهدية:

أنشأها مجاهد الدين أبو منصور يرفقش بن عبد الله التركي الحنفي، مملوك عماد الدين زنكي بن مودود، وأتابك ولده الصغير قطب الدين محمد ومدبر دولته، وذلك حوالي عام (٥٩٤هـ/١١٩٧م). وكانت أيضاً للحنفية، وسار على منوال سيده في ذلك، وفي تقديم الطعام لأساتذتها وطلابها يومياً، وممن تولى التدريس بهذه المدرسة عليّ بن الحسين بن علي السنجاري المعروف بابن دبانة المتوفى عام (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)[3].

رابعاً- المدارس الأخرى المنتشرة في إقليم الجزيرة الفراتية:

١- مدرسة نصيبين:

أنشأها أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، وأوقف عليها وقفاً للإنفاق عليها وعلى شيوخها وطلاب العلم بها والعاملين فيها[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ١٣٢)، التاريخ الباهر ص (١٩١).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ص (١٣- ١٦).

(٣) حضارة العراق (٨: ١٤٤).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم (١٨: ٢٣٣).

٢- مدارس جزيرة ابن عمر:

كانت توجد بجزيرة ابن عمر أربع مدارس، بخلاف ما أنشئ قبل فترة الدراسة، وكلها يدرس بها فقه المذهب الشافعي، هي:

١- المدرسة الرضوية:

أنشأها نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحق الطوسي وزير السلطان السلجوقي ملكشاه، وهذه المدرسة وصفت بأنها «حسنة وكبيرة»، وتم إنشاؤها قبل فترة دراستنا.

٢- مدرسة ابن البزري:

نسبة إلى أبي القاسم عمر بن محمد عكرمة المعروف بابن البزري الفقيه الشافعي، كان إمام جزيرة ابن عمر، وفقيهها، ومفتيها، وأستاذ مدرستها (٤٧١-٥٦٠هـ/ ١٠٧٨-١١٦٤م).

٣- مدرسة ظهير الدين قايماز الأتابكي:

مملوك عماد الدين زنكي بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر وسنجار.

٤- مدرسة القاضي جمال الدين عبد الرحيم:

نسبة إلى المدرس بها.

٥- مدرسة شمس الدين سرتكين:

نسبة إلى مؤسسها[١].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٣: ٤٤٤، ٤٤٥).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٩٨، ٢٩٩).

مدارس أنشئت في ديار بكر في مدينتي ماردين وحصن كيفا:

أنشأ الأمراء الأراتقة في ديار بكر وكبار رجالات دولتهم من مسؤولين وقضاة وفقهاء، عدة مدارس درس بها عدد من شيوخ العلم قدموا من مناطق شتى، تخرج على أيديهم كثير من طلبة العلم[1].

(١) خليل: الإمارات الأرتقية ص (٤٦٦، ٥٠١).

الرُبط (الزوايا والخانقاوات)

وكانت منتشرة خارج مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية العديدة ولم تكن - فقط - مكاناً للصوفية والزهاد والمنعزلين عن الحياة الاجتماعية السائدة، بل كانت أيضاً مراكز لإلقاء الدروس، ومنازل يحط فيها العلماء وطلبة العلم رحالهم فيها أثناء سفرهم وتنقلهم لطلب العلم.

ففيها كان يلتقي العلماء بأقرانهم، وطلبة العلم بأساتذتهم وشيوخ العلم، فيستفيدون منهم، كما أنها كانت مجالاً للوعظ والإرشاد، والتأليف والتصنيف والتثقيف والمحاضرات ومنح الإجازات والإقراء.

ومن أهم تلك الرباطات التي قامت بهذه المهمة رباط أبي السعادات مجد الدين بن الأثير الواقع بدرب دراج بالموصل، وكان مقصداً لطلاب العلم والأدب، تعقد فيه حلقات التدريس والمناظرة.

وكذلك كانت هناك حركة علمية نشطة في رباط «قصر حرب»[1]، وقد قصده الطلاب للأخذ عن الأخوين عز الدين ومجد الدين ابني الأثير. وكانوا يدرسون ويحققون وهم مكفوفون، وكان ينفق عليهم مما أوقفته أسرة ابن

---

(١) قصر حرب، بناه جعفر بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني عام (١٤٥هـ) هجرية بالموصل ثم نسب إلى قائد شرطته فيها حرب بن عبد الله الرويدي صاحب الحربية ببغداد.

الأثير، حسبما ذكر ابن الأثير نفسه[1] بقوله: «وعنده قرية كانت ملكاً لنا، فبنينا رباطاً للصوفية، ووقفنا القرية عليه. وقد جمعت كثيراً من هذا الكتاب في هذه القرية في دارٍ لنا بها»، وهو يعني بذلك كتابه: (الكامل في التاريخ).

وقد صنف أيضاً فيها أخوه مجد الدين أكثر كتبه، خاصة بعد أن ترك منصب الوزارة. وقد عاش مقعداً بسبب مرضه، فتفرغ للتدريس والتصنيف حتى وفاته[2].

المكتبات:

وكذلك كان للمكتبات التي عرفت بخزائن الكتب، وهي ملحقة بالمدارس والجوامع والمساجد والخانقاوات: دورٌ بارزٌ في العملية التعليمية والثقافية؛ ومن ثم فقد اهتم القائمون على هذه المكتبات بتزويدها بمختلف أنواع الكتب من فقهية وأدبية ولغوية ودواوين شعرية وتاريخية وجغرافية وطبية ورياضية وهندسية وفلكية.

وهناك أيضاً المكتبات العامة، وخير مثال يمكن ذكره عنها مكتبة مدينة «آمد» فقد وجد فيها - عندما استولى عليها صلاح الدين الأيوبي من صاحبها ابن نيسان - حسبما ذكر ابن كثير[3]: «وجد فيها خزانة كتب بها ألف ألف مجلد، وأربعين ألف مجلد»، أي بلغ عدد الكتب مليوناً وأربعين ألف كتاب[4].

---

(١) الكامل في التاريخ (٥: ٥٧٢).

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان (٤: ١٤٢، ١٤٣).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٥٥ - ٣٥٧).

(٣) البداية والنهاية (١٢: ٣١٣).

(٤) أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلام ص (١٤١).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٤٣٠).
جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢٢٤).
خليل: الإمارات الأرتقية ص (٥٠٥).

وكان للمكتبة خازنٌ ومشرف، ومناولون يحضرون الكتب للمستفيدين، ثم يعيدونها إلى أماكنها.

حياة العلماء والأساتذة وطلاب العلم:

كان الهدف من إنشاء المدارس ابتغاء الأجر والثواب من الله (سبحانه وتعالى)، وهذا عمل فيه خير وصلاح لخدمة الدين والفرد والمجتمع بأسره، فضلاً عما فيه من رعاية لأهل العلم وطلابه.

وكان من أسباب إنشاء المدارس أيضاً - تخوف السلطان على ذريته من عماله ومواليه، فينشئ الحاكم مدرسة، ويوقف عليها الأوقاف المغلة - من ضياع وغير ذلك - ويشترط أن يتولى وقفها بعض أولاده ويكون لهم نصيب منها - إذ الوقف لا يجوز تبديله أو تغييره؛ فيأمن بذلك على أولاده من الفقر.

هذا كله بالإضافة إلى الرغبة في خدمة المذهب، أعني مذهب الملك أو السلطان[1].

وكان لهذه المدارس هندستها التي ميزتها عن تصميم المساجد والجوامع. وقد اتبع الأتابكة الزنكيون والأراتقة - وغيرهم - في بناء مدارسهم طراز المدارس النظامية وفق نظامها التعليمي والمعيشي للطلاب، فكان للمدرسة منبى مستقل، يحتوي على أماكن واسعة للدراسة والتي عرفت بالإيوانات. وكانت المدرسة التي يدرس بها فقه مذهب واحد بها إيوان واحد، وإذا كان يدرس بها مذهبان أو أكثر بني فيها إيوانان أو أكثر، حسب المذاهب التي تدرس في تلك المدرسة. وكانت غالبية مدارس إقليم الجزيرة الفراتية - كما سبق - تدرس مذهبين فقط، فإذا كانت المدرسة حكومية فهي تدرس المذهب الحنفي والشافعي، أما إذا كانت أهلية فأكثرها للشافعية، وأقلها للأحناف والحنابلة[2].

---

(١) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢٢٢).

(٢) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٤ - ٢٣٥).

وكان أهم ما يميز هذه المدارس عن الجوامع والمساجد المكان المخصص للتدريس والمكان المخصص للسكنى، سواء كان للطلاب أو الأساتذة، وخاصةً إذا كان الأستاذ وافداً من بلد آخر، وكان يلحق بالمدرسة (خزانة الكتب)، ويعين لها خازن يرتب كتبها ليستفيد منها الأساتذة والطلبة[1].

وقد حرص على إنشاء هذه المدارس الملوك الأتابكيون من أراتقة وزنكيين ونوابهم ووزراؤهم وقادة جيوشهم والعلماء والتجار وغيرهم من الأثرياء، فيقدموا المال اللازم لبنائها وأثاثها. ولكي تستمر المدارس كان لا بد من إيجاد دخل أو مورد مالي لها، فتوقف عليها الأوقاف الدارة للأموال. كما سبق ذكره. وكانت هذه الأموال تصرف على المدرس والعاملين بها، وكذلك على طلابها كرواتب أو على مأكلهم ومسكنهم أو كليهما معاً[2].

ولإدارة المدرسة يقوم مؤسسها بتعيين واحد أو أكثر ليتولى إداراتها

= حضارة العراق (٨: ٥٩- ٦١)، العراق في التاريخ ص (٥٠٥).
الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ٨٦، ١١٨)، محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر. نشر دار النهضة العربية، القاهرة طبعة سنة (١٩٨٠م) ص (٢٤٢).

(١) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٤)
حضارة العراق (٨: ٦١)، العراق في التاريخ ص (٥٠٥).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٩٩).
معجم العالم الإسلامي ص (٥٨٩).
السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، نشر دار الحداثة، (بيروت)، الطبعة الثانية، سنة (١٩٨٥م) ص (١٠٥، ١٠٧، ١١١).

(٢) أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٢١٧)، (٢٤٤).
حضارة العراق (٨: ٦١، ٦٢). العراق في التاريخ ص (٥٠٥).
غندور: المرجع السابق ص (٢٩٩).
الموصلي: تاريخ الموصل (٢: ١١٨).

والإشراف على وقفها، وغالباً ما كان يوكل ذلك إلى المدرس للقيام بهذه المهمة. وأما المدرسة التي ينشئها المدرس فكان يتولى بنفسه هذه المهمة، فإذا مات خلفه ابنه، وخاصة الإشراف على وقفها، وكذلك التدريس إن كان أهلاً لذلك. وكان يراعى عند اختيار ذلك المدرس أن يكون مشهوداً له بالعلم والفضل والمكانة العلمية المرموقة، ويكون ممن يجيد إلقاء الدروس شرحاً وتفصيلاً وتوضيحاً لكل ما يصعب على الطلاب فهمه. ويفضل عادة من المدرسين من يكون مذهبه على المذهب الذي اشترط تدريسه في هذه المدرسة.

وعند تعيين المدرس يحتفل به مؤسس المدرسة والعلماء وبعض أرباب الدولة ومن لهم علاقة بالمدرسة، ويكرمونه بحضور درسه الإفتتاحي المتنوع المواد غالباً[١]. وفي هذه المناسبة تقام الولائم احتفاءً بقدوم المدرس الجديد.

وغالباً ما يتم تعيين المدرس مدى الحياة، إلا إذا حدث خلافٌ بينه وبين مؤسس المدرسة، أو لم يستطع القيام بما أوكل إليه، أو طلب هو نفسه الإعفاء من مهنة التدريس لسبب أو آخر. ولمكانة بعض الأستاذة العلمية المرموقة وسمعتهم الطيبة كانت الطلبة تأتيهم من كل مكان، بل قد تنشأ لهم مدارس خاصة ليقوموا بمهمة التدريس بها حتى تتم الاستفادة من علمهم ومعارفهم الغزيرة[٢].

---

(١) حسين أمين: المرجع السابق ص (٢٣٣).
العراق في التاريخ ص (٥٠٥). حضارة العراق (٨: ٦٢).
كريزر وديم وفاير: معجم العالم الإسلامي، ترجمة (٩).

(٢) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٣).
حلمي: الحياة العلمية في مصر والشام ص (١٢).
العراق في التاريخ ص (٥٠٥).
حضارة العراق (٨: ٦٢).
محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص (٢٤٤).

المعيد:

وقد ظهرت وظيفة المعيد في النصف الثاني من القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، وكان ذلك مع ظهور المدارس النظامية، فيختار الأستاذ أحد طلابه المتميزين بالكفاءة والنبوغ - من بين زملائه - فيعينه معيداً عنده بمدرسته.

ومرتبة المعيد تكون أقل من مرتبة المدرس بالطبع، وأعلى من رتبة الطلاب، فيجلس المعيد مع الطلاب، ويستمع إلى ما يلقيه الأستاذ من دروس، وبعد انتهاء الشيخ أو المدرس من درسه يقوم المعيد بإيضاح بعض المواطن التي لم يفهمها الطلبة، شارحاً لهم النقاط الصعبة في الدرس، بمعنى إعادة الدرس لهم بصورة مبسطة، فهو بمثابة مساعد المدرس، إذ يحضر الدروس التي يكلفه الأستاذ بها، ويقرؤها خلال الدرس، والطلبة يستمعون، وهو شبيه بالمعيد في عصرنا[١].

النظم المتبعة في هذه المدارس:

قبل الدخول في تفاصيل هذه النظم لا بد أن ننوّه على أن التعليم كان متاحاً لجميع طبقات المجتمع المسلم، من سيد ومسود، وغني وفقير، حتى تم وضع عدة أسس لسير العملية التعليمية، ومن ذلك: سن الدخول في هذه المدارس، والملابس الواجب ارتداؤها، والمواظبة على الحضور والتمسك بالسلوك الحسن، والمنهج الدراسي، وأسلوب التدريس، والإجازات العلمية التي تمنح للطالب.

١- سن دخول المدرسة:

اختلف سن دخول الطالب إلى هذه المدارس من مدرسة إلى أخرى،

---

(١) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص (١٠٨).
محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص (٢٤٥، ٢٤٦).

وقد تراوح ذلك بين سن الثمانية عشر إلى الثانية والعشرين، وهذا بصفة عامة، وقد يدخل الطلبة النابهون قبل هذه السن بقليل، وقد يتأخر الآخرون إلى ما بعد سن الثانية والعشرين لسبب أو لآخر، حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية، أو أسباب أخرى، مثل عدم وجود مثل هذه المدرسة في بلد الطالب[١].

٢- الملابس:

كان لباس الفقهاء من علماء وأساتذة وطلاب علم كعامة الناس لا يختلفون عنهم، إلا أن أبا يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه الشهير - كما يقول ابن خلكان -: ويقال: إنه أول من غير ملابس العلماء التي هم عليها في هذا الزمان، وكان ملبوس الناس - قبل ذلك - شيئاً واحداً لا يتميز أحدٌ عن أحد بلباسه».

وقد ذكر ابن خلكان في مكان آخر[٢] أن القاضي أو الفقيه كان «يلبس قلنسوة طويلة وطيلساناً أسود»، فأصبح لباس العلماء يتكون من إزار وغلالة[٣] وقميص ثم الجبة والطيلسان الذي ذكره ابن خلكان وعمامة سوداء.

وكان اللون الأسود هو اللباس والشعار للدولة العباسية. وكان العلماء يرخون طرف العمامة بين الكتفين بعد شبر أو أطول قليلاً، ويضعون فوقها الطيلسان المربع الذي يسدل على الأكتاف[٤].

---

(١) حضارة العراق (٨: ٦٢).
جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢٢٤).

(٢) وفيات الأعيان (٦: ٣٧٨، ٣٧٩).

(٣) الغلالة: ثوب رقيق يشبه الشاش، يلبس تحت الملابس كملابس داخلية.

(٤) أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٢٧٨، ٢٧٩).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٢).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ص (٦٤٠).

المواظبة على الحضور والتمسك بالسلوك الحسن:

كان على الطالب لزام المواظبة على الحضور إلى المدرسة، وسماع الدرس الذي يلقيه الأستاذ، لأن السائد في هذه الفترة أن العلم لا يؤخذ من الأوراق، بل يؤخذ سماعاً من لسان الأستاذ والقرب منه، كما قال ابن خلدون[١]: «إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة. فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده في تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتسابِ الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال».

والرحلة التي يقصدها ابن خلدون هنا السفر للقاء الأستاذ، وقد وفرت المدارس النظامية هذا الجهد على الطالب، وأصبحت المدرسة المكان الذي جمع الأستاذ بتلاميذه.

ولما كان الطالب مكفولاً من جميع متطلباته ومستلزماته من مأكل ومشرب وملبس وأدوات الدرس والكتابة - إضافةً إلى راتب شهري لتغطية نفقاته الخاصة - فإنه يلزم بالحضور، بل المشاركة في المناظرات والمناقشة ومتابعة الدرس أولاً بأول «عليهم التفهم على قدر إفهامهم والمواظبة إلا بعذر شرعي»[٢].

وفي حال غيابه يحذف من مرتبه مقدار الأيام التي غاب فيها عن المدرسة، ويتم تقسيم ماله عن الأيام التي غابها على الحاضرين، لذا كان الطلبة يحرصون على الحضور.

كذلك عليه أن يتمسك بالسلوك الحسن المستقيم، وعدم الإخلال بآداب المدرسة فللمدرسة والدرس والأستاذ حرمةٌ واحترام فيجب مراعاة ذلك[٣].

---

(١) المقدمة: ص (٤٤، ٤٥).

(٢) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص (١٠٨ - ١١٠).

(٣) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٤).
أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٣٢٥).

المنهج الدراسي:

لما كان قد تكفل بإنشاء هذه المدرسة شخصٌ صار من حقه التصرف فيها وفي شؤونها، فهو الذي يعين المدرس الذي يريده ويعزله إن لم يعجبه، وكان من حقه أن يوجه الدراسة الوجهة التي يريدها، وقد رأينا ذلك في شرط إنشاء تلك المدارس[(١)].

ولما كانت غالبية المدارس التي تم إنشاؤها كان الهدف من إنشائها تعليم الفقه؛ لذا غلب على مناهجها العلوم الفقهية، والعلوم المساعدة لها، والموضوعات التي تتضمنها علوم القرآن الكريم من تفسير وغيره، وعلوم الحديث الشريف، وعلوم اللغة العربية من نحو ونقد وبلاغة وشعر وأدب، وعلوم العقائد: الأصول والفروع، والأجناس أي علم التاريخ، وكان لكل علم أستاذ مختص بتدريسه، أما العلوم العقلية الأخرى كالفلسفة وأنواع الحساب والجبر والمقابلة وغيرها فيدرسها الأساتذة في منازلهم.

أما الطب فيدرس العملي منه في المارستان عند علاجهم للمرضى، أما النظري فحكمه حكم دراسة العلوم العقلية[(٢)].

٥- أسلوب التدريس:

يجلس الأستاذ والطلبة في شكل حلقة، فيجلس الأستاذ على مكان مرتفع ككرسي أو منضدة خشبية، مرتدياً طيلساناً أسود أمام الطلبة متوجهاً إليهم مستنداً على جدار المدرسة أو أحد أعمدتها كأبرز نقطة في محيط

= العراق في التاريخ ص (٥١٧)، حضارة العراق ص (٨: ٦٣).
محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص (٥٢، ٥٣).

(١) حضارة العراق ص (٨: ٦٥)، العراق في التاريخ ص (٥١٨).

(٢) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٧٧).
جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢٢٤).
أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (١٢٧).
حلمي: الحياة العلمية في مصر والشام ص (٩ - ١١).

الحلقة، بينما يجلس الطلبة أمامه على شكل نصف حلقة متجهين إليه بأبصارهم وأسماعهم وعقولهم بترتيب في غاية الدقة، ولكل مجموعة منهم مكان معين، فيجلس المعيدون والمجيدون عن يمين الأستاذ وشماله، بينما يجلس زملاء الدرس الواحد في جهة واحدة من الحلقة؛ حتى يتمكن الأستاذ من رؤيتهم جميعاً، في حين يترك فراغ في الحلقة لجلوس من يحب أن يستمع إلى الدرس من الزوار الطارئين، أو أولئك الذين يحضرون لسماع الدرس بانتظام من غير الطلبة.

ويفتتح الأستاذ الدرس بالبسملة وبالصلاة والتسليم على الرسول وعلى آله وصحبه، ثم يتلو بعض آياتٍ من الذكر الحكيم وبعضَ الأحاديث الدالة على الحث على طلب العلم وعلى التواضع في طلبه[1].

كما يحثهم على التمسك بالأخلاق الحميدة والسيرة الحسنة مبيناً لهم مالها من دور فعال في استقامة أمور صاحبها. ثم يدعون بعد ذلك لواقف المدرسة ولذريته ولجميع المسلمين بالدعاء الحسن[2].

وهناك طريقتان للتدريس هما: الأمالي، والكتاب المقرر.

الأمالي:

وهي أن يلقي الأستاذ الدرس على تلاميذه بطريقة الإملاء، وذلك من مذكراته التي تسمى «التعليقة» وهي بمثابة المحاضرات التي سيلقيها على تلاميذه طيلة مدة دراستهم معه، ويلقي درسه ببطء فقرة فقرة وحديثاً حديثاً مع

---

(١) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص (٢٤٦).
أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٣٨٢).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٠).
عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند ابن جماعة، نشر الشركة العالمية للكتاب بيروت ط (١٩٩٠م)، (٨٤، ٨٥).

(٢) أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٣٨٣).
محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص (٢٤٦).

ذكر سند الحديث وبشرح وتوضيح ما غمض من ذلك الدرس.

وكان الطلاب يكتبون ما يمليه عليهم في متن مذكراتهم، بينما يدونون الشروح والتفسيرات على هامش الأوراق التي كتبت عليها الأصول. وطريقة الإملاء والاستماع هذه مفضلة على غيرها خلال هذه الفترة. وعند الانتهاء من تلك الأمالي يقرؤها عليهم الأستاذ أو يعيد قراءتها المعيد لتصحيح ما وقع فيها من خطأ، وكان يراعي الدقة في النقل والتصحيح. وبعد هذا يوقع الأستاذ على نسخ بعض تلاميذه ذاكراً أن هذا الطالب قد نقل عنه ما سمعه منه وقرأه عليه، ويجيز لمن يراه أهلاً في أن يروي ذلك عنه، أو أن يدرسه بإذنه[1].

الكتاب المقرر[2]:

اعتمد في تدريس بعض العلوم على كتاب معين، وذلك لتوفر أعداد كبيرة من الكتب التي سهلت مهمة اتخاذ بعضٍ منها لمقررات تدريسية، فيحصل كل طالب على نسخته من هذا الكتاب، وتكون طريقة التدريس فيه أن يقرأ الطالب الدرس أولاً أو يقرأه المعيدون الذين يعينهم الأستاذ واحداً بعد الآخر، والطلاب يستمعون إليهم.

ثم يشرح الأستاذ الدرس موضحاً النقاطَ الغامضة فيه، وفي تفسيره لبعضٍ من آيات القرآن الكريم مثلاً يستعين بآيات قرآنية أخرى وبأحاديث نبوية شريفة، كما يستشهد بآراء السلف الصالح وكبار العلماء كأدلة توضيحية[3].

---

(١) أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٣٨٣).
محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص (٢٤٧).
حلمي: الحياة العلمية في مصر والشام ص (٢١).
العراق في التاريخ ص (٥١٧).

(٢) شلبي: م. السابق ص (٣٨٤).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٠).

(٣) محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص (٢٤٧).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٠).

وتوضع علامة على الكتاب عند انتهاء الدرس كدائرة، عليها خطٌ مائل كتلك الدوائر الفاصلة بين آيات القرآن الكريم.

وبعد انتهائه من شرح درسه يخصص وقتاً لتوجيه أسئلتهم واستفساراتهم على أن تكون مكتوبة في قصاصات ورقية يجيب فيها عليهم.

كما أن هناك مجالاً للمناقشة حتى يفهم الطلاب ذلك الدرس. ووضعت آداب خاصة عند طرح تلك الأسئلة لا بد من مراعاتها؛ لتكفل للأستاذ وقاره وهيبته ومكانته عند تلاميذه، وللطالب الحق في الفهم والتعليم وعدم الاستهانة برأيه على أن تكون تلك الأسئلة تفقهاً لا تعنتاً ولا رياءً، وأن يختار الطالب الوقت المناسب لإلقاء سؤاله، فلا يقاطع أستاذه وهو يتكلم ولا زميله وهو يسأل. وأن تكون في مجال الدرس فاتحة آفاقاً وأفكاراً جديدة مفيدة. وعلى الأستاذ أن لا يزدري المساكين من طلابه.

ومن جانبه يطرح الأستاذ أسئلة على تلاميذه ليختبر فهمهم للدرس، وإن لم يستطيعوا الإجابة عليها أجاب بنفسه، وذلك ليتيح الفرصة للطلاب بالمشاركة في الدرس وعدم ولوج الملل والكسل إلى نفوسهم.

ومن تلك الآداب أن لا يمشي الطالب أمام أستاذه، ولا يجلس في مكانه، ولا يبتدئ الكلام عنده إلا بإذنه، ولا يلح عليه بكثرة الأسئلة[1].

٦- الإجازة العلمية:

كان المتبع خلال تلك الفترة التي تزامنت، مع فترة دراستنا أنه إذا أتم الطالب دراسته كتب أستاذه له إجازة يذكر فيها اسم الطالب، وشيخه، ومذهبه وتاريخ الإجازة وكانت قيمة الإجازة تتوقف على مكانة الشيخ - العلمية- الذي صدرت عنه هذه الإجازة، ووصف بعض الشيوخ بأنه كان شديداً لا يجيز

---

(١) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٠، ٢٣١).
أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٣٨٤ - ٣٨٦).

للطلبة بسهولة[1].

واقتبس نظام منح الإجازة هذا من الشهادة التي كان يمنحها رواة الحديث الشريف لطلابهم، حيث يجيزون لهم رواية الأحاديث عنهم. ثم انتقلت هذه الطريقة إلى العلوم الأخرى، فإذا ثابر الطالب على الإستماع لأمالي أستاذه في الفقه أو الأدب أو التاريخ أو غيرها، أو لشرح يقوم به الأستاذ لكتاب معين، وتأكد عنده استفادة الطالب منه: كتب له إجازة على إتمام ذلك الكتاب، مثل قوله: «أتم فلان بن فلان قراءة هذا الكتاب... وأجزت له تدريسه...»

وكانت أكثر الإجازات الصادرة عن غير المؤلف يذكر فيها الشيوخ، وكانت كلها سماعية، فيكتب المجيز: أجزتك بحق سماعي من فلان، بحق سماعه من فلان، وهكذا حتى المؤلف. وبعد أن يتم اتصال الطالب بشيخه ويسمع منه يبيح له أن يروي عنه ما رواه له.

أما لفظ «الإجازة» في الاصطلاح فيدل على إذن يمنح بدون تعليم، ويمنحه شيخ إلى آخر يجيز فيه الأول للثاني رواية أحاديث معينة رواها الأول أو تدريس كتاب له[2].

ويورد الأستاذ حسين أمين[3] نقلاً عن ابن الشجري البغدادي[4] نموذجاً لطلب الإجازة: «إن رأى سيدنا الأجل الأوحد النقيب[5] الأتقى ضياء الدين جمال الإسلام - أدام الله تأييده وكبت عدوه وحسوده - أن يجيز لنصر بن سعيد بن أحمد بن المحسن بن سميع الموصلي جميع مسموعاته وإجازاته ومصنفاته ورواياته عن شيوخه (رضي الله عنهم) مع البراءة من التصحيف

---

(١) أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٣١٠).
(٢) أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٢٦٥، ٢٦٦).
(٣) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٧٤).
(٤) أمالي الشجري: مخطوطة في مكتبة الأوقاف ببغداد تحت رقم (٥٦٦٧).
(٥) يقصد بالنقيب هنا نقيب المعلمين.

والخطأ والتحريف: فعل ذلك متطولاً.

أما نموذج الإجازة فهو كالتالي: «العزة لله وحده: أذنت للشيخ الجليل المقرئ الأديب أبي القاسم نصر بن سعيد بن سميع الموصلي أن يروي عني - على سبيل الإجازة - فأصبح عنده ما يصح من مقروآتي ومسموعاتي التي أخذت رواياتها عن المشايخ والثقات، من الكتب الأدبية وكتب التفاسير والإعراب والمغازي، وما أمليته وصنفته من المسائل النحوية واللغوية وغير ذلك من فنون العربية: فليروِ ذلك عني على طريقة الإجازة، وإني بريء من السهو والتحريف والغلط والتصحيف. وكتبه هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسيني في جمادي الآخرة من سنة أربعين وخمسمائة».

وللإجازة العلمية أنواع منها:

١- أن يقول الشيخ للطالب وحده: خذ هذا الكتاب فإنه من حديثي. وأنا عالم بما فيه من العلم فحدث به عني، أو استنسخه وقابله وحدث به عني. ويسمى هذا النوع مناولة، وهو أعلى مراتب الإجازة.

٢- أن يكتب الشيخ: إلى فلان بن فلان، إني قد أجزت لك ما سمعه مني فلان، أو ما تضمنه الجزء الفلاني. وهذا شبيه بالمناولة عند ثبوت الخط.

٣- أن يقول الشيخ: إني قد أجزتُ لك بجميع ما صح عندك ويصح من حديثي... وهذا أقل مرتبة من الذي كتبت إجازته بشيء مسمى.

أما إجازة علم الطب، فلخطورته على أرواح الناس وحتى لا تذهب سدى على يد من لا يجيد علاجهم؛ لذا اشترط على من يرغب في ممارسة مهنة الطب أن يجتاز امتحاناً ويحصل على شهادة مكتوبة تحدد الأمراض التي يعالجها[١].

وإذا كانوا قد اعتادوا على الاحتفال بختم القرآن الكريم للصبية الصغار والإنتهاء من قراءة الحديث الشريف لصحيح البخاري[٢] مثلاً، فحري بهم أن

---

(١) أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٧).

يحتفلوا بانتهاء دراستهم بهذه المدارس وخروجهم منها إلى ميادين العمل المختلفة.

٧- نقابة المعلمين:

من النص السابق، يتضح لنا أن هناك نقيباً ونقابة للمعلمين ترعى شئونهم، ويرجعون إليها في أمور تخصّ الدراسة والتدريس، فهي التي ينضمون في عضويتها وتنظم مهنتهم. وكانوا يختارون نقيبهم دون تدخل من الحكومة، إلا إذا حدث خلاف بين أعضائها، وذلك من باب التوفيق والإصلاح فحسب(١).

٨- الآداب والشروط الواجب اتباعها من قبل الطالب في سكنى المدرسة:

أورد ابن جماعة بعض هذه الآداب والشروط، ومنها:

- أن يتقيد الطالب بشروط واقف سكنها، كالمواظبة على حضور الدرس، وأن يكرس وقته وجهده في طلب العلم دون سواه.

- أن يختار الزميل الموثوق بدينه ومكارم أخلاقه، فالرفيق قبل الطريق، وأن تسود بينهم المودة والمحبة والإحترام، وأن تسود بينهم روح التسامح وعدم الضغينة.

- وأن يختار لجواره أصلحهم حالاً، وأجودهم طبعاً، وأصونهم عرضاً؛ فالجار قبل الدار، وأن لا يضع نفسه في مكان فيه شبهة، ولا يدخل إلى مسكن غير المرغوب فيهم. وعلى القاطنين في المساكن العليا تخفيف المشي والاستلقاء عليها، وعدم وضع ما يثقل على سقفها كي لا يؤذوا من تحتهم. وفي النزول من الدرج ينزل أولاً الأصغر سناً، وأن لا يسرع من بالخلف حتى لا يصطدم بالنازل قبله.

---

(١) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٧٤)، نقلاً عن أمالي الشجري.

- وعند الصعود، يصعد الأكبر سناً أولاً.

- وأن لا يجلس أو يقف أحدهم على باب المدرسة أو دهليزها المحاذي للطريق، وأن لا يكثر المشي في ساحة المدرسة بدون حاجة، وأن يقلل الخروج من المدرسة ما أمكنه ذلك[1].

- ولا يدخل مكان قضاء الحاجة وقت الزحام إلا للضرورة، وأن لا يفتح البابَ إلا بعد طرقه ثلاث مرات طرقاً خفيفاً.

- وعلى الطلاب عدم إحداث الفوضى والإزعاج داخل المدرسة، من فتح الأبواب وإغلاقها، أو في المشي عند الدخول والخروج والصعود والنزول، أو برفع الأصوات عند الغداء، وعلى الطلاب أن يبتعدوا عن كل ما هو قبيح وذميم من القول والعمل[2].

---

(١) عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند ابن جماعة ص (١٥٥ - ١٦١).
(٢) عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند ابن جماعة ص (١٦١، ١٦٢).

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية في إقليم الجزيرة الفراتية

خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

(الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)

الفصل الرابع
الحياة الاجتماعية في الجزيرة الفراتية

البناء البشري: (العرب، الأكراد، الأتراك، التركمان، السريان، الأرمن)

العرب:

استوطنت كثير من القبائل العربية إقليم الجزيرة الفراتية منذ القدم، فمن القبائل العربية التي استقرت به قبل الفتح الإسلامي بمئات السنين قبيلة قضاعة التي منها بنو يزيد بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وكانت لهم صولات وجولات مع الفرس الذين بسطوا سيطرتهم على هذه المناطق حتى تمكن بنو يزيد من الغلبة عليهم والاستقرار في بعض أراضي هذا الإقليم.

ثم نزحت إليه قبيلتا «إياد» و«النمر» من القبائل العدنانية، وكانت بينهم وبين الفرس حروب عديدة، ثم ربطتهم بالإمبراطورية الفارسية علاقة مصالح مشتركة بحكم الجوار، حيث استفاد الفرس منهم في الشؤون الإدارية والمالية في إدارة هذه المنطقة. وكان لقيط بن يعمر الإيادي، كاتب كسرى فارس وترجمانه في اللغة العربية[1].

---

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (١٧).
حضارة العراق (٥: ٩، ١٠).
القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص (٣٨٥).
المغيري: الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب، نشر المدني (جدة) ص (١٤٢).

وفي العهد المسيحي تنصر هؤلاء بحكم جوارهم للإمراطورية البيزنطية، فصاروا يدينون بالنصرانية. وعند الفتح العربي الإسلامي انضموا على إخوانهم العرب ضد الفرس، لكنهم من جانب آخر رفضوا الدخول في دين الإسلام، وخوفاً من دفع الجزية رحلوا إلى بلاد الروم وكتب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى هرقل إمبراطور الروم «لتخرجنهم أو لنخرجن النصارى إليك»[1] فأعادهم وانتشروا في الشام والجزيرة الفراتية.

ومن القبائل الهامة التي استوطنت إقليمَ الجزيرة الفراتية بنو وائل بن قاسط من بني ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الذين انقسموا بسبب الحروب بينهم إلى قسمين:

* بنو بكر: وهؤلاء نزلوا في الأجزاء الشمالية من الإقليم فعرفت بديار بكر[2] وتقع غربي نهر دجلة إلى نصيبين، ومن مدنها حصن وكيفا وميافارقين وآمد. وما زالت إلى يومنا هذا مدينة «آمد» قاعدة لها.

* وبنو تغلب: ونزلوا في جنوبها، وأهم بطونها في إقليم الجزيرة الفراتية بنو حمدان ملوك الموصل وحلب في العصور الإسلامية اللاحقة وانحصرت بلادهم بجهات سنجار ونصيبين وعرفت بديار ربيعة. بينما عرفت الأجزاء الشرقية من نهر الفرات بديار مضر نسبة إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وشملت ديارهم حران والرقة وسميساط وسروج وتل موزن. ومن هنا فرضت هذه القبائل أسماءها على الإقليم[3].

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢: ٩٥٣).

(٢) القلقشندي: المرجع السابق (١٦٩، ٣٩٥)

كحالة: معجم قبائل العرب، نشر مؤسسة الرسالة ط (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) (١: ٩٣/ - ٩٧).

المغيري: م. السابق ص (٩، ٢٥، ٢٧).

(٣) كحالة: معجم قبائل العرب (١: ٩٣- ٩٧، ١٢٠- ١٢٢).

الموصلي: تاريخ الموصل ص (٣١، ٥١، ٥٢).

المغيري: الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب (١٤٢).

ويذكر البلاذري انه عند فتح المسلمين بلادهم أرادوا اللحاق بارض الروم - كبني عمومتهم بني إياد - فرفض عمر بن الخطاب السماح لهم بذلك، لكنه أسقط عنهم الجزية على أن تضاعف عليهم الصدقة التي يدفعها المسلمون، وأن لا يعمدوا أبناءهم على الديانة النصرانية، ولا يكرهونهم عليها إذا ما أرادوا اعتناق الإسلام(١).

وبعد الفتح الإسلامي ازداد الوجود العربي في الإقليم وتعزز جانبهم، حيث هاجر إليه مجموعةٌ من شتى القبائل العربية العدنانية والقحطانية، وقد حملت كثير من المدن والقرى والأماكن السكنية - في إقليم الجزيرة - أسماء هذه القبائل كقريش: (الأمويون والعباسيون والعلويون) وبنو شيبان الذين لهم صولات وجولات، وكذلك الأزد من فراهيد عمان وغيرهم، وكان لهم دور في العلم والثقافة(٢).

ومن القبائل التي حكمت في الإقليم بنو حمدان الذين أقاموا الدولة الحمدانية وامتد حكمهم إلى حلب (٢٩٣ - ٣٦٧هـ/ ٩٠٥ - ٩٧٧م). ثم العقيليون (٣٨١ - ٤٨٩هـ/ ٩٩١ - ١٠٩٥م)، وكان من أشهر زعمائهم: المقلد، وقرواش، وقريش وابنه، ولهم وقائع مشهورة في التاريخ(٣). وقد

= السويدي البغدادي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، نشر دار القلم ص (٢٠). القلقشندي: نهاية الأرب ص (١٨٦، ١٨٧).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، نشر مكتبة الهلال ط (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) بيروت ص (١٨٢، ١٨٣).

(٢) انظر: الهمداني صفة جزيرة العرب ص (٢٤٦، ٢٤٧)، الإصطخري: المسالك والممالك ص (٥٤، ٥٥)، ابن حوقل صورة الأرض ص (١٩٥- ٢٠٠، ٢٠٥)، الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (١: ٢١٧، ٢٢١)، المطبعي: رحلتي إلى شمال العراق ص (٢٦)، المغيري: المنتخب في ذكر قبائل العرب ص (٢٨، ٢٩، ٨٢، ٩٥).

(٣) القلقشندي: نهاية الأرب ص (٧٠، ٢٢١، ٢٣٠، ٣٣١). المغيري: السابق ص (١٢٧)، الديوه جي: م. السابق (١٧-٢١)، والموصلي: السابق.

بقيت المملكة بأيديهم حتى غلبهم عليها السلاطين السلاجقة فرحلوا عنها إلى موطنهم السابق الذي أتوا منه وهو البحرين[1].

ومن هذا التاريخ انكمش النفوذ العربي السياسي والعسكري في إقليم الجزيرة الفراتية ولم يبق لهم سوى النشاط الثقافي والعلمي، حيث ظهرت منهم عدة أسر علمية، كان أشهرها أسرة ابن الأثير الشيبانيون، وأبناء يونس العقيليون وغيرهم، ويذكر عمر رضا كحالة[2] أنه كان لبني تغلب دورٌ بارز في هزيمة التتار عندما دخلوا الشام في عام (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م). وهذا يدل على استمرار دورهم العسكري والسياسي في الإقليم.

الأكراد[3]:

وهي أمة استوطنت إقليم الجزيرة الفراتية منذ القدم، وهي كالعرب انقسمت إلى عدد كبير من القبائل، أهمها من حيث العدد والعدة البشنوية، والهذبانية والهكارية، والحميدية واللارية، والمهرانية والزرزارية والجوبية والجوزقانية والمروانية وهم قوم أشداء، غالبيتهم أهل بادية وفيهم خشونة وجفاء ويسكنون في خيام ويعيشون حياة التنقل والرعي وانتشروا في أنحاء مختلفة من إقليم الجزيرة، وعاشوا مع العرب في اتفاق ووئام وبعد اعتناقهم الإسلام اندمجوا في المجتمع الإسلامي وساهموا في مختلف مناحي الحياة السلمية والحربية السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية. وكانوا يسكنون في الجهات المرتفعة الشرقية والشمالية الشرقية من الإقليم.

وقطنت الحميدية منطقة العقر، والهكارية بمنطقتي العمادية ذات القلعة

---

(١) القلقشندي: نهاية الأرب ص (٣٣١، ٣٣٢).

(٢) معجم قبائل العرب (١ : ١٢٣).

(٣) الأكراد: يقيم الأكراد الآن في منطقة كردستان الممتدة في أراضي عدة دول أهمها تركيا، العراق، إيران، سوريا، وهم الذين سماهم الأشوريون (بالكرتي).
انظر معجم العالم الإسلامي، مادة: كرد.
حميدة: جغرافية الوطن العربي ص (٣٣)، مجلة العربي العدد (٤٠٤).

الشهيرة، ولهم جبال تعرف باسمهم، بينما استوطنت المهرانية جزيرة ابن عمر، وانتشرت البشنوية في بلاد الزوزان الممتدة من جبال أرمينية شمالاً حتى الموصل وإربل جنوباً، ومن أذربيجان شرقاً وحتى ديار بكر غرباً، وقد شاركهم السكنى فيها عددٌ كبير من الأرمن وقبيلة البختية الكردية.

وقد شيدت هاتان القبيلتان الكرديتان في هذه المنطقة عدداً كبيراً[1] من القلاع الحصينة، كان أهمها وأكبرها قلعة (فنك الحصينة) التي تقع بالقرب من جزيرة ابن عمر، وبينهما فرسخان، وهي التي حاصرها عماد الدين زنكي عام (٥٤١هـ/١١٤٦م)، وكان صاحبها - حينئذ - الأمير حسام الدين الكردي البشنوي وقتل زنكي دون أن تستولي جيوشه عليها، وبقيت بيد صاحبها إلى سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م).

ويذكر كل من ابن الأثير والحموي: «أنها بيدهم منذ ثلاثمائة عام، وهم أهل مروءة وعصبية ووفاء، يحمون من يلجأ إليهم، ولا يسلمونه كائنا من كان»[2].

وكان لقبيلة الأكراد الجوبية قلعة شاشان المشهورة في قرية حصن طالب

---

(١) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٤: ٤٧٤) يوليو (١٩٩٢م).
المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك (١: قسم ١ ص ٣). القسم الأول (١: ٣).
الزبيدي: تاج العروس، مادة: دكر.
ياقوت الحموي: تاريخ العراق (٢: ١٨٤)، الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٢-٢٤).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٥٤، ٥٥).
حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (١٦).
المسعودي: مروج الذهب (٢: ١٢١- ١٢٤).
الفارقي: تاريخ الفارقي ص (٤٩). خليل: عماد الدين زنكي ص (١٠١، ١٠٢).
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٩- ١١٠، ٤٣٨).
الحموي: معجم البلدان (٤: ٢٧٨).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد (٤٣١- ٤٣٢).

بديار بكر وفي سنة (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) استولى عليها قرا أرسلان بن داود الأرتقي صاحب حصن كيفا[١]. كذلك كان لقبيلة الزوزان الكردية منطقة نفوذ وقوة.[٢].

وتعتبر منطقة شهرزور الواسعة الأرجاء الواقعة في المنطقة الجبلية بين إربل وهمذان منطقة استيطانٍ كردية، ولهم فيها مدن وقرى عديدة بها أكثر من ستين ألف منزل، ويقوم هؤلاء في بعض الأحيان بقطع الطرق التجارية وبنهب المسافرين والتجار[٣].

ويذكر ياقوت الحموي[٤] أن أكثر سكان الكردية إمارة بها (٥٣٩ - ٦٣٠هـ/ ١١٤٤- ١٢٣٢م). وخلال فترة دراستنا هذه لعب الأكراد دوراً مهماً في أحداث إقليم الجزيرة الفراتية من الناحيتين السياسية والعسكرية، فهم فريقان:

أحدهما: أفراد وقبائل يقومون بأعمال السلب والنهب وقطع الطرق، ثم يفرون إلى معاقلهم المحصنة في المناطق الجبلية الوعرة إذا ما داهمهم خطر.

والفريق الآخر[٥]: أقاموا لأنفسهم إمارات مستقلة تختلف في نظمها وأحجامها، فهي إما إمارات كبيرة تناوب على حكمها أمراء بالوراثة، وإما إمارات صغيرة منفردة ينتقل الحكم فيها من حين لآخر لأمير قوي، أي من يغلب يحكم[٦].

---

(١) ابن الأثير: م. السابق (١١: ٢٨٠)، الحموي: م. السابق (٢: ٢٦٥).

(٢) ابن الأثير م. السابق (١١: ٥١٩).

(٣) القزويني: م. السابق (٣٩٧: ٣٩٨).

(٤) الحموي: م. السابق (١: ١٣٨) دائرة المعارف الإسلامية المترجمة مادة: إربل.

(٥) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٤: ٤٧٤).
خليل: عماد الدين زنكي ص(١٠٢)، وانظر ما كتبه المعلق بصحيفة الأخبار اليومية المصرية عدد (١٢٦٤٨) ١٤١٣هـ بتاريخ ٢٢/ ١١/ ١٩٩٢م.

(٦) خليل: عماد الدين زنكي. نشر الدار العلمية بيروت ص (١٠٢).

وظهرت أول إمارة للأكراد في أواخر القرن(الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) أقامها أبو شجاع الحسين دوشك المعروف بباد الكردي في أرمينية وديار بكر وبعد قتله على يد الحمدانيين خلفه ابن أخته أبو علي بن مروان الكردي، الذي استقل بها، وامتدت لتشمل رقعة كبيرة من ديار بكر، إذ شملت آمد وآرزن وميافارقين وحصن كيفا، وعرفت بالدولة المروانية، ودامت هذه الدولة قرناً من الزمان من عام (٣٨٠ - ٤٨٩هت/ ٩٩٠ - ١٠٩٥م).

وتعتبر الدولة الأيوبية التي أقامها صلاح الدين الأيوبي أهم وأكبر دولة كردية أقامها الأكراد على مر تاريخهم القديم والإسلامي[١].

ويذكر أبو شامة أنه في عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) شنق الكمال خضر بن أبي بكر بن أحمد الكردي قاضي المقيس بمصر أحد أقارب قاضي سنجار، وذلك لأنه اتفق مع جماعة من الأكراد الشهرزورية لإقامة دولة لهم، فقبض عليه، وعلق في رقبته تواقيع هؤلاء المؤيدين له وبنوداً من شعار الدولة التي كان ينوي إقامتها[٢].

ومن هذه المعلومة يتضح لنا أن محاولات الأكراد لإقامة دولة لهم بعد الدولة الأيوبية الكردية ظلت مستمرة.

التركمان:

وهم قوم من الأتراك، موطنهم الأصلي آسيا الوسطى وبالذات تركستان، وبلاد الأتراك، ثم رحلوا غرباً خلال حكم السلاجقة ونوابهم الأتابكيين من أراتقة وزنكيين إلى العراق والجزيرة الفراتية، وبلاد الشام.

---

(١) ابن خلدون (٤: ٦٧٤، ٦٧٥).
استانلي بول: طبقات سلاطين الإسلام ص (١١٦).
تاريخ الصيرفي: تاريخ دولة الإسلام ص (٢٧- ٣٠).
الموصل: تاريخ الموصل (١: ١٢٥ - ١٣٠).
جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٤/ ٤٧٤: ٤٧٥).
(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص (٢١٧).

وذلك منذ النصف الأول من القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، حيث كانوا يشكلون الغالبية العظمى من جيوشهم[١].

وفي إقليم الجزيرة الفراتية عاش التركمان جنباً إلى جنب مع الأكراد مجاورين لهم ويشاركونهم معيشتهم وموارد تلك الأرض التي سكنوها معاً.

وكطبيعة القبائل البدوية الرعوية تنقلوا بين تلك الربوع بحثاً عن المرعى حسب حالة الطقس. ففي فصل الصيف يذهبون إلى المناطق الجبلية المرتفعة فراراً من حرارة الشمس في السهول المنخفضة، وفي الشتاء تحدث الهجرات المعاكسة حيث يفرون من قسوة البرودة في المناطق الجبلية إلى السهول الزراعية حيث يشتون فيها ويبيعون أغنامهم.

وباختلاف بعض العادات والتقاليد حدث في كثير من الأحيان نوعٌ من التنافس والصراع فيما بينهم. ففي عام (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) قامت بين الطرفين (الأكراد والتركمان) حرب في المناطق الشمالية من ديار بكر تضرر منها الطرفان، وقد أثر تمركز التركمان في الجهات الجنوبية من ديار بكر من سيطرة الأيوبين الأكراد عليها، وبقيت بمساندة التركمان الأراتقة أقاربهم[٢]. وفي عام (٥٨١هـ/ ١١٨٥م) قامت الحرب بين الطرفين وشملت مناطق عدة من ديار بكر والموصل وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان ودامت هذه الحرب عدة سنين قتل فيها عدد كبير من الطرفين وقطعت الطرق ونهبت الأموال[٣].

وكذلك حدث في سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) عندما انهزم عساكر قلعة البارعية بمدينة ماردين بعد الحصار الشديد الذي فرضه عساكر الملك العادل

---

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (٧: ٥٧٩).
دائرة المعارف الإسلامية (٩: ٧٥- ٢٧٦).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٤٧٣).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٣٠).
خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٤٧٦، ٤٧٧).

(٣) ابن الأثير: م. السابق (١١: ٥١٩).
خليل: م. السابق نفس الصفحة.

الأيوبي عليها أن استغل التركمان حالة عدم الأمن والاستقرار الناجمة عن ذلك، فقاموا بقطع الطريق المار بتلك الجهات مما أدى إلى تعذر سلوكها، إلا لحامل السلاح. ولم يستتب الأمن فيها إلا بعد أن أرسل الملك العادل الأيوبي مجموعة من عساكره إلى مدينة رأس العين، لكف عدوانهم وتأمين السير في تلك الطريق(١).

وهؤلاء التركمان كانوا كالأكراد يتكونون من عدة قبائل بلغت ثلاث عشرة قبيلة بدوية متنقلة مقاتلة انضمت كقوة عسكرية محاربة في جيوش القوى الأخرى كالسلاجقة والأراتقة والزنكيين، ثم الأيوبيين(٢).

وكان للتركمان خلال فترة دراستنا وما قبلها وما بعدها عدة إمارات أهمها إمارات الأراتقة بإقليم الجزيرة الفراتية بديار بكر وبلاد الشام(٣).

وكان الأدب التركماني أدباً شعبياً غير مكتوب يتألف من الأمثال والأحاجي والقصص والأغاني، وغير ذلك. أما الأدب المكتوب الذي جاء بعد ذلك فهو إما أشعار غنائية، أو ملاحم تاريخية، أو قصائد دينية وتعليمية، أو قصص شعبية يرددها الموسيقيون المتجولون الذين يعرفون بـ«بقشي» بين التركمان(٤).

الأتراك:

لم تذكر المصادر والمراجع التي رجعنا إليها شيئاً عن الأتراك بوصفهم إحدى فئات المجتمع في إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ١٧٩).

(٢) الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٥٥).
وجدي: دائرة المعارف القرن العشرين (٢: ٦٧٠، ٦٧١).
الجميلي: دولة الأتابك في الموصل ص (٢٨٦).

(٣) انظر الدراسة التي أعدها عنها د. عماد الدين خليل بعنوان (الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام)، ودائرة المعارف الإسلامية (٩: ٢٠، ٢١)، (٩: ٥٢٦- ٥٣٦).

(٤) دائرة المعارف الإسلامية المترجمة (٩: ٢٧٩، ٢٨٠).

ولكننا من خلال دراستنا، واستقرائنا للأحداث التاريخية في هذا الإقليم: نرى أن الأتراك كانوا في الواقع يشكلون إحدى فئات هذا المجتمع؛ لأن التركمان الذين سبق الحديث عنهم، والسلاجقة الذين حكموا مشرق العالم الإسلامي في ظل الخلافة العباسية ابتداءً من النصف الأول من القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، والأراتقة والزنكيون الذين حكموا باسمهم ثم خلفوهم في هذا الإقليم هم في الحقيقة عناصر من أصول تركية. وربما كان إحجام المؤرخين عن ذكرهم كإحدى فئات المجتمع أنهم كانوا خلال تلك الفترة قليلي العدد، ثم بصفتهم الطبقة الحاكمة منهم الملوك، ونوابهم، ووزراؤهم وكبار قادة جيوشهم. لذا لم ينغمسوا في الحياة العامة، ولم يشاركوا في مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية كالتركمان الذين كانت أعدادهم أكبر بكثير منهم، فكان وجودهم واضحاً في تلك الأحداث كما سبق القول.

وبعد ذلك تأتي فئات أخرى كانت تشكل أقليات في إقليم الجزيرة، ومنهم السريانيون في مقدمتهم، حيث يقول المسعودي: «إن الكلدانيين هم السريانيون، وكانوا شعوباً وقبائل منهم النونيون[(١)]. والآشوريون[(٢)]، والأرمن والأردوان، والجرامقة، ونبط العراق، وأهل السواد، وكانت بلاد الكلدنيين العراق وديار ربيعة ومضر، الشام، وبلاد العرب اليوم...»[(٣)].

وخلال حديثنا عن فتح مدينة الرها من قبل عماد الدين زنكي رأينا أن غالبية سكانها حينئذ كانوا من السريان والأرمن. وتشير بعض المراجع إلى أن الأنباط والجرامقة كانوا من سكان الإقليم الذين بقوا على ديانتهم النصرانية[(٤)].

---

(١) النونيون: نسبة إلى مدينة (نينوى) بالقرب من الموصل الحالية.

(٢) الآشوريون: هم آشوريو مملكة آشور القديمة التي قامت في الإقليم قديماً.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف. نشر دار الهلال (١٩٨١م)، (٨٤، ٨٥).

(٤) عن الجرامقة والأنباط، انظر: الرازي، مختار الصحاح مادة: (ن ب ط)، ابن منظور: لسان العرب (باب القاف: فصل الجيم) مادة: (ج ر م ق).

طبقات المجتمع

ينقسم المجتمع في إقليم الجزيرة الفراتية - مثله مثل أي مجتمع إنساني آخر - إلى عدة طبقات. ويمكننا تصنيف المجتمع في هذا الإقليم على النحو التالي: الطبقة الحاكمة، وأهل العلم، التجار والصناع والحرفيون، والفلاحون والزراع، وعامة الناس، وأخيراً الرقيق[1].

الطبقة الحاكمة:

ويتمثل هؤلاء في الملوك الأراتقة والزنكيين والأيوبيين الذين حكموا إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا، وأفراد أسرهم، ثم نوابهم، ووزرائهم وقواد جيوشهم، وكبار أعيان دولتهم، وحاشيتهم، والمقربين إليهم، فهؤلاء قمة الهرم الاجتماعي وقد تمتعوا بالنفوذ والسلطة والثراء العريض، وشيدوا لأنفسهم القصور الفخمة التي تزينها الزخارف والنقوش الجميلة، وخير مثال لذلك دار المملكة في الموصل التي شيدها ولاة السلاجقة، ووسعها عماد الدين زنكي، وجعلها عدة أدوار، وصارت تعرف بدور المملكة[2]، وزاد من فخامتها بما أضافه إليها من زخارف ونقوش ورخام

---

(١) عن طبقات المجتمع انظر المسرى: تجارة العراق في العصر العباسي.
أحمد عبد الرازق الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى (٢٥٢).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص(٧٧).

وكتابات مختلفة، وزخرفت سقوفها بالذهب، فكانت تضاهي دور الخلفاء والسلاطين العظام، وكانت تطل على نهر دجلة، وسميت بقرى سراي، وتم تزيينها برسومات فاخرة على جدرانها بمختلف الأحجام وقد وجد في إحدى غرفها صور صغيرة تحف بأعلى جدرانها، ويتراوح عددها ما بين ثمانية إلى مائة صورة، وكل صورة منها داخل دائرة ربما أنها تمثل أزياء الجنود الزنكيين.

ولما استولى بدر الدين لؤلؤ على ملك الموصل زاد في تنسيقها وزخرفتها بالصور والكتابات الجصية البارزة، وأضاف إليها الحدائق الجميلة التي زينها بالنافورات والتماثيل حول البرك المائية، وأحضر إليها ألواناً مختلفة من الطيور الصادحة، وقس عليه ما وجد في مناطق أخرى كجزيرة ابن عمر، وتلك المناطق التي خضعت لحكم الأراتقة والأيوبيين من قصور وعمائر[1]، هذا بالإضافة إلى ما احتوته تلك القصور من الأثاث الفاخر والرياش الكثير[2].

أما ملبسهم فكان يتكون من الأقبية، والسراويل والطيالسة، والإزار والخفاف، والجوارب، والنعال، وكان لباس الرجال في الغالب العمامة السوداء والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال. وأكثرها كانت من الحرير المطرز بالذهب، بخلاف لباس العلماء والعامة.

= الديوه جي: تاريخ الموصل: (٨/ ٣٢٩).
الموصف في القرن الأتابكي (١١٧).
الموصلي: تاريخ الموصل (١/ ٢١٧).
عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى ص (٢٥٢، ٢٥٣).

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٩- ٣٣٠).
الموصل في العهد الأتابكي (١١٧، ١١٨).
وأعلام الصناع المواصلة (١٣٨).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر (٣٢٠- ٣٢٣).

(٢) عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى ص(٢٥٤).

أما ثياب المنادمة التي تلبس في مجالس الأنس والشراب فكانت مصبوغة بالألوان الزاهية: الأحمر، أو الأصفر، أو الأخضر، ويصقلونها حتى تلمع وتشرق، ويتضمخون بالخلوق الجيدة، ويتطيبون بالعطور الفواحة. ومن الأمثلة الدالة على الغنى والنبل في تلك العصور قولهم: «ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم: رجل رأيته راكباً، أو سمعته يعرب كلامه، أو شممت منه طيباً»[1].

وكان استعمال الخضاب شائعاً ومقبولاً حينئذ، وكانوا يخضبون بالحناء للحصول على اللون الأحمر، والزعفران للحصول على اللون الأصفر، ويخضبون بالسواد رجالاً كانوا أم نساءً.

وكان السواد هو الأكثر، ثم الحناء، ويندر الخضاب بالزعفران، وفي منازلهم يلبسون الملابس الخفيفة، ولهم ملابس خاصة للسفر والرحلات[2].

مأكولاتهم:

ذكر ابن الأثير[3] مائدة سيف الدين غازي الأول ابن عماد الدين زنكي صاحب الموصل أنه كان يطعم جنده وأعوانه وحاشيته في اليوم وجبتين، واحدة في الصباح الباكر حيث يمد سماطه وعليه مائة شاة، ووجبة ثانية آخر النهار وعلى سماطها ثلاثون رأساً من الغنم الجيد، إضافة إلى الخيل والبقر، وهناك أنواع مختلفة من الطعام اشترك فيها معهم الأغنياء من التجار وغيرهم.

وللترويح عن أنفسهم من أعباء العمل ومشاكل الحكم والسياسة، أقام الملوك وأصحاب السلطة مجالس لهم لا تخلو من النوادر والمداعبات، فكانوا يستقدمون إلى مجالسهم من يقصون عليهم أعمال الملوك والقواد من الفرس

---

(١) زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥/ ٦١٠).
حضارة العراق (٥/ ٨٣ - ٨٩).

(٢) زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٦١٠، ٦١١).

(٣) التاريخ الباهر ص (٩٣).

والروم، وسيرة الرسول - ﷺ - وصحابته، وبخاصة الخلفاء الراشدون - عليهم رضوان الله - وأخبار الدول، وقصص البطولة، ومشاكلها، ليأخذوا منها العظة، ولمعرفة فن السياسة والحكم، والدهاء والشجاعة.

وكان بدر الدين لؤلؤ يلجأ إلى سماع تلك القصص، ولم تخل مجالسهم من الشراب، والطرب، والرقص، التي كانت تقام عادة في الحدائق والمنتزهات، وفي أرجاء القصور حيث تدار كؤوس الخمر، ويعد الرقص من أهم مستلزمات مجالس الشراب والطرب وكانت تسمى عادة بأسماء من خفيف ورمل، وهزج، أو تسمى رقص الجمل، أو رقص الكرة ونحوها، ويقوم به - في أغلب الأحيان - السميريات[١]، وهن القيان البارعات في فنون الغناء والرقص، وكانت لهن تماثيل خشبية لخيل مسرجة تسمى الكرج، وتعلق بأطراف أقبية يلبسنها مقلدات بذلك امتطاء الخيل[٢].

كذلك شاعت في قصور الملوك لعبة الشطرنج كإحدى وسائل الترفيه التي اعتبرت من الألعاب الخاصة بالملوك والأمراء. ومن مشاهد التسلية التي وجدت في القصور لعبة خيال الظل، وكانت عبارة عن تماثيل تلبس شخوصها جلوداً وتحرك بعصا من وراء ستار أبيض مشدود فيظهر خيالها فيه. وقد شاعت هذه التمثيليات في الموصل ونقلها ابن دانيال إلى مصر[٣].

كذلك جَنَّد هؤلاء غلمانا لهم ليكونوا الجنود المخلصين لهم، المدافعين عنهم، واتخذوا لهم أعوانا بمثابة المستشارين من أهل الرأي والثقة، يرجعون إليهم في حلّ مشاكلهم، وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة[٤].

---

(١) أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى ص (٢٥٤، ٢٥٥).
الديوه جي: تاريخ الموصل (٣١٦، ٣١٧).
الموصل في العهد الأتابكي ص (٩٥).

(٢) أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٥٥).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٠٩).

(٣) الديوه جي: تاريخ الموصل (٤٤٦).

(٤) زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٥٣٩).

طبقة أهل العلم والأدب:

تشمل هذه الطبقة جميع الفئات المثقفة في المجتمع الجزري من فقهاء، وأطباء، وأدباء، وغيرهم ممن نبغوا في علوم أخرى. وكان علماء الفقه من قضاة وقراء ومحدثين، ودعاة، وخطباء ومؤرخين: يطلق عليهم اسم أهل العمائم أو المعممين؛ وذلك لما قاموا به من دور هام تمثل في بث المثل الاجتماعية العليا - الخلقية والدينية- بين أفراد المجتمع ولتصديهم للفساد والمجون[1] كما فعل الشيخ أبو الفرج الدقاق الذي حرض الناس على الهجوم على محلات بيع الخمور، وكسر آنيتها وإراقة ما فيها في عهد سيف الدين غازي الثاني ابن مودود (٥٦٥-٥٧٦هـ/ ١١٦٩-١١٨٠م)، وكذلك الشيخ عمر بن محمد بن خضر الملا الذي أشار على نور الدين محمود ببناء الجامع النوري في الموصل وقام بالإشراف على بنائه[2]. لذا كان من الطبيعي أن يتجه أفراد الطبقة الحاكمة إلى التقرب من العلماء وبالذات الفقهاء ليدعموا حكمهم في اكتساب الرأي العام، وذلك لما للدين ورجاله من قوة وتأثير على نفوس الناس، فأطلقوا عليهم ألقاب التمجيد كتاج الدين، وشمس الدين، وشيخ الإسلام، وفقيه زمانه[3].

كذلك كان للأطباء دور بالغ الأهمية فيما يقدمونه من خدمات جليلة خاصة لأفراد الطبقة الحاكمة الذين قربوهم منهم للقيام بمعالجتهم، وقد أغدقوا عليهم الأموال الكثيرة.

كذلك الأدباء، ومن بينهم الشعراء، والمغنون الذين أثروا الساحة

---

(١) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٢).
عبد الرازق: الحضارة الإسلامية ص (٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٧٠- ١٨٠)، والكامل في التاريخ (١١/ ٤٦٢، ٤٦٣).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٢٩٦، ٤٥٢).

(٣) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٢، ٢١٣).
أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٥٧).

بقصائدهم وأغانيهم التي لها تأثيرها في تقويم السلوك. وقد قربهم أفراد الطبقة الحاكمة بقصد تحسين صورتهم أمام الرأي العام، بما يقولونه فيهم من ثناء ومديح أو لتأديب أبنائهم وتعليمهم علوم اللغة والأدب والقصص، والنوادر، وأغدقوا عليهم الهدايا والهبات، والخلع الكثيرة. كذلك قرب أفراد الطبقة الحاكمة المؤرخين ليرووا لهم أخبار وسير الحكام والقواد الذين قادوا جيوشهم للنصر وبلدانهم للرفاهية والإزدهار، وقد لمسنا ذلك من خلال حديثنا عن دور علماء وأدباء إقليم الجزيرة الفراتية في الحياة العلمية والثقافية فيه(١)؛ لذا عاش أفراد هذه الطبقة في سعة من الرزق. وبحبوحة من العيش، حتى أن بعضهم عاش عيشة الطبقة المرفهة من الأمراء والأثرياء، فركبوا الخيل وملكوا الغلمان والجواري، وسكنوا القصور الفخمة؛ وذلك بما حصلوا عليه من مصادر دخل متعددة، من رواتب وما تدره أوقاف المساجد والمدارس والهبات العينية، وما عملوا به من تجارة، وغيرها ككسب إضافي يدر عليهم دخلاً أكبر، كما حظوا باحترام الطبقة العامة وتقديرهم إن كان في الأماكن العامة كالأسواق، حيث يقدمونهم على أنفسهم عند البيع والشراء، وكانوا يطلبون منهم التوسط بينهم وبين الطبقة الحاكمة حوائجهم، والعفو عنهم(٢).

وكانت بيوت العلماء من فقهاء وأدباء وشعراء ومؤرخين - على وجه الخصوص - تشهد مجالس يومية من عامة الناس ومثقفيهم وذلك للاستماع لما يدور فيها من حوارات ونقاشات وقصص وأشعار أو لاستفسار هؤلاء عما يعن لهم من أمور دينهم(٣).

---

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٧٣- ٣٧٩)، الموصل والعهد الأتابكي ص (٩٢ - ٩٥). الفخري في الآداب السلطانية. دار صادر بيروت ص (٨).

(٢) سعيد عاشور: م. السابق ص (٢١٣).
وأحمد عبد الرازق: م. السابق ص (٥٧).
جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٥٥٦).
حضارة العراق (٥: ٦٩).

(٣) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص ٢١٦، ٢١٧).

طبقة التجار وأصحاب الثروة:

وهم طبة مهمة في المجتمع لها مكانتها المرموقة فيه وتنقسم هذه الطبقة إلى فئتين: فئة التجار، وفئة أصحاب الثروة الكبيرة من غير التجار، وهم أولئك الذين ورثوا هذه الثروة أبا عن جد، وذلك بما كان يملكه أباؤهم وأجدادهم من أراض زراعية أو عقارات تدر عليهم الأموال الطائلة، إن كانوا من الطبقة الحاكمة أو غيرهم[١].

كبار التجار:

وينقسم التجار بدورهم إلى فئتين: فئة كبار التجار، وهم أولئك التجار الذين عاشوا في المدن الكبيرة كالموصل والرها وحصن كيفا وآمد، أو تلك المدن التي تعتبر مراكز تجارية لوقوعها على طريق التجارة الدولي بين بلاد الشام ومصر من جهة، وبين إقليم الجزيرة الفراتية والعراق والأجزاء الشرقية من العالم الإسلامي من جهة أخرى، كدنيسر وما شاكلها من المدن.

واختص هؤلاء التجار بالتعامل في السلع الثمينة كالجواهر والتحف المعدنية من ذهبية وفضية، وبجلب الرقيق والجواري، لذا كان ارتباطهم بالطبقة الحاكمة والأثرياء وثيقاً؛ لأنهم يمدونهم بما يحتاجون إليه من أثاث ثمين وفرش مريحة، وثياب قطنية وحريرية وصوفية غالية الثمن، وأدوات الزينة والطيب الجيد، ومن هنا كان قربهم من أفراد الطبقة الحاكمة، كما كانت لهم مكانة مسموعة في المجتمع، واعتبر بعضهم من كبار رجال الدولة بما كانوا يقومون به من دور في الحياة العامة[٢] حتى السياسية منها.

---

(١) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٣).
عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٦١).
حضارة العراق (٥: ٥٧).

(٢) المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (٤٣، ٤٥).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٣).
عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٦١- ٢٦٢).

أما منازلهم فكانت كبيرة وبها بساتين وأحواض للماء. وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم للإستقبال، وآخر للحريم، وآخر للخدم. وكانت تلك البيوت فاخرة، بل في غاية الرفاهية.

وتميزت هذه الفئة من التجار والأثرياء بثيابهم الواسعة وعمائمهم المدورة وبالطيالس الطويلة التي يضعونها فوق أكتافهم، وكانت وسيلتهم في التنقل الدواب من خيل وبغال وغيرها ذات السروج المثمنة[1].

فئة صغار التجار: وهؤلاء أقل ثراء من الفئة السابقة، وهم الباعة الذين ارتبوطوا بعامة الناس كبائعي السلع الاستهلاكية الغذائية اليومية من حبوب ودقيق أو كخبازين وقصابين وعطارين، وبزازين، ووراقين، وشوائي السمك.

وكان هؤلاء التجار أقرب في وضعهم الاجتماعي إلى طبقة العامة[2] لكنهم عاشوا في يسر ورخاء.

ويصف ابن خلدون التاجر الناجح بقوله: «فإن كان جريئاً على الخصومه، بصيراً بالحسبان، شديد المماحكة، مقداماً على الحكام، وإلا فلا بد له من جاه يدرع به.

فيوقع له الرهبة عند الباعة، ويحمل الحكام على إنصافه من غرمائه، واستخلاص ماله منهم»[3].

طبقة الصناعيين والحرفيين:

كان أهل هذه الطبقة معظمهم من أصول غير عربية، وغالباً غير إسلامية

= زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٥٦٠).

(١) عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٦٢).، حضارة العراق (٥: ٩٠).

(٢) عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٦٢).
حضارة العراق (٥: ٩٠).
زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٥٦٥).

(٣) ابن خلدون: صفات التجار في المقدمة ص (٧٠٤- ٧٠٦، ٧١١، ٧١٢).

كاليهود والنصارى كنصارى تكريت وبعض المصريين الذين قدموا إلى الموصل وما حولها من مدن هذا الإقليم، واشتهروا بفن البناء وبصناعة التحف المعدنية، وهؤلاء، استقروا في المدن؛ لأن المدن الكبيرة بحاجة ماسة إلى الصناعات والحرف المختلفة، فكان منهم صانعو الأواني الفخارية والخزفية والمعدنية والقوارير الزجاجية وكان منهم الحدادون، وصاقلو السيوف، والصفارون الذين يقومون بصناعة الأواني النحاسية وجليها، وصانعو الطباق والصواني، والصائغون صانعو الحلي، والخياطون والقطانيون الذين يندفون القطن، والنساجون، والصباغون وغيرهم كثيرون[1].

وفي كل فئة من هؤلاء متخصصون حسب درجة معرفتهم ودرايتهم بتلك الصناعة أو الحرفة، وتكون أول درجات سلم الرقي في الحرفة المبتدئ الذي يكون في مرحلة التعليم، فالصانع أو الحرفي ثم الأستاذ أو «المعلم» وهو صاحب الخبرة والحنكة في الحرفة. ويأتي في قمة الهرم رئيسهم «شيخ الصنف». وهو زعيم نقابتهم. ويتم اختياره من بينهم لكي ينظم أمورهم ويحل مشاكلهم فيما بينهم وبين الآخرين، وبينهم وبين «الحكومة»، ولا يقبلون بأي شخص من خارج حرفتهم بمشاركتهم حتى لا يطلع على أسرارها إلا إذا كان سيحل محل أحدهم ولكن بشروط، منها التقيد بنظامها والدقة والأمانة.

وينقل ابن خلدون عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) قوله: «قيمة كل امرئ ما يحسن» فبقدر ما تيقن ضعته يزداد قدره ويرتقي إلى مرتبة أعلى في حرفته.

وأخيراً فقد عاش معظم هؤلاء الصناع والحرفيين معيشة متوسطة،

(١) ابن خلدون: المقدمة ص (٧١٩- ٧٢١).
زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٥٦٥).
عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٦٣).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٤).
الديوه جي: أعلام الصناع المواصلة ص (٣١).
تاريخ الموصل ص (٤٠٣).

فليسوا بالأثرياء المترفين ولا بالفقراء المعدمين، وإن كان بعضهم قد حظي بتقريب أهل الطبقة الحاكمة الأثرياء لهم كالبنائين وصانعي التحف المعدنية[1].

طبقة الفلاحين والزراع:

يتردد في بعض المصادر المعاصرة القول بأن الفلاحة معاش المستضعفين ويختص أهلها بالمذلة.

وربما يعود هذا إلى نظام الإقطاع السائد حينئذ وهو أن تقطع منطقة أو قرية لأتابك أو أمير أو قائد عسكري فيصير أهل تلك الأرض مجرد عمال يعملون لحساب ذلك الأمير أو القائد، ثم يتولى هو بنفسه جمع الخراج، وهذا النظام هو السائد والمعمول به في إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا[2].

وليس كما ذكر «الديوه جي» أن عماد الدين زنكي منع الإقطاع وإنما منع الظلم مع عاملين في ظل النظام الإقطاعي. ومن هنا كانت حالة هؤلاء الفلاحين والمزارعين سيئة مما يتنافى مع روح الإسلام وتعاليمه التي تحث على الزراعة في تلك الأراضي الإقطاعية كانوا من أهل البلاد الأصليين أو من العبيد الأقنان، وربما جاء الاحتقار لهذه المهنة من هذه الناحية. ومع أن ابن الأثير كان يكيل المديح والثناء للبيت الزنكي في إدارة حكم الموصل[3] إلا أنه

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص (٧١٨).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٤).
أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٦٣، ٢٦٤).
المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٢٦، ١٢٧).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٣٦، ٣٧).
ديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٢٥).
أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٦٦، ٢٦٧).
خليل: عماد الدين زنكي - الناشر الدار العلمية.

(٣) أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٦٧).

من خلال روايتين له قال: إن أهل البلاد خاصة الفلاحين والمزارعين لم يكونوا راضين عن تصرفاتهم، ومثال ذلك رحيل مجموعة من الفلاحين من أهل الموصل إلى ماردين في عهد عماد الدين زنكي الذي أرسل إلى صاحبها حسام الدين تمرتاش الأرتقي طالباً منه إعادتهم إلى الموصل فرد عليه بقوله: «إننا نحسن إلى الفلاحين ونخفف عنهم ونأخذ منهم في القسمة من الغلال العشر، فلو فعلتم أنتم مثل ما فعلنا لم يفارقوكم»[1].

والمثال الثاني حدث في عهد قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي وما أمر به نائبه فخر الدين عبد المسيح بمسح أراضي قرية العقيمة بالقرب من جزيرة ابن عمر والتي يفصل بينهما نهر دجلة وكانت تابعة لجزيرة ابن عمر التي يتولى ديوانها والد ابن الأثير، وله فيها عدة بساتين، وكانت أراضيها مقسمة إلى ثلاثة أنواع:

فمنها ما تمسح ويؤخذ عن كل جريب من الأرض[2] المزروعة شيء معلوم، وبعضها عليها خراج بدون مسح، وبعضها معفى منهما. والأرض الممسوحة لا يأخذ منها أصحابها إلا قدراً ضئيلا، وطالب أصحابها أن يعفوا من ذلك المسح الجائر فرفض طلبهم في البداية ولكن بعد أن أصيب قطب الدين بمرض شديد ألغى عنهم ذلك المسح[3].

طبقة عامة الناس: وهم الفئة الواسعة من أهل المدن والسواد الأعظم منه، وهم الرعية المحكومة من قبل الطبقة الحاكمة. وقد أطلقت عليهم عدة

= زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ص (٤: ٣٢٨)، (٥: ٥٦٤).

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٧٩).
خليل: الإمارات الأرتقية ص (٤٦٠، ٤٦١).

(٢) الجريب مقداره عشر قصبات في عشر قصبات أو ستون ذراعاً طولاً في ستين ذراعاً عرضاً، فيصير المجموع ثلاثة آلاف وستمائة ذراع. والجريب أصلاً هو مكيال من الحب يبذر به مساحة من الأرض. ابن الأثير: التاريخ الباهر هامش ص (١٤٧).
الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢١٣).

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر هامش ص (١٤٧، ١٤٨).

مسميات وألصقت بهم كثير من الصفات المزرية، فقيل لهم: دهماء الناس وغوغاؤهم.

ولجهلهم وعدم معرفتهم سموا بالأغنام وبحشو الناس. وأبرز صفتين لازمتهم هما الفقر والجهل، ومنهم كان الحواؤون والرفاؤون والقائسون والمكارية وسائسو الخيل والمساكين وغيرهم من المعدمين وأشباه المعدمين من أرباب الحرف الصغيرة الذين انقطعوا عن العمل بسبب الكساد الاقتصادي أو المجاعة وهو ما يعرف اليوم بالعاطلين عن العمل. وبعضهم سلك طرق الفساد والاضطراب في المجتمع كالسرقات وقطع الطرق. وهذا ما كان يقوم به الأكراد والتركمان من الأعمال والتصرفات في المناطق الجبلية أو الأعراب في المناطق الصحراوية أو البادية[1].

طبقة الرقيق:

لما كانت غالبية مدن إقليم الجزيرة الفراتية من مدن الثغور في العالم الإسلامي لوقوعها على حدود الإمبراطورية البيزنطية، فلا غرابة أن يكون غالبية الرقيق من أسرى الحرب النصارى. ومنهم الرقيق الصقلي والرومي[2].

ومنذ وصول السلاجقة إلى الحكم في العالم الإسلامي وإقامتهم السلطنة السلجوقية كثر الرقيق التركي حتى أن الأتابكة من زنكيين وأراتقة وغيرهم كانوا أصلاً من الرقيق الأبيض التركي الذي جلبهم السلاطين السلاجقة كخدام داخل قصورهم وكجنود في خدمة ساداتهم السلاجقة، فصار منهم القادة ثم الأمراء في الولايات نيابة عن السلاطين السلاجقة وأتابكة - أي

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٢٥).
زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٥٦٥ - ٥٧١).
أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص(٢٦٥).
حضارة العراق (٥: ٧٠، ٧١).

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٢٦).
زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٥٤١- ٥٤٤).

مربين لأبنائهم - الصغار، ثم استقلوا بالحكم كما فعل الزنكيون والأراتقة ثم الأيوبيون بعدهم. وسار هؤلاء على خطى أسلافهم السلاطين السلاجقة في جلب الرقيق الأبيض السابق ذكرهم كجنود مقاتلين أو كخدم داخل قصورهم وقصور التجار الكبار والأغنياء.

ويقوم هؤلاء الرقيق - سواء كانوا رجالاً أم نساء - بخدمة أسيادهم وحاشيتهم وضيوفهم. وكان الرقيق يمثلون الغالبية من طبقة الخدم، وهم الجواري والرقيق والخصيان الذين تم جلبهم من بلاد ما وراء النهر مثل بلاد خوارزم والشاش ومن غانة وسمرقند وبخارى وخراسان، أو من البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً، وعرفوا بالصقالبة أو من أسرى الحروب الصليبية.

وعلى العموم لم تكن النظرة إلى هؤلاء الرقيق نظرة ازدراء واحتقار خاصة وأن الطبقة الحاكمة كان منها مماليك الزنكيين. ومن هؤلاء فخر الدين عبد المسيح ومجاهد الدين قايماز وبدر الدين لؤلؤ الذي قضى على البيت الزنكي وأصبح ملكاً على الأتابكية الزنكية في الموصل وأدار أعمالها، ثم ورثها لعقبه إلى أن قضى عليها التتار.

هذا بالنسبة للرجال، أما بالنسبة للجواري فكانت الجارية تشترى لجمالها، أو لعذوبة صوتها، أو لذكائها، أو لجودة شعرها وغنائها، وهؤلاء هن اللاتي لعبن دوراً هاماً في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية لا يقل عن دور الذكور، فأصبحت الواحدة منهن الأم والزوجة والأخت لذلك الحاكم الذي يدير أمور دولته، وقد تكون الخليلة هي التي تسيطر على قلبه وكيانه(١).

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٢١ - ٦٢٧) أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص (٢٦٨، ٢٦٩). الحموي: معجم البلدان (٥: ٤٦). السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص (٣٩، ٤٠). غوستاف لوبون: حضارة العرب ص (٣٧٦). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٦: ١٤٤). حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٧٧، ١٧٨). زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٤٤ - ٤٩).

وضع المرأة ونشاطها في المجتمع

كرم الإسلام المرأة ومنحها حقوقاً كثيرة كانت مهضومة من قبل، فأعاد إليها إنسانيتها وكرامتها. وأكرمها كأم وكزوجة وكإبنة. وفي القرآن الكريم والسنة الشريفة ما يدل على ذلك التكريم والإجلال.

وخلال فترة دراستنا لعبت المرأة دوراً مهماً في مختلف أنشطة الحياة: الاقتصادية، والثقافية، والسياسية والاجتماعية في إقليم الجزيرة الفراتية. ولا عجب في ذلك فهي نصف المجتمع، ففي النشاط الاقتصادي كان للمرأة دورها البارز وإن لم تذكره المصادر التاريخية، فلا شك أنها خرجت للعمل، ففي البيئة الزراعية ساعدت الرجل في هذه الحرفة، واعتنت بتربية الحيوانات والطيور، وكان لها دور في الاهتمام بمنتجاتها، وفي البيئة الرعوية مارست حرفة الرعي وغزل الصوف، كذلك عملت المرأة بالعمل اليدوي حيث اهتمت بالغزل إن كان صوفاً أو قطناً أو حريراً، وبالتطريز والحياكة إضافة إلى ما ترثه أو تحصل عليه من مهر وهدايا.

وهذه الأعمال وفرت للمرأة سيولة نقدية، فعملت في مجال التجارة فكانت تستثمر مدخراتها فتوكل إلى أحد التجار مالها لكي يتاجر لها به.

وهذه الثروة التي تجمعت في المرأة دفعتها إلى أن تساهم في عمل الخير والثواب، فاهتمت بالرعاية الاجتماعية المتعددة التي سنتطرق إليها بالتفصيل لاحقاً.

وكان للمرأة الحق المطلق في التصرف في أموالها في اقتناء الحلى والجواري لمساعدتها في الأعمال المنزلية خاصة في طبقة الحكام والموسرين[1].

ومارست المرأة الحياة الاجتماعية أيضاً وانخرطت بعض النساء في حياة التصوف، وأطلق عليهن لقب «الشيخات» حيث لازمت بعضهن الزوايا والرباطات.

وخرجت أيضاً إلى الأسواق لشراء ما تحتاج إليه وإلى المتنزهات، ولم يكن محجوراً عليها في الخروج، فكثيراً ما كنّ يخرجن إلى الحمامات المنتشرة في إقليم الجزيرة الفراتية حيث كانت هناك حمامات خاصة بالنساء، وإلى أماكن النزهة خاصة الأديرة المنتشرة هنا وهناك خارج المدن[2].

دور المرأة في النشاط الثقافي:

يأتي أول دور للمرأة في النشاط الثقافي في انخراطها في التعليم كتلميذة لتلقي العلم والمعرفة، ومن جانبنا فإننا نتفق مع ما قاله الأستاذ بشار عواد معروف رداً على ما قاله الأستاذ أحمد شلبي حول تعليم المرأة بقوله: «لم تلتحق البنت بالكتاب وهي صبية ولم تجلس في حلقة الرجال وهي شابة، وكان الغالب أن تتعلم في المنزل عن طريق أحد أقاربها أو بمؤدب يدعى لها»[3].

فيرد عليه بقوله «لأن الإسلام لم يمنع تعليم المرأة أو عدم حضورها الدروس حتى مع الرجال، بل حض على تعليمها لمعرفة دينها وصلاح حياتها[4].

---

(١) حضارة العراق (٥: ١٣٦، ١٣٧).
(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٧، ٢٢٨).
(٣) التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٣٤٠).
(٤) بحث في حضارة العراق (٨: ٢٩، ٣٠).

ومن جانبنا نقول: ربما كان ذلك الحجر على بنات الحكام والطبقة الحاكمة وذلك لاستطاعة تلك الطبقة بجلب الأستاذ إلى دار البنت، وهذا لا يتسنى عادةً لبقية طبقات المجتمع، ثم إنها في المرحلة الأولى - وهي مرحلة الكتاب - فإن البنت لا زالت طفلة فلا حرج من اختلاطها بالأطفال من ذوي سنها، ثم إنه لا بد للبنت وأن تجيد على الأقل قراءة القرآن الكريم وتتعلم كيف تؤدي صلاتها وتعلم أمور دينها ودنياها، خاصة وأن هذه الفترة كانت فترة ازدهار للحركة الثقافية من انتشار للمدارس ودور الحديث، ومن هنا كان لا بد من أن تنال المرأة قسطاً من هذه النهضة العلمية التي عمت المنطقة بأسرها[(١)] وأما بنات الطبقة الحاكمة والأثرياء والعلماء والأدباء فقد تجاوزت ذلك الحد من التعليم، فتعلمت القراءة والكتابة والموسيقى والأدب واللغة وقرضت الشعر. وهناك كثير من النساء اشتغلن بالنحو وبالفقه والحديث الشريف. وكثير منهن من تنقلت بين المدن لتلقي العلم وتدريسه. وتولت المرأة التدريس لبنات جنسها، وخاصة تلك اللاتي اتصفن بالعفة والأخلاق الحميدة وبالعلم والأدب[(٢)].

ومن المدرسات اللاتي تولين مهنة التدريس بإقليم الجزيرة الفراتية: العالمة مؤمنة بنت غنيمة بن مختار الواسطية (عاشت في القرن السادس الهجري، والثاني عشر الميلادي)، وقدمت إلى مدينة إربل، وعاشت بها ستين عاماً، قضتها في وعظ النساء وإرشادهن وكان لها قبول حسن بإربل[(٣)].

ومنهن المدرسة العالمة: أم المؤيد زينب بنت أبي القاسم عبد الرحمن ابن الحسن بن أحمد بن سهل بن أحمد بن عبدوس الجرجاني الأصل، النيسابوري الدار، الصوفي، والمعروف بالشعرى:

---

(١) بحث لواجدة مجيدة الأطرقجي في حضارة العراق (٥: ١٣٠، ١٣١).

(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٧).
آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٢: ١٤٥).
حضارة العراق (٥: ١٣٠- ١٣٤) - (٨: ٣٠ - ٣٢).

(٣) ابن المستوفي: تاريخ إربل (١: ٨٦).

ولدت بمدينة نيسابور عام (٥٢٤هـ/١١٢٩م)، وأخذت العلم عن مجموعة كبيرة من أعيان العلماء رواية وإجازة، وسمعت من أبي محمد إسماعيل بن أبي القاسم بن أبي بكر النيسابوري القارئ ومن غيره، وأجاز لها كل من الحافظ أبي الحسن بن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي، والعلامة أبو القاسم محمود بن عمير الزمخشري «صاحب الكشاف» وغيرهما من الحفاظ، ثم توجهت إلى إربل ودرست بها ولابن خلكان العالم صاحب كتاب «وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان» منها إجازة وذلك في عام (٦١٠هـ) وكان عمره حينئذ سنتين بمدرسة الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، وربما كان يحمله والده إليها للتبرك بتلك الدروس الدينية وبقراءة القرآن الكريم.

ولم يذكر سبب لقدومها مدينة إربل، هل كان ذلك للتدريس فقط، أو أنها تزوجت بها. وقد توفيت بإربل عام (٦١٥هـ/١٢١٨م)[١].

ولم ينحصر دور المرأة في النشاط الثقافي باهتمامها بالتعلم فحسب، بل تعداه إلى إنشائها المدارس وغيرها من دور العلم. فقد أنشأت تركان خاتون بنت عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن أتابك عماد الدين زنكي زوجة الملك الأشرف بن العادل الأيوبي صاحب دمشق المتوفية (٦٤٠هـ): المدرسة الأتابكية، نسبة إلى أسرتها بجبل قاسيون بدمشق[٢].

أما دور المرأة في الجانب السياسي فلا يستهان به، فمنذ العصر العباسي بدأ نفوذ المرأة وتأثيرها السياسي ينمو شيئاً فشيئاً حتى بلغ أوجه في العصر السلجوقي، حتى كان لبعض نساء هذا العصر تأثير عظيم على الخلفاء العباسيين

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٣٤٤، ٣٤٥).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٧).
أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٣٤٤).

(٢) النعيمي هو عبد القادر بن محمد الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني نشر مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٨م (١: ١٢٩ - ١٣٠).

والسلاطين السلاجقة وأتباعهم من الأتابكة والملوك حيث تدخلن في شؤون الحكم وتولية السلاطين والأتابكة مما أدى في أحيان كثيرة إلى الفتنة والصراع وقد أدى هذا بدوره إلى انقسام البيت السلجوقي وضعف نفوذ السلاطين السلاجقة وانتهاء دولتهم(١). وانتقل هذا التأثير بدوره إلى أتابكتهم ونوابهم في إقليم الجزيرة الفراتية، وقد مر بنا دور جهان خاتون بنت حسام الدين تمرتاش الأرتقي زوجة قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي في تغيير وصيته لحكم الموصل من ابنه عماد الدين الأكبر إلى ابنه الأصغر سيف الدين غازي لكون الثاني أي الأصغر - ابن المذكورة، وذلك باتفاقها مع فخر الدين عبد المسيح المتنفذ في دولة قطب الدين مودود.

الرعاية الاجتماعية

الرعاية الاجتماعية هي الاهتمام بحياة الإنسان بما يحفظ له صحته وعافيته وبما يدخل عليه الراحة والسكينة، وكان قبل - وخلال - فترة دراستنا قد أنشئت في المدن الإسلامية كثير من المؤسسات ذات الصبغة الاجتماعية البحتة(٢).

ويذكر أحد الكُتَّاب المحدثين(٣) أن الهدف من إنشاء هذه المؤسسات - بالإضافة إلى الجانب الديني - جانب سياسي، لأن بعد تقلص نفوذ الخلفاء العباسيين السياسي وسيطرة العناصر غير العربية على مقاليد الحكم في الدولة الإسلامية: أصبح هؤلاء في حاجة إلى جذب قلوب العامة لتأييد حكمهم بما يعوض نفوذ الخلفاء الديني. فكان أول ما يقوم به ذلك السلطان أو الملك أو

---

(١) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٦).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٤١، ٦٤٢).
جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٤: ٤٥٨).
حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص(١٧٩).

(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٣١).

(٣) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢٢١).

الأتابك هو أن يسعى لتقريب العلماء والفقهاء واسترضاء العامة، وذلك بإنشاء المساجد والجوامع والربط والمارستانات ونحوها، ويوقفون عليها الأوقاف، ويقدمون الرواتب والأرزاق للعلماء القائمين عليها وللفقراء المترددين إليها؛ فيكتسبون بذلك ثقة العامة ورضاء الخاصة إلى جانب الأجر والثواب الذي يرجونه من الله سبحانه وتعالى، وهذا ما فعله ملوك إقليم الجزيرة الفراتية والأمراء والأراتقة والأتابكة الزنكيون والملوك الأيوبيون.

ولما كان الإسلام دين رحمة وترابط اجتماعي، فإنه حث أفراده على الإهتمام بالمرضى والأيتام والعجزة والفقراء والمساكين[1]، ومن ثم فقد تم إنشاء المؤسسات لرعاية هؤلاء وغيرهم من فئات المجتمع المسلم، سواء كان ذلك من قبل الحكام أم الأغنياء، وكانوا يوقفون عليها الأوقاف بما يدر عليها مورداً ثابتاً يضمن استمرارها وبقاءها في أداء رسالتها دون الحاجة إلى طلب المعونة بين حين وآخر[2].

المؤسسات الصحية:

ومن أبرز المؤسسات ذات الطابع الاجتماعي في الدولة الإسلامية كانت الحمامات التي أنشئت عدة منها في مناطق مختلفة من إقليم الجزيرة الفراتية خاصة تلك الحمامات العامة التي يقيمها الأثرياء كعملية استثمارية. ويورد الديوه جي نقلاً عن سبط ابن الجوزي صاحب «مرآة الزمان»: أنه كان يوجد بمدينة الموصل وحدها مائة حمام للرجال، ومثلها للنساء، وعشرة حمامات خاصة للبنات لا يشاركهن فيها أحد[3]، وفي جزيرة ابن عمر أربعة عشر حماماً، هذا بالإضافة إلى الحمامات الملحقة بالوكالات التجارية والقيساريات والخانات (الفنادق).

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية (٢: ١٦٨).

(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٣٢).

(٣) الديوجي: تاريخ الموصل ص (٤٣٩).

دائرة المعارف الإسلامية (١١: ٤٤٦، ٤٤٧).

أما الطبقة الحاكمة والأثرياء من أهل البلاد فلهم حماماتهم الخاصة في منازلهم[1]. وهذا دليل على مدى التطور الحضاري وازدهاره في هذا الإقليم.

وكانت الحمامات تطلي بالقار الموجود بكثرة بالقرب من مدينة الموصل. ويتكون الحمام من عدة غرف.

الأولى: لخلع الملابس، وتوجد بها ثلاثة أواوين أو مصاطب، وتكون مكسوة بالرخام، ليستريح عليها المستحمون حتى يصل دورهم ويراقب صاحب الحمام أو - القيم عليه - المستحمين أثناء خلعهم ملابسهم وارتدائها بعد الإنتهاء من الإستحمام حتى لا تسرق حاجياتهم وملابسهم ويقبض الأجر منهم. كذلك يوجد بهذه الغرفة أوتاد لتعليق ملابس المستحمين.

وفي الغرفة الثانية حيث يخلع ملابسه كلها ويبقي بفوطة يلفها حول وسطه إلى ركبتيه.

ووصف الشيزري هذه الغرف بقوله: «البيت الأول مبرد مرطب، والثاني مسخن، والثالث مسخن مجفف». وتكون الثانية أدفأ من الأولى وأقل من الثالثة وهي الغرفة الرئيسية، وهي محل الاغتسال، وتكون على شكل ردهة واسعة، عليها قبة فيها نوافذ صغيرة مستديرة للنور، وبها أربعة أواوين مفروشة بالقار في نصف حائطها السفلي، بينما طلي نصفها العلوي بالجص الأبيض الناصع «النورة». ويوجد بكل إيوان حوض من الرخام فيه أنبوبان: أحدهما، للماء البارد، والآخر للماء الساخن.

وبالإضافة[2] إلى هذه الأحواض الصغيرة، هناك حوض كبير ينزل فيه

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية (٢: ١٨٤).
حضارة العراق (٥: ٩٢).

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٠٤).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الحضارة ص (٢٤٥، ٢٤٦).
حضارة العراق (٥: ٩٢، ٩٣).
السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص (١٣٧).

المستحم فيغسل جسده كله، ثم يقوم الدلاك بتدليك جسده بالماء الساخن والصابون، ثم يجفف المستحم جسده بالمناشف، ثم يقوم الحلاق بإزالة الشعر من بعض المواضع إذا رغب المستحم في ذلك، ثم ينتقل إلى الغرفة المتوسطة التدفئة للإستراحة خاصة في فصل الشتاء حتى لا يتعرض للهواء البارد فيصاب بنزلة برد، أما في فصل الصيف فينتقل مباشرة إلى الغرفة الباردة (المخلع).

وأما المياه المستخدمة في الحمام فتأتي بواسطة دولاب خاص بالحمام، يسحب الماء من بئر مجاور أو من النهر فيرفعه إلى الخزان بأعلى الحمام حيث يتم تسخينه في مرجل كبير[١].

وتزين جدران الحمام من الداخل برسوم مختلفة، تمثل مناظر طبيعية لرسوم حيوانات وطيور، ورسوم لعمليات صيد الحيوانات والطيور.

ومع أن الشريعة الإسلامية حرمت الرسوم الآدمية إلا أنه وجد في بعض الحمامات صور آدمية[٢].

ويعمل في الحمام مجموعة من الأشخاص يقومون بخدمة المترددين عليه وهم: الحمامي (صاحب الحمام)، والقيم المسؤول عن العمل فيه، والوقاد المسؤول عن إيقاد النار، والسقاء الذي يقدم الماء وغيره للعملاء، والزبال الذي يقوم بتنظيف الحمام والمزين أو - الحلاق - الذي يحلق الشعر، وأخيراً المدلك الذي يقوم بتدليك جسد المستحم.

والحرفتان الأخيرتان لا بد أن تقوم بها النساء بالنسبة لحمامات النساء

= الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، دار الثقافة - بيروت - طبعة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص (٨٦ - ٨٨).

(١) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الحضارة ص (٢٤٦، ٢٤٧).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤ : ٦٠٤).
غوستاف: حضارة العرب ص (٣٦٨).

(٢) حضارة العراق: (٥: ٩٣، ٩٤).

والبنات، واشترط فيهما أن يكون ممارسها وثيقاً خفيفاً بصيراً بهما، وأن لا يأكل في يوم نوبته للعمل ما له رائحة منفرة كالبصل والثوم وما شاكلهما حتى لا يضايق المستحمين برائحته الكريهة، وأن تكون أمواس الحلاقة[1] - بالنسبة للحلاقة - حادة ونظيفة[2].

وعلى المحتسب أن يشدد المراقبة على الحمام، فيمنع كل ما يؤدي إلى الضرر بالصحة العامة، فوضع شروطاً: منها:

* أن تفتح أبواب الحمام من الفجر إلى الغروب طيلة أيام العام.

* وأن تكون أرض الحمام غير مبلطة بحجارة ملساء حتى لا ينزلق المستحم.

* منع غسل الأواني وغيرها في الحوض الرئيسي للإستحمام، ومنع الإسكافيين من دبغ الجلود بها.

* وأن تكنس أرضية الحمام، وتنظف بالماء النقي الطاهر لإزالة بقايا الصابون وأوراق السدر والخطمى التي تستخدم في غسل الرأس.

* وأن ينظف الخزان الرئيسي الذي يمد الحمام بالماء النقي، ويغسل لإزالة الرواسب التي تجمعت في قاعه.

* أن تكون هناك حفرة عميقة لتصريف مياه الحمام المستعملة[3].

* لا يسمح بدخول المجذوم والأبرص إلى الحمام حتى لا ينتقل المرض إلى المستحمين.

---

(١) سعيد عاشور: م السابق ص (٢٤٧).
السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص (١٣٥).
الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص (٨٨).

(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٤٧).
الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص (٨٨).

(٣) الشيزري: نفس المرجع: ص (٨٧، ٨٨).
حضارة العراق (٥: ٩٤، ٩٥).

هذا ولم تقتصر مهمة الحمام وأهميته لكونه يقوم بنظافة جسد الإنسان وإنما لكونه مركزاً اجتماعياً مهماً، فدخول المريض الحمام يعني أنه قد شفي من مرضه الذي يعاني منه فخرج للراحة والإستجمام.

كذلك كان يتعين على العريس وعروسته أن يدخلا الحمام قبل حفل زفافهما، ويعتبر قدومهما إليه من الأعياد العائلية الرائعة المتبعة ويكون خروجهما منه في زفة مشهورة يحضرها أهلهما وأصدقاؤهما.

وكان الحمام من الأمكنة التي تحرص النساء على القدوم إليه حيث يجتمعن بصديقاتهن فيتناولن أخبار الحي، ويقصصن على بعض أخبارهن وحياتهن المنزلية. وكن يحرصن على ارتداء أفخر ما يمكن من الملابس والحلى الفضية والذهبية، وذلك بعد خروجهن من الحمام لتبدو في أجمل هيئة؛ لذا أكثر الشعراء في وصف المرأة والتغزل بها مما حدا ببعض الفقهاء المعاصرين إلى التنفير من الحمام خوفاً من المفاسد والعادات السيئة التي اقترنت بالحمامات[١].

وللحمام فوائد كثيرة، حيث يتم فيه إزالة الشعر من الجسم وحلاقة الرأس وتهذيب اللحى والشوارب، وقد يحتجم المستحم.

وكما مرّ بنا، فإن الإستحمام من النظافة، والنظافة من الإيمان وأنه ينشط الحركة الدموية في الجسم ويوسع المسام، ويساعد على إخراج الفضلات والرياح من الجسد ويزيل الحكة والحساسيات والإعياء والإرهاق من الجسد ويساعد على الهضم ويفتح الشهية للأكل، ويزيل نزلات البرد والزكام ويفيد في الشفاء من الحمى[٢].

---

(١) سعيد عاشور: م. السابق ص (٢٤٧، ٢٤٨).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٠٤).

(٢) حضارة العراق (٥: ٩٤).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٠٣).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارتها ص (٢٤٧).

البيمارستانات[1]:

تعتبر البيمارستانات إحدى الرعاية الاجتماعية، لأنها تمثل مراكز الرعاية الصحية الطبية التي تهتم بالمرضى ومعالجتهم، وما أنزل الله من داء إلا وله دواء. وقد حث الإسلام على المدواة وعلى التخفيف عن المرضى ورعايتهم. كما أوصى الرسول الكريم - ﷺ بتعلم مهنة الطب وإجادتها، فيروى عنه ﷺ قوله: العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان[2].

وانطلاقاً من هذه المعاني السامية أقدم أهل الخير والإحسان على إقامة البيمارستانات التي انتشرت في المدن الهامة بإقليم الجزيرة الفراتية، فكان في مدينة الموصل - حاضرة هذا الإقليم وأهم مدينة فيه - ثلاثة بيمارستانات:

أحدها: داخل المدينة، والثاني بربضها الأسفل مما بناه مجاهد الدين قايماز سنة (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)، وبناؤه جميل رائع، وزاد من روعته وجماله موقعه في وسط خميلة من الأشجار والبساتين، وإشرافه على نهر دجلة، وقد وفرت فيه وسائل العلاج والأدوية والراحة النفسية من منتزهات وغيرها مما يخفف عن[3] المريض ما يعانيه من ألم المرض، ويدخل في نفسه البهجة والسرور.

= الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص (٨٦، ٨٧).

(١) البيمارستانات: جمع مفردها البيمارستان وهي كلمة فارسية، مركبة من مقطعين: (بيمار) بمعنى مريض (ستان): مكان. أو دار وتعني باللغة العربية المستشفى (حاليا).

انظر حسنين: قاموس الفارسية، نشر دار الكتاب المصري واللبناني ط ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ص (١١٨).

أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (٢: ١٦٩).

متز: الحضارة الإسلامية (٢: ١٦٨).

(٢) سعيد عاشور: م. السابق ص (٢٣٧).

فوزي: تاريخ العراق في عصور الخلافة. مكتبة النهضة بغداد ١٩٨٨ص (٢٤٢، ٢٤٣).

(٣) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٣٩١).

أما البيمارستان الثالث فكان مخصصاً للأمراض العقلية (بما يعرف حالياً بالأمراض النفسية) أي للمجانين[1] وخصص لهم مرافق يعاملهم بالرفق واللين ويصحبهم إلى الحدائق والنزهات، ويسمعهم تلاوة القرآن الكريم[2].

وكان العلاج في هذه البيمارستانات يتم بالمجان يتم لجميع فئات المجتمع وطبقاته لا فرق في ذلك بين الطبقة الحاكمة وغيرها من عامة الناس كما لا يوجد تمييز في الأديان والمذاهب[3].

وعند دخول المريض إلى البيمارستان للعلاج، يسأله الطبيب المعالج عن مرضه، ثم يفحصه ليعرف السبب والعلامة والنبض والقارورة، ثم يكتب له وصفة تسمى (قانوناً) من الأشربة وغيرها[4]، ويعطى المريض الدواء مجاناً من صيدلية البيمارستان وعند النوم يقدم له الطعام والشراب، والأدوية، وكل ما يحتاج إليه من مستلزمات النوم، مع العناية به[5]. وكانت غالبية البيمارستانات تنقسم إلى قسمين: أحدهما للرجال، والآخر للنساء، وتوجد بها مجموعة من القاعات المتخصصة في علاج مختلف الأمراض ويعمل بها العديد من الأطباء والفصادين والجراحين، والكحالين والمجبرين.

ويشرف عليهم ساعور البيمارستان، وكان الطبيب يقوم بجولة على المرضى عند بد عمله اليومي ويفحصهم، ويكتب لهم الدواء النافع لمرضهم[6]، لذا كان لهذه الرعاية الصحية - إضافة إلى الإهتمام بالنشاط الاقتصادي والثقافي والفكري - أثر واضح في ازدياد عدد سكان هذا الإقليم،

= رحلة ابن جبير ص (١٦٨).
ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٩٣، ١٩٤).

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٣٩).
(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٤٤٠).
(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٤٢٦).
(٤) الشيزري: نهاية الرتبة وطلب الحسبة ص (٩٧).
(٥) الديوه جي: المرجع السابق ص (٤٣٩).
(٦) أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (٢: ١٧٨).

لأنه أصبح منطقة جذب سكاني فقد إليه الطامحون في حكمه من العناصر التركية من سلاجقة وتركمان وزنكيين بأسرهم، وجيوشهم - كما مر بنا - ثم تبعهم الباحثون عن الرزق من بنائين وصناع، وأصحاب الحرف مع أسرهم. وهذا الازدهار الاقتصادي جذب إليه فئات أخرى عديدة من الناس كان أهمها العلماء والشعراء وطلاب العلم، وقدم هؤلاء أيضاً بأسرهم، واستقروا بها حيث توفر لهم المناخ المناسب للفكر والإبداع، إضافة إلى ارتفاع عدد المواليد وانخفاض عدد الوفيات خاصة في فئة الأطفال، وذلك بفضل العناية الصحية بهم. ويذكر الديوه جي نقلاً عن سبط ابن الجوزي(١) أن عدد سكان مدينة الموصل وحدها كان خمسمائة ألف.

الكتاتيب:

سبق الحديث عن التعليم في المدارس، أما الكتاتيب فهي إحدى معاهد التعليم، وهي المرحلة الأولى منه، ويتم تعليم الأطفال الصغار فيها خاصة الفقراء والأيتام من أبناء العامة ذكوراً وإناثاً ويوقف على هذه الكتاتيب الأوقاف الكبيرة حتى يكون لها دخل ثابت للصرف عليها وترميمها.

وكانت هذه الكتاتيب منتشرة في مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا، وكانت تبنى مستقلة عن المساجد، لأن النبي (ﷺ) أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين، لعدم محافظتهم على النظافة وما يحدثونه من نجاسة لا تليق بحرمة المسجد وقداسته(٢).

وخير مثال على ذلك: المكتب الذي أنشأه للأيتام بالموصل. مجاهد الدين قايماز الزيني وقدم لهم فيه كل ما يحتاجون إليه(٣).

---

(١) صاحب كتاب مرآة الزمان.

(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٤٣٣، ٤٣٤).
الشيزري: التربية والتعليم في طلب الحسبة ص (١٠٣- ١٠٥).
أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ص (٥٦ - ٦١).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ٨٢، ٨٣).

الربط والخوانق:

وهي إحدى مؤسسات الرعاية الاجتماعية، وهناك الكثير من الربط والخوانق، تم إنشاؤها في إقليم الجزيرة الفراتية، أنشأها الحكام ومن في طبقتهم من المسؤولين والأثرياء من أجل الأجر والتوجه لله سبحانه تعالى. والذي يهمنا هو دورها الاجتماعي.

ويعرف الأستاذ أحمد أمين الربط بأنها دار لسكنى المتصوفة، موقوفة عليهم للإقامة والعبادة والتزهد، والطعام واللباس.

وقد انتشرت كلمة الرباط[1] في العراق وإقليم الجزيرة الفراتية، بينما انتشرت كلمة (خانقاه)[2] التي هي اللفظ الفارسي لكلمة (الرباط) العربية ببلاد فارس، وبلاد الشام والديار المصرية. إذن فالرباط كانت مجمعاً للزهاد والمتصوفة والمنقطعين لعبادة الله تعالى[3]. بينما نجد للأستاذ محمد محمد أمين تعريفاً آخر للربط غير هذا، فيذكر[4]:

(أن الخانقاة) مسجد وبيت للمتصوفة يتسع لعدد كبير قد يصل إلى أربعمائة رجل، ويشترط فيمن ينزل به أن يكون متبعاً لإحدى طرق التصوف. ويذكر السبكي[5]: أن الخوانق موقوفة أساساً على الصوفية، وربما كان هذا في مصر وبلاد الشام كما قال الأستاذ حسين أمين.

ومن جانبنا فإننا نميل إلى الأخذ بقوله، لأن الشائع في العراق وإقليم الجزيرة الفراتية ذكر الرباط والربط.

---

(١) الربط: مفردها الرباط وتجمع الرباطات.
انظر الرازي: مختار الصحاح وابن منظور: لسان العرب.

(٢) خانقاه: كلمة فارسية تعني المكان الذي يجتمع فيه الصوفية للذكر والعبادة انظر محمد حسني: قاموس الفارسية (فارس عربي).

(٣) حسين أمين: تارريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٣٩).

(٤) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص (٢١٩).

(٥) معيد النعم ومبيد النقم ص (١٢٥).

وكان الرباط مسكناً للصوفية فيه ينزل الغرباء منهم كما ينزل فيه الغرباء من أهل البلد، وربما يقصد بذلك القادمين منهم من السفر خاصة إذا كان الرباط بعيداً عن البلد، وهي كثيرة في غالبية مدن وقرى إقليم الجزيرة الفراتية، وليس هنا مجال لذكر كل واحدة منها على حدة[١].

ويحدد أستاذنا سعيد عبد الفتاح عاشور[٢] دورها في الرعاية الاجتماعية فيقول: إنها «لم تعد بيوتاً للصوفية يباشرون فيها حياتهم الخاصة فحسب، بل غدت أيضاً دورا للضيافة «شريطة أن لا تزيد مدة إقامة الضيف عن ثلاثة أيام، يقدم له أهل الرباط خلالها الطعام وغيره من مستلزمات الضيافة.

كذلك صارت بعض هذه الربط ملاجئ يلتحق بها أصحاب العاهات والعجزة من كبار السن والعميان الذين هم بحاجة لمثل هذه الرعاية والعناية الإنسانية.

أما الربط الخاصة بالنساء فكان، لها رسالة اجتماعية أعمق بكثير من مجرد أنها مكان للعبادة فحسب، بل هي مكان تأوي إليه النساء المطلقات والأرامل، ومن ليس لهن عائل، ليحفظن من الضياع ويمنعهن من الوقوع في مهاوى الشر والرذيلة.

ويتولى العمل بهذا الرباط الشيخ وهو الرئيس الأعلى به، ويعينه منشئ هذا الرباط، وهو ممن اشتهر بالتصوف والزهد ويشرف عليه ويدرب المريدين الخادم ومهمته تنظيف الرباط والسهر على راحة النزلاء[٣].

---

(١) انظر: بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، جامعة بغداد (١٩٧٣) ص (٤١٣ - ٤١٧). حسين أمين: المرجع السابق ص (٣٩٠، ٣٩١).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٣٥٥ - ٣٥٨). فضلاً عن المصادر القديمة كابن الأثير وابن خلكان عند حديثهما عن تراجم الأعيان.
الموصل في العهد الأتابكي ص (١٥٥ - ١٥٨).

(٢) بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٤٨- ٢٥١).
جورجي زيدان في تاريخ التمدن الإسلامي (٣: ٢٢٣).

(٣) بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٤١٧).

السبل والسقايات:

أقام محبو الخير أواني فخارية كبيرة لتوفير ماء الشرب النقي البارد لعابري السبيل وكذلك أقاموا أحواضاً كبيرة تملأ بماء ليشرب منها الحيوانات والطيور خاصة قرب أبواب المدن وعلى أطرافها[1]. أما في الأطراف النائية فقد تم حفر الآبار ليستفيد منها الرجال والمسافرون وأهل البادية وحيواناتهم، وأوقفوا عليها أوقافاً تدر عليها أموالاً ليستمر نفعها مدة طويلة.

المؤسسات الجنائزية:

ومن مؤسسات الرعاية الاجتماعية المؤسسات الجنائزية، وهي عبارة عن مبانٍ تشتمل على مغاسل للموتى ومصليات الأموات.

وتتكون المغاسل من مبنى كبير يضم مغسلة للموتى وينقسم إلى قسمين: أحدهما خاص بالرجال، والثاني خاص بالنساء، وملحق بهما مخازن لحفظ محتويات المغسل من الأدوات المستخدمة في تجهيز الموتى من عطور وبخور وقطن وأثواب رجالية ونسائية تستخدم في تكفين الموتى ومصلى صغير للصلاة على الأموات.

ويقيم هذه المؤسسات الموسرون ومحبو الخير، وتكون مخصصة لموتى الفقراء من المسلمين والغرباء والمنقطعين البعيدين عن أهلهم وذويهم. ويوقف على هذه المؤسسات أوقاف لتدر عليها دخلاً ثابتاً حتى تستمر في تقديم خدماتها الإنسانية هذه.

ويحمل الميت إلى هذه المغسلة فيغسله القيمون عليها ويجهزونه تجهيز الميت من كفن وغيره ثم يحمل الجثمان إلى المصلى فيصلى عليه، ثم يحمل ليوارى التراب في قبر قد أعد من قبل هذه المؤسسة[2].

---

(١) سعيد عاشور، المرجع السابق ص (٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٣٤، ٢٣٦).

الأديان والعقائد والمذاهب

أشهر الأديان التي كانت سائدة خلال فترة دراستنا في إقليم الجزيرة الفراتية هي الإسلام والنصرانية واليهودية والصابئة.

الإسلام:

يأتي الدين الإسلامي في المرتبة الأولى من حيث سيادته في هذا الإقليم ولا غرو في ذلك لأنه جزء من الدولة الإسلامية، والإسلام دينها الرسمي، والمسلمون هم الغالبية العظمى من السكان.

وأكثر المذاهب الإسلامية انتشاراً المذاهب السنية الثلاثة: الشافعي والحنبلي والحنفي. ويعتبر المذهبان الشافعي والحنبلي أكثر المذاهب انتشاراً بين أهالي الإقليم حيث يسود المذهب الشافعي في غالبية مدن وقرى الإقليم وغالبية المنتمين إليه العرب والأكراد، بينما يأتي المذهب الحنبلي في المرتبة الثانية لكنه يسود أكثر في كل من حران والرها والرقة، وخاصة تلك المناطق المحاذية لبلاد الشام وبلاد الروم - أي الشمالية والغربية من الإقليم - بين القبائل العربية[1]. وقد اتضح لنا ذلك من خلال تناولنا لأشهر العلماء وأهم مؤلفاتهم في هذا الإقليم.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ١٠٩، ٢٩٣)، (١٤: ٤٩، ١٤٦).

أما المذهب الحنفي، فيسود بين العناصر التركية وهم الطبقة الحاكمة من سلاجقة، وخلفائهم من أراتقة وزنكيين الذين كانوا على المذهب الحنفي. ويبدو أن المذهب الحنفي قد انتشر في هذا الإقليم بعد خضوعه لحكم السلاجقة، وذلك بفضل المدارس التي أنشؤوها وإن كانت غالبيتها تدرس مناصفةً فقه المذهبين الحنفي والشافعي[١]، ربما كعملية توازن بين أهل البلاد الذين كانت غالبيتهم من الشافعية والحكام الذين كانوا على المذهب الحنفي في حين وجد من كسر هذه القاعدة كعماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود صاحب سنجار ونصيبين والخابور (٥٦٦ - ٥٩٤هـ/ ١١٧٠- ١١٩٧م) وكان مشهوراً بتعصبه للمذهب الحنفي دون المذهب الشافعي حتى إنه أنشأ مدرسة بمدينة سنجار لتدريس فقه المذهب الحنفي «وشرط أن يكون النظر في وقفها إلى الحنفيين من أولاده دون الشافعية[٢]، بل أيضاً المدرس والبواب والفراش[٣].

ويذكر أحد المؤرخين المحدثين[٤] أن المؤرخين السابقين أغفلوا مسألة تغيير المذهب ولم يذكروا أسباب ذلك، ولكن بالرجوع إلى كتب التراجم سنجد إشارات كثيرة إلى أولئك الذين غيروا مذاهبهم، وهو بنفسه يورد أمثلةً

---

(١) عن الموضوع انظر ما سبق دراسته عن علم الفقه وأشهر علمائه، وعن إنشاء المدارس في إقليم الجزيرة الفراتية. وانظر أيضاً: الديوه جي: تاريخ الموصل (٣٩٠، ٣٩١).
الموصل في العهد الأتابكي ص (٧٦، ٧٧).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٢٨٦- ٢٨٧).
حسين أمين: تارريخ العراق في العصر السلجوقي ص(١٦).
بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٤٣٣، ٤٣٤).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (١٩١).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢: ٣٣١)، تاريخ ابن الفرات (٢: ١٤١).
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ١٦).

(٤) بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخيرة ص (٤٣٥ - ٤٣٧).

لذلك، والسبب الذي أدى بهم إلى تغييرهم لمذاهبهم. ومن هؤلاء علي بن سعيد بن الحسن الفقيه الشافعي البغدادي المعروف «بالبيع الفاسد» وذلك لتعلمه موضوع البيع الفاسد وكثرة سؤاله عنه واعتراضه عليه، وكان حنبلياً ثم صار شافعياً وفي آخر عمره تشيع وانتحل مذهب الإمامية. وكذلك الوجيه أبو بكر المبارك بن المبارك الواسطي النحوي، كان حنبلياً، ثم صار حنفياً وأخيراً استقر على المذهب الشافعي، وأنشد فيه الشاعر أبو البركات المؤيد محمد بن أحمد أبياتاً واصفاً إيها فيها[١].

وقد شمل هذا التغيير المذهبي الحكام أيضاً إذ انتقل صاحب الموصل أبو الحارث نور الدين أرسلان شاه الأول بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود (٥٨٩ - ٦٠٧هـ/١١٩٣-١٢١٠م) من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي فكان الوحيد من البيت الزنكي شافعي المذهب، وأنشأ مدرسة كبيرة بالموصل لا توجد مدرسة تماثلها في الحسن، وأوقفها على ستين فقيهاً شافعياً. وكان ذلك التحول يعود لتأثير الفقيه الشافعي عماد الدين محمد بن يونس بن منعة عليه حيث صنف له كتاباً في العقيدة[٢]. وكان السبب فيما يبدو لتغيير هؤلاء الفقهاء لمذاهبهم يعود إلى طموح بعضهم لأن ينالوا مراكز هامة لا تمكنهم مذاهبهم السابقة من نيلها، فقد وضع واقفو بعض المدارس شروطاً للتدريس بها، فالمدرسة التي أوقفت مثلاً للشافعية لا بد لمن يعمل أو يدرس بها أن يكون شافعي المذهب، وكذلك بالنسبة لمدارس المذاهب الأخرى،

---

(١) قوله:

ومن مبلغٌ عني الوجيه رسالة ... وإن كان لا تجدي لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تديناً ... ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قريب أنت لا شك صاير ... إلى مالك فافطن لما أنت قابل

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٢٠١).
ابن خلكان: وفيات الأعيان (١: ١٩٣)، (٤: ٢٥٤).
اليافعي: مرآة الجنان (٤: ١٣: ١٤). ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ٦١).

وربما كان لشغل مناصب القضاء وللمناظرات والنقاشات المذهبية أيضاً دور في ذلك التحول المذهبي[١].

المذهب الشيعي:

ويطلق عليه في العراق وإقليم الجزيرة الفراتية المذهب الجعفري أو الإمامي أو الاثنا عشري. وليس لدينا معلومات كافية ودقيقة عن وضع المذهب الشيعي بإقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا. والذي تذكره المصادر التاريخية خلال تلك الفترة هو ازدياد أتباع الدعوة الإسماعيلية الباطنية بمدينة آمد بديار بكر مما حدا بأهل المدينة أن يقوموا ضدهم في عام (٥٨١هـ/ ١١٢٤م) فقتلوا منهم قرابة سبعمائة رجل، ومنذ ذلك اليوم ضعف أمرهم[٢].

ومن جانبنا فإننا لا نأخذ بما قال به بعض المؤرخين[٣] بأن بدر الدين لؤلؤ الذي تولى حكم الموصل بعد أن قضى على البيت الزنكي فيها عام (٦٣١هـ/١٢٣٣م) هو الذي قام بنشر المذهب الشيعي، وذلك بتحويله المدارس التي أقامها الزنكيون بالموصل إلى مشاهد لآل البيت واتخذها مراكز للدعوة للمذهب الشيعي. وكان يتردد لزيارتها ويحضر المجالس التي تعقد فيها. ونقول: إنه ربما فعل ذلك ليس لكونه شيعياً ولا لنشر المذهب الشيعي وإنما كرد فعل منه لحركة الشيخ حسن شيخ الطريقة العدوية الداعية إلى تأسيس دولة أموية في المنطقة، والدليل على ذلك أن الذين أوكل إليهم قراءة

---

(١) بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٤٣٨، ٤٣٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠: ٦٢٥).
ابن الجوزي: المنتظم (١٧: ٢٢٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٢: ١٩٤).

(٣) ابن كثير: المرجع السابق (١٣: ٢١٤)، ابن خياط الموصلي: ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء مقدمة سعيد الديوه جي. الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢٨٧).
الديوه جي: تاريخ الموصل (١٤- ٣١٦)، والموصل في العهد الأتابكي ص (٧٦، ٧٧).

سيرة الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كانوا من أهل السنة كمحمد بن يوسف بن محمد القرشي الكنجي (ت٦٥٨هـ) الذي كلفه بجمع كتاب في مناقب الإمام علي، والشيخ عز الدين عبد الرازق بن رزق الله بن أبي بكر الرسعني (ت٦٦١هـ) بجمع كتاب عن مقتل الحسين وأمر بنشر هذين الكتابين على الناس.

ثم إن هذه المراجع لم تذكر مدى استجارة أهل البلاد لدعوته هذه. والذي نراه أن المذهب الشيعي أقدم وجوداً في الإقليم منه، فقد أشار المقدسي[١] المتوفى في النصف الأخير من القرن الرابع الهجري إلى وجوده. كما ذكر أحد الباحثين المحدثين[٢] أن الحمدانيين وخلفاءهم العقيليين كانوا من الشيعة. ومن هنا لا بد أن يكون لهم تأثير وأتباع ولو بأعداد قليلة.

ومع ما ساد من فتنة وصراع بين أتباع المذاهب في تلك الفترة في مناطق عدة - ومن ضمنها العراق وبلاد الشام المجاوران لإقليم الجزيرة الفراتية[٣]- فإن هذا الإقليم إذا لم توجد فيه مثل تلك الصراعات، أو على الأقل بنفس الدرجة من العنف الذي ظهر في المناطق الأخرى بصورة جلية. وقد عبر عن هذا المقدسي بقوله: «ولم تقسم الأهواء قلوبهم، ولا يتعاطى الكلام فقهاؤهم»[٤].

وقبل أن نختتم دراستنا عن المذاهب الإسلامية لا بد أن ننوه بذكر الطرق الصوفية لكونها طرقاً إسلامية موجودة في غالبية المذاهب الإسلامية.

الطرق الصوفية:

لم تكن ظاهرة التصوف والزهد جديدة في العالم الإسلامي، فقد

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٦).
(٢) غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٤٣).
(٣) بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص (٤٣٩ - ٤٤٣).
(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص (١٢٦).

وجدت قبل فترة دراستنا بقرون عدة، لكن الجديد فيها أنها كانت أكثر شيوعاً وأكثر تنظيماً من ذي قبل بين فئات المجتمع المختلفة في المركز السياسي والاجتماعي والفكري ويعود هذا الإختلاف إلى كثرة الوعاظ الصوفية خاصة أقطاب الطرق الصوفية كالعدوية والقادرية والبدوية والسهروردية والرفاعية.

وفي إقليم الجزيرة الفراتية وخلال فترة دراستنا عمل الملوك الأتابكة الزنكيون والأراتقة ومن بعدهم الأيوبيون بما سار عليه أسلافهم السلاطين السلاجقة من تقريب المتصوفين، الذين كانوا يظهرون الزهد في الدنيا وحطامها الزائل، ويبتعدون عن مصاحبة الملوك والأمراء وأصحاب الجاه والسلطان، ولا يتدخلون في النزاع بين الفرق المختلفة ويحرصون على اتباع سياسة السلام مع الجميع، وكرسوا أنفسهم لإرشاد الضال وتعليم الجاهل[1] ونصح الظالم من الحكام، والأخذ بيد العادل منهم. وجمعوا الشباب في ربطهم إلى العلم والعمل النافع، وإلى الجهاد في سبيل الله خاصة وأن عصرهم كان عصر كفاح وجهاد لإزالة الخطر الصليبي الجاثم على الأرض الإسلامية في غالبية بلاد الشام وبعض أجزاء إقليم الجزيرة الفراتية، فكان لهم تأثيرهم في تحرير تلك الأراضي، ابتداءً بعماد الدين زنكي، ومروراً بنور الدين محمود، وانتهاءً بصلاح الدين الأيوبي الذي تم على يديه تحرير بيت المقدس[2]. وأنهى ذلك الدور ملوك المماليك الذين تم على أيديهم تحرير بلاد الشام برمتها من قبضة الصليبيين.

---

(١) بدري محمد: المرجع السابق ص (٣٨٩ - ٣٩٥)، حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص (٢٨٠، ٢٨١)، حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي (١٧٣ - ١٧٤) - غوستاف لوبون: حضارة العرب (٤٢٣ - ٤٢٥). الديوه جي: تاريخ الموصل (٤٥٢)، خليل: الإمارات الأرتقية في جزيرة الشام ص (٤٩٢، ٤٩٣).

السبكي: معيد النعم ومبيد النقم (١١٩ - ١٢١)، ابن الأثير: التاريخ الباهر (٩٣)، (١٢٧ - ١٣٠). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥: ٣٦٥).

(٢) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٥٢)، الموصل في العهد الأتابكي ص (٧٩).

وكان لكل طريقة من الطرق الصوفية شيخ يرجعون إليه ويأخذون عنه، ومن هؤلاء الشيوخ بإقليم الجزيرة الفراتية: الشيخ حسن بن السيد عبد الرحمن: قدم من بلاد الشام واستقر بمدينة ماردين والتف حوله أهلها خاصة أعيانها ووجهاؤها واعتقدوا فيه الخير والصلاح خاصة أميرها حيث عالج ابنته فزوجها بابنه وأقطعه إحدى الإقطاعات وتوارثها أولاده وأحفاده.

* الشيخ سلمان العلوي الإسعردي (ت٥٤٦هـ/١١٥١م): قدم إلى ميافارقين في عهد أميرها حسام الدين تمرتاشي في سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) حيث استقبله هو وحاشيته استقبالاً حافلاً وبلغ درجة عالية في العلم فقربه تمرتاشي إليه وأسكنه في قصره، وتحكم في دولته أيما تحكم خاصة على أمرائها الذين دسوا له من قتله للتخلص من تسلطه عليهم. والشيخ محمد بن السماع: وكان رجلاً من الأولياء له كرامات عديدة، وكان أعيان مدينة حصن كيفا يقربونه حتى إن أحدهم بنى له زاوية في بستان ووهبه له(١).

* الشيخ عدي بن مسافر بن إسماعيل الأموي الهكاري (ت٥٥٧هـ/ ١١٦١م): هاجر من مدينة بعلبك الشامية، وينسب إلى مروان بن الحكم واستقر بجبل لاش من أعمال الموصل، وهو شيخ الطريقة العدوية(٢) التي

---

(١) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٩٣، ٤٩٤).

(٢) عن الطريقة العدوية وشيوخها انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١١: ٢٨٩).
ابن المتوفي: تاريخ إربل (١: ١١٦- ١١٩)، ابن خلكان: وفيات الأعيان: (٣: ٢٥٤ - ٢٥٥)، الذهبي: العبر في خبر من غبر (٣: ٢٨)، (٥٠- ٢٥١).
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٥: ٣٦١).
الكتبي: فوات الوفيات (١: ٣٤ - ٣٣٥).
ابن الفوطي: الحوادث الجامعة (١٣٣).
ابن خياط الموصلي: ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء (٩١ - ٩٦).
الموصلي: تاريخ الموصل (١:٣٠٠) نقلاً عن قلائد الجواهر للشيخ محمد الحنبلي.
الديوه جي: تاريخ الموصل (٤٥٣)، والموصل في العهد الأتابكي•ص (٧٩).

نسبت إليه فيما بعد، قال عنه الذهبي: «ولأصحابه في عقيدة تتجاوز الحد[1]» وذلك لما له من أحوال وكرامات.

أوقف نفسه للإرشاد والوعظ والتعليم؛ لذا عكف عليه أكراد الجبل حيث كان له الفضل في هدايتهم وتوجيههم حتى عرف بإمام الأكراد. وبعد وفاته خلفه ابن أخيه الشيخ أبو البركات صخر بن مسافر الأموي الذي صحب عمه واستفاد منه، وبعد وفاته خلفه ابنه أبو المفاخر عدي وسار على نهج أبيه وعمه، ثم خلفه ولده الشيخ حسن شمس الدين الملقب بتاج العارفين (ت٦٤٤هـ/١٢٤٦م) الذي استغل الطريقة العدوية لنيل الملك ودعا إلى قيام دولة أموية وأيده الأكراد في إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام - وكانوا يغالون فيه إلى الغاية - فتصدى له ولأتباعه لؤلؤ صاحب الموصل فهزمهم ونكل بهم، وقتلهم شر قتلة وأمر بتقطيع أعضاء الشيخ حسن وتعليقها على أبواب الموصل وبنبش قبر الشيخ عدي وبحرق عظامه، وذلك ليقضي على تلك الحركة.

وللشيخ حسن تصانيف في التصوف والشعر والدوبيت وفي الخمريات والغزل لا تنم عن مكانته الدينية التي وصف بها.

* المولى الشيخ معين الدولة عمر بن محمد بن خضر الملا: كان عالماً

---

(١) ينتسب إليه طائفة اليزيدية في العصر الحديث يسجدون للشمس عند شروقها ويقدسون الشيطان الذي يمثلونه بالطاووس الأزرق ويتخذون من قبر الشيخ عدي محجا يفدون إليه من الأطراف والنواحي التي يقطنونها ويصرفون على ذلك الأموال الكثيرة.

عن الموضوع انظر:

ابن خياط الموصلي: ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء ص (٩٤).

الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٩٥- ٣٠٢).

غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر (٢٣٩ - ٢٤٣)، كيلاني محمد سيد: ذيل الملل والنحل للشهرستاني نشر دار صعب بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م (٢: ٣٣ - ٤٠).

المعجم الإسلامي المترجم ص (٧١٠ - ٧١١).

عاملاً زاهداً جليل القدر يأكل من كسب يده، وهو الذي أشار على نور الدين محمود بن زنكي بعمارة الجامع النوري بالموصل ففعل. وكان يصغي لوعظه ونصائحه ويستشيره في أمور مهمة، وكذلك كان ملوك الأتابكة الزنكيون يصغون لآرائه. ومن جانبهم كان أهل الموصل يجلونه ويقدرونه، وله رسالة في سيرة الرسول (ﷺ).

وبلغ من علو مكانته أن تقدم أعيان الموصل إلى عاملها كمشتكين وطلبوا منه أن يكتب إلى نور الدين محمود بالسماح له بالضرب على يد قطاع الطرق والمفسدين فقال لهم: كلموا الشيخ عمر في ذلك، فكتب إلى نور الدين بذلك، فرد عليه نور الدين بقوله: «فما لي حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى لعباده» فجمع الشيخ عمر أهل الموصل وقرأ عليهم رد نور الدين محمود.

توفي في الموصل ولم يذكر تاريخ وفاته[١].

شيوخ الطريقة الرفاعية في الإقليم:

* الشيخ عبد الملك بن حماد الكناني الموصلي (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م):

من أمراء الجبل، وتولى مناصب في الدولة الزنكية وفي عام (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) حج إلى بيت الله الحرام، وهناك التقى بالشيخ أحمد الرفاعي شيخ شيوخ الطريقة الرفاعية[٢] فلازمه مدة أربعة أعوام وأخذ عنه الطريقة الرفاعية ثم عاد إلى الموصل سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٣م) وقام بالوعظ والإرشاد في بلاده.

* الشيخ محمد بن علي الطائي الموصلي الرفاعي الغزالي المعروف بالغزلاني (ت٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م):

اتصل بالشيخ أحمد الرفاعي السابق ذكره ولازمه وأخذ عنه فأجازه، وأمره بالعودة إلى الموصل وسكن في مغارة تقع في سفح تل عرف باسمه - تل

(١) ابن خياط الموصلي: ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء (١٠٩ - ١١٠).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٥٣).
(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر (٣: ٧٥).

الغزلاني - وبعد وفاته دفن بزاويته، وخلفه ابنه الشيخ أحمد، وكان عالماً فقيهاً أخذ الطريقة الرفاعية عن الشيخ عبد الملك الكناني الرفاعي وسلك طريقة في العلم والإرشاد توفي (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)[(١)].

* الشيخ قضيب البان الموصلي (٤٧١ - ٥٧٣هـ/ ١٠٧٨ - ١١٧٧م):

هو أبو عبد الله الحسين بن عيسى بن يحيى، ينتهي نسبه إلى الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. ولد بالموصل وتوفي بها في التاريخين المذكورين أعلاه. درس اللغة والحديث والفقه ثم صحب شيوخ الطرق الصوفية مثل الشيخ حياة بن قيس الحراني الآتي ذكره والشيخ عدي بن مسافر الهكاري السابق ذكره شيخ الطريقة العدوية، وبذلك صار من شيوخ الطرق الصوفية المشهورين وكان صاحب كرامات عدة. ثم طلبه الشيخ عبد القادر الكيلاني شيخ الطريقة الكيلانية أو القادرية فصلى به نحو عشرين عاماً وبعد وفاته غسله وصلى عليه ثم عاد إلى بلاده الموصل وبنى له رباطاً بها بظاهر باب النجار، وتفرغ للوعظ والإرشاد. ذكر ابن خياط الموصلي عنه خوارق يصعب على العقل أن يصدقها[(٢)].

* الشيخ حياة بن قيس الحراني (ت٥٨١هـ/ ١١٨٥م):

الزاهد القدوة شيخ أهل حران ومصلحهم المشهور وصاحب زاوية وله أتباع، وممن أخذ عنه الشيخ قضيب البان الموصلي السابق ذكره. ولمكانته وتقديره من قبل السلاطين والملوك والأعيان فقد زاره في زاويته السلطانان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي[(٣)].

* الشيخ يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني المخاريقي القني[(٤)] (ت٦١٩هـ/ ١٢٢٢م):

---

(١) الدبوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٥٣ - ٤٥٤).

(٢) ابن خياط الموصلي: ترجمة الأوليه في الموصل الحدباء ص (٧٠ - ٧٩).

(٣) الذهبي: العبر في خبر من غبر (٣: ٨١).

(٤) القني: نسبة إلى قرية القنية من نواحي ماردين بديار بكر.

كان صاحب كرامات عديدة وهو شيخ الطريقة الصوفية اليونسية نعتهم الذهبي[1] بأنهم «من أولي الشطح وقلة العقل وكثرة الجهل».

وهناك كثير من أصحاب الطرق منتشرون في عدة مدن وقرى في الإقليم لا يمكننا حصرهم كلهم، ومنهم الشيخ الزاهد أبو بكر الشعيبي (ت٦٤١هـ) أرسل إليه غازي صاحب ميافارقين الأرتقي يستأذنه لزيارته فرفض أن يأذن له[2].

* الشيخ محمد بن أحمد الشهير بشعْله (٦٢٣- ٦٥٦هـ/ ١٢٢٦ - ١٢٥٨م):

ويعرف أيضاً بابن الموقع العابد الزاهد العارف بالله تعالى، كان إماماً ناقلاً مقرئاً محققاً له معرفة تامة باللغة العربية والشعر، نظم كتاب «الشمعة في قراءات السبعة» و(شرح الشاطبية) وله مؤلفات أخرى في النحو وغيره، ومع أنه مات شاباً إلا أنه جمع علماً كثيراً وأتقن وصنف ووصف بالذكاء المفرط والحفظ الزائد والعقل المتوقد، ولذا لقب بشعلة، وتوفي بالموصل قبل وفاة صاحبها بدر الدين لؤلؤ بعام واحد وقبره معروف بها يزار[3].

كان عالماً زاهداً تقياً لم تعجبه سيرة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأنكر عليه ظلمه لرعيته وقتله لأولاد سيده نور الدين أرسلان شاه.

اشتهر بتفسيره للقرآن الكريم التفسير الواضح السهل من غير تطويل ممل، ولا إيجاز مخل، توفي بالموصل وكان قبره معلوماً بها يزار[4].

وكان هناك من الملوك من تصوف ولبس خرقة التصوف مثل الملك عز

---

(١) الذهبي: المرجع السابق (٣: ٨١).

(٢) عن الموضوع انظر: تاريخ إربل لابن المستوفي (١: ٥٢ - ٥٤، ٧٢، ٧٣، ٢١٤، ٢٢٣، ٢٥٣).

(٣) ابن خياط الموصلي: ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء ص (١١٥).

(٤) ابن خياط: المرجع السابق.
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٥٢ - ٤٥٤).

الدين مسعود بن قطب الدين مودود (٥٧٦ - ٥٨٩هـ/ ١١٨٠ - ١١٩٣م) الذي ألبسه إياها الشيخ عمر النسائي السهزوردي بمكة المكرمة وكان مجاوراً فيها لبيتها العتيق[١].

وإذا كان هناك من تصوف من الحكام كان هناك أيضاً منهم من تفلسف مثل ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحل حصن كيفا وآمد (ت٦١٩هـ)، حيث انساق وراء بعض المذاهب الفلسفية الكلامية المتطرفة التي تدعي أن الأجساد لا تحشر[٢].

الديانة النصرانية:

الديانة النصرانية قديمة في إقليم الجزيرة الفراتية قبل الفتح الإسلامي لهذا الإقليم بقرون عديدة، فكانوا يشكلون غالبية السكان. وبعد الفتح الإسلامي وفي تواريخ متعاقبة اعتنق غالبية القبائل العربية والكردية الدين الإسلامي في حين بقيت العناصر الأخرى على ديانتها النصرانية. وإن تفاوتت نسبة وجودها بين مدينة وأخرى. وهذا واضح من بقايا أماكن العبادة النصرانية من الأديرة والكنائس والصوامع المنتشرة هنا وهناك بإقليم الجزيرة الفراتية بتكريت والموصل وأعمالها كإربل وجزيرة ابن عمر وسنجار ونصيبين وغيرها من الأجزاء الجنوبية من الإقليم أو ما تعرف بديار ربيعة.

أما في ديار بكر فقد انتشر النصارى في ماردين والرها وحران وسروج وطور عبدين ومدينة ميافارقين التي سبق الحديث عنها، وعرفت قديماً عند النصارى بأنها مدينة الشهداء وكان قد بلغ عدد سكان مدينة أرزن من الأرمن اثني عشر ألفاً نصرانيًّا[٣].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر (١٨٨)، والديوه جي: م. السابق (٤٥٢).

(٢) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٤٩٢).
ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٢: ٤١٢).
أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢: ٢٢٧).

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير (١٧٢)، الحموي: معجم البلدان (٢: ٤٩٥-٥٠٨، ٥: ٢٣٧). =

أما مدينة الرها فكانت تضم أكبر تجمع للنصارى وخاصةً من الأرمن والسريان ويذكر الأصطخرى[1] أن بها قديماً أكثر من ثلاثمائة دير، وصوامع كثيرة تضم أعداداً كبيرة من الرهبان، وبها كنيسة تعتبر أكبر كنيسة بديار المسلمين ربما بعد كنيسة القيامة بالقدس بأرض فلسطين. ويقدر عدد سكانها قبل فتحها من قبل عماد الدين زنكي ثم ابن نور الدين محمود بحوالي سبعة وأربعين ألف نسمة، فضلاً عن كونها الإمارة الصليبية الوحيدة في هذا الإقليم[2] قبل أن يستردها عماد الدين زنكي سنة (١١٤٤هـ).

وكما انقسم المسلمون إلى مذاهب انقسم أيضاً النصارى إلى مذاهب فكان غالبية نصارى الإقليم من اليعاقبة من أرمن وسريان ويعرفون أيضاً بالنساطرة وهؤلاء يستخدمون اللغة السريانية في طقوسهم الدينية أي صلواتهم[3].

وبعد الغزو الصليبي للإقليم انضاف إليهم النصارى الغربيون الكاثوليك الذين عرفوا بالفرنجة أو الفرنج[4].

= المقدسي: أحسن التقاسيم (١٢٥)، أبو الفداء: تقويم البلدان (٧٦ - ٢٧٧).
دائرة المعارف الإسلامية ص (١: ٥٧٤).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل (٢٨٧- ٢٨٩)، الديوه جي: تاريخ الموصل (٢٦٣ - ٣٦٤)، خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٧٨ - ٤٨١).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر (٢٣٧ - ٢٣٨).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٧٠ - ٣٧٢، ٥٦٥).
رحلات ماركو بولو، ترجمة جاويد الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧ ص (٣٦ - ٣٧).
المطبعي: رحلتي إلى شمال العراق ص (٦٣).

(١) المسالك والممالك (٥٤)، ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ص (٢٠٤ - ٢٠٦).
(٢) الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (٣٣١).
(٣) غندور: م. السابق (٢٣٤ - ٢٣٥).
خليل: م. السابق ص (٤٧٨).
معجم العالم الإسلامي (٤١٢ - ٤١٥).
(٤) الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (٣٣١، ٣٣٢).

لم تشر المصادر التاريخية الإسلامية المعاصرة عن الكيفية التي عاشها النصرانيون في إقليم الجزيرة الفراتية ونوع المعاملة التي كانوا يعاملون بها من قبل الحكام المسلمين من أراتقة وزنكيين وأيوبيين خلال فترة دراستنا في الأيام العادية، ما عدا ما ذكر خلال فتح مدينة الرها من قبل عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود، وهذه حالة استثنائية أوجبتها ظروف الحرب حيث دخل نور الدين المدينة بجيشه فنهبها وسبى أهلها وأجلى من كان بها من الفرنج، وكان هذا رد فعل على خيانة أهلها، وكانت غالبيتهم من الأرمن حيث راسلوا ملكها الصليبي السابق جوسلين الثاني وسلموه المدينة رافضين بذلك المعاملة الطيبة التي عاملهم بها عماد الدين عندما فتحها لأول مرة، فأمر بالمحافظة على مدينتهم بدون تخريب(١). ويذكر أحد الباحثين في تاريخ الإقليم أن الأمراء الأراتقة عاملوا رعاياهم النصارى معاملة طيبة، فحظي بعض أعيانهم بمعاملة خاصة فكانت بين الحسن بن خالد بن محضر النصراني المارديني الملقب بالوحيد وبين قطب الدين إيلغازي الثاني بن نجم الدين ألبي الأرتقي صاحب ماردين (٥٧٢ - ٥٨٠هـ/ ١١٧٦-١١٨٤م): علاقة وصداقة منذ عهد الطفولة، وعندما تولى الحكم قربه إليه وصارت له منزلة رفيعة عنده، كذلك ولى صاحب رأس عين الأرتقي الوزارة رجلاً نصرانياً من آل عبدون. ومن كثرة تسامحهم معهم فوضوا إليهم أمور بعض القرى النصرانية الواقعة بإماراتهم لذا حافظوا على نشاطهم الديني طيلة حكم الأراتقة، وعند استيلاء التتار على الإقليم قربوا النصارى إليهم وعينوهم في مناصب حساسة، فصار مسعود برقوطي الإربلي حاكماً على الموصل(٢). وعلى العموم مارس النصارى في إقليم الجزيرة الفراتية في الأحوال العادية حقوقهم الإنسانية كاملة كفئة من فئات المجتمع وحسب القواعد التي وضعها الإسلام لأهل الذمة، فمارسوا

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٨٦، ٨٧).
الجنزوري: م. السابق ص (٣٥١، ٣٥٣).

(٢) خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٨٢ - ٤٨٤).
القس سليمان صائغ: تاريخ الموصل (١: ٢٤٠- ٢٤١).

طقوسهم الدينية وحياتهم الاجتماعية ونشاطهم الثقافي والاقتصادي بدون قيود تقيد حريتهم في ذلك وصار من حق رئيسهم الجاثليق النسطوري أن يحكم بين النصارى الشرقيين فيما يحدث بينهم من قضايا ومشاكل(١).

ويذكر الديوه جي أن عدد النصارى في مدينة الموصل وحدها بلغ ثلاثة وأربعين ألفاً وخمسمائة نسمة.

الديانة اليهودية:

إذا كانت المصادر التاريخية الإسلامية المعاصرة التي تناولت تاريخ الإقليم لم تتوسع في الحديث عن الديانة النصرانية وأتباعها، وهي التي تأتي في المرتبة الثانية بعد الدين الإسلامي انتشاراً وقبله وجوداً في الإقليم، فحرِيٌّ أن يكون موقفها كذلك بالنسبة للديانة اليهودية وأتباعها خاصة وأن وجودهم في الإقليم ليس قديماً، ومن الناحية العددية كانوا أقل فئات المجتمع تعداداً، وجل المعلومات التي وردت عنهم كانت من قبل الرحالة الذين زاروا الإقليم خاصة الرحالة اليهود، وقد ذكر آدم متز(٢) أن أكثر اليهود وجوداً كان على ضفتي دجلة والفرات في المدن والقرى الواقعة بين نينوى ودجلة. وكان عدد اليهود في سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) في الموصل بين ستة إلى سبعة آلاف نسمة، وفي جزيرة ابن عمر أربعة آلاف نسمة، وفي حربى(٣) خمسة عشر ألف نسمة. بينما يورد الجميلي نقلاً عن بنيامين التطيلي الذي زار الإقليم بين عامي (٥٥٦، ٥٦٩هـ/ ١١٦٠، ١١٧٣م) نفس الأعداد.

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية (١: ٥٧ - ٥٩، ٦١، ٦٢، ٧٥).
خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص (٤٨١ - ٤٩١).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٦٦ - ٢٦٧)، ديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٤٠).

(٢) الحضارة الإسلامية (١: ٦٤).

(٣) حربى: ذكر متز أنها بأقصى شمال العراق بينما قال عنها الحموي: إنها بين بغداد وتكريت، انظر مادة: حربي.

ويبدو لنا، أن هذه الأعداد المذكورة مبالغ فيها خاصة وأنهم يشكلون أصغر نسبة للسكان بالإقليم، وذكر أنهم موجودون أيضاً في إربل والرحبة لكن لم يتحدد عددهم فيهما، وكان من رؤسائهم بالموصل عالم فلكي يدعى يوسف دخل في خدمة سيف الدين غازي الأول بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل[١]. بينما ذكر الديوه جي أن عددهم في الموصل كان ثلاث آلاف وستمائة نسمة ولكنه لم يحدد تاريخاً لذلك.

وهناك ذكر لوجود اليهود في الإقليم، فذكر ابن الأثير[٢] أن عماد الدين زنكي زار جزيرة ابن عمر ونزل بقلعتها بينما نزل عساكره في الخيام، في حين توجه الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي وكان من أكابر أمرائه ومن ذوي الرأي فيهم، فنزل بدار رجل يهودي بعد أن أخرجه منها فاستغاث ذلك اليهودي بعماد الدين الذي غضب كثيراً وأمر بإخراج خيام العسكر إلى خارج البلد ومن ضمنهم بالطبع ذلك الأمير.

وهذه القصة تعطينا دليلاً على عدم التفرقة في المعاملة والمحافظة على حقوق ملكية المواطن بغض النظر عن دينه الذي ينتمي إليه وعلى عدم عزل أهل الذمة من نصارى ويهود في أحياء خاصة بهم كما فعل في أوربا بالنسبة لليهود.

وعندما فتح نور الدين الرها للمرة الثانية سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) أجلى كثيراً من أهلها النصارى وأحل محلهم ثلاثمائة أسرة يهودية[٣].

أما عن حقوقهم المدنية فيورد ابن الفوطي[٤] أنه في عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) قد تم تعيين عالي بن زخريا اليهودي الإربلي رئيساً لليهود، وجاء ذلك

---

(١) الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢٨٨).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٤٥).
الديوه جي: م. السابق ص (٤٤٠).

(٢) التاريخ الباهر ص (٧٦، ٧٧).

(٣) الجنزوري: إمارة الرها الصليبية ص (٣٥٠).

(٤) الحوادث الجامعة ص (١٢٢)، متز: الحضارة الإسلامية (١ : ٥٧).

بمنشور كتبه قاضي القضاة، وفيه «قد وليتك الزعامة على أهل شريعتك المنسوخة التي نسختها شريعة الإسلام - أدامها الله ما دامت السموات والأرض - على أن تحكم بين المترافعين إليك منهم فتأمرهم بما أمروا به في دينهم، وتنهاهم عما نهوا عنه في دينهم» وخرج في جمع من اليهود ومعه تقليده الذي كتب له من الديوان.

وقد مارس اليهود في إقليم الجزيرة نشاطاً واسعاً في عالم الاقتصاد، وخاصة في مجال التجارة والصيرفة(١). ولا بد أنهم عملوا - إضافة إلى هاتين المهنتين - بحرف أخرى كصناعة الحليّ والدباغة والصباغة(٢) والإسكفية(٣).

وكما قرب التتار النصارى إليهم قربوا أيضاً اليهود، فقد عين أرغون التتري ببغداد «سعد اليهودي» على وزارته وجعله صاحب ديوانه ولقبه بسعد الدولة، واعتمد عليه في سائر أموره، فقام سعد الدولة وعين أحد أخويه حاكماً على بغداد، والآخر على الموصل وماردين وكافة ديار بكر(٤).

وبالإضافة إلى النشاط الاقتصادي والسياسي والحقوق المدنية التي تمتع بها اليهود في الدولة الإسلامية، ومن جملتها الجزيرة الفراتية مارس اليهود نشاطهم الثقافي، فصنفوا الكتب باللغتين العربية والعبرية في مختلف مجالات الأدب من شعر ونثر، وعلوم فلسفية، وكلامية، فضلاً عن علوم عقلية أخرى كالطب والفلك، وسبقت الإشارة إلى يوسف اليهودي الذي عاش في الموصل وخدم سيف الدين غازي الأول كما كتبوا في الديانة اليهودية(٥).

---

(١) الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢٨٩).
غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص (٢٤٥).

(٢) الموصلي: تاريخ الموصل (١ : ٢٤٤)، متز: الحضارة الإسلامية ص (٦٨ - ٧٥).

(٣) الإسكاف: مفرد، والجمع الأساكفة: وكل صانع عند العرب إسكاف، وربما يقصد بها هنا الحدادة والصفارة. انظر الرازي: مختار الصحاح.

(٤) الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢٤٣) نقلاً عن ابن العبري ربما من تاريخه السرياني، لأنها معلومة غير موجودة في النسخة العربية.

(٥) معجم العالم الإسلامي ص (٧١٢، ٧١٣).

الأخلاق والعادات والتقاليد

أهم ما اتصف به أهل إقليم الجزيرة الفراتية من خلق هو الكرم العربي الأصيل كما يشير على ذلك ابن جبير بقوله: «وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة على هذه السبيل من حب الغرباء، وإكرام الفقراء، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زاداً لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة. وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب». ويؤكد ذلك في وصفه لأهل الموصل بقوله: «وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة، يستعملون أعمال البر فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق، وكلمة لينة، ولهم كرامة للغرباء، وإقبال عليهم، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم»[1].

ومن العادات التي اعتاد عليها أهل هذا الإقليم - خاصة أهل الموصل التي عرفت بأم الربيعيين - الخروج إلى المنتزهات خاصة في فصل الربيع، لأن نهر دجلة يفيض فيه، فتغطي مياهه سهول ووديان الموصل، فتكتسي روابيها وسهولها ووديانها ببساط أخضر جميل، وبمختلف الأزهار ذات الألوان المتعددة الزاهية، والروائح العطرية الفواحة؛ لذا حرص أهلها على الخروج عصر كل يوم من أيام هذا الفصل إلى هذه المنتزهات، فينصب أفراد الطبقة الحاكمة، والأثرياء خيامهم فيها، ويقضون فيها أمسياتهم متمتعين بتلك المناظر البديعة الخلابة، بينما يقضيها الشباب في ممارسة أنواع مختلفة من

---

(١) رحلة ابن جبير ص (١٦٩، ١٧٤)، رحلة ابن بطوطة ص (١٥٨، ١٥٩).

الألعاب كالفروسية، والمصارعة، وغيرها في حلقات الغناء والرقص والتسلية كالتمثيل - وهو ما يسمى بخيال الظل -، كما يدربون صقور الصيد للإنقضاض على تماثيل تشبه بعض رجال حاشية الملك، بينما يتجه الأدباء والشعراء والمرفهون إلى أديرة الرهبان المنتشرة بين الحقول، والبساتين الجميلة؛ ليقضوا فيها أياماً في المساجلات الأدبية وشرب الخمر.

ومن عاداتهم الحسنة التي يقومون بها زيارة ضريح النبي يونس - عليه السلام - في تل توبة بنينوى في ليالي الجُمَع، والأعياد الدينية ينشدون التراتيل والموشحات الدينية في الرباط المجاور له، وقد شاركهم في ذلك ابن جبير، ثم التطهر بعين يونس المباركة القريبة منه(١).

ومن عاداتهم ممارسة وسائل التسلية كهواية لهم، وهي عديدة منها:

١- الإهتمام بتربية بعض الحيوانات والطيور من أجل التسلية، وممارسة الألعاب الرياضية عليها؛ فقد اهتم أهل الإقليم - خاصة الملوك والأمراء، والأثرياء بتربية الحيوانات، والطيور التي كانوا يربونها كالباز، والصقور، والشاهين، والعقاب، والكلاب السلوقية التي كانوا يهارشون بينها، ومناطحة

---

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص (١٦٨ - ١٦٩).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٦٢).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٣ - ٤٤٦).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٧ - ٢١٨).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٨٢، ٨٣، ٨٧، ٨٨).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (١٩٠ - ٢٩٣).
القزويني: م. السابق ص (٤٧٧).
المطبعي رحلتي إلى شمال العراق ص (١٦٤).
مجلة العربي الكويتية العدد (٤٠٦) سبتمبر ١٩٩٢. الحياة الاجتماعية بمدينة رأس العين السورية. حضارة العراق (٥: ١٠٢ - ١٠٥).
متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٢٢١ - ٢٢٢).
غوستاف: الحضارة العرب ص (٣٧١، ٣٧٢).

الكباش ومناقرة الديكة مع بعضها. كما اهتموا بتربية الحمام حيث استخدمه الملوك والأمراء في نقل البريد، والرسائل السرية الحربية السريعة، بينما استخدمه عامة الناس في السباق، حتى بلغ سعر الحمامة الفائزة عشرة دنانير[١].

ومن جملة اهتمامهم بتربية الحيوانات كان اهتمامهم البالغ بتربية الخيول العربية الأصيلة التي تباهوا بها، ويذكر ابن منقذ أن «ثمن الخيل الواحدة منها فوق ثلاثمائة دينار»، وقد برز منهم فرسان عديدون كان لهم شأن في الفروسية، وألعاب الخيل. وخصص في غالبية المدن الكبيرة والحواضر ميادين لسباقات الخيل عرفت بالحلبة، وكان الناس يحرصون على مشاهدتها، ويغرسون قصبة في آخر الحلبة فمن سبق إليها من الفرسان، واقتلعها فهو الفائز، وبذلك يكون قد حاز قصب السبق، وأجيز عليه.

واقترن بركوب الخيل الذي يعرف بالفروسية إجادة رمي السهام، ولعب الرماح والمثاقفة بالسيف، فالذي يجيد اللعب بالرماح يسمى الرماح، والذي يجيد فن المصارعة يسمى المصارع، وهكذا.

وهناك شروط عشرة لنيل الفارس لقب الفروسية هي:

التقوى، والشجاعة، ورقة الخيال، وهبة الشعر، والفصاحة، والمهارة في ركوب الخيل، والضرب بالسيف، ورمي الرمح والقوس (السهام)[٢].

كذلك كانت لعبة الصولجان أو اللعب بالكرة (وتعرف حالياً بالبولو)

---

(١) ديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٤٤)، حضارة العراق (٥: ١٠٦ - ١٠٧).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٥٦). سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٩). الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٨٦).

(٢) جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٦٩٧ - ٦٩٨).
حضارة العراق (٥: ١٠٧). حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٧٩). حسن إبراهيم: م. السابق ص (٦٥٦). مجلة المورد العراقية م ١٢: العدد ٤ سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ص (٢٣ - ٣٥). ديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٨٧).

إحدى ألعاب الفروسية وهي لعبة قديمة مارسها الخلفاء والملوك والأمراء. وممن مارسها من ملوك إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة دراستنا عماد الدين زنكي، وسار أولاده على نهجه كنور الدين محمود الذي اتقنها أيما اتقان، فكان يضرب الكرة فتعلو فتجري ويتناولها بيده من الهواء، ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان بها، بل تكون في كم قبائه(١).

وكان شديد الجري، ولعاً بلعب الكرة بالخيل، حتى كتب إليه الشيخ عمر الملاء ينكر عليه ذلك قائلاً له: «إنك تتعب الخيل في غير فائدة» فكتب إليه بخط يده: «والله ما أقصده اللعب، وإنما نحن في تعب فربما وقع الصوت، لتكون الخيل قد أدمنت الكر والفرّ»(٢).

وكان يأمر قواد جيشه بأن يلعبوا مع أفراد الجيش كل يوم بعد العصر حتى لا تركن الخيل إلى الكسل وحتى لا يهمل الجنود الفروسية.

وسار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود على حذوهما فكان يشدد على ممارسة الفروسية، ويحث القادة والأمراء على الإستمرار على ممارستها، حتى الأمراء الطاعنين منهم في السن لا يعفيهم من تلك التمارين(٣).

واللعب بالكرة بقصد تمرين الخيل وتدريب الجند واجب يقره الإسلام، بل يحث عليه، فقد نقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «علموا أبناءكم الرماية والسباحة وركوب الخيل». يقول السبكي:(٤)» وما يعتاده

(١) ديوه جي: نفس المرجع ص (٨٤ - ٨٥).
تاريخ الموصل ص (٤٦ - ٤٤٧).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٤: ص (٦٥٥ - ٦٥٦).
زيدان: م. السابق ص (٦٩٨).
ابن الأثير: التاريخ الباهر ص (٦٨ - ١٦٩).

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ص (١: ٦١٠).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٤٧).

(٣) الديوه جي: ن. المرجع ص (٤٤٦- ٤٤٧). الموصل في العهد الأتابكي ص (٨٤).

(٤) معيد النعم ومبيد النقم ص (٤٧). وعن هذه الألعاب انظر أيضاً، غوستاف: حضارة =

الأمراء في هذا الزمان - من لعب الكرة في الميدان - حلالٌ، وينبغي أن يقصدوا به تعليم الخيل الإقبال والإدبار، والكر والفر».

الصيد البري:

وفي مجال تربية الحيوانات والطيور، وما لها من دور في الرياضة، والترفيه عن النفس نقتبس مما ذكره ابن منقذ الشيزري(١)، لكونه شاهد عيان في مشاهداته لعمليات الصيد التي جرت في عصره في إقليم الجزيرة الفراتية، يقول ابن منقذ: «وكان لعماد الدين زنكي الجوارح الكثيرة، فيتقدم الباز دارية بالبزاة على ضفة الأنهار بالموصل، فعندما يرون الطيور يطلقونها عليها، ثم يدقون الطبول حتى تطير الطيور - وقد جرت العادة بذلك - فتصيد منها، وإذا أخطأت تلك البزاة أطلقوا وراء تلك الطيور الشواهين الكوهية ذات السرعة العجيبة في الطيران، يطلقونها على طيور الحجل» ويضيف فأما صيد الحيوانات الوحشية، أو البرية، فيتم بأن يعملوا حول الحيوانات حلقة أي: يحاصرونها من كل جانب إلى جانب خيامهم. فإذا ما أراد حيوان الخروج من تلك الحلقة رموه بسهم، وكان عماد الدين زنكي نفسه يجيد الرمي بالسهام إجادة تامة، فإذا ما دنا منه الغزال رماه فيقع، ويتم ذبحه» وكان أول غزال يضربه في كل صيد أحضره - ينفذه لي مع غلام من غلمانه، وأنا معه».

وشاهد ابن منقذ الصيد مع عماد الدين زنكي بنصيبين، وبعد أن ضربوا خيامهم، وجمعوا الحيوانات إليها خرج الغلمان عليها بالعصي، والعمد، وضربوا منها شيئاً كثيراً، واجتمع في الحلقة ذئب وغزال، فقفز عليها، فقتله أولئك الغلمان خلال إمساكه بها.

وفي سنجار شاهد عماد الدين وهو يصيد ضبعاً برميها بالنشاب وبها أيضاً

= العرب ص (٣٧١)، فوزي: العراقي في عصور الخلافة ص (٢٣٤ - ٢٣٥).

(١) كتاب الاعتبار ص (١٦٦ - ١٦٨، ١٧٠).

وانظر أيضاً: السبكي: المرجع السابق ص (٣٧).

رأى استخدام حيوان الوشق للصيد كما تستخدم الكلاب السلوقية.

والوشق: حيوان من الفصيلة السنورية يشبه القط، لكنه أكبر منه حجماً، وهو متوحش، ويبدو أنه روض واستخدم أيضاً للصيد. ويستخدم أيضاً الفهد. وأما الأرانب فيطلق عليها الباز فإن فشل صادها الفهد. وأما الغزال فيطلق عليه الفهد فإن فشل صاده الصقر(١).

وأما الصيد بديار بكر، وبالذات في مدينة حصن كيفا - إحدى الإمارات الأرتقية - فيذكر ابن منقذ أنه شاهد الصيد فيها مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود الأرتقي (٥٤٣-٥٦٢هـ/١١٤٨-١١٦٦م)، فيصيدون الحجل والزرخ والدراج التي يكثر وجودها فيها، كما تكثر طيور الماء، ويتم صيد هذه الطيور كما سبق القول بواسطة الباز. وأما صيد الحيوانات فيتم صيدها بواسطة الشباك، التي يمدونها في الأودية، ويطردون إليها الأراوي ومعزى الجبل والأرانب، فتقع في هذه الشباك وكانت توجد بها بكثرة(٢).

أما الحيوانات الأخرى التي يتم صيدها فهي الأسود، والنمور، والضباع، والخنازير، والفهود، والذئاب، والثعالب، والحمير الوحشية(٣).

ويسمى الشخص المسؤول عن أعمال الصيد (أميرشكار)(٤).

---

(١) الشيزري: ابن منقذ: كتاب الاعتبار ص (١٦٧، ١٧٣، ١٧٤).

(٢) نفس المرجع ص (١٧).

(٣) نفس المرجع ص (١٨٦).

(٤) أميرشكار: تتكون من كلمة أمير العربية، وشكار الفارسية بمعنى صيد أي: المسؤول عن كل ما يتعلق بالصيد من: شباك، وطيور، وحيوانات.
انظر: السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص (٣٧).
النويري: نهاية الأرب ص (٢٧).
تعليق أستاذنا المحقق سعيد عاشور نقلا عن صبح الأعشى ص (٣٨٣).
محمد حسنين: قاموس الفارسية ص (٤١٧).
زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٦٩٥: ٦٩٦).
متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٢١٩).

نظام الفتوة:

اشتقت كلمة الفتوة من الكلمة العربية «فتو» على وزن فعول وهي تعني اصطلاحاً: القوة، والشباب من (فتى) للشاب و(الفتاة) للشابة[1]، وفي القرآن الكريم آيات كريمة فيها ذكر لهذا المعنى، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[3]، وقوله جلت قدرته: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[4].

وخلال فترة دراستنا قام الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥م) بإحياء نظام الفتوة، ففي عام (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) أرسل إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا له سراويلها ويكون انتماؤهم إليه ففعلوا ما أمروا به، فانتسب الملوك إليه في رمي البندق، وجعلوه قدوتهم فيه.

وتعرف الفتوة: بأنها نظام اجتماعي إسلامي قديم يعتمد على ما تعتمد عليه الفروسية من آداب وصفات أهمها: الشباب، والقوة، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الكذب، والرحمة باليتيم، وقرى الضيف ومساعدة الضعيف، والإيثار ونشر الإحسان، ومساعدة الإخوان، وبرّ الوالدين، والإحسان إلى من أساء إليه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

وكان للفتوة شروط خاصة يجب لمن أراد الإلتحاق بها أن يتقيد بها،

= حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص (١٧٩).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ص (٤: ٦٥٥).
فوزي: تاريخ العراق في عصور الخلافة ص (٢٣٥).

(١) انظر معاجم اللغة: الرازي: مختار الصحاح وابن منظور: لسان العرب.

(٢) الكهف: آية (١٣).

(٣) الأنبياء: آية (٦٠).

(٤) التوبة: آية (٣٣).

منها: أن يرشحه ويزكيه فتيان آخرون يقرون له بذلك، ثم يحتفل بانضمامه احتفالاً خاصاً، له رسوم معينة، فيحزم بحزام، تعبيراً عن شدة العقد، ويلي ذلك شرب كأس الفتوة التي تحتوي على ماء، وملح ثم لبس سراويل الفتوة[1].

وكان من ممارسات الفتوة رمي البندق. والبندق في اللغة: يرمى به (جمع) والواحدة (بندقة) بضم الباء والدال وتجمع أيضاً: (البنادق)[2]. والبندق: كرات تصنع من الطين، أو الحجارة، أو الرصاص، أو غيرها وقد أحَلَّ الإسلام الصيد بالبندق[3].

وكان للرمي بالبندق - خلال فترة دراستنا - شأن كبير، وكانوا يرمون بالمزاريق، أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخرة الأنبوب.

وكان ممن انتسب إلى هذا النظام حكام إقليم الجزيرة الفراتية ومنهم الأمير ركن الدين إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، حيث أرسل في عام (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) مولاه بشر الخادم مع شخصيتين من رماة البندق، ومعهم طائر قد صرعه الأمير المذكور.

وانتسب إلى شرف الدين إقبال الشرابي فقبل الانتساب، وأمر بتعليقه تجاه باب البدرية، ونثر عليه ألف دينار ثم خلع على الخادم بشر والرامين معه

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ص (١٢: ٤٤٠).
ابن واصل ص (٢٠٦ - ٢٠٧). وفي الهامش محقق الكتاب د. جمال الدين الشيال.
حسين أمين: تاريخ البحوث في العصر السلجوقي ص (١٧٢- ١٧٣).
فوزي، فاروق عمر: تاريخ العراق في عصور الخلافة ص (٢٣٥ - ٢٣٦).
معجم العالم الإسلامي ص (٤٧٥).
(٢) الرازي: مختار الصحاح وأخذت منها البنادق، والبندقية الآلية الحديثة التي كانت ترمي أولاً بالبارود، ثم تطورت إلى ما هي عليه الآن من تقنية حديثة من سرعة الطلقات مع ما تطلقه من عدد هائل من الرمي في الثانية الواحدة.
(٣) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص (١٤٧).

وأعطاهم ثلاثة آلاف دينار[١].

وفي سنة (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) انتسب إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ/ ١٢٢٦-١٢٤٢م)، حيث أرسل إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رسولاً، ومعه مجموعة من الفتيان رماة البندق، فشهدوا بأن الأمير إبراهيم بن بدر الدين لؤلؤ رماه بالبندق، فقبله الخليفة، وعلقه بباب البدرية، ونثر عليه ألف دينار وخلع على الواصلين معه[٢].

رياضة الجري:

ومن أنواع الرياضة المعروفة رياضة الجري التي عرف ممارسوها بالسعاة، وكانت لهم مكانة مرموقة عند كافة طبقات المجتمع، وكانت تقام بينهم مباريات للسباق يشهدها الناس على اختلاف طبقاتهم، ثم تقدم لهم الجوائز والهدايا المختلفة.

ومن السعاة المشهورين خلال القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) معتوق الموصلي المعروف بالكوثر، فكان في طليعة سعاة زمانه، ففي عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م) قطع المسافة الواقعة بين واسط وبغداد في يوم وليلة إلا ساعة واحدة أي في ست وثلاثين ساعة فأجيز بعدة خلع، وأموال من الدولة، والتجار، تتكون من عشرين فرساً وخمسة آلاف وأربعمائة دينار وملابس قدرت بألف وسبعمائة دينار.

وفي عام (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) جرى من دقوقا إلى بغداد، واستقبله الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢- ١٢٥٨م) في خيمة نصبت له - ومعه بعض حاشيته، ومنهم أستاذ داره مشرف الدين إقبال الشرابي، وأنعم عليه

---

(١) الديوه جي: المرجعين السابقين ص (٨٦)، ص (٤٤٨).
ابن الغوطي: الحوادث الجامعة ص (٥٢، ٥٣).

(٢) ابن الغوطي: الحوادث الجامعة ص (٧٥).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٤٧).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٨٦).

الخليفة بخمسمائة دينار، وأعطاه الشرابي ثلاثمائة دينار، كما حصل من التجار على هدايا قيمة. وكان هناك من ينافسه في هذا الميدان، وهو علي بن الإربلي الذي قطع المسافة من دقوقا إلى بغداد في أقل بنصف ساعة، وكان ذلك في عام (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، وكان الخليفة المستعصم، وأولاده، وبعض حاشيته في استقباله في مخيمه فأجازه بفرس من موكبه وخلعة وذهباً. وفي اليوم التالي دار ببغداد بالطبول والبوقات وقدمت له عدة هدايا ثمينة[١].

---

(١) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٤٨).
الديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص (٨٧).

النشاط الاجتماعي

ومن تقاليد أهل إقليم الجزيرة الفراتية التي لم تسجلها المصادر - بوصفهم مجتمعا عربياً إسلامياً - التآخي والتراحم الاجتماعي، فكان أفراد المجتمع يشارك بعضهم البعض في الأفراح سواء بالمشاركة الوجدانية، أو المادية وبالتهنئة لصاحب الفرح.

وكذلك في عيادة المرضى فيقومون بزيارة المريض؛ وإذا ما توفي عند جيرانهم وأصدقائهم أحد قاموا بواجب العزاء، وإذا ما تعرض أحدهم أو بعضهم لكوارث طبيعية كحريق، أو فيضانات، أو غيرها هبوا لمساعدته بالمال.

وكان التجار يغلقون محلاتهم التجارية (الأسواق) إذا ما توفي أحد العلماء، أو أعيان البلاد، تقديراً لذلك المتوفي، ومراعاةً لشعور أهله، وذويه.

كذلك كان أهل السنة يشاركون الشيعة أحزانهم في يوم عاشوراء على الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما)، فيغلق التجار أسواقهم.

وفي الأفراح كان التجار يشاركون الحاكم بمناسبة قدوم مولود جديد له، أو قدومه من السفر، في حين تغلق الأسواق محلاتها عند موت الحاكم، أو أحد أقاربه ويعلق عليها المسوح (السواد)[1].

---

(١) المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٣٣، ١٢٧).

الأعياد والاحتفالات:

وقد عُنِيَ بها أنه اعتاد أهل إقليم الجزيرة الفراتية بالاحتفال بعدة مناسبات. وتأتي المناسبات الدينية في مقدمة تلك الاحتفالات.

الأعياد الدينية:

يأتي عيد الفطر والأضحى في مقدمة الأعياد الدينية التي يحتفل بهما المسلمون بعد أدائهم ركنين هامين من أركان الإسلام أولاهما: صوم شهر رمضان المبارك، وحج بيت الله الحرام، فكانا أول عيدين أقرّهما الإسلام وكانا في العام الثاني للهجرة وذلك؛ أن رسول الله - ﷺ - رأى أهل المدينة يلعبون في يومين، فسألهم عنهما فقالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «إن الله عز وجل قد أبدلكم خيراً منهما يوم الفطر ويوم الأضحى(1)».

ففي عيد الفطر يخرج المقتدرون فطرة الأبدان في ليلة العيد أو قبل الخروج إلى صلاة العيد وفي صبيحتيهما يستحم المسلمون، ويرتدون ملابسهم الجديدة، ثم يذهبون إلى الجوامع أو إلى مصلى العيد لأداء صلاة سنة العيد جماعة، وبعد صلاة عيد الأضحى يقوم المقتدرون بذبح الأضحية - كل حسب قدرته - من جمال، وأبقار، وغنم ويقدم ثلثها للفقراء والمحتاجين.

وفيهما يقومون بتبادل الهدايا من حلوى، ومأكولات أعدت لهاتين المناسبتين، وخلال الثلاثة أيام التي يتم فيها الاحتفال يتبادلون التهاني، والزيارات بين الأهل وذوي الأرحام، والأصدقاء ويخرج خلالها أهل الإقليم إلى المنتزهات، حيث يقوم الشباب والفتيان بممارسة رياضة الفروسية من ألعاب الخيل، وسباق الخيول. ويمارس الفنانون، والمغنون، والموسيقيون فنونهم الجميلة، ويتبارى الشعراء والأدباء في إلقاء الشعر والدوبيت.

---

(1) النويري: نهاية الأرب (1: 184).
معجم العالم الإسلامي ص (461).

أما على المستوى الرسمي فيخرج الملوك، والأمراء، وكبار أعيان دولتهم من قصورهم - وهم في أفخر ملابسهم وأبهى منظر - في موكب حافل جميل ابتهاجاً واحتفالاً بهاتين المناسبتين السعيدتين[1].

فيتلقى الملك التهاني من أعيان البلاد، في حين يستقبل أهل البلاد الموكب بالفرح والأغاني[2].

الاحتفال بحلول شهر رمضان المبارك:

يحيي المسلمون لياليه المباركة حكاماً، ورعيةً، وذلك بتلاوة القرآن الكريم، وسماع مجالس الوعظ والإرشاد، وحضور حلقات الذكر التي يقيمها الصوفية في المساجد، وبصلاتي التراويح والتهجد، بينما يقضون نهاره صائمين.

ويكثر فيه الموسرون من حكام وتجار من توزيع الصدقات على الفقراء، والمحتاجين اقتداء بسنة رسول الله - ﷺ - وتضاء المساجد، والجوامع بالشموع والقناديل[3].

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٤٣ - ٦٤٤).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢١٩ - ٢٢٠).
غوستاف: حضارة العرب ص (٤٢١).
معجم العالم الإسلامي ص (٤٦١).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٤٩).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢٨٩).
فوزي: تاريخ العراق في عصور الخلافة ص (٢٤٧- ٢٤٨).
(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٠).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٤٣).
(٣) فوزي: تاريخ العراق في عصور الخلافة ص (٢٤٧).
حضارة العراق ص (٥: ٩٥).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٥٠).

الاحتفال بموسم الحج:

يبدأ الإستعداد لموسم الحج برحيل الحجيج إلى بيت الله الحرام، والمدينة المنورة منذ شهر ذي القعدة، حيث تتحرك قوافلهم من ديارهم - بحفظ الله وسلامته - إلى الديار المقدسة، ويخرج أهلهم، وذووهم، وأصدقاؤهم لتوديعهم إلى خارج بلدتهم، ويدعون لهم بسلامة الوصول، وبالحج المقبول المبرور، وبالعودة إلى وطنهم سالمين غانمين.

أما الاحتفال بفرح عودتهم إلى أرض الوطن فقد كان كبيراً وحافلاً حيث يخرج المستقبلون رجالاً، ونساءً، وصغاراً، وكباراً.

وفي الموصل يخرج هؤلاء المستقبلون وعلى رأسهم الملك، ورجال حاشيته من أمراء، وغيرهم ممتطين خيولهم التي زينت هي والجمال - التي تنقل الحجاج - بالحرير، والوشي، وعلقت عليها قلائد الذهب والفضة، فيدخل الموكب الموصل بالتهليل والتكبير يتقدمهم العلماء، وأصحاب الطرق الصوفية[1].

وقد نقل لنا ابن جبير بصفته شاهد عيان صورة استقبال السيدة خاتون أم عز الدين مسعود الأول بن قطب الدين مودود (٥٧٦ - ٥٨٩هـ/ ١١٨٠ - ١١٩٣م) والذي تمّ في عام (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) - فقال: «فخرج الناس عن بكرة أبيهم ركباناً ومشاة، وخرجت النساء كذلك وأكثرهن راكبات، وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته، فدخل الحجاج المواصلة بصحبة خاتونهم على احتفال وابهة قد جللوا أعناق إبلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد

---

(١) الديوه جي: م. السابق ص (٤٥٠).
الموصل في العهد الأتابكي ص (٨١).
حضارة العراق ص (٥: ٩٦).
الجميلي: دولة الأتابكة في الموصل ص (٢٩٠ - ٢٩١).
فوزي: المرجع السابق ص (٢٤٧).
حسن إبراهيم: م. السابق ص (٦٤٩).

المزوقة[1].

ويصف حفاوة الاستقبال من قبل أولئك المستقبلين الذين يطوفون بالسيدة خاتون التي غطت غالبية قبتها سبائك مصوغة على شكل أهلة، ودنانير على قدر سعة الكف، وسلاسل وتماثيل بديعة الصنع، وكانت مطيتاها تسيران بها ببطء، وصخب تلك الحليّ يسد المسامع، وكانت أعناق مطاياها مجللة بالذهب، وكذلك مراكب جواريها «وكان مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره، وكان مشهداً أبهت الأبصار[2]»؟

وعلى العموم يحتفل بالحجيج قبل رحيلهم إلى الديار المقدسة، حيث تقام الأفراح في منازلهم، وعند عودتهم تحيا الليالي الملاح، وتضرب الطبول، وتنفخ الأبواق على أبواب منازلهم[3].

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

عُنِيَ أهل إقليم الجزيرة الفراتية بإحياء ذكرى المولد النبوي الشريف وأعطوه أهميةً كبيرةً؛ فيستعدون له استعداداً خاصاً، فيزينون بيوتهم وأسواقهم للاحتفال به.

وفي ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول التي تصادف مولده - ﷺ - يقوم الملوك، والأمراء، والأثرياء بتوزيع الحلوى، والهدايا على عامة الناس - خاصة الفقراء منهم - ثم يجتمعون في الجوامع حيث يستمعون إلى قراءة السيرة النبوية الشريفة، والموشحات الدينية، ويلقي الشعراء قصائدهم الدينية التي تتناول هذه المناسبة العطرة.

وممن احتفل بهذه المناسبة الكريمة الشيخ عمر بن محمد المعروف بالملا، وكان يحرص على إقامة هذا الاحتفال كل عام، يحضره أتابك

---

(١) رحلة ابن جبير ص (١٦٩).

(٢) رحلة ابن جبير ص (١٦٩)، الموصلي: تاريخ الموصل (١: ٢١٣).

(٣) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٥).

الموصل المعاصر له، وأمراء دولته، والعلماء، والفقهاء، وأتباع الطرق الصوفية، وكثير من أهل الموصل على اختلاف طبقاتهم. وتقدم في هذا الاحتفال مختلف الأطعمة فيجيز القائمين به ويمنح الهدايا والمنح للعلماء، وللصوفية، والفقراء[١].

وكان مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري بن زين الدين علي كوجك التركماني ملك إربل أكثر من يحتفل بالمولد النبوي الشريف احتفالاً كبيراً يدعو إليه كثيراً من الناس من داخل إربل، وخارجها كبغداد، والموصل، وبقية المدن المجاورة لها. ومن هؤلاء الناس: الفقهاء، والعلماء، والأدباء، والصوفية، وكثير من عامة الناس من الفقراء ورجال حاشيته وكان يستعد له من شهر محرم، حيث تقام القباب الخشبية الجميلة المزينة بمختلف الألوان والتي يصل عددها إلى عشرين قبة أو أكثر، كل قبة تتكون من أربع إلى خمس طبقات تقام في أول شهر صفر بميدان المدينة، ويجمع بها القراء، والمنشدين، وأصحاب الخيال، والملاهي، والمغنين. وكان ينزل عصر كل يوم لتفقد ذلك الاحتفال، ويحرص على زيارة كل قبة من تلك القباب.

وقبل المولد بيومين تخرج الإبل، والبقر، والغنم المراد ذبحها، وتزف بالطبول والمغاني إلى مكان الحفل حيث تذبح، ويعد الطعام من مختلف الأنواع[٢] ويقوم مظفر الدين بتفقد الموائد - خاصة تلك المقدمة للفقراء - ويستمع لما يلقى في تلك القباب من سيرة الرسول - صل الله عليه وسلم - من شعر، وموشحات، وزجل، وذلك من الظهر حتى فجر تلك الليلة، وفي صبيحة هذا اليوم يقوم باستعراض الجيش وكان فعلاً من الأيام المشهودة في إربل. ثم يقدم الهدايا إلى العلماء والقراء والمتصوفة والشعراء وغيرهم،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ص (١٢: ٢٦٣).
تاريخ ابن الفرات (١: ١١٤).
الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٤٩)، الموصل في العهد الأتابكي ص (٨٠).

(٢) كان يمد في سماط المولد خمسة آلاف رأس مشوي، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف زبدية، وثلاثين ألف صحن حلوى.

ويخلع عليهم الخلع الجليلة وصنف له الشيخ أبو الخطاب ابن الدحية كتاباً في المولد النبوي الشريف سماه «التنوير في مولد النذير» فأجازه عليه بألف دينار. ويذكر ابن كثير أن مبلغ ما يصرفه كل سنة على هذا الاحتفال الباهر ثلاثمائة ألف دينار(١).

وقد انعكس التنافس السياسي بين مظفر الدين كوكبوري وبين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على الاحتفالات الدينية، فعند احتفال مظفر الدين بالمولد النبوي الشريف احتفل بدر الدين لؤلؤ بعيد الشعانين - ويعني «التسبيح» - يحتفل به النصارى عادةً في سابع أحد من صومهم ويخرجون فيه من الكنيسة حاملين سعف النخيل أو أغصان الزيتون. فيقدم الخمور ويحضر إلى دعوته المغنين وأصحاب الملاهي وينثر عليهم الدراهم، وكذلك يحتفل بعيد الغدير الذي يحتفل به الشيعة كل سنة(٢).

أعياد النصارى:

وكان لهم أربعة عشر عيداً، سبعة منها كبار والباقية صغار.

الكبار: منها البشارة: يعنون به بشارة جبريل (عليه السلام) مريم (عليها السلام) بميلاد النبي عيسى (عليه السلام) وذلك في ٢٩ من «برمهات» من شهور القبط.

---

(١) عن الموضوع انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان (٤: ١١٧، ١١٨).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ٢٩٠.
ابن كثير: البداية والنهاية (١٣: ١٣٦ - ١٣٧).
ألذهبي: العبر في خبر من غبر (٣: ٢٠٨)، متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٢٥٠).
ديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٤٩).
دائرة المعارف الإسلامية (١: ٥٧١).
زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٦٨٦).

(٢) الديوه جي: تاريخ الموصل ص (٤٥٠).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٤٤).

الزيتونة: وهو عيد الشعانين الذي سبق الحديث عنه.

الفصح: وهو العيد الكبير عندهم، وكان يوافق عيد الفصح عند اليهود ثم خالفوهم فيه وجعلوه يوم الأحد.

خميس الأربعين: وهو الذي يسميه الشاميون «السلاق» ويصادف اليوم الثاني والأربعين من فطرهم.

عيد الميلاد: وهو اليوم الذي ولد فيه السيد المسيح (عليه السلام) ويكون عشية الأحد ٢٩من (كيهك) من شهور القبط، ويصادف ٢٥من شهر ديسمبر عند الصنارى.

ويحتفل النصارى بأعيادهم هذه في معابدهم من كنائس وأديرة للرهبان المنتشرة في أرجاء كثيرة من الإقليم، وكان المسلمون يذهبون إليهم ليهنئوهم ويشاركوهم أفراحهم.

ولليهود أعياد خمسة يحتفلون بها في أوقات متفرقة من السنة[١].

الأفراح والاحتفالات العائلية:

كاحتفالات الزواج والأعراس، وهي تمر بثلاث مراحل: مرحلة الخطوبة، وعقد القران أو الزواج، ويوم الزفاف. ويتوسع أستاذنا سعيد عبد الفتاح عاشور في ذكر تفاصيل ذلك الاحتفال ابتداءً من دور الخاطبة في إتمام مهمة البحث عن عروسة مناسبة لذلك العريس الراغب في الزواج، ثم يفوض شخص ليقوم بمهمة الخطبة نيابة عن ولي أمر العريس حتى يتم الإتفاق بين الأسرتين[٢].

---

(١) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ص (٣٥٧، ٣٦١).
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص (٣٧٠ - ٣٧٢).
حضارة العراق (٥: ٩٨).
المطيعي: رحلتي إلى شمال العراق ص (١٦١ - ١٩٠).
متز: الحضارة الإسلامية (٢: ٢٣٦) النويري: نهاية الأرب (١: ١٩١ - ١٩٧).

(٢) بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٣)، غوستاف: حضارة العرب ص =

عقد القران:

تتراوح خطبة عقد الزواج بين الطول والقصر حسب مكانة صاحب العقد أي العريس، ويعقد الزواج إما في قصور الملوك والأمراء لأفراد الطبقة الحاكمة أو في مجلس القبيلة. وغالباً ما يتم في المساجد طلباً للبركة ولحضور عدد كبير من المدعويين. وتحضر المباخر لحرق البخور الجيدة والعطور الطيبة، ثم ينصرف المدعون في حفل كبير، ومنذ ذلك اليوم تقام الرقصات والدبكات والأغاني قبل عدة أيام من الزفاف[1].

حفل الزفاف أي انتقال العروسة إلى عش الزوجية:

في هذا اليوم كما مرّ بنا - يذهب كل من العريس وعروسته إلى الحمام الموجود في تلك المدينة أو القرية أو إلى نبع القرية ممتطياً جواده مع أقاربه وأصدقائه، والعروس كذلك مع قريباتها وصديقاتها، وذلك من أجل التزين.

وفي هذا اليوم يتم نقل جهاز العروس الذي يتفق مع مكانة أصحاب العرس ومكانتهم الاجتماعية وثرائهم، ففي أفراح الحكام يحمل الجهاز على الدواب من خيول وبغال وجمال أو على ظهور الحمالين إن كانت المسافة قريبة.

أما إذا كان الفرح عند عامة الناس فينقله الأقارب والأصحاب وفي ليلة الزفاف تقام وليمة كبيرة أيضاً حسب مكانة العريس الاجتماعية، فإذا كان من أفراد الطبقة الحاكمة والأثرياء كبر الاحتفال وكثر المدعوون أما إذا كان من عامة الناس ومتوسطي الحال كانت الوليمة للأهل والأصدقاء، وتقام وليمتان،إحداهما في بيت العريس، وتكون للرجال والثانية للنساء في بيت العروس وقد تقام حفلة واحدة للرجال والنساء في بيت العريس[2]، وهو

= (٣٦٧). مجلة العربي الكويتية العدد (٤٠٦) سبتمبر (١٩٩٢م).

(١) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٣).
غوستاف: حضارة العرب ص (٣٦٧). زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي (٥: ٦٨٧).

(٢) سعيد عاشور: م. السابق ص (٢٢٣، ٢٢٤)، غوستاف: م. السابق ص (٣٦٧). =

المعمول به غالباً حيث تقدم الولائم العامرة للمدعوين والمهنئين والمشاركين بحفل الزفاف ثم يخرج العريس إلى بيت العروس في موكب يحف به الأهل والأصدقاء وبوصله إلى منزل العروس يبدأ حفل الزفاف الذي يتضمن الغناء والموسيقى وضرب الدفوف والرقص مع زغاريد النساء ثم تنقل العروس إذا كانت من مسافة يصعب قطعها مشياً بالأقدام على ظهر دابة خيل أو بغلة أو ناقة وتكون في داخل هودج مزين بزخارف وفرش جميلة، وعند دخول العريس إلى عروسته يلقي على رأسها حفنة من التراب تعبيراً عن الرابطة المقدسة التي تربط بينهما(١).

قدوم مولود جديد:

الإحتفال بقدوم طفل جديد يعتبر من الأفراح الخاصة التي يحتفل بها أهل البيت وإنما يشاركهم الآخرون في التهنئة بقدوم هذا المولود الجديد خاصة إذا كان المولود ذكراً.

وغالباً ما تقوم النساء وحدهن بهذا الاحتفال فيزغردن ويغنين مع ضرب الدفوف والرقص في حين تدق المزامير والأبواق على باب المنزل السعيد ويقيم والد المولود وليمة بهذه المناسبة السعيدة يحضرها الأهل والأصدقاء ويستمر قدوم المهنئين لمدة سبعة أيام وفي اليوم السابع السبوع - واتباعاً للسنة النبوية - يذبح الوالد ذبيحة أو أكثر حسب مقدرته المالية. وفي هذا اليوم يقدم

= مجلة العربي العدد (٤٠٦) سبتمبر ١٩٩٢، استطلاع عن مدينة رأس العين الفراتية (السورية حالياً). المطبعي: رحلتي إلى شمال العرق ص (٢٠٣، ٢٠٤)، حضارة العراق (٥: ١٠٠).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٥١).

(١) عاشور: بحث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٤٤).
غوستاف: حضارة العرب ص (٣٦٧).
المطبعي: رحلتي إلى شمال العراق ص (٢٠٤).
مجلة العربي العدد (٤٠٦)، سبتمبر ١٩٩٢م.

النساء التهنئة للأم لمناسبة وعافيتها فتغتسل وتلبس الثياب الجديدة وتطوف بأنحاء المنزل تحيط بها مجموعة من النساء يحملن الشموع من كل جانب بينما تسير القابلة أمامها حاملة الطفل وتسير أمام القابلة امرأة تحمل طبقاً به مخلوط من الملح والحبوب تنشره يميناً ويساراً مع إحراق البخور، اعتقاداً منهم بإبعاد الحسد والجان، ولم يعترض الفقهاء على هذه العادة(١).

الإحتفال بختان الأولاد:

يعتبر الاحتفال بختان الأولاد من الاحتفالات العامة، وإذا كان الختان لأحد أبناء الحاكم أو الأعيان كان الاحتفال كبيراً، وينادى في البلاد «من أراد أن يختن ولده مجاناً فليحضره» لتعم الفرحة في تلك المدينة ويدعى فيها عدد كبير من أهل البلاد.

أما إذا كان من أفراد عامة الناس والفئات الأخرى فيدعى إلى هذا الحفل سائر الأهل والأصدقاء، ومن كان في طبقتهم في تلك المدينة. ويكون عمر الصبي عند الختان بين السنة السادسة إلى السابعة.

وفي يوم الختان يركب الطفل المختون - وهو مرتد أفخر الثياب - حصاناً مجهزاً بأثمن عدة ويحيط به أولاد آخرون مرتدين ثياباً مثله، ويتقدم ذلك الموكب الحلاق الذي يختن ذلك الطفل، ويسير مع الموكب المغنون وضاربو الدفوف والموسيقى، وتتلقى النساء الموكب بالزغاريد بين فينة وأخرى حتى يصل الموكب إلى المسجد الذي أعد لهذه المناسبة حيث أنير بالشموع.

وبعد ذلك يعود الموكب إلى منزل الصبي ليتناول الناس الطعام المعد لهم، ثم يبدأ الغناء ودق الطبول والموسيقى، وفي أثنائها يختن الحلاق الصبي حتى لا يظهر صياحه وتألمه، ثم يقوم المدعوون بوضع النقود (النقوط) في الطست الذي وضع فيه الصبي.

---

(١) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٥).

ويقضي كثير من المدعوين ليلتهم بالغناء والأكل والشرب ويرحل من أراد الرحيل منهم[١].

الإحتفال بالمناسبات العامة:

جرت العادة بالاحتفال بعيد النيروز (رأس السنة الفارسية الجديدة) التي تصادف ٢١ من شهر آذار (مارس) ويعتبر هذا التاريخ هو أيضاً بداية فصل الربيع، وذلك تأثراً بالحضارة الفارسية.

ويحتفل بعيد النيروز من قبل رجال الدولة وعامة الناس، وتقام فيه الولائم الكبيرة الفاخرة التي يكثر بها اللهو والشراب وتبادل الهدايا من الفواكه الجيدة والزهور والورود الجميلة الفواحة. وتزين المجالس بالزهور والرياحين ذات الألوان الجذابة والرائحة الطيبة[٢].

عيد المهرجان:

يحتفل به في السادس والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) من شهور السريان الذي يصادف منتصف فصل الخريف من كل عام، وهو الإنقلاب الشتوي، فتضرب الأبواق والطبول ويعلقون الزينة ويتبادلون التهاني خاصة الشعراء حيث يستغلون هذه المناسبة لمدح الملوك وكبار رجال الدولة. ومن هذا اليوم يقوم الناس بتغيير فرشهم وملابسهم استعداداً لفصل الشتاء[٣].

---

(١) سعيد عاشور: م. السابق ص (٢٢٥).
غوستاف: حضارة العرب ص (٣٦٦)، حضارة العراق: ص (٥: ١٠١).

(٢) النويري: نهاية الأرب (١: ١٨٥ - ١٩٠).
حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (٤: ٦٤٤).
سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته ص (٢٢٠).
حضارة العراق: ص (٩٧، ٩٨).
الحاني: الحضارة العربية - صور عباسية، نشر المكتبة العصرية بيروت ص (٤٤).

(٣) النويري: م. السابق ص (١٨٥ - ١٩٠)، حضارة العراق (٥: ٩٧).

وهناك احتفالات تقام لكنها وقتية وليست دورية، ومنها:

انتصار الحاكم على أعدائه، أو بتوليه الحكم لأول مرة، أو شفائه من مرض ألم به. وتزين هذه الإحتفالات بمختلف أنواع الزينة وتقام الولائم الفاخرة في قصر الملك الذي يقوم بتوزيع الهدايا والخلع على المهنئين.

وتضاء الأسواق بالشموع والقناديل ليلاً وتقام حلقات الرقص والغناء ودق الدفوف التي تختلط بزغاريد النساء[١].

---

(١) سعيد عاشور: م. السابق ص (٢٢٠).
المسري: تجارة العراق في العصر العباسي ص (١٣١).

الخلاصة

* يعتبر إقليم الجزيرة الفراتية ثالث منطقة في العالم تضم أراضيه أماكن مقدسة - بعد الحجاز وفلسطين - وذلك وفقاً للروايات المنقولة، ففيه يقع جبل الجودي الذي رست عليه سفينة سيدنا نوح (عليه السلام).

* وقرية الثمانين التي أقام فيها (بعد الطوفان) أولئك الذين كانوا مع سيدنا نوح (عليه السلام) في السفينة بعد انحسار الطوفان.

* يوجد بتل التوبة بمدينة نينوى القديمة الواقعة على ضفة نهر دجلة، ومقابلة لمدينة الموصل - ضريح يونس (عليه السلام) وبجانبه العين المباركة، وكان بعث إليهم فكذبوه ثم تابوا.

* ومدينة حران التي أقام فيها سيدنا إبراهيم الخليل (عليه السلام) وزوجته سارة عند عبوره إلى فلسطين، وله بها مقام كان يتعبد فيه.

* تعتبر مدينة الرها من أكثر المدن في العالم الإسلامي اكتظاظاً بالكنائس، حيث يوجد بها أكثر من ثلاثمائة كنيسة حتى إنه: يقال إن بها كنيسة مقابل كنيسة القيامة في فلسطين من حيث البناء والقدم.

* ظهر من أبناء الإقليم وملوكه أبطال قادوا حركة الجهاد الإسلامي (طيلة فترة دراستنا) ضد السيطرة الصليبية على الأراضي المقدسة في فلسطين وغيرها من الأراضي الإسلامية بإقليم الجزيرة نفسه فضلاً عن الشام، وتحققت على أيديهم آمال الأمة الإسلامية، وكان من أشهرهم: عماد الدين زنكي وابنه

نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي.

* أنجب هذا الإقليم أعداداً هائلة من العلماء الأفذاذ بلغ عددهم المئات في شتى المجالات العلمية والأدبية، وكانت منهم أسر بكاملها علماء، كأسرة بني الأثير، وبني يونس، وأبناء خلكان وأبناء مهاجر، وغيرهم.

* تميز الإقليم بارتقاء الآداب والعلوم والفنون، فاشتهر بفن الدوبيت وهو نوع من أنواع الأدب الفني الشعبي الجزيري الفصيح. كما اشتهر بذيوع فن الخيال وهو بداية النشاط الفني التمثيلي المسرحي المبكر الذي وضع أصوله بمصر ابن دانيال الموصلي.

* ظهر في هذا الإقليم بعض العلماء المخترعين والذين كان لهم فضلٌ على تقدم التطبيق العملي لعلم الميكانيكا (الحيل).

* كان من أبناء الإقليم من له الفضل في الإرتقاء بعلم التاريخ والتراجم، كعز الدين ابن الأثير صاحب «الكامل في التاريخ» وهو الكتاب الذي سعى بعلم التاريخ خطوات جبارة، وابن خلكان صاحب كتاب «وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان» الذي نهض بفنّ تدوين التراجم العامة.

* ظهور مجموعة من أبناء الإقليم كان لهم دور في تقدم صناعة التحف المعدنية الرائعة التي كانت مدرسة الموصل نموذجاً يحتذى به في هذا المجال، وفي صناعة النسيج الذي انتشر صيته في عالم العصور الوسطى باسم الموسليني.

* الإقليم من الناحية الإقتصادية وبموقعه الجغرافي الفذ، مما جعله مركزاً تجارياً مرموقاً بين الشرق والغرب، فضلاً عن وفرة ثروته الطبيعية.

* وفي هذه الدراسة ألقينا الضوء على كل هذه الجوانب وغيرها في حدود حقبة زمنية ضيقة. وجاءت الدراسة متممة لما قبلها من دراسات، لكنها امتازت فشملت غالبية إقليم الجزيرة الفراتية خلال قرنين من الزمان لعب فيهما هذا الإقليم دوراً حضارياً مهماً وكبيراً.

ونرجو أن تكون هذه الدراسة قد غطت جميع النواحي الحضارية

الأخرى من اقتصادية وثقافية واجتماعية. ويبقى أن نقول: إننا بذلنا غاية جهدنا، والكمال لله وحده سبحانه وتعالى.

تمت الرسالة ولله الحمد والمنة على توفيقه وعونه

ملخص الرسالة

الأوضاع الحضارية في إقليم الجزيرة الفراتية في القرنين السادس والسابع الهجريين

(الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)

رسالة دكتوراه مقدمة من عبد الله بن ناصر بن سليمان الحارثي

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تتناول الأوضاع الحضارية في إقليم الجزيرة الفراتية الذي شهد خلال هذين القرنين نشاطاً حضارياً واسعاً، شمل الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، واستمر في ذلك العطاء الحضاري حتى تعرض لغزو التتار في قرابة منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

وتناولت الدراسة - في مقدمتها - التحديد الجغرافي لإقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة الدراسة، والموقع وأثره في تكييف تاريخ الإقليم، والموارد الاقتصادية وأهم مراكز العمران والمدن الأساسية فيه، وأهمية القرنين المذكورين بالنسبة للإقليم.

وفي **الفصل الأول**: تناولت الدراسة الأوضاع السياسية في إقليم الجزيرة الفراتية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) وتطرقت للحديث عن انكماش نفوذ الخلفاء العباسيين وهيمنة السلاطين السلاجقة في الإقليم وإلى قيام الإمارات الأرتقية والأتابكيات الزنكية على أرضه، وعلاقاتها مع القوى الأخرى. كما تعرضت الدراسة للغزو الصليبي وأثره على الإقليم، وإلى ذكر البيت الزنكي ودوره على مسرح الأحداث. وأخيراً تناولتِ الدراسة الغزوَ التتري للإقليم.

وقد خصصت **الفصل الثاني** للحديث عن النشاط الاقتصادي في إقليم الجزيرة الفراتية، فتناولت الدراسة النشاط الزراعي، وما يرتبط بالبيئة الزراعية من حرف وأعمال.

وأما النشاط الصناعي، فقد تناولت الدراسة أهم الصناعات والفنون التي اشتهر بها إقليم الجزيرة الفراتية خلال فترة الدراسة. وتطرقت الدراسة إلى الحديث عن التجارة والعوامل المساعدة على ازدهارها، كالطرق التجارية، ووسائل النقل، والأسواق والسلع المتبادلة، والنظم التجارية. كما تناولت الدراسة أثر التقلبات السياسية على الأوضاع الاقتصادية.

أما **الفصل الثالث**، فتحدثتُ فيه عن النشاط الثقافي والحياة العلمية والدينية، وتناولت الدراسة علوم اللغة والأدب وغيرها من العلوم النقلية والعقلية، وأعطيت نبذة عن أشهر علمائها، وأهم مؤلفاتهم، وعن دورهم في الحياة العلمية والعملية.

ثم تطرقتِ الدراسةُ إلى الحديث عن المؤسسات العلمية من مدارس وربط وعن حياة المدرسين وطلاب العلم.

وبحث **الفصل الرابع** الحياة الاجتماعية، فتطرق إلى عناصر السكان، وإلى طبقات المجتمع الجزري، وإلى وضع المرأة ونشاطها في المجتمع، وإلى الرعاية الاجتماعية التي شملت المؤسسات الاجتماعية والدينية والعلمية والتجارية.

كما تناولت الدراسة الأديان والعقائد (الإسلام - المذاهب الإسلامية - الطرق الصوفية وشيوخها، الديانة النصرانية، الديانة اليهودية).

كذلك تناولت الدراسة العادات والتقاليد السائدة في المجتمع الجزري خلال فترة الدراسة. وأخيراً، تطرقت الدراسة إلى الحديث عن الأعياد والاحتفالات التي كان يحتفل بها أهل هذا الإقليم: من مسلمين ونصارى ويهود.

وألحقت بآخر الدراسة قوائم أسماء الخلفاء العباسيين، والسلاطين السلاجقة، والأمراء الأراتقة والأتابكة الزنكيين، وفترات حكمهم خلال فترة

الدراسة، وخرائط توضيحية لإقليم الجزيرة الفراتية وللإمارات والأتابكيات التي قامت على أرضه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الملاحق

الملاحق

أولاً- الخلفاء العباسيون خلال فترة الدراسة:

١ - المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢هـ/ ١٠٩٤- ١١١٨م)

٢ - المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩هـ/١١١٨ - ١١٣٥م)

٣ - الراشد (٥٢٩ - ٥٣٠هـ/ ١١٣٥ - ١١٣٦م)

٤ - المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥هـ/١١٣٦ - ١١٦٠م)

٥ - المستنجد بالله (٥٥٥- ٥٦٦هـ/ ١٦٠ - ١١٧٠م).

٦ - المستضيء بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥هـ/ ١١٧٠ - ١١٨٠)

٧ - الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ - ١٢٢٥م)

٨ - الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣هـ/ ١٢٢٥ - ١٢٢٦م)

٩ - المستنصر بالله (٦٢٣- ٦٤٠هـ/١٢٢٦ - ١٢٤٢م)

١٠ - المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ/ ١٢٤٢ - ١٢٥٨م)

ثانياً- السلاطين السلاجقة الكبار خلال فترة الدراسة:

١ - محمد بن ملكشاه (٤٩٨- ٥١١هـ/ ١١٠٤ - ١١١٧م)

٢ - سنجر بن ملكشاه (٥١١ - ٥٢٥هـ/ ١١١٧ - ١١٣١)

ثالثاً - سلاجقة العراق، وإقليم الجزيرة الفراتية:

١ - محمود بن محمد ملكشاه (٥١١ - ٥٢٥هـ/ ١١١٧- ١١٣١م)

٢ - داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٥ - ٥٢٦هـ/ ١١٣١- ١١٣٢م)

٣ - طغرل الثاني بن محمد بن ملكشاه (٥٢٦ - ٥٢٧هـ/ ١١٣٢ - ١١٣٣م)

٤ - مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٧ - ٥٤٧هـ/ ١١٣٣ - ١١٥٢م)

٥ - ملكشاه بن محمود بن محمد (٥٤٧ - ٥٤٨هـ/ ١١٥٢ - ١١٥٣م)

٦ - محمد بن محمود بن محمد (٥٤٨ - ٥٥٤هـ/ ١١٥٣ - ١١٥٩م)

٧ - سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه (٥٥٤ - ٥٥٦هـ/ ١١٥٩- ١٢٦١م)

٨ - أرسلان شاه بن طغرل بن محمد (٥٥٦ - ٥٧٣هـ/ ١٢٦١ - ١١٧٧م)

٩ - طغرل الثالث بن أرسلان شاه (٥٧٣ - ٥٩٠هـ/ ١١٧٧ - ١١٩٤م)

- ويعلق الفتح البنداري بقول: «واستولى السلطان خوارزمشاه على البلاد وختمت الدولة السلجوقية بطغرل، وكان افتتاحها بطغرل».

- وبعد خضوع أتابكية الموصل الزنكية لصلاح الدين الأيوبي في أوائل شهر ذي الحجة سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م قطعت الخطبة لسلاطين السلاجقة وخطب لصلاح الدين الأيوبي.

رابعاً- الأتابكيات الزنكية في إقليم الجزيرة الفراتية:

١ - **أتابكية الموصل (٥٢١ - ٦٣١هـ/ ١١٢٧ - ١٢٣٤م)**

١ - عماد الدين زنكي بن أقسنقر (٥٢١ - ٥٤١هـ/ ١١٢٧ - ١١٤٦م)

٢ - سيف الدين غازي الأول (٥٤١ - ٥٤٤هـ/ ١١٤٦- ١١٤٩م)

٣ - قطب الدين مودود بن زنكي (٥٤٤ - ٥٦٥هـ/ ١١٤٩ - ١١٦٩م)

٤ - سيف الدين غازي الثاني بن مودود (٥٦٥ - ٥٧٦هـ/ ١١٦٩-١١٨٠م)

٥ - عز الدين مسعود الأول (٥٧٦ - ٥٨٩هـ/ ١١٨٠ - ١١٩٣م)

٦ - نور الدين أرسلان شاه الأول (٥٨٩ - ٦٠٧هـ/ ١١٩٣ - ١٢٠١م)

٧ - الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني (٦٠٧ - ٦١٥هـ/ ١٢١٠ - ١٢١٨م)

٨ - نور الدين ألاسن شاه الثاني (٦١٥- ٦١٦هـ/ ١٢١٨ - ١٢١٩م)

٩ - ناصر الدين محمود بن القاهر (٦١٦ - ٦٣١هـ/ ١٢١٩ - ١٢٣٣م)

١٠ - بدر الدين لؤلؤ (٦٣١ - ٦٥٧هـ/ ١٢٣٣ - ١٢٥٩م)

١١ - إسماعيل بن لؤلؤ (٦٥٧ - ٦٦٠هـ/ ١٢٥٩ - ١٢٦٢م)

وقضى عليها التتار في سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)

٢ - **أتابكية سنجار (٥٦٦ - ٦١٧هـ/ ١١٧٠ - ١٢٢٠م)**

١ - عماد الدين زنكي بن مودود (٥٦٦ - ٥٩٤هـ/ ١١٧٠ - ١١٩٧م)

٢ - قطب الدين محمد (٥٩٤ - ٦١٦هـ/ ١١٩٧ - ١٢١٩م)

٣ - عماد الدين شاهنشاه (٦١٦هـ/ ١٢١٩م)

٤ - محمود بن شاهنشاه (٦١٦- ٦١٧هـ/ ١٢١٩ - ١٢٢٠م)

قضى عليها الأيوبيون حيث استولى عليها الملك الأشرف بن العادل الأيوبي سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) ثم استولى عليها التتار في سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)

٣ - **أتابكية جزيرة ابن عمر (٥٧٦ - ٦٤٨هـ/ ١١٨٠- ١٢٥٠م)**

١ - معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي الثاني (٥٧٦ - ٦٠٥هـ/ ١١٨٠ - ١٢٠٨م)

٢ - معز الدين محمود بن سنجر شاه (٦٠٥ - ٦٤٨هـ/ ١٢٠٨ - ١٢٥٠م)

٣ - مسعود بن محمود (٦٤٨- ٦٤٩هـ/ ١٢٥٠- ١٢٥١م)

استولى عليها بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في عام (٦٤٩هـ/ ١٢٥٠م)

٤ - بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (٦٤٩ - ٦٥٧هـ/ ١٢٥١- ١٢٥٩م)

٥ - سيف الدين إسحاق بن بدر الدين لؤلؤ (٦٥٨-٦٥٩هـ/ ١٢٦٠- ١٢٦١م).

استولى عليها التتار سنداغو الذي ولى عليها رجلاً نصرانياً هو «حنا نيشوع» المعروف بمرحسيا وبقيت في حكم التتار حتى نهاية دراستنا.

٤ - **أتابكية إربل تحت حكم آل بكتكين الأتراك (٥٦٣ - ٦٣٠هـ/ ١١٦٧ - ١٢٣٢م) وكانت في بداية أمرها تابعة لأتابكة الموصل الزنكية ثم انفصلت عنها:**

١ - زين الدين على كوجك بن بكتكين (٥٦٣هـ/ ١١٦٧م)

٢ - زين الدين علي كوجك بن علي (٥٦٣ - ٥٨٦هـ/ ١١٦٧ - ١١٩٠م)

٣ - مظفر الدين كوكبوري بن علي (٥٨٦ - ٦٣٠هـ/ ١١٩٠ - ١٢٣٢م)

استولى عليها الخلفاء العباسيون ثم التتار.

خامساً- الإمارات الأرتقية بديار بكر:

أ - إمارة حصن كيفا (٤٩٥ - ٦٢٩هـ/ ١١٠١- ١٢٣١م):

١ - معين الدولة سقمان الأول (٤٩٥ - ٤٩٨هـ/ ١١٠١ - ١١٠٤م)

٢ - إبراهيم بن سقمان (٤٩٨ - ٥٠٢هـ/ ١١٠٤ - ١١٠٨م)

٣ - ركن الدولة داود بن إبراهيم (٥٠٢- ٥٤٣هـ/ ١١٠٨ - ١١٤٨م)

٤ - فخر الدين قرا أرسلان (٥٤٣ - ٥٦٢هـ/ ١١٤٨ - ١١٦٦م)

٥ - نور الدين محمود (٥٦٢ - ٥٨١هـ/ ١١٦٦ - ١١٨٥م)

٦ - قطب الدين سقمان الثاني (٥٨١ - ٥٩٧هـ/ ١١٨٥ - ١٢٠٠م)

٧ - ناصر الدين محمود (٥٩٧ - ٦١٩هـ/ ١٢٠٠ - ١٢٢٢م)

٨ - ركن الدين مودود (٦١٩ - ٦٢٩هـ/ ١٢٢٢- ١٢٣١م)

تابع / الإمارات الأرتقية:

ب - إمارة ماردين (٥٠٢ - ٨١١هـ/١١٠٨ - ١٤٠٨م)

١ - نجم الدين إيلغازي بن سقمان (٥٠٢ - ٥١٦هـ/١١٠٨- ١١٢٢م)

٢ - حسام الدين تمرتاش (٥١٦ - ٥٤٧هـ/١١٢٢ - ١١٥٢م)

٣ - نجم الدين ألبي (٥٤٧ - ٥٧٢هـ/١١٥٢ - ١١٧٦م)

٤ - قطب الدين إيلغازي (٥٧٢ - ٥٨٠هـ/١١٧٦ - ١١٨٤م)

٥ - حسام الدين بولق - أرسلان (٥٨٠ - ٥٩٧هـ/١١٨٤ - ١٢٠٠م)

٦ - ناصر الدين أرتق - أرسلان المنصور (٥٩٧ - ٦٣٧هـ/١٢٠٠ - ١٢٣٩م)

٧ - نجم الدين غازي الأول السعيد (٦٣٧ - ٦٥٨هـ/١٢٣٩ - ١٢٦٠م)

٨ - قرا أرسلان المظفر (٦٥٨ - ٦٩١هـ/١٢٦٠ - ١٢٩٢م)

٩ - شمس الدين داود (٦٩١ - ٦٩٣هـ/١٢٩٢ - ١٢٩٤م)

١٠ - نجم الدين غازي الثاني المنصور (٦٩٣ - ٧١٢هـ/١٢٩٤ - ١٣١٢م)

نكتفي بهؤلاء الأمراء الأراتقة المعاصرين لفترة دراستنا

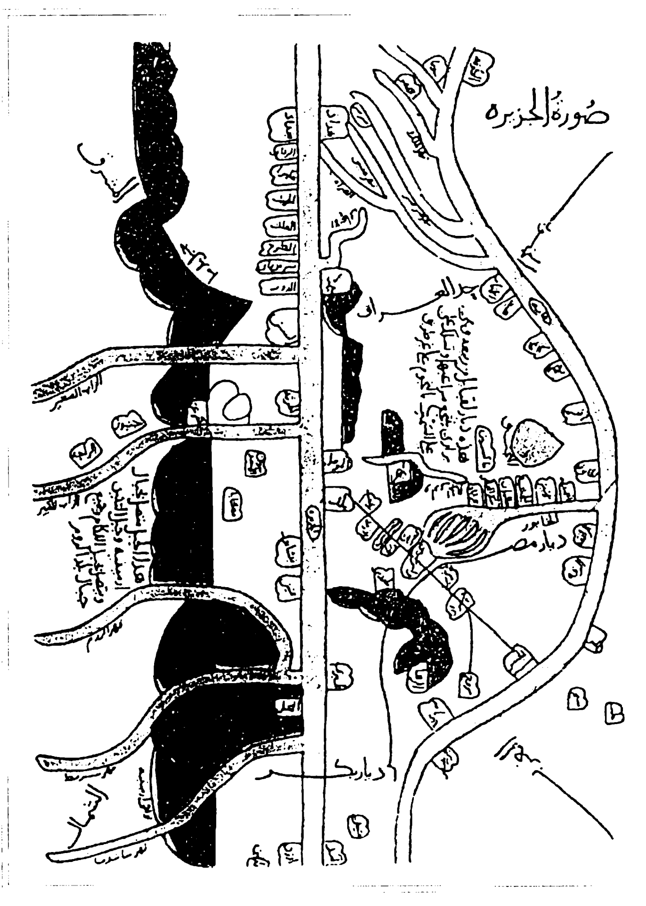
ج - إمارة خرتبرت (٥٨١ - ٦٦٠هـ/١١٨٥ - ١٢٦١م):

١ - عماد الدين أبو بكر قرا أرسلان (٥٨١ - ٦٠٠هـ/١١٨٥ - ١٢٠٣م)

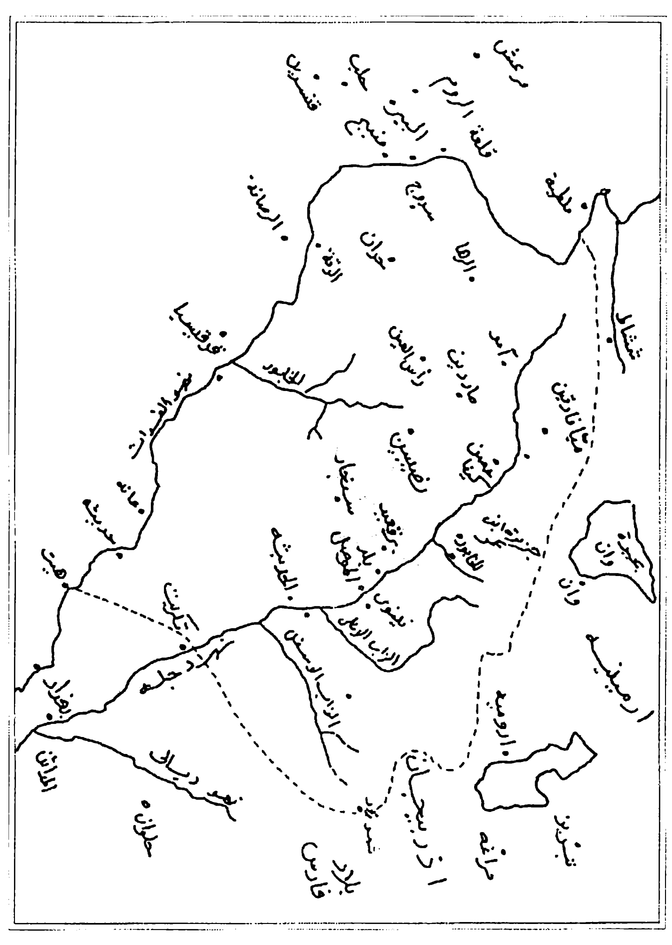
٢ - نظام الدين إبراهيم (٦٠٠ - ٦٣١ هـ/١٢٠٣ - ١٢٣٣م)

٣ - الخضر بن إبراهيم (٦٣١ - ٦٦٠هـ/١٢٣٣- ١٢٦١م)

٤ - نور الدين أرتق شاه، الملك المعز بن الخضر (٦٦٠هـ/١٢٦١م)



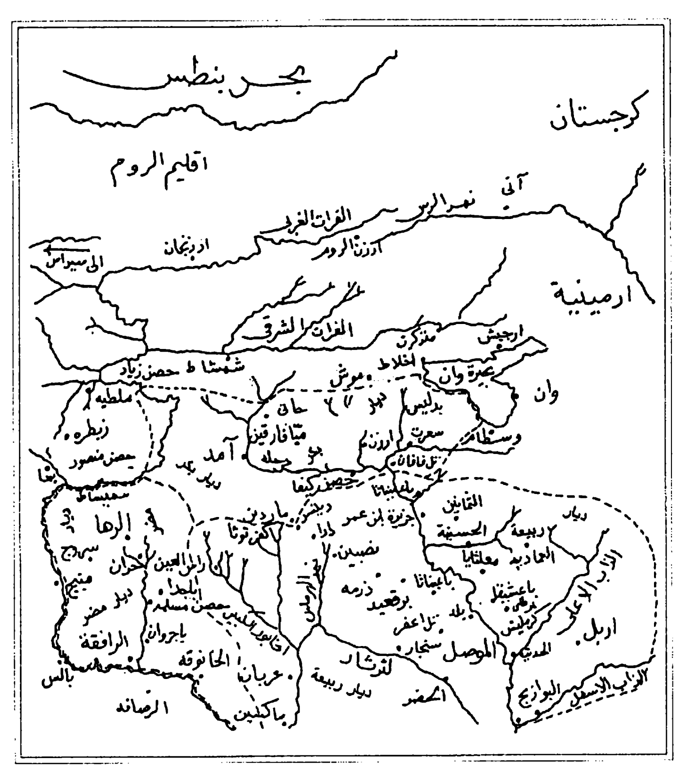
من كتاب «صورة الأرض» لابن حوقل



التحديد الجغرافي لإقليم الجزيرة الفراتية



صورة من كتاب، المسالك والممالك للاصطخري



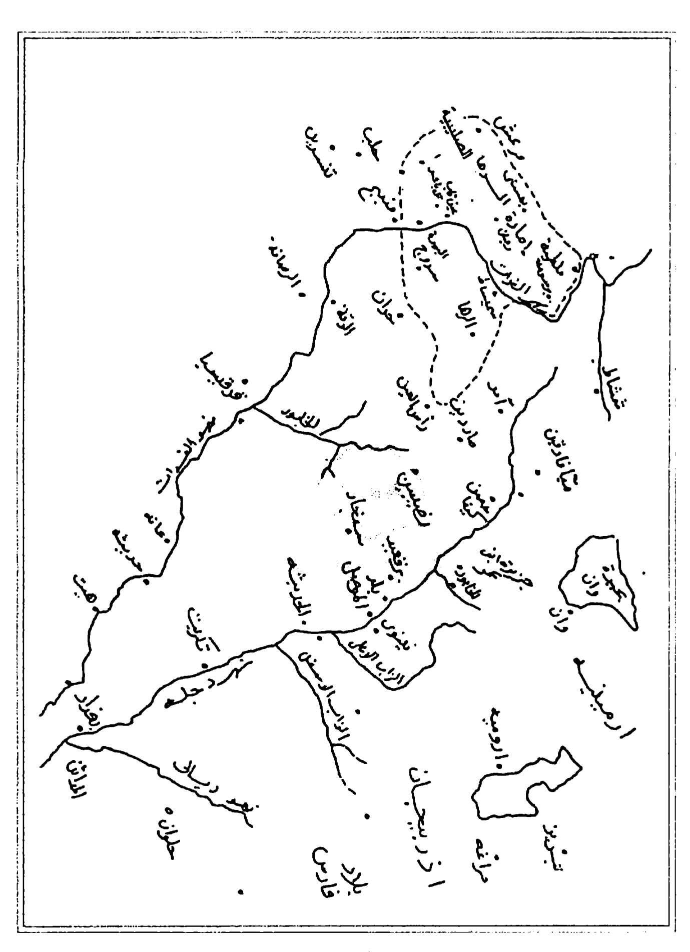
خارطة رقم (٢)

التقسيم القبلي القديم لإقليم الجزيرة الفراتية



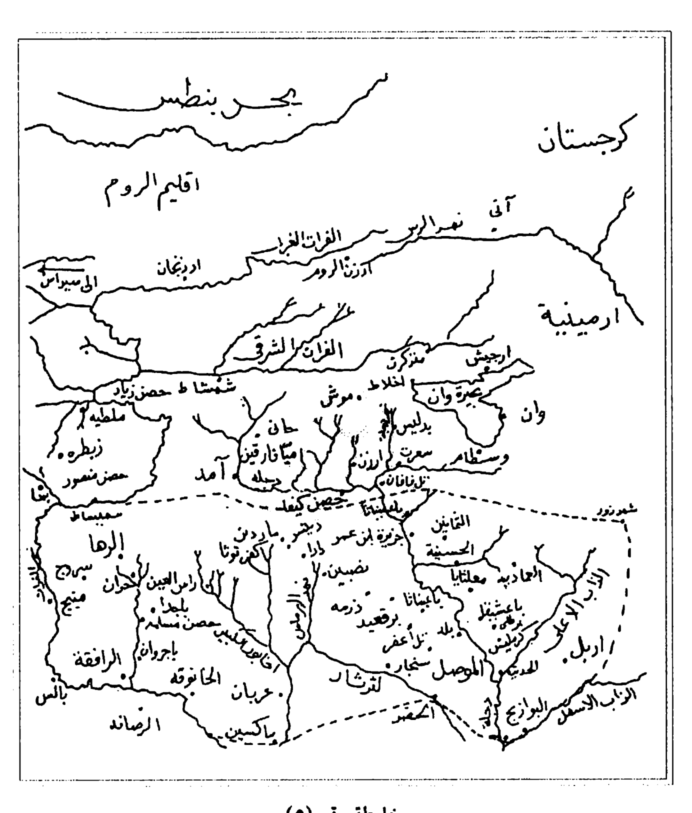
خارطة رقم (٣)

الإمارات الأرتقية قبل عهد عماد الدين زنكي



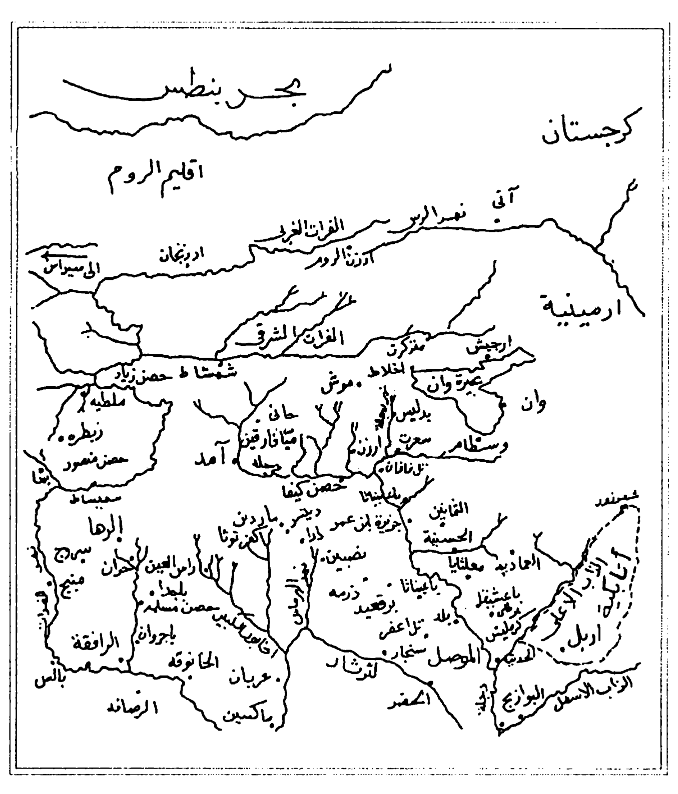
خارطة رقم (٤)

إمارة الرها الصليبية



خارطة رقم (٥)

أتابكية الموصل منذ عهد عماد الدين زنكي إلى عهد ابنه قطب الدين مودود



خارطة رقم (٦)

أتابكية أربل (٥٦٣ - ٦٣٠هـ/١١٦٧- ١٢٣٢م)

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية المطبوعة:

أ - القرآن الكريم.

ب - الحديث الشريف.

ج - المؤلفات.

١ - ابن أبي أصيبعة: أحمد القاسم السعدي الخزرجي (ت٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م):

٢ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء - دار الثقافة - بيروت ط (٤) ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٣ - ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م):

٤ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل. تحقيق عبد القادر أحمد طليمات - نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد.

٥ - الكامل في التاريخ: دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٦ - اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر بيروت / بدون تاريخ.

٧ - ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):
٨ - رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمطار وعجائب الأسفار، نشر دار الكتاب اللبناني بيروت - بدون تاريخ.
٩ - ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م):
١٠ - الدليل الشافي على المنهل الصافي - تحقيق محمد شلتوت، نشر جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية.
١١ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق د. محمد محمد أمين، تقديم د. سعيد عبد الفتاح عاشور، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م.
١٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. نسخة مصر عن طبعة دار الكتب المصرية نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة بدون تاريخ.
١٣ - ابن جبير أبو الحسين محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ):
١٤ - رحلة ابن جبير - دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة - بيروت بدون تاريخ.
١٥ - ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ):
١٦ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. دراسة وتحقيق للأخوين محمد ومصطفى عبد القادر. راجعة وصححه نعيم زرزور. نشر دار الكتب العلمية بيروت ط (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م):
١٧ - ابن حوقل، أبو القاسم محمد الموصلي، النصيبي (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٢م):
١٨ - كتاب صورة الأرض - نشر مكتبة الحياة - بيروت ١٩٧٩م.
١٩ - ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (توفي حوالي ٣٠٠هـ/ ٩١٢م):
٢٠ - المسالك والممالك، يليه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي

الفرج قدامة محمد بن جعفر الكاتب البغدادي ت (٣٢٠هـ) نشر مكتبة المثنى، بغداد.
٢١ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد المغربي (٨٣٠هـ):
٢٢ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة بيروت ١٩٨٣م.
٢٣ - مقدمة ابن خلدون.
٢٤ - ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):
٢٥ - وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان (٨ أجزاء) تحقيق د. إحساس عباس، دار صادر بيروت، بدون تاريخ.
٢٦ - ابن خياط أحمد الموصلي (ت١٢٨٥هـ):
٢٧ - ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء - تحقيق الديوه جي. مطبعة الجمهورية، الموصل (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م).
٢٨ - ابن رجب: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الدمشقي الحنبلي (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م).
٢٩ - كتاب الذيل على طبقات الحنابلة (جزآن) دار المعرفة بيروت. بدون تاريخ.
٣٠ - ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن، يوسف بن رافع (٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م):
٣١ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال (ط الأولى ١٩٦٤م).
٣٢ - ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)
٣٣ - الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبادة، نشر وزارة الثقافة السورية دمشق، ١٩٩١م.
٣٤ - ابن المطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م):

٣٥ - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

٣٦ - ابن العبري: أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م).

٣٧ - تاريخ مختصر الدول، تحقيق الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبنانية بيروت (ت١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

٣٨ - ابن العديم: أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م):

٣٩ - زبدة الحلب من تاريخ حلب. تحقيق سامي الدهان (٣ أجزاء) نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق.

٤٠ - ابن العماد: عبد الحي الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م):

٤١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ أجزاء) تحقيق لجنة إحياء التراث العربي دار الآفاق الجديدة، بيروت بدون تاريخ.

٤٢ - ابن الفرات: ناصر الدين محمد عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م) (الأجزاء ٤-٩).

٤٣ - تاريخ ابن الفرات. تحقيق د. حسن محمد الشماع. جامعة بغداد، بدون تاريخ.

٤٤ - ابن الفوطي: أبو الفضل عبد الرازق (ت٧٢٣هـ):

٤٥ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث، بيروت بدون تاريخ.

٤٦ - ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م):

٤٧ - ذيل تاريخ دمشق وبه نخب من تواريخ ابن الأرزق والفارقي وسبط ابن الجوزي والحافظ الذهبي - نشر مكتبة المثنى، القاهرة، بدون تاريخ.

٤٨ - ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):
٤٩ - البداية والنهاية (١٤ جزءاً) مكتبة المعارف بيروت - ط ٥ ،٦سنة (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥).
٥٠ - ابن المستوفي: شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي الإربلي (ت٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م):
٥١ - تاريخ إربل المسمى نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل تحقيق سامي بن السيد خماس الصقار. المكتبة الوطنية بغداد ١٩٨٠م.
٥٢ - ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم:
٥٣ - لسان العرب، دار الفكر، ودار بيروت بدون تاريخ.
٥٤ - ابن منقذ: مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة الشيزري (ت٥٨٤هـ):
٥٥ - كتاب الاعتبار - مراجعة حسن الزيني دار الفكر الحديث، بيروت (ت١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)
٥٦ - ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ):
٥٧ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٥ أجزاء) تحقيق د. جمال الدين الشيال، بدون تاريخ ومكان الطبع.
٥٨ - أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٧):
٥٩ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين. تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري والسيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط٢- ١٩٧٤م.
٦٠ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (الجزء الأول والثاني) دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
٦١ - عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تحقيق أحمد البيسومي وزارة الثقافة السورية، دمشق (١٩٩١، ١٩٩٢م).

٦٢ - أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن محمد ملك حماة (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):
٦٣ - تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
٦٤ - المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ أبي الفداء (٤ مجلدات).
٦٥ - الإربلي: عبد الرحمن سنبط قنيتو (٧١٧هـ/ ١٣١٧م):
٦٦ - خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، تصحيح مكي السيد جاسم. نشر مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٤م
٦٧ - الإصطخري: إبراهيم بن محمد الفارس الكرخي (ت٣٤٦هـ).
٦٨ - المسالك والممالك. تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة شفيق غربال. دار القلم القاهرة (١٣٨١هـ/ ١٩٦١م)
البكري: أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م):
٦٩ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت ط٣ - ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٧٠ - البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م):
٧١ - فتوح البلدان: مكتبة الهلال، ط١ -١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٧٢ - البنداري: الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني (ت٦٤٣هـ/ ١٣٤٥م):
٧٣ - اختصار تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي بدار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣ - ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٧٤ - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م):
٧٥ - البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة ط٥ - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٧٦ - الجزري: محمد بن علي (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م):
٧٧ - غاية النهاية في طبقات القراء نشر. ج. برجستراسر. دار الكتب العلمية، بيروت ط٣ - ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٧٨ - الجواليقي: أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر (ت٥٤٠هـ/ ١١٤٥م).
٧٩ - المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق أبي الأشبال: أحمد محمد شاكر. دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦١هـ.
٨٠ - حاجي خليفة: مصطفى عبد الله القسطنطيني الحنفي (ت١٠٦٧هـ):
٨١ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٦ مجلدات) دار الفكر ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م بيروت.
٨٢ - الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ):
٨٣ - الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر. مراجعة د. جمال الدين الشيال، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ.
٨٤ - الذهبي: شمس الدين بن أحمد التركماني الفارقي (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):
٨٥ - العبر في خبر من غبر (٤ أجزاء) تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب بيروت ط١ - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٨٦ - الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر:
٨٧ - مختار الصحاح. نشر داري الفيحاء والإيمان، بيروت ودمشق، بدون تاريخ.
٨٨ - الزبيدي: محمد مرتضى الواسطي.
٨٩ - تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق إبراهيم الترزي، مراجعة عبد الستار أحمد فراج، الكويت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
٩٠ - سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤م):
٩١ - الجزء الثامن من مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - القسم الأول والثاني، دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد، الهند، ط ١(١٣٧٠، ١٣٧١هـ/ ١٩٥١، ١٩٥٢م).

٩٢ - السبكي: تاج الدين عبد الوهاب (ت٧٧١هـ):
٩٣ - معيد النعم ومبيد النقم. دار الحداثة بيروت ط٢ - ١٩٨٥م.
٩٤ - السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ):
٩٥ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (جزآن). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٩٦ - الشيزري: عبد الرحمن بن نصر:
٩٧ - كتابة نهاية الرتبة في طلب الحسبة. تحقيق د. الباز العريني، دار الثقافة، بيروت ط ٢- ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٩٨ - الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ/ ١٢٦٣):
٩٩ - كتاب الوافي بالوفيات اعتناء س. ديدرينغ. دار شتاينر فيسبادن ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م
١٠٠ - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م):
١٠١ - تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري) مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت ط١ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
١٠٢ - العماد الكاتب: محمد بن محمد عماد الدين الأصفهاني (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م): خريرة القصر وجريدة العصر. تحقيق محمد بهجة الأثري. وزارة الإعلام العراقية بغداد ١٩٧٦م.
١٠٣ - العيني: بدر الدين محمود (ت٨٥٥هـ/ ١٤٥١م):
١٠٤ - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. تحقيق د. محمد محمد أمين (٤ مجلدات) الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٤٠٧هـ ١٤١٢هـ - ١٩٨٧، ١٩٩٢م).
١٠٥ - الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ):
١٠٦ - إحياء علوم الدين وبذيله عدة كتب. نشر دار الحديث. بدون تاريخ ومكان الطبع.

١٠٧ - الفارقي: أحمد بن يوسف بن الأزرق (ت حوالي ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م):
١٠٨ - تاريخ الفارقي (الدولة المروانية) تحقيق د. بدوي عبد اللطيف عوض. دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٤م.
١٠٩ - القرماني: أحمد بن يوسف (ت١٠١٩هـ/ ١٦١٠م):
١١٠ - أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ. تحقيق: أحمد حفيظ ود. فهمي سعد، عالم الكتب. بيروت ١ ط ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
١١١ - القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م):
١١٢ - آثار البلاد وأخبار العباد. نشر دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
١١٣ - القلقشندي: أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م):
١١٤ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. شرح محمد حسين شمس الدين. نشر دار الكتب العلمية بيروت ط ١- ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١١٥ - نهاية الأرب في أنساب العرب - نفس الدار ط١ - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
١١٦ - الكتبي: محمد شاكر بن أحمد (٧٦٥هـ/ ١٣٦٢م):
١١٧ - فوات الوفيات والذيل عليها. تحقيق د. إحسان عباس. دار صادر - بيروت ١٩٧٣م.
١١٨ - المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ):
١١٩ - نسب عدنان وقحطان. تحقيق عبد العزيز الميمني. الدوحة/ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
١٢٠ - المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):
١٢١ - مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. دار المعرفة - بيروت - بدون تاريخ.
١٢٢ - المقدسي: أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م):

١٢٣ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق د. محمد مخزوم. دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

١٢٤ - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٥٤هـ/١٤٤٢م).

١٢٥ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة. دار الحكمة ط٢ بدون تاريخ.

١٢٦ - النعيمي: الدمشقي عبد القادر بن محمد (ت٩٢٧هـ):

١٢٧ - الدارس في تاريخ المدارس (جزآن). تحقيق جعفر الحسيني. مكتبة الثقافة الدينية - دمشق ١٩٨٨.

١٢٨ - النوري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ):

١٢٩ - نهاية الأرب في فنون الأدب (٣١جزء). وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة.

١٣٠ - الهمذاني: الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٥م):

١٣١ - صفة جزيرة العرب. تحقيق محمد بن علي الأكوع. بيروت ط٣-١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٣٢ - اليافعي: عبد الله بن سعد بن علي (ت٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م):

١٣٣ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة ط٢-١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٣٤ - ياقوت الحموي: ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م):

١٣٥ - معجم الأدباء. تحقيق د. أحمد فريد رفاعي. دار المستشرق - بيروت، بدون تاريخ.

١٣٦ - معجم البلدان (٥ أجزاء) دار صادر- بيروت - بدون تاريخ.

١٣٧ - اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م):

١٣٨ - تاريخ اليعقوبي: دار بيروت - بيروت ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

١٣٩ - اليونيني: قطب الدين بن محمد بن أحمد (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م):
١٤٠ - ذيل مرآة الزمان (٤ أجزاء) نشر دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ثانياً: المراجع الحديثة:

١٤١ - أحمد شلبي (دكتور): موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٢م.
١٤٢ - التربية والتعليم في الفكر الإسلامي. النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٧م.
١٤٣ - أحمد عبد الرازق (دكتور).
١٤٤ - الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (جزآن) دار الفكر العربي - القاهرة ط الأول (١٩٩٠- ١٩٩١م).
١٤٥ - الألوسي: السيد محمود شكري البغدادي:
١٤٦ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. تصحيح محمد بهجت الأثري. دار الشرق العربي - بيروت - بدون تاريخ.
١٤٧ - بدري، محمد فهد (دكتور):
١٤٨ - تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥٥٢ - ٦٥٦هـ/ ١١٥٧ - ١٢٥٨م). جامعة بغداد ١٩٧٣م.
١٤٩ - الجميلي: رشيد: جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي بيروت د. ت.
١٥٠ - دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي (٥٤١- ٦٣١هـ). دار النهضة العربية - بيروت - ط١ (١٩٧٠م).
١٥١ - الجنزوري، علية عبد السميع (دكتورة) السياسية والأوضاع الاقتصادية دراسة تاريخية الحارثي، عبد الله بن ناصر: عمان في عهد بني نبهان الأحوال مركز الدراسات العمانية جامعة السلطان قابوس مسقط ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).

١٥٢ - إمارة الرها الصليبية (١٩٨٦م)

١٥٣ - الحاني، ناصر (دكتور):

١٥٤ - في الحضارة العربية، صور عباسية. المكتبة العصرية - بيروت.

١٥٥ - حسن إبراهيم حسن (دكتور):

١٥٦ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. الجزء الرابع. مكتبة النهضة المصرية القاهرة - ١٩٨٢م.

١٥٧ - حسن علي إبراهيم:

١٥٨ - النظم الإسلامية: مكتبة النهضة الإسلامية - القاهرة.

١٥٩ - حسنين، عبد النعيم محمد (دكتور):

١٦٠ - إيران والعراق في العصر السلجوقي - دار الكتب الإسلامية ودار الثقافة - القاهرة ط٢ (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

١٦١ - حسين أمين (دكتور).

١٦٢ - تاريخ العراق في العصر السلجوقي - المكتبة الأهلية - بغداد ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

١٦٣ - حمدي، حافظ أحمد (دكتور):

١٦٤ - الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي. دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٥٠م.

١٦٥ - حميدة، عبد الرحمن (دكتور):

١٦٦ - جغرافية الوطن العربي. دار الفكر ببيروت ودمشق - ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٦٧ - خليل، عماد الدين:

١٦٨ - الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٦٥ - ٨١٢هـ/ ١٠٧٢-١٤٠٩م). مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

١٦٩ - عماد الدين زنكي - الدار العلمية ودار العلم - بيروت - بدون تاريخ.

١٧٠ - دحلان، السيد أحمد بن زيني (ت١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م):
الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية - مؤسسة الحلبي وشركاه القاهرة (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م).

١٧١ - الديوه جي، سعيد:

١٧٢ - أعلام الصناع المواصلة. وزارة التربية والتعليم العراقية- ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٧٣ - الموصل في العهد الأتابكي. نشر وزارة المعارف العراقية - بغداد (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م).

١٧٤ - تاريخ الموصل. المجمع العلمي العراقي والمكتبة الوطنية. بغداد ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٧٥ - الزركلي: الأعلام.

١٧٦ - الزهراني، محمد بن مسفر بن حسين (دكتور):

١٧٧ - نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية (٤٤٧ -٥٩٠هـ). مؤسسة الرسالة ط ١ - بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

١٧٨ - زيادة، نقولا (دكتور):

١٧٩ - الجغرافية والرحلات عند العرب - دار الكتاب اللبناني والمصري. بيروت ١٩٦٢م.

١٨٠ - سعاد ماهر محمد (دكتورة):

١٨١ - كتاب الفنون الإسلامية- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة (١٩٨٦م).

١٨٢ - سعد زغلول عبد الحميد:

١٨٣ - العمارة والفنون في دولة الإسلام. منشأة المعارف. الإسكندرية (١٩٨٦م).

١٨٤ - سعيد عاشور (دكتور):

١٨٥ - الحركة الصليبية. مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ط٥ (١٩٩٣م).
١٨٦ - بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته - عالم الكتب - القاهرة ط١(١٩٨٧م).
١٨٧ - السماك، محمد أزهر سعيد (دكتور) وآخران:
١٨٨ - العراق، دراسة إقليمية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في العراق ١٩٨٥م.
١٨٩ - السويدي، محمد أمين البغدادي.
١٩٠ - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب. دار القلم - بيروت.
١٩١ - سويلم، أحمد:
١٩٢ - عظماء أغفلهم التاريخ. الدار المصرية اللبنانية ط١ (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
١٩٣ - الشهر ستاني، محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ):
١٩٤ - الملل والنحل. تحقيق محمد سيد كيلاني - دار صعب - بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
١٩٥ - صبحي الصالح (دكتور):
١٩٦ - النظم الإسلامية نشأتها وتطورها - دار العلم للملايين ط٢ - ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
١٩٧ - طرخان، إبراهيم علي (دكتور):
١٩٨ - النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى. دار الكاتب العربي القاهرة (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).
١٩٩ - غندور، محمد يوسف (دكتور).
٢٠٠ - تاريخ جزيرة ابن عمر منذ تأسيسها وحتى الفتح العثماني (٢٠٠- ٩٢٠هـ/ ٨١٥ - ١٥١٥م) دار الفكر اللبناني - بيروت ط١ (١٩٩٠م).
٢٠١ - الفقي، عصام عبد الرؤوف (دكتور):

٢٠٢ - بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي - دار الفكر العربي - بدون تاريخ.

٢٠٣ - فوزي فاروق عمر (دكتور):

٢٠٤ - تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الإسلامية (٦٢٢هـ - ١٢٥٨م) مكتبة النهضة بغداد ط١ - ١٩٨٨.

٢٠٥ - كحالة عمر: العالم الإسلامي:

٢٠٦ - معجم قبائل العرب القديمة والحديثة - مؤسسة الرسالة ط٥ (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٢٠٧ - معجم المؤلفين. دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ.

٢٠٨ - ماجد عبد المنعم:

٢٠٩ - تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى القاهرة ط٣ - ١٩٧٣م.

٣٠٠ - المسرى، حسين علي.

٣٠١ - تجارة العراق في العصر العباسي. جامعة الكويت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٣٠٢ - المطبعي حميد.

٣٠٣ - رحلتي إلى شمال العراق. نشر الأمانة العامة للثقافة للحكم الذاتي في منطقة كردستان (١٩٨٦م).

٣٠٤ - المغبري، عبد الرحمن بن حمد زيد:

٣٠٥ - نسب القبائل العربية. دار المدني - جدة - بدون تاريخ.

٣٠٦ - الموصلي: القس سليمان صائغ:

٣٠٧ - تاريخ الموصل - المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م.

٣٠٨ - ناجي عبد الجبار (دكتور):

٣٠٩ - دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية. جامعة البصرة (١٩٨٦م).

ثالثاً: مراجع حديثة معربة:

٤٠٠ - استانلي بول: - الدول الإسلامية - القسم الأول - ترجمه إلى التركية: بارتولد وخليل أدهم، وإلى العربية محمد صبحي فرزات. نشر مكتب الدراسات الإسلامية دمشق.

نفس المؤلف:

٤٠١ - طبقات سلاطين الإسلام. نشر الدار العالمية ط١- ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤٠٢ - نسيمان، ستيفن تاريخ الحروب الصليبية (٣ أجزاء) ترجمه للعربية د. السيد الباز العريني ط٣ - ١٤١٣هـ/١٩٩٣م القاهرة.

٤٠٣ - ديماند. م. س: الفنون الإسلامية - ترجمة محمد عيسى مراجعة د. أحمد فكري.

٤٠٤ - سيديو، ل. أ. تاريخ العرب العام - دار المعارف القاهرة ط٣ - ١٩٨٢م.

٤٠٥ - ترجمة عادل زعيتر. نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه ط٢ - ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩.

٤٠٦ - الصرفي، رزق الله منقريوس:

٤٠٧ - تاريخ دول الإسلام - الدار العالمية ط١ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤٠٨ - غوستاف، لوبون (د): حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر - الحلبي وشركاه القاهرة - بدون تاريخ.

٤٠٩ - فيليب حتى (د): تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. ترجمة د. كمال اليازجي مراجعة.

٤١٠ - جبرائيل جبور. دار الثقافة بيروت ١٩٥٩م.

٤١١ - لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد مؤسسة الرسالة - بيروت ط٢ - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٤١٢ - ماركوبولو (ت١٣٢٤م): رحلات ماركوبولو - ترجمها إلى

الإنجليزية ونشرها وليم مارسدن، وإلى العربية: عبد العزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٧م.
٤١٣ - متز آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة.

رابعاً: المعاجم والموسوعات الحديثة

٤١٤ - إبراهيم أنيس وآخرون - المعجم الوسيط. بدون تاريخ.
٤١٥ - وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة بيروت ط٣ بدون تاريخ.
٤١٦ - دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية المستشرقون. ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتاوي ود. عبد الحميد يونس. دار الشعب بدون تاريخ.
٤١٧ - المنجد في اللغة والأعلام بيروت ط٢٧.
٤١٨ - الموسوعة العربية الميسرة بيروت (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
٤١٩ - كلوسي كريزروفارنرديم وجورج ماير:
٤٢٠ - معجم العالم الإسلامي. ترجمة (ج. دكتورة). نشر المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط١ (١١٤١١هـ/١٩٩١م).

خامساً: الندوات والدراسات والبحوث:

٤٢١ - مجموعة من الأساتذة والباحثين العراقيين:
٤٢٢ - دراسات في تاريخ العراق وحضارته (المدينة والحياة المدنية) (الجزء الثاني) بغداد ١٩٨٨م.
٤٢٣ - حضارة العراق: الأجزاء ٥، ٧، ٨، ٩ نشر دار الحرية - بغداد ١٩٨٥م.
٤٢٤ - العراق في التاريخ - بغداد، دار الفكر، ١٩٨٣م.

٤٢٥ - العالم بين يديك. خلاصات أهم الكتب والأبحاث الدولية ذات العلاقة بالعالم العربي السنة الثانية العدد ٢١. ندوة المشكلات المائية في الوطن العربي.

٤٢٦ - الفنون الإسلامية المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة. أعمال الندوة المنعقدة في استانبول أبريل ١٩٨٣م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول. دار الفكر دمشق ط١ ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٤٢٧ - مشروع جنوب شرق الأناضول (غاب) عن السدود المقامة على نهري دجلة والفرات.

سادساً: المجلات والدوريات:

٤٢٨ - سومر (مجلة علمية تبحث في آثار الوطن العربي وتاريخه مج ٣٠ (ج-١، ٢) تصدرها مديرية الآثار العامة - العراق - بغداد ١٩٧٤م.

٤٢٩ - المؤرخ العربي. مجلة فصلية تاريخية تصدر عن الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب - العدد (٤٠) سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م والعدد (٤٨) سنة ١٩، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٤٣٠ - المورد: مجلة تراثية فصلية مج ١٢- العدد الرابع ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٤٣١ - مجلة العربي الكويتية - العددان (٤٠٤) يوليو ١٩٩٢ - (٤٠٦) سبتمبر ١٩٩٢.

٤٣٢ - مجلة الفيصل السعودية العدد (١٨٠) ج ٢(١٤١٢هـ).

سابعاً: الصحف اليومية:

٤٣٣ - جريدة عمان (العمانية)، وصحيفة الأخبار المصرية، وغيرها من وسائل الإعلام المختلفة.

فهرس المحتويات